

١٧١

الحمد لله

في تفسير القرآن الكريم

المجلد الثاني

تأليف

الأستاذ محمد الحكيم شيخ ططاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بجزائه آمين

المجلد الثاني

طبع مطبعة

مصطفى السباعي الحسيني وأولاده بمصر

والتحقيق لمصطفى السباعي

وباشترطه محمد أمين عمران

محرم سنة ١٣٤٨ هـ

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص وهي مكية

(إلا من قوله - وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين - الى قوله - إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين - فديسة ، وآية - وما كنت ترجوا أن يلقى اليك الكتاب إلا راحة من ربك فلان تكونن ظهيرا للكافرين - فبالجحفة أثناء الهجرة وآياتها ٨٨ نزلت بعد النمل)

ولأقدم قبل تفسير السورة مقدمات ثلاثا قد كنت كتبتهما في كتابي ﴿ النظام والاسلام ﴾ وفي كتابي ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وقد كانت تدرج في جريدة المؤيد وغيرها قبل وضعها في الكتاب ، تلك المقدمات ذات علاقة بالقصص القرآنية المذكورة في هذه السورة وغيرها

﴿ المقدمة الأولى • نموذج في فهم كيفية قصص القرآن ﴾
(التربية والآداب في قصص القرآن)

طال الأمر على أمتنا فأهملت مافي غضون كتبها من أساس التربية والحكمة وكيف تنفق الرجال الأكفاء في مهام الأعمال ، ياليت شعري ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها وأهملت أمرها وظن أهلها انها أمورتاريخية لانفيذ إلا المؤرخين ، القصص في كل أمة عليها مدارارتقائها سواء أكانت وضعية أم حقيقية على ألسنة الحيوان أو الانسان أو الجناد ، على هذا تبث الأمم قديمها وحديثها وناهيك بكتاب كريمة ودمنة وما والاها من القصص الناصجة على منواله في الاسلام ككتاب فاكهة الخلفاء ومقامات الحريري وان حاد بعضها عن سواء الصراط والجادة وطنى نخلط الجدة بالهزل ككتاب (ألف ليلة وليلة) الذي استخلص زبدته الغربيون ، كل يعلم ما صنعت الروايات في عقول الغربيين من التأثير وأخذهم منها بالأحسن من الكلام والأجمل من الأفعال وكيف يسمعون ويعقلون ، جاء القرآن بقصص الأنبياء وهي لاجرم أعلى منالا وأشرف

مزية كيف لا وقد جعت حسن الأسلوب واختيار المقامات المناسبة لما سيقى إليه والقوة الحسنة بالكمال المخلصين من الأنبياء ومن الالهة وتحققها في أنفسها لوقوع مواردها وأن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان لاسيما لمن يقتدى بهم ، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ونقصت في سواها ككتاب كائلة ودمنة منتقى كتب الهند وترجمة الفرس والاسلام جاء على السنة الحيوانات وقد نقصه تحقق موارده والروايات المنتشرة في الغرب أكثرها إيهاما لوقوع مواردها اختلط فيها صادق الحكم بكاذب الوقائع اصطفاها القوم لأنفسهم لما تضمنته من النصائح في بواطنها مع زخرف ظاهرها وقصصها الكاذب . أليس من العيب الفاضح أن تقرأ قصص القرآن فلانك تدفعهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان وصرت كأمس الدابر ومالنا ولها إذن ؟ تالله ان هذا هو البوار ، وما نحن إلا كما حكى في هذه الأيام عن فلاح بويرى فقير بنى منزله الحقير من حاء مسنون مرصع بقطع من الماس الجليل المقدّر بمئات الألوف من الجنّيات جهلها الرجل وعرفها سائح أوروبى فكان ذلك من أهم الاكتشاف في تلك الأقطار . كم من فتى يسمع هذه القصص فيقول في نفسه تارة وعلى الملا أخرى ياليت شعري كيف توافق التاريخ وهل الاكتشافات التاريخية والمباحث العصرية والعلوم المكتشفة في الاهرام والبراني والهيروغليف تؤيده ويظل يبحث عن ذلك حتى يقف باهتا مندهشا وقد يثر على قول فلان الفرنسى والانجليزى مما يؤيد هذه المباحث فيطير بها فرحا ويظن أن هذا مستند للدين وفاته أنه ان وافقه كتاب فقد يخالفه كتب إذ لا ثبات للمؤرخين فيما يصفون عن دهر الدهارير . لعمر العلم لم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها وانها عبرة لمن اعتبر وتذكرة لمن تفكر وتبصرة لمن ازدجر ، أما الرجوع الى التاريخ ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم وماسطره الأقدمون على مبانيهم وما يقوله القاصون في خرافاتهم فذلك سبيل حائد عن الجادة يضل فيه الماهرون ، يرشدك لذلك ما تسمعه من نبال فتية الكهف وكيف يقول - سيقولون ثلاثة رابعهم كابهم ويقولون خمسة سادسهم كابهم رجبا بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كابهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل - فانظر كيف أسند العلم لله ولم يعول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل فان قال خمسة قالوا ستة وان قال أربعة قالوا سبعة فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص وما المقصود منها وليكون عبرة . وبالأجمال فليس القصد من هذه القصص إلا منافعتها والعبر المبصرة للمسامعين - لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب - ولسنا ممن يتبجح بالقول بلايان فلا نعتد إلا على البرهان ، تأمل يا صاح هذا القصص تجده لا يذكر إلا ما يناسب الارشاد والنصح ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لا لزوم لها ولا معول عليها فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية وتبصرة وتذكرة ومحاورات جلية تلذ العقلاء ، ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاه عن النبي يوسف الصديق عليه السلام وكيف جاوز فيها كل مالا علاقة له بالأخلاق من مدينة المصريين وأحوالهم الى الخلاصة والثمرات الخ اه

﴿ المقدمة الثانية ﴾

لأذكرك نموذج آخر لذلك وهى محادثة جرت بينى وبين فتى فى حديقة الجيزة إذ قال اننى اعتقدت أن القرآن أعظم مشرق للعلوم ولكن أناسا يقولون

(١) إن الدين لا علاقة له بالكون وهؤلاء علماء أوروبا نراهم عزلوا الدين عن العلوم فأفلحوا وهم صادقون فاخبرنى رعاك الله أين أنت من قصة سليمان وما حكاه الله فى القرآن ولقد سئلت أسئلة فلم أقدر على الاجابة عليها فما أناذا أعرضها الآن

(٢) كيف سمع سليمان النملة وهى تتكلم - حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون - وتفسير الآية ظاهر بأقل التفات

(٣) وكيف يقول الرب - وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق وأوتينا من كل شئ -

وكلمه الهدى فقال - أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ - الآية

(٤) وكيف يقول - قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين - وكيف يقول - قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك (٥) وماتلك الأبنية العظيمة المسماة بالمحاريب التي كانوا يعملونها له - يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل - الآية

(٦) وماتلك القصاع الكبيرة المعبر عنها بالجفان ، وما تلك القدور الراسيات العظيمة (٧) وكيف تسيل المعادن من الأرض المرموز لها بقوله - وأسلنا له عين القطر - أي أسلنا له النحاس

كالعين ينبع (٨) وما هي دابة الأرض التي أكلت عصاه في قوله - ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين - (٩) وكيف سخرت له الريح حتى قال - واسلمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر - شهر أول النهار وشهر آخره

(١٠) ماهذه المحاورة التي بين بلقيس وقومها واستشارتهم في الامور العامة والسياسة عند وصول كتاب سلمان اليها - قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون * قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد - وهذا السؤال الأخير ليس فيه اشكال وانما سألتكم فيه تكميلا لل مقام وانني أعتقد أن هذه لاعلاقة لها بالعلوم لبعدها عن الافهام ولا ينبغي أن يفهمها إلا العامة ، أما أمثالنا الذين اقتبسوا العلوم واجتالوا الحقائق فلا جدر بهم أن يكفوا عن هذا وسكت . فقلت أيها الفتى إن لكل أمة وجهة توليها وتناسب حالها والأمم التي ذكرت لم يكن في دياتها علوم وانما هي مواعظ وقوم دينهم شأنه هذا جديرون بعزله عن العلوم فنحن على هذا نقرر لهم بالعلم والحكمة وانما كان هذا شأنهم لأن عيسى عليه السلام جاء بالروحانيات خالصة وابتعد عما عداها ولم يلتفت قط في خطابه الى غير ذلك وموسى قبله أخذ بالجسمانيات وأما القرآن فجمع بين الأمرين وتكلم على الجسمانيات والروحانيات وأشار الى العلوم اجمالا فاذا قلدناهم في ذلك ساءت العقبي لأن المسلمين أمة عودها دينها أن يتكلم عن جميع شؤونها اجمالا حتى انه يعلمهم المواريث والأحكام ويفصل بينهم بالحق فاذا جاؤا الى العلوم وعزلوه عنها ارتبكوا في شؤونهم ولم يجتمعوا على رأى واحد فالقرآن جامع بينهم . وأما مسألة نبي الله سليمان عليه السلام فاني أرى أنك تستعظم ذكر النملة وكلامها والهدد وخطابه والأرضه وأكها العصا مع نبي الله سليمان ويلوح لي أنك لم تعلم ما المراد من ذكر هذه الحيوانات ، ولنقدم لك مقدمتين قبل الخوض في الجواب عن أسئلتك العشر . فقال نعم هات . فقلت تعلم أيها الفتى أن الأمم أجمعوا على استحسان ذكر الحكم والعلوم والمواعظ على ألسنة الحيوانات والانسان ، ألم تر الى كتاب ﴿ كايلا ودمنة ﴾ نخبة كتب الهند وترجمة الفرس والعرب وهكذا نسجت كتب كثيرة على منواله في الاسلام وقد علمت هذا المقام في قصة سيدنا يوسف عليه السلام فلا أطيل بالاعادة

إن الحيوانات على ﴿ قسمين ﴾ حكيمة تعمل الأعمال العجيبة كالنمل في بناء المساكن والادخار والأرضة في الهندسة والاتقان والنحل وغيرها ، فهذه حيوانات صغرت أجسامها وعظمت حكمتهما ﴿ والقسم الثاني ﴾ حيوانات خلقت للعمل كالثور والجاموس فلا قدرة لها على أعمال النمل ولا النحل ولا دود القز فهي حيوانات عاملة لاعالة فأعطيت الضعيفة العلم والقوية العمل ، قسمة عادلة ، وقد جعل الله الحيوانات الحكيمة معاملة للانسان - فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون

مثل هذا الغراب فأواري سواءه أخرى -

إذا فهمت هاتين المقدمتين فاعلم أن قصص القرآن جاءت بوجه عام حكاية عن الأنبياء وهم أشرف ما يعالاه الإنسان وهذه أول منزلة واضحة الظاهر الحقيقية وهي مرتبة ثانية ودالة على التوحيد والأخلاق ، وهي مرتبة ثالثة خالصة مما لا علاقة له بذلك وهي مرتبة رابعة ، وهذا نبي الله سليمان عليه السلام لم يذكر معه إلا النمل والهدد والأرضة وهي دابة الأرض ، فظاهر هذه الألفاظ أمور سهلة بسيطة وكلام الهدد وسمع النمل وأكسأت الأرضة عصاه ، فأما الجاهل فتى سمع هذه اكتفى بها وقال كفى بهذه معجزة ويقف عند هذا الحد ويظن أن هذا غاية ما في القرآن وهذا في الحقيقة لم يصل لدرجة تلميذ في المدارس فإنه يقرأ الحكاية ويقول ما مغزاها وما المقصود منها ، ولما علم أهل أوروبا أن التاريخ جعل للغة والاعتبار وجهوا إليه عنايتهم وأخذ كل عالم يهذب تاريخ قومه علما منهم أن المدار على ثمراته لا سرد حكاياته . ثم إن علماء الاسلام ما وضعوا علوم البلاغة إلا لخدمة القرآن ، ومن أجل تلك العلوم فن البيان وفيه الاستعارة التمثيلية التي تشمل جميع الروايات والخيالات وما جاء على السنة الحيوان والنبات ومنه مقامات الحريري واعترضوا عليه بأن هذا خيال يلبس بالحقيقة ومن هذا القبيل جميع الروايات المنتشرة في زماننا هذا ، فأما مثل ﴿ كائلة ودمنة ﴾ الذي جاء على السنة الحيوانات فقد قبله جميع علماء الغرب والشرق لظهور أن القصد منه الحكم والمواعظ وهذا هو الاستعارة التمثيلية بالطريقة العملية وهناك نوع يسمى الكناية وهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع إرادة المعنى الأصلي فيكون المعنى الأصلي صحيحا واللازم هو المقصود بالذات وعلى هذا جاء قصص القرآن فيكون حكايات ظاهرها صحيح ومقصدها ما وراء ذلك المعنى ، فالعالمى يقف عند مجرد الحكاية ، فإذا سمع مسألة الهدد مع سليمان والنمل وحد الله وأخلص له وعبدته وأخذ يسبح بكرة وأصيلا ، أما العالم فإذا سمع هذا قال ليس القصد من هذه القصة مجرد الخطاب فان النمل ومسأله الهدد وخبره والأرضة وأكلها أمور تشير الى ما هو أدق من ذلك وأرقى وكون نبي الله سليمان عليه السلام علم منطق الطير صحيح في نفسه ولكن الطير ليس عنده من العلم إلا مقادير محددة تناسب مأكله ومشربه . إذن هذه الأمور تستلزم بطريق الكناية معاني أرقى من هذه مرادة ومقصودة ، وإذا كان كل كلام عربي وأعجمي له مغزى فكيف يحرم من هذا كلام الله ولأجله دون فن البلاغة ، إن هذا هو الخسران المبين ، ومن ادعى أن المقصود حكاية بسيطة فهو أحقر من أن يكون تلميذا بل هو حيوان فالأولى أن يسكت وليعتزل العلماء وليجلس مع العامة فليس له في العلم من نصيب . فقال الفتى ما مثال الكناية من كلام العرب ؟ فقلت أنواع المجاز والكنايات عليها مدار تفاضل البلغاء والشعراء والخطباء ، وكل كلام لم يكن فيه تلك الملح فجيده عاطل من حلي البلاغة ، ولأذكر لك مثالا واحدا لتقيس عليه ما سواه ﴿ دخل صخر أخواله فساء عليها يوما واستشارها في أن تزوج دريد بن الصمة أحد مشاهير العرب فقالت في أبيات لها

معاذ الله يرضعني حبركي * قصير الشبر من جثم بن بكر

فالجاهل إذا سمع مثل هذا يقول أين المناسبة بين السؤال والجواب فهو يقول لها تزوجي دريدا وهي تقول أعوذ بالله أن أرضع طفلا قصيرا شبره قصير ، أما العالم فإنه يعرف اللازم والمألوم ويدرك سرا فهمه العربي في البادية بدون تعلم بل بالفطرة والمنحة الإلهية وهوانها أن تزوجت فلا بد من الاقتراب والاقتراب يتبعه الحمل فالوضع فالرضاع لطفل يشبه أباه غالبا وأبوه قصير فيكون قصيرا والأعضاء على حسب الجسم ومنها الشبر فيكون قصيرا فإذا لم ترضع الطفل الموصوف بما ذكر لزمتها أن لا تزوج أباه المرتب على زواجه ما بعده فهذه لوازم ومازومات ذكرها علم البيان ومقدمات خطابية يذكرها المنطقيون عرفها هؤلاء الأقوام بفطرتهم وإذا كان هذا كلام اعرابية في البادية وقد تضمن هذه الحكم وذكرت أمرا صحيحا وهو الامتناع من الارضاع ولكن أرادت ما هو أرقى من ذلك عند الفطن وهو عدم الزواج بدريد بن الصمة وهو المقصود بالجواب وقد

عد هذا من أجل طبقات البلاغة فإياك يا سيدي بالقرآن الذي هو سيد الكلام فكيف لا يكون فيه كفايات أم كيف لا يكون فيه رموز وحكم ومعجائب وغرائب ، ولو نظرت في كلام العرب بامعان لرأيت فيه كثيرا من ذلك جدا فإياك بكلام الله جل جلاله . الله أكبر كل كلام تظهر بساطته عند الجاهل يعظم أمره عند العالم الماهر المدقق ، ومما مثل الكلام السهل الممتنع إلا كمثل النور يبدو للجاهل فيظنه معروفا عنده لشدة وضوحه ، فإذا نظر العالم فيه وبحث عنه وقف على كنهه ، وهاهم العلماء قديما وحديثا يبحثون عن كنهه ولا يزالون مختلفين إلى يوم الدين ، العلماء (ثلاثة) عالم لغة وهو يفسر القرآن تفسيراً بسيطاً كل لفظة بما يراد منها وهذا في طبقة العامة لم يمتز عنهم والعامة يمثل هذا مولعون وهو وهم ناجون بصدقهم وتصديقهم وهم مؤمنون وعالم البلاغة وهو أرقى من سابقه مولع بفهم المقصود من الكلام فيتصرف فيه بالمجاز تارة والسكناية أخرى والاستعارة بأنواعها والتمثيل وضروبه . وهذا متوسط في العلم وفوقه عالم درس جميع العلوم وعرف الكون وأصبحت له ملكة بها يحلل ويركب في المعلومات وهذا هو العالم حقا وهو الحكيم الذي يأخذ بأمرته إلى العلا وهو الذي أشار له الله في قوله - ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء - فتأمل كيف مدح العلماء بعد ذكر حكم الله في الكون وتنويع أشكاله ومزايا أصنافه ومعجائبه وإلى هذه الطبقات الإشارة بقوله - يرفع الله الذين آمنوا منكم - إشارة إلى الطبقة الأولى - والذين أوتوا العلم درجات - إشارة إلى الطبقتين بعدها وهم درجات بعضها فوق بعض كما قال ابن عباس « بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض إشارة إلى تفاوتهم في الفهم كما هو مشاهد محسوس في كل فن من الفنون ، فإذا لم يمكنك أن تكون من الحكماء فاجتهد أن تكون من علماء البلاغة وهم أوساط الأمم الذين الذين يناط بهم التحرير والانشاء ومن سمع آية من القرآن فإن كان من الفريق الأول وهم علماء اللغة والعامة فليس لهم إلا ألفاظ بسيطة ترجع لعلم اللغة فإن ترقوا قليلا للبلاغة فإيا هذا ، ولقد أصبحت الأمم جمعاء تنحو هذا النحو في تعليم صغار تلامذة المدارس وهذه أمور سهلة ليست خارجة عن السنن المعهود ، فمن ظن أن القرآن لا يفهم فالأجل به أن يصمت ويعتزل العلماء . عجبا أن يكون لكل حكاية في العالم مغزى يراد منها ويسلب هذه المسكوة أبلغ الكلام ، أين البلاغة إذن ؟ فقال الفتى كفى هذا وأرجو أن أسمع ما ترمنز إليه هذه القصة فأجلته إلى الغد ، رجعنا إلى الحديقة ، فقلت يا بني إن هذه القصص تشير إلى مدينة كانت عندني

الله سليمان فإن مدار المدينة الآن على

- (١) سرعة نقل الأخبار بالبريد والكهرباء والتلغراف بلاسلك
- (٢) وسرعة النقل وسهولته بالسكك الحديدية والآلات البخارية والمراكب الهوائية (البالون) الذي سيخلف السكك الحديدية الأرضية بواسطة تبخير الغازات التي هي أخف من الهواء
- (٣) وإنشاء المباني العظيمة
- (٤) وفن النقش والتصوير وصنع التماثيل العظيمة
- (٥) واستخدام المعادن على اختلاف أنواعها
- (٦) والتدبير والاحكام والهندسة
- (٧) والسياسة بالتشاور وجعل الأمر بيد الأمة وأن لا يستبد الحاكم بالرأى
- (٨) والاعتماد على النفس
- (٩) والتحلي بالعلوم والمعارف
- (١٠) والاقتداء بالصنعة الإلهية

فهل المدنية غير ما ذكرت لك الآن ؟ فقال الفتى هذه أمور عامة داخل تحتها فروع كثيرة . قلت الهدهد
 اشارة الى أن النبي سليمان عليه السلام أعطى سهولة نقل الأخبار بأي طريقة من طرق النقل والهدهد رمز
 لذلك وقد أعطى حكمة ورثها عن آباءه وأيدها الوحي بها فنقل الأخبار بسرعة ليس خاصا بالهدهد بل به وبغيره
 ولعلّ عنده ما هو أرقى مما عندنا على سبيل الكناية . وتسخير الريح له اشارة الى أن وسائل النقل متوفرة عنده
 عليه السلام حتى وصل الى استخدام الريح الذي يبحث عنه الاوروبيون الآن بالطيارات المعروفة وان كان
 للنبي معجزة لا يصل لها البشر ولغيره بالعمل وهو أقل وأضعف ويقال ان النقل في مستقبل الأمر يكون بها
 لتخيلوا الأرض للزراعة والمنافع الأخرى ويشارك الانسان الطير في الطيران وهذا كان سرا لا يعلمه إلا ذلك
 النبي معجزة له ، ذكره الله في القرآن ليحذ الناس في العلوم لعلمهم يصلون الى بعضه ، أما الوصول الى غايته
 فلن يصل أحد اليه ، وأشار الى المباني العظيمة بقوله - يعملون له ما يشاء من محاريب - . وأما فن النقش
 والتصوير ففي قوله - وتمثيل - وأما استخدام المعادن فهي قوله - وأسلمنا له عين القطر - وهو النحاس
 فقط وهو رمز الى المعادن على اختلاف أنواعها من اطلاق اللفظ وارادة لازمة أو الجزء وارادة السكل إذ المدنية
 الهائلة العظيمة تستلزم الترقى في استخراج المعادن ، وأما التدبير والاحكام في الصناعات واتقانها فاليه اشارة
 بفهم كلام الخلة وسماها ولذلك يقول - وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير - فأطلق
 وأريد به لازم معناه وهي الحكم والمعارف والعلوم والنظامات التي أودعت في الطير والحيوان وليس القصد مجرد
 تلك الحكاية من الطير والدواب الدالات على أشياء لانخرج عما يليق بحياة ذلك الحيوان من مأكل ومشرب
 لا تعنى نبيا من الأنبياء إلا للعجاز والتحدى والا فهو أرقى وأوسع علما ، فنبى الله سليمان أوتى الحكمة والعلم
 أشار له بقوله بعد ذلك - وأوتينا من كل شيء - ثم أخذ يسرد حكايات الخمل والهدهد ليدل على الحكمة التي
 أعطيها حتى لم يذكر في قصته إلا الحيوانات الحكيمة ولم يذكر الجمل ولا البقر في قصته إذ هو عليه السلام نبى
 وحكيم ورث بعض العلم عن آباءه الذين ألقيت اليهم النبوة والحكمة ، أما سيدنا ونبينا محمد ﷺ فلم يكن علمه
 ميراثا وإنما جاء كله بطريق الوحي فهو أمي لأمة أمية جاء في جزيرة العرب لهم خاصة وللناس عامة فأمرهم
 بالتوحيد والنظر في الكون والأخذ بأحاسنه ومما قصه عليهم هذه القصة النبوية وقال تعالى له - فبهدهم
 اقتده - فأمره بأن يقتدى بهم ومنهم نبى الله سليمان وقد أوتى الحكمة والعلم فوجب إذن على أتباعه أن
 ينظروا في قصته ويطلبوا العلم الذي يرقى مدنيته من الأمم حولهم فان بعض العلوم التي عند نبى الله سليمان
 ورثها عن آباءه وتلقاها عنه حكماء اليونان فالرومان ، وقد كان فيثاغورس تلميذا لنبي الله سليمان عليه الصلاة
 والسلام كما قيل وقد انتشر علمه في اليونان والهند كما في كتاب (الملل والنحل) ومنهم الى الرومان فالعرب
 فأهل أوروبا فكان أدوارا شتى وطرقا مختلفة فقصة سليمان اشارة لمدينة قديمة معلوم عهدها مجهولة آثارها
 إذ سندهم متصل بقدماء المصريين وكان بيت بني اسرائيل مجتمع الحكمة من الأمم الغابرة ودام ملكهم
 قرونا متطاولة ولذلك لما خرجوا من مصر أمرهم موسى بذبح البقرة لأن أذهانهم قريبة عهد بالبحل المسمى
 ايس وعباداة المصريين له ولهذا الحادثة سميت بها أكبر سورة في القرآن ففيل سورة البقرة وكان بنو اسرائيل
 إذ ذاك غلاظا شدادا لا يفقهون الحكم فأمرهم بذبح البقرة التي على هيئة عجل (ايس) معبود المصريين ولما
 كثر فيهم الأنبياء وتمادى الزمان رقت أذهانهم وجاء فيهم نبى الله سليمان عليه السلام وأوتى الملك والحكمة
 وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وذكر حديث الخمل وغيره ، فتأمل رعاك الله تجد الأمم المتأخرة الآن
 تبحث عن هذه الحيوانات وتتأملها حتى في أصغر كتاب للتلامذة ، فيزان الأمة نظرها في الكون ، فكما
 دقت أنظارهم وعرفوا بواطن الأشياء ترقوا في المدنية والعكس بالعكس وهذا هو المقصود بذكر هذه الحيوانات
 في قصة ذلك النبي ، ومن العجيب أن السورة التي ذكر فيها الخمل وسميت باسمه كانت قصيرة بخلاف البقرة

واننى لا أزال أيتها الفتى أتعجب من تخصيص ذكر هذه الحيوانات في قصة سليمان ولم يقل مخاطب البقرة والخيل والحكمة ما علمت فقال الفتى كفى في هذا السؤال . فقلت وأما التشاور في الأمر فهو ظاهر من محاوره بلقيس لقومها واستشارتهم في الأمر وآدابها وآدابهم وهذا ظاهر لا يحتاج الى إيضاح . وأما الاعتماد على النفس فهو ما ذكره من مسألة العفريت من الجن وأدعاء الجن انهم يعلمون الغيب فقال تعالى - قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك - فهذا هداية للانسان انه متى حاز النهاية في العلوم لم يكن مثله أحد من المخلوقات إذ هو خليفة في الأرض وهو أقوى من الجن ، فهذه أول داع لذوى العقول أن يتقدموا في العلوم والمعارف وقال - مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين - فهذه كلها تريك أن الاتسكال على الاخبار بالغيب عجز وجهل بل الاهتداء بالامور المعهودة والتأمل في أعمال الخليفة يهدي الانسان الى الطريق الأقوم فان كثيرا من الناس يخبرون بالغيب ولكنهم فيهم الصادق والكاذب فلا يعول عليهم ما عدا المعصومين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين والعفريت والجن في هذه الآية يناسب ما انتشر في أوروبا الآن من ظهور عالم الأرواح وتكليمهم إياهم مما هو شائع مستفيض والجن والعفاريت هم من قبل أولئك المستحضرين في أوروبا وهم يخبرون بالغيب والقرآن يفيد أن الانسان لا يلتفت الى كل خبر منهم بل يعرض كل قول على عقله واستنتاجه كما وضع من هذه الآية ، ونتيجة ذلك أن الاعتماد على النفس والعقل في كل شئ علو للهمة في العلوم والمعارف وأن الانسان في علمه فوق الجن مكانة كما في مسألة دلالة دابة الأرض على موت سليمان وجهل الجن به والانسان أسمى قوة كما في نقل عرش بلقيس بأسرع من لمح البصر . فقال الشاب وكيف انتقل سريعا وبين الشام واليمن شهره . فقلت ذلك اشارة الى أن فوق هذه المدينة الحاضرة مدنية أخرى أسمى منها وأرقى وان كان ذلك معجزة للنبي سليمان عليه الصلاة والسلام ولكن يطلب الأخذ بالأسباب لكل ما يسهل وسائل النقل والاسراع فيها . أما الاجتهاد في العلوم والمعارف فهو مفهوم من قوله - قال الذى عنده علم من الكتاب - وأما الاهتداء بالكون والصنعة الإلهية فيفهم من السورة بتمامها وتأمل في النمل وانظر . فقال الشاب ما رأيت أعجب من هذا البيان ثم قال الفتى أخبرني عن يأجوج ومأجوج وكيف ذكرهم الله في القرآن ومالنا بهم من علم وفي أى زمن خروجهم ؟ فقلت أيتها الفتى قد سأل هذا السؤال أحد أدباء الهنود من زمن غير بعيد وأجبناه في ﴿ مجلة الهلال ﴾ وهى في نظام العالم والأمم وقد تقدم في سورة الكهف

﴿ المقدمة الثالثة ﴾

(أحوال الدول في قصص فرعون وموسى عليه السلام)

الانسان في حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أوعالم فاما مكبا على وجهه أوسويا على صراط مستقيم . كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الأبوان أو الأقربون أو الاخوان والأصحاب والعشيرة والقبيلة والمربي مع ملاحظة الأمزجة وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير أو الشر ، وبمقال آخر ان هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقا للسعادة أو الشقاء ، والتاريخ مثل واضح يمثل به الانسان سيره في نفسه وأهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الاصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الأذنان ولا جرم انه يستعوز الحكيم اذا عقل في سيرته الشخصية والمنزلية ، أما سيرة المدن وتقابها فرجعها الى مرآة أوسع وأعظم ألا وهى تواريخ الأمم الغابرة فهى المنظار المعظم تدرس بها الأخلاق في شكل بهيج جميل . لعمر كليس كل تاريخ يعنى « وما كل مصقول الحديد يعانى » فقد يستسمن ذوالورم وينفخ في غير ضرم ، يسرد المؤرخ حكايات الأولين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر إلا في آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر له الحوادث برواق بهيج ونواتجها ظاهرة واضحة خيرا أو شرا فيخرج القارئ من بسايتها

مقتطفا من رياضها أزهارا وجالبا من أشجارها ثمارا ، ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلا فائدة وضياع وقت وحياة . نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لاسيما المصريين وقد كان فرعون يقول - أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون - ذلك تذكرة للكاتب والقارئ لأننا نعلم انه لم يكن ليجعل حكاية يسلي بها القارئ نفسه كما يشعر به قارئ رواية أو يقتل به الزمن كلا . كيف وهو سبحانه وتعالى يقول - لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب - والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارئ التاريخ حال غيره الى نفسه ويهرب به على سفن الألفاظ الى الحقائق ويقول تعالى - ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت - ويقول جل وعز - كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم - ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام « ماتحت الشمس من جديد » ويقول علماء العصر « التاريخ يعيد نفسه » غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخبلا عن الفحوى ورضاء بالقشور وابتعادا عن أسرار البلاغة . جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ولكل مثل مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها وأحوال العرب عامة تنطق بها ، فن أجهل ممن جد على الألفاظ دون معناها والمعاني دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام « شيبني هود وأخواتها » وترى كثيرا من الأدباء اذا أزمع هداية انسان ذكر له قصصا تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون أشد تأثيرا من وقع الحسام وتشير في القلب حجة واقدا ما أوخيفة واجما فزال المراء ورفع الغطاء ، إن الخبر في مغزاه كالسهم في مرماه فلنبدا بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشي الأمم في قصص فرعون وموسى عليه السلام

أشرنا فيما تقدم الى أن تاريخ مصر أمس بالمصريين وأنفع للعالمين ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم إلا انهم كانوا في ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبي الله ادريس المسمى بهرمس ويسمى المثلث لأنه كان طيبا ومهندسا وإلهيا ، وورد انه أول من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن في النواويس تحت الأحجار والصخور وكانوا موحدين وتناهوا في ذلك التوحيد وبنوا الهياكل العظيمة آثارا للجلالة ونظروا فيما حسن ولطف دلالة على جلاله ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخي الزمن وبقى التوحيد سرا مدتوما عند حلة الدين وحرما العامة منه فأرسل النبي موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجمع في الخاصة وهم القليل وآمن بنوا اسرائيل وبقى المصريون في عمائيتهم وجهلهم مع فرعونهم - فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين - فأغرق فرعون وجنوده وأما بقية الشعب فاجتاحتهم جائحة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الاشوريين وأحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قبيز فلعمرك ماسدد عليهم فأصابهم وأقصد القلب الابقوس من شعائر دينهم . عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قبيز بين الجيشين فتحرج المصري عن قتلها فأصابها وأصابه قبيز فلك وقاتل وسبي وغزا وأرسل الجيوش وقتل الجمل المعبود وأغضب المصريين وكان ما كان من هلكته

مضت دولة الفرس فورثهم اسكندر المقدوني وبعده البطالسة فالرومان الذين استباحوا ما حرمه الظالمون فقتلوا الأبرياء واتهكوا الحرمات وغالت الأمة غولهم وجاء عمر مهيمنا عليهم بجناح الرحمة وأسدل ستارا من العدل وحرسه بجند من الايمان وبنى عليه هيكل من العلم وزينه بزخرف من الكياسة ووشاه بنقوش الحكم وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نورا على نور وسجاء بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوسمه بما وسم امام الصحابة رضى الله عنهم في قضية ابنه وابن القبطى إذ ضرب الثاني الأول بمحض من الصحابة في المدينة حتى قال القبطى قد شفيت نفسي ، كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل يا عمرو فينا * ولكن جئت في الزمن الأخير

فأكثرهم أريد بيد الفاتحين الظالمين وحققت عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روى عن ادريس عليه السلام

﴿ يا مصر ، يا مصر ستركين دينك القويم وتستبدلينه بالصور والتمائيل فستذهب رجالك وآمالك وتبقى أخبارك في أشجارك ﴾ والكتاب أوضح هذا فقال في فرعون - فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين * ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم بهتدون -

العبرة في هذا أن الأمم لها باب تراتى فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لابد لها من اصلاح فاما أن تتعظ الأمة بالمرشدين الناصحين والافلامناص لها من السير على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم المصمية المهينة الفاتكة وأن الأمة اذا ظلت عاكفة على عجول جهاتها فهي دابة كل راكب خادمة كل سيد ، طفلة كل مرب ، زوجة كل بعل ، وكما لم ينفع المصريين أن انجالت عنهم دول الأحباش والاشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم غدا عليهم جبار ، فهكذا يا قوم فليكن حالنا اليوم فادمنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكلين فريسة القانصين ولوساد اليابان والصين أو الفرنسيين والألمان فليس لنا في ذلك مصلحة خاصة فرحة الله انما ينزلها للحسنين عملا - ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون - إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين - إن المصر بين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ماسحقهم الأمم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض ، فانظر كيف كان عاقبة الجامدين

أما أهل مصر الحاضرون فماغشهم ماغشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها ، وهم وان نسوا أنسابهم ففهم ببقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة في عرب البادية المصرية وتقل في الفلاحين وتضعف في أهل الامصار والمدن الكبار إلا في أناس أرجعها لهم التعليم إن صح فلاحكم عليهم كما حكم على الأمة التى قبلهم ولاأرى أن يسام الحاضرون بالغابرين

هذه أمة عربية فتحت منذ قرون وتتابع في هذه الديار زمرا زمرا من الأمويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجرى وأن مافى البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين ، كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم ، فاذا قيل مصر بقيت في الذل و آلاف سنة فذلك لا يكون حكما علينا ، كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين انقضوا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسراع الرقى في أقرب الأزمنة متى تعلموا ، وسنذكر بعد هذا كيف تولد الأمة وهى جنين ، وكيف تشب وهى طفلة لهوب

﴿ انشاء الأمم ﴾

سبق القول انا سنبسط شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهى أجنسة فى البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وأن ذلك سنة لا محيص عنها. للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكإنسان طفل فشاب فشيوخ فميت ، وكالسنة ربيع فصيف خريف فشتاء فموت كسير القمر توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان ففسرار وكالنبات ينبت فيستوى على سوقه فيجذب الزراع فنراه مصفرا فيكون حطاما وكل بائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه إما بالخركات فى الأفلاك أو بالولادة فى العناصر. الزوجان من الانسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلامناص منه للجمهور وشاؤا أم أبوا ، فهكذا الأمم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها مما تحت سيطرتها . ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلا تلبث أن تمزق كل ممزق بأيدى الأمم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهور - ونريد أن نمق على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون - وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم والسكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وما كان من تمزق الرومان بأيدى

الفاطكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومنزقوها كل ممزق وذات جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول ، هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم في أعصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر - وتلك الأيام نداولها بين الناس -

هذا وليس رقي الأمم بلاموجب فالرقى أسباب ولتتدلى أسباب ولقد فصلنا القول في أسباب السقوط فلنشرح الآن أسباب الرقي من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام إذ هما أقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدما انها ذكرت في الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصا ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغابر والشاهد بالغائب ويعتبروا بالأمم السالفة - وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليباؤكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم - وقد استخلصنا أسباب الرقي اذا هي عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ، ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ما عنده من الهبات والمنح العشرة الأولى أن تمنح الامة رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه فأخلصوا في أعمالهم لأعمالهم وجادوا بما لهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها لا رياء ولا سمعة بحيث يكون ذلك كأنه خاصة فيهم هبة لهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتى شعيب عليه السلام في سقي الغنم إذ - قالتا لانسق حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير - فرفع الحجر عن البئر - فسقى لهما ثم تولى الى الظل - وكان ما كان من زواجه بأحدى ابنتين ورعيه الغنم (١٠) سنين ، وكما أقام الخضر الجدار لليتيمين بانطاكية وقد أبى القوم أن يضيفوهما وما كان ذلك إلا عملا أريد به فضل العمل لذاته لا أجر ولا شكور

(١) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة المغيرة وافهامها حاجات الأمة المغلوبة بما في الامكان واجتذابها اليها بما جل من العلم والمعرفة كما وقع لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام إذ خوطب - اذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكرى * اذهبا الى فرعون انه طغى * فقولاه له قولنا لينا لعله يتذكر أو يخشى - الى أن قال - فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى - فجمع بين الارشاد واللين في القول أو الشفاعة في قومه وهذا واجب شرعا على كل من أوتي حكمة في القول وجاها وعاما وقدرة أن يتدبر بها الى الأمم المسيطرة على أمته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى في علو شأن أمته ، لهذا نزل القرآن لاتغنيا أو أعرابا فحسب أوتار يخا ، ومن أعطاه الله حكمة أوجاها فانتبه من أهله مكانا قصيا عاكفا على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعيش معيشة الحيوان مخالفا حكمة عامة الأديان

(٢) القوة العامة واقناع الخاصة بما يلائمهم والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد ، يشير الى الأول قوله تعالى في موسى - قال فن ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - وقوله - الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا * وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى - فهذه براهين تسقلها القلوب الواعية والأنفس الراقية وهي تشير الى ما يعقله العقلاء ويتباهى به الحكماء ثم تلقفت عصاه إفك السحرة وأخرج يده فاذا هي بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضا لدى السحرة

(٣) الأنفة والغيرة والبأس والحمية وحماية النمار وخوف العار بازالة المنكرات جهارا واستئصالها ليلا ونهارا عند القدرة كما قتل موسى القبطى الظالم للاسرائيلى - فوكزه موسى فقتل عليه - وان ندم بعد ذلك وهكذا ان أذاق الخضر الغلام كأس الحمام لما كان مرسوما على صحائف نفسه فراصة بنور النبوة والعلم انه سيضل به الوالدان ، فهذه اشارات وملاح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح ، فهذه أشجار هذا زهرها وأثمار هذا طعمها وفاكهة هذا حلوها

(٤) سياسة اللين عند الاستسكانة والضعف واستجلاب الخيل ودفع المكروه بالتي هي أحسن كما احتال

الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها - وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا - وهكذا أم موسى وضعته في التابوت لنجاته قال تعالى - فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعاوه من المرسلين -

(٥) الثبات على المبدأ والصبر أمد العمر ، ألم تركيب خرج قوم موسى من البحر سالمين ونجوا من الغرق - وجاوزنا بيني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون - الخ هذا في العلم وفي المحاربة قالوا له - اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي - وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلنهم ولو وحدي وليس قصدنا من هذا إلا الثبات على المبادئ الشريفة واتهاج خطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتى صحّ لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بعاذل أو باقم

(٦) اشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس وأن لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بني اسرائيل في القرآن بهذه العبارة - وإني فضلتكم على العالمين - تذكرة لهم في زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لأمة تقرؤه وهي ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتبدل وتخزي ، كيف وهذه الأمة عموما وجهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وماوك الأرض مدنوا العالم ، منا الأمويون والعباسيون والفاطيون ، وما الطولونيون والاختشيدون إلّا موالى آبائنا وما الممالك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد إلّا من موالى أسلافنا ، ولقد أدركت القوم في القرى إبان نعومة أظفارهم وهم يفخرون بقرى الضيف وضرب السيف وينشدون الأشعار الجاسية ، وما عهد اكتساح التار بمائتي ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون يبعيد . ولعمري لأن تمتلئ النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب اقداما خير من أن تراها ذليلة منكسة الأعلام مرتاعة الأفئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى

(٧) تربية الناشئة على مبادئ جديدة تصلح للرقى والتر بص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقضوا ويموتوا كما وقع لبني اسرائيل لما جنبوا عن الحرب بقوا في أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبارة - قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين - (٨) الفرار بالأهل والعشيرة والأمة من حال تردبهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وأن ذلك يسهل متى أراد الانسان وهو أبو العجب ، ألم ترى موسى عليه السلام كيف صرّ بني اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(٩ و ١٠) ازدواج الدين والشدة وقد كان للاولى هارون وللاثنى موسى عليهما الصلاة والسلام هذه العشرة متى ظهرت في أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة وهي عشرة سندكرها في مقال آت إن شاء الله تعالى

قلنا فيما سبق ان الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال « اخلاص العمل لأنهم والحنق والشفقة وتذليل العقبات بين أممهم ومن غلبوا على أمرهم ، وما من أمة من أمم الشرق إلّا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخلصوا بلادهم في العمل رغبة في حسن الأثر والأحدوثة الجيلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا في العلم أو الثواب الجليل والشوق الى مبدع الكون وتقليده في صنع الجليل بلا طلب أجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن ولو أذاقهم الفاتحون كأس الحمام وجرعوه سم الموت الزؤام ، فلا أمة تفعل ما فعلت الفراعنة في بني اسرائيل ومع هذا لم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة

والثبات على المبدأ مهما عارضه الأقربون والأدنون وأشعار النفوس بمكاتها وشرفها فلا ينبغي أن تصفى الأمة إلى من يصغرها في عينها . ولقد قال ابن خلدون رحمه الله « إن هؤلاء الذين يسكنون الخيام في البادية هم أبناء ملوك الأعصر الغابرة وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم وأنا أقول اتنا قبائل نزحنا إلى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطنناها وتغلبنا عليها من آماد وأجيال قريبة العهد لا تقتضى بأن يضرب علينا الذل والمسكنة ولا يقال في مصر « هي لمن غلب » فأنما كان هذا المثل مضروبا لأمة خلت - تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولستم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون - وتربية النشء على المبادئ القويمة والعزة ومنهج الشدة باللين والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكانا أو صفات أو أخلاقا أو ملكا الخ »

هذا ملخص ما ذكرناه أمس ونقول هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التي قلنا إنها هبات من الله وهي تساوقها بالترتيب ولا تعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم واحسانا

(١) الإلهام وذلك يكشف الغطاء عن القول فتظهر لهم وجوه المنافع ومساوي المضار فان النفوس اذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول إلى الحكمة فأدركوا حالهم وما لهم واليه الإشارة بقوله تعالى - وأوحينا إلى أم موسى - وهذا وإن كان بلا كسب ففيه إشارة إلى ما نحن فيه

(٢) اجابة الدعاء والنصر - قال قد أجيت دعوتكما فاستقيا -

(٣) شدة الازر وتقوية الأفئدة بالاخوان والأنصار - قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطانا فلا يصلون اليك بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون -

(٤) و (٥) النصر والنجاة من الضر - ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين -

(٦) الهداية إلى الطريقة المثلى - وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم -

(٧) حسن السمعة والذكر والصيت - وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهرون * إنا كذلك نجزي المحسنين -

(٨) القربى من الله تعالى - وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجيا -

(٩) التمكّن من الخلافة في الأرض - ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون -

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين - ألم تر إلى حديث رجل من آل فرعون - وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله - فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على الدعوة أن قام رجل من أعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه ولعمرك إن في هذا لبلاغا للأئمة المهضومة الحقوق ان من أعطى فصاحة أوجاها أو حكمة وعلمها وجب عليه وجوبا عينيا أن يقوم فيناضل عن أمته بماله وأجابه أوقامه فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الأمر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادي مواليا وهذا يترتب به كل من اتجهج منهج الكمال والاعتدال ورقى أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين - ولما جاهد بنو إسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفا وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر في التلاشي إذ ذاك ودبّ ختمهم الأمم المغيرة الفاتحة من فرس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين وبطالسة - وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون - انتهت المقدمات

(تفسير السورة)

(هي أربعة أقسام)

(القسم الأول) في قصص موسى عليه السلام من أول السورة الى قوله - لتندرقوما ما أناهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون -

(القسم الثاني) من قوله - ولولا أن تصيبهم مصيبة - الى قوله - فعسى أن يكون من المفلحين -

(القسم الثالث) من قوله - وربك يخلق ما يشاء ويختار - الى قوله - وضل عنهم ما كانوا يفترون -

(القسم الرابع) من قوله - إن قارون كان من قوم موسى - الى آخر السورة

(القسم الأول)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّم * تلك آيات الكتاب المبين * أتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستخفي نساءهم إنه كان من المفسدين * ويريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض وفرعون وها مان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون * وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * قالت قطعه والفرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وها مان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت أمراة فرعون قرت عيني لي ولك لا تقتلوهُ عسى أن ينفعنا أو نتخذهُ ولدها وهم لا يشعرون * وأصبح فوآد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأختها قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون * وحررنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون * ولما بلغ أشده وأستوى اتيناه حكما وعلماء وكذلك نجزي المحسنين * ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكره موسى فقتل عليه قال هذا من عمل

الشَّيْطَانُ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
 الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا
 يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ * فَلَمَّا
 أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ
 إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ
 مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْمَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ
 النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ
 تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
 مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى
 يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ
 إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ
 مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ
 إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْثَحَكَ
 إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ يَدْنِي وَيُنْكَ أَيْمًا الْأَجَلَيْنِ
 قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ
 آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيَكُمُ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
 جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
 الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ
 كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * أَسْلَكَ يَدَكَ
 فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَيْضَاءٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنَ
 رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
 أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يُكَذِّبُونَ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا
 أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
 مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ
 عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ
 لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الْإِثْنَيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ
 مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَأَسْتَكْبَرَهُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا
 أَنَّهُمُ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ
 * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا
 الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ
 قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
 الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا
 كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ
 قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *

(التفسير اللفظي)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) تقدم في أول سورة آل عمران (تلك آيات الكتاب المبين) إن هذه السورة آيات القرآن المبين
 يقال بان الشيء وأبان بمعنى واحد . ويقال أبنته فأبان لازم ومتعد والمعنى مبين خيره وبركته أومبين للأحلال
 والحرام والوعد والوعيد والاخلاص والتوحيد (نتلو عليك) نقرأ عليك أى يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول
 نتلو قوله (من نبأ موسى وفرعون) أى نتلو عليك بعض خبرهما (بالحق) حال كوننا محقين (لقوم يؤمنون)
 لأنهم هم المنتفعون به ، وههنا ذكر (فصلين) فصلا يدل على علو فرعون في الأرض وظلمه وفصلا يدل
 على أن المظلومين نصرهم الله ليفهم المسلمون أنهم ان كانوا مظلومين والناس تؤذيهم كما كانوا في مكة فان الله
 ينصرهم كما حصل بعد ذلك وهكذا اليوم هم أذلاء بظلم الأمم لهم وهو الآن يريد نصرهم لأنهم مستضعفون
 وأيضا يريد الله أن يفهم المسلمون أنهم ان ملكوا الأرض لا يطغون والا دالت دولتهم كما حصل سابقا لهم ولأهم
 بعدهم . إنهم أسرفوا في الشهوات وهم في الأندلس فأذلم الأسبان فأخرجوهم أجمعين والأسبان طاردوا
 المسلمين في أصقاع أفريقيا ولكن الله يريد أن يمن على الذين استضعفوا في أرض أفريقيا من المغاربة
 المسلمين ويجعلهم أمة ويجعلهم الوارثين ، ولقد ابتداء ذلك بقتال أهل الريف ورئيسهم عبد الكريم جنود

الأسبان ، ولقد قتلوا منهم ما بين أربعة آلاف وعشرة آلاف في الحقول والقفار حتى ان مكاتباً أفرنجياً وصف ذلك وصفاً مريها فقال انه عد في عشرين دقيقة (٣٥٠) قتيلاً وأن القنلى في طول الحقول والقفار وعرضها لا تجد من يدفنها ولا مقابر لها إلا بغاون الغربان والجوارح الحائمة والسكالب العاوية وهذا من أسرار هذه الآية - ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض - ولكن بهذا نفى عبدالكريم ولم يتم الاستقلال اهـ وهاك ذكر الفصلين

﴿ الفصل الأول ﴾

قال تعالى (إن فرعون علا في الأرض) وهذا تبيان لبعض نبأ موسى وفرعون والمراد بالأرض أرض مصر (وجعل أهلها شيعاً) فرقاً وقد استعمل كل صنف في عمل وجعلهم أخزاباً أخرى بعضهم ببعض كيلا يتفقوا عليه كما هي سياسة الأمة الانجليزية وعنايتها فرقتهم (يستضعف طائفة منهم) وهم بنو اسرائيل وأبدل من - يستضعف - قوله (يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين) ذلك لأن كاهنا أخبره أن مولوداً يولد من بني اسرائيل يذهب ملكك على يده لذلك اجترأ على القتل ، فلخص هذا الفصل

(١) أنه علا في الأرض

(٢) واستضعف خرباً من أخزاب مصر

(٣) وقتل الأبناء

(٤) واستحي النساء

(٥) وانه مفسد

﴿ والفصل الثاني ﴾ ذكر فيه سبحانه انه قابل الخمسة الأولى بخمسة وهي

(١) يمن أى يتفضل - على الذين استضعفوا في الأرض - بانقاذهم من بأس فرعون

(٢) قال - ونجعلهم أئمة - مقدمين في أمر الدارين

(٣) - ونجعلهم الوارثين - لأرض الشام

(٤) - ونمكن لهم في الأرض - أرض الشام فنسلطهم عليها

(٥) - ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم - من بني اسرائيل - ما كانوا يحذرون - من ذهاب

ملكهم وهلاكهم بالاغراق

هذان الفصلان عظمت وضعف يعتب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار قال تعالى - وتلك الأيام نداولها بين الناس - ولقد حصل هذا في كل زمان ومكان ، أفلاترى كيف أحاطت أوروبا بالأمة التركية فقضت على ملكها ثم قام طائفة منهم بالأناضول فأزالوا الظلم وأرجعوا الملك وتم نظيره في بلاد الفرس وبلاد الأفغان ، ولقد كانت الدولة الروسية قائمة بالقيصرية فاستبدوا بنحو مائة وعشرة ملايين من الناس وكانت البلاد بأيدي أفراد من العظماء والثروة كلها في أيديهم فقتل القيصر وبدد وشرذ جميع الاغنياء واتسم الناس تلك الثروة في تلك الأصقاع وصارت الأمة بلشفية ، فهذا هو ما قاله الله هنا - ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين - فهذا هو الحاصل الآن ، أصبح المساكين الصعاليك في يدهم مقاليد الحكم في تلك البلاد ويودون أن يعمموا في سائر الاقطار وهم لذلك ساعون

(رأى سقراط في السياسة)

(١) يرى سقراط في السياسة أن الحكم يكون بأيدي قوم يصطفون من الشعب يتعلمون تعالماً أرقى من سائر الناس مع التعاليم العسكرية

(٢) فإذا انقرض هؤلاء تولى الحكم قواد الجيوش وهم أقل ممن قبلهم رتبة

(٣) فإذا تمادى الزمان قام بالأمر أبناؤهم الذين لا هم حكماء ولا قواد ولكن ميزتهم انما هو المال

فكل عملهم لأجل المال

(٤) ويعقب هؤلاء أن الأمة تقوم فتقسم ما لهم وتزيل ملكهم و يصير الحكم فوضى لا رابط ولا رادع

(٥) ثم يتولى فرد يقهرهم ويسخرهم وينذلهم

فالحكومات عنده خمس درجات ﴿ أرقاها حكومة الحكماء والفلاسفة وأدنى منها الحكومة العسكرية ويليهما حكومة ذوى المال والشهوات والترف ، ثم حكومة المجموع الذى هو أشبه بالفوضى ثم حكومة الفرد ، فالحكومة الرابعة لامناص منها اذا استبد الأغنياء وأرباب الشهوات بالأمر فأخذوا المال وحدهم وسخروا الأمة لمطالبهم ، وهذا هو الذى حصل فى بلاد روسيا إذ قام الشعب فأزال القيصرية وأرباب الأموال وهذا من قوله تعالى - ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوراثين - اللهم إن الشرق الآن ضعيف فليقم فيه قائمون يرجع اليه مجده ويزيل الظالمين من أرضه

وهنا أذكر لك ﴿ حادثين ﴾ الحادثة الأولى ﴿ وقعت أيام الفراعنة فقد جاء فى بعض المجلات فى بلادنا وهى مجلة « كل شئ » مانصه

(البولشفية فى مصر قبل ٤٠٠٠ سنة)

كلما تفاقمت الشرور وتهاظم الناس أمرها شعروا كأن نهاية العالم قد اقتربت وهذا ما شعر به المسلمون عند قدوم التتار عليهم وما شعر به الأقباط عند ما اضطهدهم (دقلديانوس) وهذا أيضا ما شعر به النبلاء فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وفى روسيا سنة ١٩١٧ عند نشوب الثورة ولعلّ فى هذا الشعور رجة للمضطهدين لأنه يهزيمهم عن فقدهم مجدهم ويوهمهم أن العالم كله سيذهب بعدهم بقليل

وقد حدث سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد ثورة بولشفية فى مصر تغلبت فيها الكثرة من العامة على القلة من الخاصة وطردتهم من الأرض والمسكن واحتلت مكانهم وكان ذلك فى الأسرة العاشرة ، والغريب فى هذه الثورات القديم منها والحديث أن يسبقها على الدوام ثورة فكرية تهيئ الأذهان للانقلابات القادمة ، فأدباء فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر طبخوا الثورة طبخا فى أذهانهم قبل وقوعها ، وأدباء روسيا هم الذين أحدثوا الشيوعية فى كتبهم قبل أن يقتل الثائرون القيصر وأسرتة ، وكذلك الحال فى مصر فى الأسرة التاسعة كانت مشهورة بكثرة المفكرين حتى اذا جاءت الأسرة العاشرة كانت العقائد قد تزعزعت وزالت من النفوس تلك الكرامة التى كانت للحكام والأخلاق ، وكانت الأسرة العاشرة تحكم الوجه البحرى وجزأ من الوجه القبلى وكان فى طيبة أمام الاقصر أسرة فرعونية أخرى تحكم جزأ صغيرا من الصعيد ، وفى هذه الأسرة العاشرة انهزم سلطان فرعون وأخذ كبار القواد والاعيان يؤلفون الجيوش يقاتل بعضهم بعضا حتى ساءت ادارة البلاد وكثر اللصوص وعم القحط فقام العمال فجأة وهجموا على الأغنياء فقتلواهم واستولوا هم على الارض والمنازل

ونحن نعرف خبر هذه الثورة من كاتب مصرى يدعى (ابفور) رأى بهينه هذه الثورة وكان أمينا لفرعون يواليه وكان فرعون قد فرّ من أعدائه الى مكان خارج مصر فأرسل اليه (ابفور) خطابا يستعجته على الرجوع لكي يعيد النظام الى نصابه ومما قاله فى خطابه هذا ﴿ إن الناس قد ثاروا على التاج وقامت منهم طائفة قليلة العدد لانظام لها تريد التخلص من الملوكية ، وقد ذهب النظام القديم وهدم البلاط فى لحظة وطرد العمال الملك وأصبحت خزانة الدولة ملكا لكل انسان ﴾

وبعد ذلك يصف أحوال الناس فى تلك الفوضى فيقول ﴿ إن من لم يكن يملك شيأ قد أصبح الآن غنيا فأثرى فقراء البلاد وبات الأغنياء لا يملكون شيأ ، ومن كان قبلا خادما قد صار الآن مخدوما وكفّ الخدم عن تأدية المهام التى يكلفهم بها أسيادهم وصاروا لا يخشون مخالفة أوامرهم وانطلق لسان الخادمت حتى صرن

لا يطقن كلمة من سيداتهن وهؤلاء الخادومات يزين نحورهن بالذهب والجواهر ومع أن البلاد لا تزال غنية فإن ربات البيوت يقلن « ليتنا نجد شيئاً نأكله » وذلك لأن الفقراء قد امتلأوا البلاد

ثم يقول « إن من كانوا يلبسون الملابس الفاخرة قد صاروا الآن يلبسون الاهدام البالية ، ومن لم يكن يجد الخبز قد صار له بيدر وامتلات خزائنه بأموال الناس ، ومن لم تكن ترى وجهها إلا في الماء قد صارت تقتنى المرأة ، فالأغنياء في حزن ومن كانوا في فقر يفرحون الآن ، ومن كان له أب عظيم صار لا يعرف الآن أو يميز من لم يكن له أب مثله لأن عائلات النبلاء طردت من بيوتها إلى الشوارع ، وقد جاع الأمراء والأميرات وصارت أجسامهن في حال محزنة للمخرق والاسمال التي يلبسونها »

ثم يقول (ابفور) أيضاً « لقد حدثت حوادث مدهمة خلعت أطفال النبلاء وضربوا بالحائط ، وفتحت المحاكم وبعث ما فيها من الكتب وداس عليها الناس في الأماكن العامة وسرقت مصالح الحكومة وذبح الموظفون وأخذت أوراقهم وكل شيء صار في خراب وجميع البلاد تقول هلموا نذل الولاة والحكام وذوى السلطان بيننا ومع أن الناس ينادون بالحق بأنفواهم فان ما يفعلونه هو الباطل » ثم يصف بعد ذلك ثمرات الثورة يقول « إن وجوه الناس شاحبة لأن المجرمين مطلقون ولم يبق أحد من ذوى السلطان فاذا قصد الفلاح إلى حقله حمل معه سلاحه ويقول الخدم هلموا نسرق شيئاً ، والأب يقاتل ابنه ويعتد أخاه عدواً له ، وقد قست قلوب الناس والدم يسفك في كل مكان والموت يحصد الناس وليس بالبلاد صناع يعملون الآن ، وكف الناس عن حث الأرض وصارت المواشى ترعى هاملة سائبة ليس لها راع ، والناس يأكلون العشب ويشربون عليه الماء وتؤخذ الأعمدة والبوابات والسيارات للحريق والصناديق المصنوعة من الأبنوس تحطم » انتهى

الحادثة الثانية

إن الأمة الانجليزية التي تحكم بلادنا قد انتصر العمال فيها ولكن هذا الانتصار مبني على العقل وعلى الحكمة لاعلى الظلم والفتك كما فعل الروس والمصريون القدماء وهذا ما جاء بجريدة الاهرام يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ عند طبع تفسير هذه الآية (في بريطانيا العظمى)

« انتخبت (مس بوند فيلد) وزيرة العمال وهي أول امرأة في تاريخ الانجليز ذكية الفؤاد كف تشترك مع الرجل في تخطيط سياسة الامبراطورية ومصير بلادها ، فهي تفتخر كذلك بأنها كانت عاملة في دكان كما يفتخر رئيسها المستر (ماكدونالد) بأنه لما وصل الى لندن لأول مرة في حياته كان لا يمتلك أكثر من شلنين ونصف وكان يستبدل الشاي بالماء الساخن في شربيه ولا تزيد مصاريف يومه عن ثمانية بنسات ، هذا هو المستر (ماكدونالد) مدير الامبراطورية اليوم ، وهذه مس (بوند فيلد) يوضع اليوم في يدها أهم مشكلة تعانيها الامبراطورية منذ ربع قرن ، ولم تكن (مس بوند فيلد) شديدة التأثير والانفعال بل كانت أشد من زملائها الوزراء من الرجال حينما ذهب أعضاء الوزارة الجديدة الى قصر وندسور لمقابلة جلالة ملك الانجليز فقد كانت تسير بين الجمهور بجنان ثابت وعزيمة قوية إذ ابتسمت وهزت رأسها حينما سئلت عما إذا كان المركز يثقلها وقالت لا يا عزيزي لست كذلك بعد مجهود أربعين عاماً ، إني مفتخرة بأن أكون أول امرأة تصل إلى كرسى الحكم وأشعر بسعادة لأن الفرصة قد هيأتني للعمل في مسألة كانت ولا تزال موضع اهتمامي ، والواقع فان (مس بوند فيلد) كانت في مجموع العموم المنحل كثيرة الاهتمام بمسألة العمال وعائلاتهم فقد قدمت في دوره الماضي مشروعاً لحماية أطفال العمال باعانة الحكومة لهم وشراء الأحذية اللازمة لهؤلاء الاطفال وهذا المشروع معروف بمشروع أحذية الأطفال » اه

اللطف الإلهية والتدبير لانقاذ بني اسرائيل من الذل

ولما أتم الله هذين الفصلين شرع يبين للناس لطائفه وتدييره في ابراز ما أراد له لتستيقظ الأمة الاسلامية

إذا ضعفت ولتعلم أن الله ما أنزل القرآن إلا لاسعادهم ، علم الله أن أمة الاسلام سيحل بها ما حل بالأهم قبلها من عزّ وذل وقد أخذت حظها من الرفعة ثم سقطت الى الخضيض فأنزل هذه القصة ليبين انه يلهم أناسا اسعاد الأمة فينبغي ألا يأسوا وليعلموا أن الله الذي نجى بنى اسرائيل هو نفسه حيّ ينجى المسلمين متى صحت العزائم والقلوب لاتزال قابلة للإلهام والله لا يخلف وعده فلنذكر لك الآن الحوادث المتتابعة التي انتهت بانقاذهم ثم تتبعها بما يناسبها من حوادث العصر الحاضر ثم نذكر المسلمين أن الله معهم - وان الله لمع المحسنين - وتلك الحوادث (١٣)

﴿ الحادثة الأولى ﴾

قال تعالى (وأوحينا الى أم موسى) باطهام أو رؤيا (أن أرضعيه) أي بأن أرضعيه ما أمكنك اخفاؤه (فاذا خفت عليه) بأن يعلموا به (فألقيه في اليم) في البحر وأراد به النيل (ولاتخافي) عليه من الفرق (ولاتحزني) على فراقه (إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) * يروى انها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالي بنى اسرائيل فعالجتها فلما ولد موسى أحبته حبا جما فأرضعته أمه ثلاثة أشهر ولما أحست بالارصاد والعيون وضعته في تابوت وألقته في اليم ، هذه هي الحادثة الأولى

﴿ والحادثة الثانية ﴾ التقاط آل فرعون له ﴿ والثالثة ﴾ رضاع أمه له ﴿ والرابعة ﴾ نبوغه في العلم ﴿ والخامسة ﴾ قتله القبطي ﴿ والسادسة ﴾ و ﴿ السابعة ﴾ و ﴿ الثامنة ﴾ فراره الى مدين ، وسقيه للبنتين ، وزواجه بابنة شعيب عليه السلام ﴿ والتاسعة ﴾ نزول الوحي عليه ﴿ والعاشرة ﴾ ظهور المعجزة ﴿ والحادية عشرة ﴾ كفر فرعون ﴿ والثانية عشرة ﴾ هلاك فرعون وجنوده أئمة الضلال ﴿ والثالثة عشرة ﴾ خطاب النبي ﷺ بذلك لاستيقاظ أمته

﴿ الحادثة الثانية ﴾

قال تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) اللام للتعليل بحسب الأصل وجعلت هنا للعاقبة لأن آل فرعون لم يريدوا أن يكون عدواً وحزناً بل هذه هي العاقبة (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) مذنبين يقتلون أبناء بنى اسرائيل ويستغيثون نساءهم فلا بدع اذا ربي موسى بين ظهرا نبيهم وصار عدواً فاقتص منهم لأن هذا هو العدل (وقالت امرأه فرعون) لفرعون حين أخرجه من التابوت (قرّة عين لي ولك) لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحياه (لا تقتلوه) خطاب بلفظ الجمع للتعظيم (عسى أن ينفعنا) فان فيه مخايل اليمين ودلائل النفع * يقال انه كان لفرعون بنت ولم يكن له ولد غيرها وكان بها برص وقد وصف لها الأطباء ريق مخلوق يشبه الانسان يخرج من البحر في ساعة كذا حين تشرق الشمس ، فلما كان ذلك اليوم جلس فرعون على شفير النيل ومعه آسية امرأته وابنة فرعون معهما ظهر التابوت فلم يقدر على فتحه إلا آسية لأنها هي التي رأت النور مشرقاً منه فظهر منه صبى صغير وجهه منير وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمض منه لبناً فأحبه فرعون وآسية فأما ابنته فأنها عمدت الى مايسيل من أشداقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته الى صدرها ، ولما قال له القوم اقتله قالت آسية لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكانت لاتلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال لها أما أنا فلا حاجة لي فيه * قال رسول الله ﷺ « لو قال يومئذ قرّة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها الله » فقليل لآسية سميته فقالت سميته موسى لانا وجدناه في الماء والشجر لأن « مو » هو الماء و « سا » هو الشجر ، هذا قول بعض المفسرين وأقول لكن قال أساتذة علم قديماء المصريين الذين يقرؤون الخط الهيروغليفي ان « مو » هو الماء كما قال هؤلاء أما « سا » فعناه ابن أى ابن الماء ، فهذا قوله تعالى - فالتقطه آل فرعون - الى قوله - عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً - أى نبتناه فانه أهل له (وهم لا يشعرون) حال من الملتقطين

﴿ الحادثة الثالثة ﴾

(خوف أم موسى عليه وفزعها وارجاعه لها وارضاعها إياه)

قال تعالى (وأصبح فرعون أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والخيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون وهذا كقوله تعالى - وأفئدتهم هواء - أي خلاء لاعقول بها (ان كادت لتبدي به) أي لتصرّح بأنه ابنها من شدة وجلها وتقول « وا ابنه » (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر والتثبت (لتكون من المؤمنين) من المصدقين بوعد الله إياها فلما ربط الله على قلبها وصدقت وعد الله أخذت في الأسباب لحفظ ابنها (وقالت لأختها) لمريم أخت موسى (قصيه) اتبعي أثره وتبعي خبره (فبصرت به عن جنب) عن بعد * وقرئ - عن جانب - وهو بمناء (وهم لا يشعرون) انها تنقص أثره وانها أخته (وحرمنا عليه المراضع) أي حرّمنا عليه أن يرتضع من المرضعات جمع مريض (من قبل) من قبل قصصها (فقال هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) لأجلكم (وهم له ناصحون) لا يقصرون في ارضاعه وتربيته فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله فأتت بأمها وموسى على يد فرعون يبكي وهو بعاله فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه فقد أتي كل ثدي إلا ثديك فقالت إني امرأة طيبة الريح وطيبة اللبن لا أوتي بصبي إلا قبلني فدفعه اليها وأجزي عليها فرجعت الى بيتها من يومها وهذا هو قوله (فرددناه الى أمه كي تقر عينها) بولدها (ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم أن وعد الله حق) علم مشاهدة (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن مواعده حق فيرتابون فيه وقوله - ولتعلم أن وعد الله حق - فيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون . انتهت الحادثة الثالثة

﴿ الحادثة الرابعة نبوغه في العلم ﴾

قال تعالى (ولما بلغ أشده) مبلغه الذي لا يكاد يزيد عليه نشؤه يقال انه في نحو ثلاث وثلاثين سنة (واستوى) أي بلغ أربعين سنة ويقال انتهى شبابه وتكامل (آتيناه حكما وعلما) عقلا وفهما في الدين فعلم وحكم موسى قبل أن يبعث نبيا (وكذلك نجزي المحسنين) أي مثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه نجزي المحسنين على احسانهم

﴿ الحادثة الخامسة . قتله القبطي ﴾

قال تعالى (ودخل المدينة) ودخل مصر آتيا من عين شمس (على حين غفلة من أهلها) في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعون فيه يقال انه وقت القياولة (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) أحدهما من شايبه على دينه وهم بنو اسرائيل والآخر من مخالفيه وهم القبط (فاستغاثه الذي من شيعته) وهو الاسرائيلي (على الذي من عدوه) أي القبطي فسأله أن يغيبه بالاغاة ولذلك عدى بعلي (فوكزه موسى) فضرب القبطي موسى بجمع كفه (فقضى عليه) أي فقتله وأصله فأنهى حياته (قال هذا من عمل الشيطان) لأنه لم يؤمر بقتل الكفار ولأنه كان مؤمنا فيهم فلم يكن له اغتيالهم ولا يقدح في عصمته قتل الخطأ (انه عدو مفضل مبين) ظاهر العداوة (قال رب إن ظلمت نفسي) بقتله (فاغفر لي) ذنبي (فغفر له) باستغفاره (انه هو الغفور) لذنوب عباده (الرحيم) بهم وانما عدّه من عمل الشيطان وسماه ظاهرا واستغفر منه لأن المقرّبين يستعظمون كل ما فرط منهم ولو خطأ (قال رب بما أنعمت عليّ) أي أقسم بانعامك عليّ بالمغفرة وغيرها لأتوبنّ (فلن أكرن ظهيرا للمجرمين) فلن أكون هينا لمن أدت معاونته الى جرم * قال ابن عباس انه لما لم يستثن ابتلى به مرة أخرى (رفأصبح في المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستقادة (فاذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه) يستغيثه مشتق من الصراخ (قال له موسى إنك لغوي مبين) مبين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما) لموسى والاسرائيلي ، ومعلوم أن القبط أعداء بني اسرائيل (قال)

الاسرائيلي (ياموسى أتريد أن نقتلنى كما قتلت نفسك بالأمس) ولم يكن أحديهم من قوم فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى حتى أفشى عليه الاسرائيلي فسمعهما القبطى فأتى فرعون فأخبره وانما قال الاسرائيلي ذلك لأنه ظن أن موسى بقتل القبطى عمد اليه هو لما سمع من قوله - إنك لغوى مبين - فقال ما تقدم وتماه (إن تريد) أى ما تريد (إلا لما هم أن تكون جباراً فى الأرض) تطاول على الناس ولا تنظر العواقب (وما تريد أن تكون من المصلحين) ولما فشا أن موسى قتل القبطى أمر فرعون بقتله فخرجوا فى طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال له سمعان وهو قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) يسرع فى مشيه حتى سبق الى موسى فأخبره وأنذره بما سمع (قال ياموسى إن الملائكة ياأثمرون بك) يتشاورون فيك (ليقتلوك) وقيل يأمر بعضهم بعضاً بقتلك (فأخرج) من المدينة (إني لك من الناصحين) أى فى الأمر بالخروج (فخرج منها) موسى (خائفاً) على نفسه من آل فرعون (يتربص) ينتظر لحوق طالب فيأخذه ثم لجأ الى الله تعالى لعلمه أنه لا ملجأ إلا اليه (قال رب نجنى من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم

الحادثة السادسة ، والحادثة السابعة ، والحادثة الثامنة ﴿

(أنه ورد ماء مدين وسقى لابنتى شعيب وتزوج باحدهما)

قال تعالى (ولما توجه تلقاء مدين) نحوها والتوجه الاقبال على الشئ ومدين قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن ابراهيم ولم تسكن فى سلطان فرعون ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه وانما توجه نحوها لأنه وقع فى نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأن أهل مدين من ولد ابراهيم وموسى من ولد ابراهيم ومدين ابن ابراهيم ولما خرج لم يكن معه زاد ولا ظهر ولا طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض وما وصل الى مدين حتى وقع خف قدميه وبين مصر ومدين كما قيل ثمانية أيام * قال ابن عباس وهو أول ابتلاء الله لموسى (قال) موسى (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) قصد الطريق الى مدين فهداه الله اليها (ولما ورد ماء مدين) هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم (وجد عليه) على الماء (أمة) جماعة (من الناس يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) سوى الجماعة (امراًتين تذودان) تمنعان أغنامهما من الماء لئلا تختلط بأغنامهم تحبسان غنهما عن الماء من ضعفهما حتى يفرغ القوم (قال ماخطبكما) ماشأنكما تذودان غنمكما (قلنا لانسى حتى يصدر الرعاء) يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء حذراً من مزاحمة الرجال فاذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل مابقى فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) لا يقدر أن يسقى مواشيه فلذلك احتجنا نحن الى سقى الغنم اضطراراً لذلك قيل أبوهما شعيب أو ابن أخى شعيب بعد ما مات شعيب أو رجل ممن آمن بشعيب فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ، فلما فرغ الرعاء من السقى غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر جاء موسى فرفع الحجر وحده وسقى الغنم بالدلو كما سقى الرعاء وذلك قوله تعالى (فسقى لهما) مواشيهما راحة ورأفة (ثم تولى الى الظل) (فقال رب إني لما أنزلت الى من خير) قليل أو كثير والمراد به الطعام (فقير) محتاج * قال ابن عباس سأل الله فلقه خبز يقيم بها صلبه ، فلما رجعتا الى أبيهما قلنا وجدنا رجلاً صالحاً رجنا فسقى لنا أغنامنا فقال لاحدهما اذهبي فادعيه الى (جفاته إحداهما تمشى على استحياء) مستحيية متخففة واسمها صفوراء وهى التى تزوجها موسى (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك) ليس كافئك (أجر ما سقيت لنا) جزاء سقيك لنا فأجابها بتركها برؤية الشيخ وليستظهر بمعرفته لاطمئنا فى الأجر ، فلما قدم له الطعام امتنع عنه وقال « إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدينيا » فقال الشيخ هذا عادتنا مع كل من ينزل بنا (فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) كما دعا موسى ربه إذ قال - رب نجنى من القوم الظالمين - أى فرعون وقومه (قالت إحداهما) التى استدعته (ياأبت استأجره) لرعى الغنم (إن خير من استأجرت القوى الأمين) فقال الشيخ وما علمك بقوته وأمانته فذكرت إقلال الحجر وأنه صوب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه

(قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني) أي إني أريد أن أزوجه صفوراء التي طلبتك على أن تكون أجيرا لي (ثمانى حجج) أي ثمان سنين (فإن أتممت عشرا فمن عندك) أي فإن أتممت عشرين سنين فذلك تفضل منك وليس بواجب عليك (وما أريد أن أشق عليك) أي ألزمك تمام العشر في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة (قال ذلك يبنى وبينك) أي ما شرطت على فلك وما شرطت من تزوج احدهما فلي والأمر بيننا على ذلك (أيما الأجلين قضيت) أي أي الأجلين أتممت وفرغت منه الثمانية أو العشرة (فلاعدوان على) أي لا ظلم على بأن أطالب بأكثر منه (والله على ما نقول وكيل) شهيد بيني وبينك * قال ابن عباس « قضى أكثر الأجلين لأن رسول الله إذا قال فعل » ويقال إن شعيبا بكى ثم عمى فرد الله بصره وكرر ذلك ثلاث مرات يعمى ويرد الله بصره عليه فقال الله له ما هذا البكاء أشوقا إلى الجنة أم خوفا من النار فقال لا يارب شوقا إلى لقائك فأوحى الله إليه هنيئا لك لقاءي يا شعيب لذلك أخدمتك كليمي موسى * ويقال إن العصا كانت عند شعيب ورثها عن الأنبياء فسلمها إلى موسى

﴿ الحادثة التاسعة ، والعاشرة ، والحادية عشرة ، والثانية عشرة ﴾

(إرسال موسى وظهور المعجزات على يديه وكفر فرعون وجنوده وهلاكهم وانهم أئمة الضلال)
قال تعالى (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله) قاصدا مصر بامرأته بعد أن استأذن من شعيب (آنس) أبصر (من جانب الطور نارا) من الجهة التي تلى الطور (قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر) بخبر الطريق (أوجدوة) عود غليظ سواء أكانت في رأسه نار أم لم تكن ولذلك بينه بقوله (من النار لعلكم تصطلون) تستدفئون (فلما أتاه نودي من شاطئ الوادي الأيمن) يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى (في البقعة المباركة) جعلها الله مباركة لأن الله تعالى كلم موسى هناك وبهته نبيا (من الشجرة) أي من ناحية الشجرة وكانت من العليق ومن الشجرة بدل اشتغال من شاطئ (أن ياموسى) أي ياموسى (إني أنا الله رب العالمين) وقد خلق الله في نفس موسى علما ضروريا بأن المتكلم هو الله تعالى وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى (وأن ألق عصاك) فألقاها فصارت ثعبانا واهتزت (فلما رآها تهتز كأنها جان) أي حية صغيرة في سرعة حركتها (ولى مدبرا) هاربا منها (ولم يعقب) ولم يرجع فنودي عند ذلك (ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين) من المخوف فانه لا يخاف لدى المرسلون (اسلك يدك في جيبك) أدخلها (تخرج بيضاء من غير سوء) عيب وبرص ، والمعنى انه أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ، ولما اعتري موسى الخوف تارة من العصا وتارة من الدهشة بشعاع يده أمره الله أن يتجلد ويظهر الثبات والجرأة بقوله (واضمم إليك جناحك من الرعب) من أجل الرعب أي الخوف مأخوذ من حال الطائر فانه اذا خاف نشر جناحيه واذا أمن واطمأن ضمهما إليه ، ويجوز أن يراد وضمم يدك الى صدرك يذهب ما بك من فرق حتى قال ابن عباس رضى الله عنهما « كل خائف اذا وضع يده على صدره زال خوفه » ولا غضاظة في ارادة المعنيين معا أي انه يتجلد بقلبه ويضع يده على صدره ليكون تأكيد الزوال الرعب (فذا لك) أي العصا واليد (برهانان) حجتان (من ربك الى فرعون وملكه إنهم كانوا قوما فاسقين) فكانوا أحقاء بأن يرسل اليهم (قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بها (وأخى هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردأ) معينا (يصدقني) بتلخيص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهات (إني أخاف أن يكذبون) ولساني لا يطاوعني عند الحاجة (قال سنشد عضدك بأخيك) سنقويك به وكان هرون بمصر (ونجعل لك سلطانا) حجة وبرهانا (فلا يصاون اليكما) يقتل ولا سوء نسلطكما (بآياتنا) فهو متعلق بقرله سلطانا أو فلا يصاون اليكما بسبب آياتنا (أنتم ومن اتبعكما الغالبون) لفرعون وقومه (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا

سحر مفترى) أى سحر عمله أنت ثم تفتريه على الله وليس محجزة (وماسمعنا بهذا) الذى تدعوننا اليه (فى آياتنا الأولى) * وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) العاقبة المحموده (إنه لا يفلح الظالمون) أى ربي أعلم منكم بحال من أهله للفلاح حيث جعله نبيا ووعدده حسن العقبي يريد بذلك نفسه وهو لا يرسل الكاذبين بل يخذلهم ولا ينبي الساحرين والمراد بالدار هي الدنيا والعاقبة المحموده أن يحتم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى والغفران (وقال فرعون يأيتها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) إن قدماء المصريين كانوا يجعلون الأئمة (ثلاث طبقات) عليا وهم الكهنة ووسطى وهم الجيش وسفلى وهم بقية الطبقات وفرعون مصر من صف يشرف على الكهنة وكانت لهم قوانين يتبعها الملوك والرعية وكان الملوك مطاعا سواء أكان عادلا أم جائرا ولكن إذا مات يحاكمونه فان كان عادلا دخل المقبرة التى له والا فلا وكان الملوك على كل حال مقدسين منزهيين متصلين بالآباء والآلهة ، هذا كان اعتقادهم وليس يعتقد فرعون إنه هو الرب وحده وإنما كانت الألوهية هنا كالربوبية فى قوله تعالى - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله - وفسرها عليه السلام بأنهم يشرعون لهم الشرائع كما تقدم ، فهذا يقول فرعون تارة - أنا ربكم الأعلى - وتارة - ما علمت لكم من إله غيرى - ولقد كان الكهنة يحرمون على الشعب أن يعرف الحقائق وعلى تملادى الزمان قدسوا الأشخاص الانسانية وبعض أنواع الحيوان والفراشة كانوا أكبر المقدسين عندهم فيكونون أكبر الآلهة لأنهم متصلون بالآلهة الذين فوقهم ، ولا تظن أن هذا بعيد غاية الأمر أن كثيرا من الناس غافلون . إن أمة اليابان لها ملك يزعمون أن أجداده منذ أربعة آلاف سنة جاؤا من نسل امرأة من السماء أى من الآلهة فهو عندهم كأنه نصف إله ، وعلى ذلك تجد أن القائد الياباني الذى غلب دولة الروس فى الحرب بينهما ويسمى «توجي» لما مات الملك تقرب إلى الله بالانتحار هو وزوجته العجوز وإنما انتحرا ليدفنا مع الملك وذلك على حسب القاعدة الدينية من قتل نفسه عند موت الملك كان الله راضيا عنه مع أن هذا القائد يعرف جميع العلوم العصرية ، ولا تظن أن المسلمين والنصارى وسائر الأمم خلو من هذه الفكرة فان كثيرا من مشايخ الطرق يفهمون تلاميذهم أنهم يفعلونهم ويضرونهم ، وهذه الفكرة عامة فى كل طبقة جاهلة من أى نحلة وأى دين على وجه الأرض ، وترى كثيرا من أتباع الشيوخ أحياء أو أموات متى سمعوا لهم أمرا التزموه كأنه منزل من الله بل بعض الصوفية فى عصرنا وفى غيره يقدسهم تلاميذهم ويلبسون وجوههم عن كل ما يقال فى الدين ، فاذا أعطوهم وردا انكبوا عليه وان كانوا جهلاء بهذه الدنيا وبنظام الكون ، ومنهم من يحرم عليهم النظر فى العلوم والمعارف ، ومنهم من يقول لهم إن الفقهاء قوم لا يعرفون إلا القشور ويقولون دعوا علم الفقه واتبعوا الذكر وحده وهكذا تنوعت الطرق وتنوعت الاعتقادات فتفرق أهل الاسلام وأخذهم الفرنجة ، كل هذا لأن كل ذى طريقة أو فكرة يفهم أتباعه أنه لانبجاة إلا بما عرفوه منه ويتركون بقية الدين ، وكل ذلك كقولته تعالى - ما علمت لكم من إله غيرى - فلا فرق بين أتباع فرعون فى الجهالة وبين أتباع أى دين اذا جدوا على قول شيخهم وانما ديننا هو ما أوضحناه فى هذا التفسير بحيث يكون المؤمن عارفا بربه ناظرا فى الطبيعة من حيوان ونبات وانسان وفلك فان لم يعلم ذلك فليعلم به وليأمر المتعلمون الجهال بالنظر على قدر الامكان ، ولعلك تقول إذن جميع الأمم وجميع أهل الطرق بل جميع المسلمين كافرون ، أقول لك . كلا . المسلمون جميعا ناجون لا أفرق بين جماعة وجماعة هذا اعتقادى الذى ألقى الله عليه ولكن الكلام فى النقص ، ففرق بين من ينجو وهو ناقص وبين من ينجو وهو كامل ، والتعاليم الاسلامية اليوم فى غاية النقص والجهالة ، فاذا لم يتعاضد جميع الشيوخ على تعليم الشعب النظر فى هذا الوجود فلا فلاح لهم فى الدنيا وهم فى الآخرة ناقصون حقا ، إن من لم يفتح أبصار المسلمين من السنيين والشيعة والزيديين وغيرهم إلى ما نقوله فى هذا التفسير وقد اطلع عليه فان الله سبحانه يعاقبه لأنه علم وكتم ، إن الله يعاقب المسلمين اليوم

جيسا في الدنيا على جهلهم ويعاقب الرؤساء اذا لم يفتحوا عيون تلاميذهم الى ما أبدع الله في السموات والأرض ليفتح المسلمون المدارس في الأرض وليعلموهم العلوم تعليما اجباريا لينظروا صنعة ربهم . وحرام ثم حرام على كل شيخ أن يأمر تلاميذه بالجهالة وحسبنا الله ونعم الوكيل . اذا عرفت هذا فقد عرفت قول فرعون هنا - ما علمت لكم من إله غيري - . فله السلطة الديوية والقوة الروحانية في نظر الشعب الجاهل والآلهة كلهم متى أشار بأشارة أنفذوها في الشعب . هذا هو الاعتقاد الذي كان سائدا وترى نظيره في الأرض

﴿ حكاية ﴾

قد تقدم في هذا التفسير لاسيا في آخر (النساء) أن حكايات جرت لي مع الفلاحين وفيها أن المرحوم عمي الشيخ محمد شلبي سأل القائم بحديثه المسمى (أبا حوده) أن يحلف بالله على العنب خلف ولما قال له احلف على أبي مسلم قال لا إني أخاف منه ، فانظر كيف جعل الشيخ أبا مسلم الذي له ضريح يزوره الناس في بلادنا بالشرقية قادرا أن يؤذيه فأما الله فانه رحيم ، وأي ألوهية أكثر من ذلك ، افلا يكون فرعون عند المصريين قديما كالشيخ أبي مسلم عند أبي حوده ، واذا قال ﷺ « إن تشريع الشرائع وتحليل الحلال وتحريم الحرام أوجب أن يسمى الأحرار والرهبان أربابا » فكيف اذا انضم الى ذلك عقائد التصرف في أنفس الأحياء بالنفع والضر ، أفلا يحق لفرعون إذن أن يقول - أنا ربكم الأعلى - وأن يقول - ما علمت لكم من إله غيري - يقول المؤلف وأنا أجد الله على هذه المعاني في هذا المقام لأن هذا يوافق العلم المنتشر عن قدماء المصريين وسيزيد هذا العلم وضوحا وانتشارا بين المسلمين فتى عرفوه وقرأوا هذا التفسير وجدوه مطابقا لما قرؤوه في الرسائل وعلى الأشجار وفي الأوراق البردية وفي القبور والبرابي والاهرام ، ولما كان هذا شأن فرعون وأنه ساطع تسلطا ماديا وروحيا على الناس أخذ يتم تعاليمه فطلب من وزيره أن يطبخ له الطين فيجعل اللبن آجرا أي طينا محرقا ويبنى له منارة عالية جدا يرصد منها أوضاع السكواكب ويحسب حركاتها وينظر هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل حال الأمم وهذا قوله تعالى (فأوقد لي يا هامان على الطين) أي اتخذ لي الآجر واطبخه (فاجعل لي صرحا) منارة (لعلني أطلع الى إله موسى) أي الى فعله هل في الأفلاك الدائرات وحركات الأجرام التي خلقها دليل على انه اختار موسى للنبوّة أهل هناك إله غير من نعرفهم من آلهة المصريين (واني لأظنه من الكاذبين) في زعمه أنه نبي عن إله العالم الذي يغير من نعرفهم في أرض مصر ونحن نفعل كل شيء ونتصرف بامدادهم (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا أنهم اليينا لا يرجعون) بالنشور (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) كما تقدم في التفسير (فانظر) يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) وحذر قومك أن يكونوا مثلهم (وجعلناهم أئمة) قدوة للضلال بالجل على الضلال (يدعون الى النار) الى موجباتها من الكفر والمعاصي (ويوم القيامة لا ينصرون) لا يدفع العذاب عنهم (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) طردا من الرحمة (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين أو ممن قبحت وجوههم

﴿ الحادثة الثالثة عشرة ﴾

قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) أقوام نوح وهود وصالح ولوط (بصائر للناس) حال من الكتاب والبصيرة نور القلب الذي يبصر به الرشيد والسعادة كما ان البصر نور العين الذي يبصر به الأجسام أي آتينا التوراة أنوارا للقلوب لأنها كانت عميا لا تستبصر ولا تعرف الحقائق (وهدي) من الضلالة لمن عمل به (ورحمة) لمن آمن (لعلهم يتذكرون) بما فيه من المواعظ أي ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر (وما كنت) يا محمد (بجانب) الجبل (الغربي) وهو المكان الواقع في شق الغرب منه وهو الذي وقع فيه ميقات موسى (إذ قضينا الى موسى الأمر) أي كلمناه وقرّبناه نجيا (وما كنت من الشاهدين) من جملة الشاهدين للوحي اليه حتى تقف بالمشاهدة على ماجرى من أمر موسى في ميقاته (ولكننا

أنشأنا قرونا) بعد موسى (فتناول عليهم العمر) أي طالت أعمارهم وفترت النبوة فنسوا عهد الله واندرست العلوم ووقع التحريف والتخريف في كثير منها فأرسلناك مجددا لتلك الأخبار مبينا ما وقع فيه التحريف فلذلك أعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى ، يقول الله أنت يا محمد ما كنت مشاهدا ما حصل لموسى من الوحي وطالت الفترة فكان ذلك سببا لارسالك فالاستدراك بين به سبب الوحي الذي يفهم من السياق ، ومثل ما قيل هنا يقال في قوله (وما كنت ثاويا) مقيا (في أهل مدين) وهم شعيب والمؤمنون به (تتلوا عليهم آياتنا) تقرأها عليهم تعلمنا منهم أي لم تقرأ الآيات التي فيها قصة شعيب (ولكننا كنا مرسلين) أي ولكننا أرسلناك واختناك بها وعلمناكها بعد ماضت قرون اندرست فيها العلوم فأرسلناك لتبين للناس ما اندرس منها وتذكر الحقائق وتدحض المحرف منها (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى لما أخذ الكتاب بقوة (ولكن) أعلمناك وأرسلناك بعد ما اندرست العلوم وحرفت القصص (رجة) للرجة (من ربك لتندرقوما ما أناهم من نذير من قبلك) في زمان الفترة بينك وبين عيسى (لعلهم يتذكرون) يتعظون بما سمعوا من هذا القصص . انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة

هأت ذ اطلعت على الحوادث التي عددناها (١٣) التي منها اثنتا عشرة حادثة حصلت لتمام أمر موسى ونجاة بني اسرائيل وهلاك أعدائهم ، ابتدأت هذه الحوادث بفكرة خطرت لأم موسى أن ترضعه وألهمت أو رأت في المنام انه محفوظ لها وسيرجع ، لم تكذب هذا الإلهام ولم تيأس من رحمة الله ، فكلم في أمة الاسلام من رجل ومن امرأة ومن شاب ومن شيخ ومن عالم ومن جاهل تخطر لهم خواطر تحثهم على خروجهم من مأزق الذلة والهوان ومن اقتناص براثن أورو باهم ، تخطر لهم هذه الخواطر فلا يعيرونها التفاتا ، يقولون الأمر انقضى والاسلام انتهى والدنيا أدبرت والآخرة أقبلت والعالم سيزول والأرض ستذهب

هذه هي الأراجيف والأكاذيب والوساوس التي تقوم في عقول المسلم الجاهل ، لماذا ؟ لأنه لم يعرف القرآن لماذا ؟ لأنه لم يعرف هذه القصة إلا كما يعرف الطفل جمال الزهرة وجمال الورق وجمال الشجر ولكن أباه يعلم أن الزهرة ذابلة والورق انما خلق للمساعدة على تغذية الشجرة والأغصان والقضبان والجدوع انما هي وسائل للثمرات والثمار هي المقصودة ، أكثر المسلمين هكذا يقرؤون هذه الآيات ويمرّون عليها كما يمر الطفل بالزهر والورق في الحقول والبساتين ولا يفكر في الثمر ، أما أبوه فان قلبه معلق بالثمر ، يظن المسلم أن المقصد من هذه القصة أن يفرح بزهراتها فيقول ما أعجب هذه القصة ، انظر أيها الأخ الى موسى كيف وضع في التابوت وكيف حفظه الله ، وكيف تعلق بالشجرة في البحر ، وكيف اتفق أن فرعون وزوجه وبنته كانوا يشاهدونه وقت طلوع الشمس ، وكيف شفى الله بنت فرعون بريقه ، وكيف ظهر نوره فأحبه فرعون وآسية ، فيما عجا لذلك ، وكيف رجع الى أمه ثانيا فأرضعته ، وكيف أيد الله أخته فدلتهم على أمه ، وكيف كتم الخبر ور بط الله على قلب أم موسى ، وكيف جاء رجل من شيعة موسى يقول له اخرج نصيحة له ، وكيف قدر أن يرفع الحجر الذي لا يرفعه إلا عشرة وما أشبه ذلك . فهذه العجائب يقف عندها أكثر الناس وهم في ذلك أشبه بالاطفال يفرحون بالزهرات أما العقلاء فانهم يقولون يا قوم لاتقفوا موقف الاطفال ، فكما ان الزهرات مقدمات للثمرات هكذا هذه العجائب مقدمات لما هو أهم منها ، إن جمال تلك القصص مسوق لما به السعادة وما به السعادة اما حفظ الأخلاق للأفراد واما حفظ الأمم للجتماعات . هذا هو المقصود . فاذا قرأ القارئ ان موسى كان عفيفا حين رأى بنت شعيب وانه كان أميناً عليها حتى أمرها أن تمشي خلفه وأن هذه العفة وهذه الأمانة رفعت في عين شعيب وابنته تشوق القارئ الذكي أن يكون كموسى أمانة وعفة وكذلك يقلده في العطف على كل ضعيف ويقول إن هذه الأخلاق انتهت بالنبوة ، فهكذا كل الأخلاق الفاضلة تنتهي بجلال المرء وبالفتوح الذي يفتحه الله عليه

﴿ نظرة المسلمين في هذا الزمان ﴾

واذا نظر المسلمون هذه القصة في هذا الزمان علموا انها مسوقة لاسعادهم واعزازهم واخراجهم من المآزق والهلاك . إن المسلمين اليوم في ذل وجهل ما بعده جهل ولكن عقول المسلمين أشبه بأرض خصبة تحتاج الى البذر وانزال الماء فيخرج نبات حسن منها ، هكذا اذا عرف المسلمون مقاصد أمثال هذه الآيات خرجوا مما هم فيه من الذلة . علم الله أن المسلمين سينامون وسيمر عليهم مامراً على الأمم قبلهم وسينوقون السوء فأنزل لهم هذه القصة ، يقول أى عبادى إن نجاة بنى اسرائيل كان مبدؤها فكرة خطرت لأم موسى وإلهاماً ألهمته لها فلم تنبذ الإلهام وتبع ذلك أمور وأمور أخذت هذه الصالحة تفكر ؟ ففيم فكرت ، فكرت في نجاة ابنها ونجاة فرد من مجموع نافعة للمجموع فأرسلت ابنتها تدلهم على من يكفله وكتمت السر وظهرت لفرعون كأنها ليست أمه وهكذا ، كل ذلك بعد الفكرة الأولى لم تيأس من رحمة الله

أيها المسلمون أتدرون لم وقعتم في الذل ، إنكم يئستم من رحمتي في الدنيا ولم تيأسوا منها في الآخرة وهذا خطأ محض ، أنا رحيم في الدنيا ورحيم في الآخرة ، إن يأسكم في الدنيا من نصري لكم أقعدكم عن التفكير في الخروج من الذل وأنا لا أعطى إلا من فكر ، كم من رجل منكم خطر له أن ينفع أمته ، كم من شاب ، كم من امرأة ، كثير جداً منكم يفكرون كل يوم في الخروج من الذل ولكن اذا جاء لهم الفكر طردوه كأنه من كلام الأبالسة ، كأنه من كلام الشياطين ، أى عبادى إن الفكر الصالح موجود يمر بخواطركم ، أنا لم أمنعه ، أنا لم أقص عليكم هذا القصص لأقول لكم إن الإلهام خاص بمن مضى أو بأم موسى . كلا . إن إلهام الخير موجود مستفيض كما يستفيض ضياء الشمس على أرضكم وقد يحجبه ليل أو سحب ولكنه لا يزال موجوداً ولكن خطباؤكم والجهال من شيوخكم قالوا لكم إن الزمان قد قرب والدنيا ستخرب فصددتموهم مع أنى لم أطلع أحداً على غيبى فكيف تحرمون من السعادة ، كلام هؤلاء الشيوخ هو السحب المانعة لضوء شمس العلم التى ألقياها على قلوبكم ، هو الليل البهيم الذى تنام فيه الناس وتقفل أبصارها لذلك حرمت من النصر وحرمت من السعادة . أى عبادى إن حرمانكم من الرقى هذا هو سببه والا فان خطرات السعادة محيطة بكم . فإياكم أن تسمعوا لكلام هؤلاء الشيوخ المشبطين فاذا خطر لكم خاطر النصر وأن تقوموا باسعاد هذه الأمة أو باسعاد أنفسكم أو بحفظ بلادكم أو بطرد العدو منها . فلتعلموا أن هذا الخاطر بذريجب أن يسقى بماء الفكر والسعى والجد والكتمان وحفظ السر كما فعلت أم موسى فان فكرتها نمت وترعرعت وكان من نتائجها أن موسى قوى وكبر وتعلم وابتلى بقتل القبطى وهذا الابتلاء كان سبب نعمة لانقمة لأنه به خرج الى أرض مدين وقابل شعيباً وتزوج ابنته ورجع فأوحى اليه فرجع الى فرعون فأخرج بنى اسرائيل . يقول الله لا تدعوا أيها المسلمون خواطر الإصلاح فليس انعامى محجوباً عن عبادى . أنا اليكم ناظر ومن خطر له خاطر الإصلاح فليعلم أنى معه لاسيما الإصلاح العام فانى مع المحسنين ودعاء من يدعو الى اصلاح الجميع مقبول نافع وكلما كان المرء ساعياً في مصلحة العموم كنت معه مؤيداً وحافظاً وناصر . كم من المسلمين من أضاعوا حياتهم سدى يقرؤون هذه الآيات فلا يزيدون على التعجب ولا يزيدون على أن فرعون ادعى الالهية ويزعمونه وليس لهم وراء ذلك مطلب بل المتعلم الذى قرأ علوم قدماء المصريين المنتشرة حين يقرأ هذه الآية يقول ﴿ كيف يقول فرعون - ما علمت لكم من إله غيرى - مع انهم كانوا يعبدون آلهة مثل (سيزوستريس) و (ايزيس) وما أشبه ذلك وبظن أن القرآن غاب عنه ما قرأه هو في أوراق البردى أو تلقنه ممن قرأه ويقول مالى ولهذا القصص وهو غافل عما ذكرناه من معنى الالهية والربوبية فيما تقدم بأوضح مقال وذاهل عما سيق له الحديث الذى نحن بصدد حديث رقى الأمم وخروجها من الذل والاستعباد . هكذا فليخرج المسلمون اليوم أوغداً وهذا أمر محقق لا شك فيه عندى وسيقرأ هذا المسلمون بعدنا ويرون أنهم هم نالوا ما ذكرناه . وستشيع أمثال هذه الآراء في الاسلام

وسكونون - خير أمة أخرجت للناس - وكيف لا يصيرون كذلك وقد تقدم في (سورة النمل) أن الله يقول - وقل الحمد لله سيركم آياته فتعرفونها - أليس هذا وعدا لنا بأننا سنعرف العلوم وعجائب الأرض والسموات وهل وعد الله يخلف؟ أليس نبينا محمد ﷺ له المقام المحمود ويعطى لواء الحمد؟ أليس الحمد لنا يكون على نعم؟ أليس أهم النعم هو العلم، أليس حمد الأولين والآخرين له على العلم الذي ترقى به أمته، فإذا كان مقامه محمودا وهو رافع لواء الحمد فنتيجة ذلك كله أن تكون أمته أعلم الأمم، وإذا كان شافعا لأمته فإن الشفاعة على مقتضى الهداية ولاهداية إلا بعلم فالعلم سيهم الأمة الإسلامية وسيخرجون من الظل وسيفكرون في إخراج أنفسهم من الهوان والجهل كما فعلت أم موسى إذ انبعث الإلهام بأن ابنها سيرجع لها بالعمل وتسلسلت حوادث كانت نذيرتها خروج أمتها من المذلة . وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

اعلم أن الناس يحبون من أمرهم موسى ويتعجبون من أمر موسى وكيف نجا وكيف خرج بنو إسرائيل وهم في كل وقت يشاهدون أمثال هذا ولا يتعجبون . أليس الإنسان يأكل الفاكهة مع أن حصولها بين يديه عجيب كأم موسى وموسى وخروج بني إسرائيل . أليست الفاكهة من البستان فهل كان الحداد الذي يصنع المحراث يقصد الشجرة التي منها فاكهته وهل كانت البهائم التي خرج منها مابه تسمد الأرض تقصد أن تنال أنت الفاكهة . وهل كان الذي يستخرج الليف من النخل لصنع حبال البهائم التي تحرث الأرض يقصد فاكهته . انظر حوادث كثيرة من بخار وسحاب ومطر وحديد وخشب تجمعت من أقطار شتى ونتيجتها وصول الفاكهة إليك . إن المفكرين يحبون من الطبيعة وغرائبها كما تعجب أنت من قصص موسى وأمه وخروج بني إسرائيل ولكن لما كان هذا القصص غائبا حلا في السمع ، أما عجائب الطبيعة فإن اللطائف الموجهة من الله إليها أعجب وأعجب والأفأين دوران الشمس في فلكها ودوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس بحساب بديع . أليس ذلك من أسباب هذه الفاكهة . ولو أن حساب الشمس والأرض اختلف ما أمكن ظهور هذه الفاكهة لأنها تحتاج إلى حرارة بمقدار فتى اختلت الشمس في سيرها اختلت الحرارة في نزولها على الأرض فذهبت المنافع ولكن هذه العجائب يجهلها أكثر الناس - ولكن أكثر الناس لا يعلمون -

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

لعلك تقول من لي بأن اعتقد ما اعتقدته أم موسى ، ومن لي بذلك ، ومن أنا أن ذلك في زمان مضى وانقضى . فأين البرهان على ذلك في هذا الزمان ؟ أقول على رسلك ، أليست الحرب العظمى قلبت الكرة الأرضية . أليس سببها أن عالما يسمى (ماركس) وهو ألماني أخرج كتب للناس قائلا يجب إزالة هذه المنظمات الأرضية ومن هذه الفكرة تعلم الروسيون وبها وحدها انقلبت السولة فصارت بلشفية . ألم تكن دولة الفرس مقسمة بين الانجليز والروس . أفليست الحرب العظمى جعلتها حرة مطلقة من كل قيد . انظر أين فكرة ماركس الألماني وخلاص الفرس . أليس ذلك من قوله تعالى - إن ربي لطيف لما يشاء - وأي لطف أعجب من هذا . نلطف في خلق الأفكار وبثها بين الناس حتى عمّت الكرة الأرضية وانتهت باستقلال الروس وتبع ذلك بلاد الفرس . أليس هذا كسألة أم موسى قصدت انقاذ ولدها فأنقذ بنو إسرائيل وكدوران الشمس بحساب بلاخطأ في سيرها فكانت الحرارة منتظمة على قدر انضاج الفاكهة ولولا ذلك ليمس الفلاح ولم يزرع . أليس ذلك كما فعل الله في ماء النيل . أنزله في الأرض كل عام فيحصل ما بين (٤١) مليارا من الأمطار المربعة وبين (١٠٠) مليار . ونتيجة ذلك ظهور المزارع . ولا ينزل ذلك الماء إلا بالبخار ولا البخار إلا بالحرارة والحرارة منتظمة إلا بانتظام سير الشمس فأين سير الشمس وأين الفاكهة . هناك سلسلة منتظمة انتهت بالفاكهة . وهناك سلسلة منتظمة انتهت باستقلال الفرس . وهناك سلسلة منتظمة انتهت بخروج بني إسرائيل ومبدؤها إلهام أم موسى

وهناك سلسلة منتظمة بها استقلت دولة الأفغان لما قام الأفغان بخاربوا الانجليز أيام الحرب العظمى واستقلت البلاد الى الآن . وهناك سلسلة منتظمة ستحصل بعد قراءة هذا الكتاب فينظر المسلمون ويقرؤون قوله تعالى هنا - وما كنت ثاويا في أهل مدين - الى قوله - ولكن رحمة من ربك لتندر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون - فهذا الذي قرّرت هو الرحمة وهذا هو التذكير ، يتذكر المسلمون هذا القصص فيستخرجون منه خلاصة وعبرة هي أن يفكروا في الخلاص ويستمروا فينجحوا ، يفكر المسلمون فيقولون نحن - خير أمة أخرجت للناس - فكيف كانت همنا منحة لرجع الى القرآن وليعرف الناس أنه يأمرنا أن نعشق جلال الله في العوالم العاوية والسفلية وهذا الجلال لا حد له والعمر كله مدة دراسة والارتقاء لا حد له وهذه القصة وأمثالها إنما هي كشجرة فلنأخذ ثمرها ولانكتفي بظلالها والثمرات إما أخلاق كعفة موسى وأما إيمان بالله خيفة الهلاك كما هلك قوم فرعون ، يقول المسلم أنا مسلم فكيف أهلك ؟ نقول له ولكنك ذليل بعيد عن العلم ، فانظر كما نظرت أم موسى وخلص أمتك من الذلة والهوان ، قل لها كوني منتظمة ، كوني مفكرة ، تعلمي ، اسعي للرقى والنجاح ، اجتهدى ، انشري العلوم ، إن العلوم بها محبة الله ، إن الانسان لاخير في حياته بدون النظر في هذا الجلال . إن العقول اذا وقفت تهقرت واذا تهقرت انحطت واذا نزلت هلكت و بئس المصير

سيقول المسلمون بعد هذا التفسير وانتشاره ان شاء الله مالنا قد امتزنا في جميع الكرة الأرضية بالجهالة ، في بلاد الشرق والغرب أصبحنا عالة على الأمم ، لماذا نرى المسلم في بلاد سيام كما يقول رجالها لا يرتقى عن الفلاحة إلا قليلا فأما غيره فانه يمسك بعنان السعادة ويسافر للعالم ويحظى بالخير والعز ، مالنا نرى المسلم الصينى شادا بعيدا عن العلم والوثني هو القائم بالعلم والحكمة وبشؤون الدولة ، مالنا نرى المسلم أينما حللنا أو ارتحلنا واقفا في مكانه . ومتى قال من بعدنا هذا القول تجلت لهم الحقائق وأظهروا مكنون العلم وأيقظوا الأمة ونشروا فيها ما كتبناه في القرآن وما يكتبه غيرنا وانقلب الأمر فأصبح المسلم أقوى من غيره في العلوم والمعارف لما يرى من عجائب القرآن التي شرحناها وشرحها المتقدمون والمتأخرون

هذا بعض ما يقصد من هذا القصص ومن قول الله تعالى - ولكن رحمة من ربك - الى قوله - لعلهم يتذكرون - هذا هو القصد من انزال هذا القصص فالقصد الرحمة والتذكير أى ان الله يرحمنا بالتذكير فيما أنزل على رسول الله ﷺ وذلك هو المذكور في الحادثة الثالثة عشرة ليرينا أن القرآن لهذا أنزل فليس يقصد أن نفرح ببني اسرائيل بل نفرح بما نتذكر وبالرحمة التي نناها من التذكير فلاخير في شجر لا ثمر له . ولاخير في علم لا نفع له . ولاخير في أمة لا همة لها . ولاخير في قراءة دين لا يعقله قارئوه . ولاخير ولارحمة إلا لمن يتذكرون ويعقلون والحمد لله رب العالمين

﴿ البلاغة والعلوم ﴾

ينظر قوم الى القرآن من جهة البلاغة ويظنون انهم اذا عرفوا الجناس في قوله - الى إله موسى - وعرفوا ما سأقصه عليك وهو قول الأصمى حكاية عن فتاة غربية قالت إن في قوله تعالى - وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين - قالت الفتاة إن فيها أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين . فالخبران أوحينا وخفت . والأمران ألقيه وأرضعيه . والنهيان لا تخافي ولا تحزني . والبشارتان - إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين -

أقول . ينظر قوم الى القرآن من هذه الوجهة فيطربون لعجائب التركيب والبلاغة ولهم الحق في ذلك ولكن هل لهذا أنزل القرآن . إن البلاغة علم يرجع الى تركيب الألفاظ ونسق الكلام فهل هذا كاف ؟ كلام كلا . إن المقام ليس مقام استدلال على أن القرآن معجز فليس هذا نهاية العلم . إن نهاية العلم أن يدرس

ويستخرج منه ما يجب علينا دراسته في هذه الحياة

﴿ قصص موسى أيضا ومناسبة قوله تعالى - ولكن رحمة من ربك لتتذرقوما ما أتاهم

من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾

لقد عرفت آنفا مقاصد البلاغة وانها لقوم مبتدئين في العلم وانها مفتاح الفهم ، أما الفهم فانه وراء ذلك فالبلاغة مفتاح خزائن العلم والعلم في نفس الخزان وفرق بين مفاتيح الخزائن وبين المخزون ، هل أنبتك بشئ من المخزون في هذه السورة ؟ أنت تعلم أن قصص موسى قد كرر في القرآن وتكراره يصعب على كثير من الناس ادراك سببه . فأما عالم البلاغة اذا كان حاد البصيرة فانه يقول الاطناب في مقام والايجاز في مقام لمراعاة المقامات وهذا لا بأس به وهو حق ولكن أين الفائدة الحقيقية ؟ فعالم البلاغة لا قدرة له على الاجابة ولكن انظر مخزون العلم ومكنون الحكمة ، انظروا تعجب ، ذكرت قصة فرعون وموسى في (طه) وفي (الشعراء) وفي هذه السورة . لقد اطلعت على (طه) فانظروا است ترى أنه فيها شرح مسألة العصا ومسألة عجل السامري وأطنب فيهما ليرينا أن المدار على العلوم العقلية فأما خوارق العادات فانها تنفع مؤقتا فلا يمان بها كأنه ظل لا نبات له وذلك لأن الصور المادية ظلال الحقائق فيكون الايمان بها ظلا لا نبات له . وملخص ذلك انه يراد أن تكون الأمة الاسلامية أمة علم وحكمة لا أمة خوارق عادات للصالحين ولاللطالحين وقد تقدم هذا

ولقد ذكر في تلك السورة عجائب الأرض والسماء ليتم القصد من هذه الموازنة . هذا في (سورة طه) وليكون ذلك تبصرة وتذكيرة للمسلمين . أما في (سورة الشعراء) فقد أطل القبول في السحرة وشرح المقام شرحا وافيا فأوجب ذلك النظر في السحر وحده وشرحه كما فعلنا هناك وذكرنا سحرهم على قدر ما يسعه المقام أما في هذه السورة فان القصة أنت لغرض آخر كأنها شرح لقوله ﷺ في الصحيح ﴿ بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ ﴾

إن الأمة الاسلامية في أول أمرها كانت قليلة العدد وكانوا مضطهدين من الكفار وهاجر بعضهم الى الحبشة ثم هاجروا جميعا الى المدينة ثم أعزهم الله فبدأ غريبا لم يكن له نظير في سرعة الرقي والانتشار والمنفعة بعد الخوف والقلّة والضعف ، ثم ماذا ؟ انهم انتشروا في الأرض وترجوا علوم الأمم فتحقق بذلك كونه - رحمة للعالمين - لأن أمته حفظت العلم وسامته الى أمم الغرب والشرق . والبرهان على عموم رحته للشرق والغرب الألفاظ الآتية في العلوم فانها تنطق بلسان فصيح أن محمدا ﷺ رحمة للعالمين في جميع الكرة الأرضية لأنه لولا أمته ما حفظت هذه العلوم

﴿ الألفاظ العربية في العلوم العصرية ﴾

(علم الفلك)

السمت والنظير

﴿ السكيمياء والطب ﴾

الانبيق . الالكحول . القلى . البورق . الشراب . الجلاب . الاكسير . اللعوق . السا . الكافور

﴿ الموسيقى ﴾

العود . الطبل . الطنبور

﴿ فن الملاحة ﴾

أمير البحر . الترسانة . الحبل . الجلفاظ . الرصيف . الموسم . الفلك

﴿ فن التجارة ﴾

التصريف . الديوان . المخزن . البازار . القبروان . الترجان

هكذا أخذ الاوروبيون عن المسلمين الأرقام الهندية وأصول الجبر والهندسة والنقوش و بناء الحصون والقلاع والسفن الحربية والحجزة والمناور وكثيرا من الفوائد الصناعية والزراعية التي هدت أوروبا الى الحال الحاضرة من العمران والتقدم ، وانما نقلت لك هذا لتفهم هنا قوله تعالى - ولكن رحمة من ربك - وتفهم أيضا - وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين - هذا هو معنى هذه الرحمة ، فانظر كلمات العلوم العربية التي لا تزال تنطق بلسان فصيح بهذه الآبة وبقوله تعالى - وانه لذكر لك ولقومك - هذا ما حصل في الزمان الماضي ولكن هذه السورة جاء فيها ذكر قصص فرعون بطريق آخر كما قدمنا لم يقصد فيها شرح السحر والاموازنة بين عصا موسى وعجل السامري بل أريد أن تجعل القصة بابا للحرية ولخروج الأذلاء من ذلم فذكر الحوادث الثلاثة عشرة التي بها خرج بنو اسرائيل . يقول للمسلمين اذا وقعتم في الذل فلتخرجوا منه كما خرج بنو اسرائيل وسيكون شأنكم غريبا بعد ذلك كما كان غريبا في أول أمركم ، فاذا تقهقروا أيها المسلمون ولا مناص من تقهقركم - وتلك الأيام نداؤها بين الناس - لافرق بين الأمم والديانات في الأرض كلها فابواب الباب مفتوح لخروجكم من ذلك وانظروا قصص بنو اسرائيل فلتخرجوا كما خرجوا وارجعوا المجد الذي فقدتموه ولتكونوا رحمة للعالمين كما كنتم سابقا ، واذا كنتم في مجدم الأول حفظتم العلوم وسلمتموها للام فاذا رجعت هذه المرة فاقروا العلوم وعلموا الأمم كيف يكون العدل وعمارة الأرض لأنكم كنتم رحمة أولا لمناسبة ذلك الزمان فلتكونوا رحمة على حسب الزمان المستقبل ولهذا كله يشير قوله تعالى - ولكن رحمة من ربك - بعد ذكر انتصار بنو اسرائيل فيكون الاسلام غريبا في سيره اليوم بأن ينتشر أهله بسرعة غريبة لانظيرها كما انتشر في المرة الأولى انتشارا لانظيره ، وكما حفظ المسلمون العلوم أولا ونفعوا الأمم فليوثوها من أهلها ثانيا وليرقوا النوع الانساني . هذا مافهمته من قوله تعالى - ولكن رحمة من ربك - وفي التعبير بمعنى التربية اشارة الى ما ذكرناه - ولله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء -

﴿ جوهرة في قوله تعالى - إن فرعون علا في الأرض - الى قوله - إنه كان من المفسدين - ﴾
 اللهم إنك أنت المنعم المتفضل اللهم ، أنت الرحيم ، رحمت الجنين في رحم أمه ، ورحمت الحشرات في الفلوات والأنعام في المراعي ، لم تذر عالما من العوالم إلا شملته برحمتك . اللهم اننا في هذه الأرض قد غمرتنا رجائك وشملتنا أنوارك ظاهرا وباطنا كما قلت في سورة الروم - وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة - ولكننا محبوسون في حواسنا مغمورون في ذنوبنا وعواطفنا ومطالبنا فصرفنا عن فهم النعمة وحولنا عقولنا الى أمور غير عظيمة تحويلا مزريا بانسانيتنا وبشرف أصلنا في العالم العلوي فكأننا بهذا الصرف معذبون ونحن غير عالمين أنت رحمن رحيم للأفراد وللأمم ، وهذه أممتنا الاسلامية المترامية الأطراف قد بذرت بذور العلم والرقى في الأمم شرقا وغربا ثم دالت دولتها ونامت آمادها وآمادها ، وهاهي ذه تريد الرقى ككرة أخرى وهذا كتابك بين يدي الآن أكتب هذه الكلمات في تفسيره ، وقد قدرت في علمك القديم أن يكون هذا التفسير في زمان نطلع فيه على عمل سياسات الأمم الاسلامية القديمة والحديثة وعلى سياسة الأمم المحيطة بنا . فهانحن الآن ننظر فنرى آباءنا العرب ومن اهتموا بهديهم من الأمم بدين الاسلام قد سلطتهم على أرضك وخولت لهم بمالكك وأودعتهم ودائعك فقاموا بالأمانة ماشاء الله أن يقوموا ثم خلع الأبناء عن أنفسهم فضائل الآباء وتركوا مواهبهم وناموا وكسوا و بطروا ولم يقوموا برعاية عبادك كما وصيتهم في كتابك فأخذت منهم أرضك وأعطيتهما لغيرهم وقرأنا تاريخهم وعرفنا مدى رقيهم ومدى ضعفهم وتبين ذلك فيما تقدم في (سورة النمل) عندآية - إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها - وما بعد ذلك من أن بيوتهم خاوية بما ظلموا . إذن هذا التفسير اليوم قد جاءت فيه ملاحظات على الأمم الاسلامية السابقة وأن ماتم لهم كله مصداق للقرآن الكريم
 ياسبحان الله وياسعدانه ، فكيف نسمع الله عز وجل يقول في (سورة النمل) ما تقدم من إفساد الملوك

للأرض إذا دخلوها ، وكيف يذكر أن بيوتهم خاوية بما ظلموا ثم تأتي هذه السورة فيكون مبدؤها فيه هذا هذا المعنى نفسه ونهايتها فيه مصداقه فكان فيها رد المجز على الصدر المذكور في علم البديع . إن تفسير القرآن على هذا النمط في زماننا حرة ترى فيه آثار الأمم والدول المصداقات لكتابتنا المقدس . أول هذه السورة ﴿ أمران * الأول ﴾ علو فرعون في الأرض مع استضعاف أهلها وجعلهم شيعة وتذبيح أبنائهم ﴿ الثاني ﴾ انه مفسد من المفسدين . هذا هو الذي جاء في أول هذه السورة . فانظر أيها الذكي الى ما جاء في آخرها ، ماهو ؟ هو ذكركارون وانه كان من قوم موسى ، فإذا فعل ؟ بنى على قومه وفرح بماله الوفير ونصححه الناصحون فقالوا له - ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين - وهذه القصة القارونية تضمنت ان الله لا يحب الفرحين ولا يحب المفسدين ، ومعلوم أن الفرح صفة لمن يعلى في الأرض . إذن هذه القصة تضمنت النهي عن العلو المذكور في أول السورة وعن الفساد . إذن قصة فرعون جاءت في أول السورة لندم العلو والفساد ومثلها قصة قارون في آخرها . ثم انظر كيف قال في آخر السورة - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين - جلّ الله وجلّ العلم وجلّت الحكمة . هذا معنى قول الله تعالى - كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير -

انظر لحكم الله عز وجل في القرآن ، أيها الذكي انظر الى القرآن في ظاهر الأمر بغير هذه المباحث ، إن الناظر للقرآن نظرا سطحيا لا يتخيل هذه الحكم ، العربي في البداية عرف تأثير القرآن بغيرته وفطرنه ولكننا نحن الآن نقف على جوهره وبدائعه وحكمه . جلّ الله . إن مانعرفه الآن في حكم القرآن وبدائعه أجلّ وأرفع مما عرفه علماء البلاغة السابقون . إذن كأن هذه السورة يقصد بها ألا نعلو في الأرض ولا نفسد فيها المفسدون في الأرض هم الذين يغلبون الأمم ويحكمونهم ليكونوا عالة عليهم لينلوهم وليكونوا أشبه بالظهور والاسود والذئاب والناس أمامهم كالغزلان والأرانب . وهذه الصفة هي التي وصفها ابن خلدون فيما نقلناه عنه في سورة النمل في الآية المتقدمة في صفة الأمم العربية المتأخرة التي تركت دينها فكان ذلك مصداقا لتخويف النبي ﷺ من فتوح البلدان ومصداقا لقوله تعالى - فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - ولما ظهر من سورة الأنفال تلك السورة التي جاء نظمها في الحكمة أشبه بما جاء في هذه السورة . ألا تراه تعالى يقول في أول السورة - وإن فريقا من المؤمنين لكارهون - الى قوله - واذبحكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم - الخ وما يخص المعنى هناك أن الصحابة رضی الله عنهم كانوا يريدون أن يستولوا على العير التي مع أبي سفيان ويتركوا الجيش الكبير الذاهب الى بدر لمحاربتهم لأن العير التي مع أبي سفيان غنيمة لا تحتاج الى قتال وأما الجيش المتوجه الى قتالهم فانه يحتاج الى قتال وعمل شاق فاختر الله لهم مواجهة الجيش لأن المال ليس هو المقصود بل المقصود اعلاء كلمة الله لا غير واعلاء كلمة الله لا تكون بالاستيلاء على الغنائم بل بمحاربة الرجال والطعن والنزال . وجاء في آخر السورة قوله تعالى - ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله - فتأمل في هذه الآيات وتعجب ، حذر الله المسلمين فقال - تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة - ثم ذكر العذاب وأبان انه ملازم لعرض الدنيا غاية الأمر ان الله أباح الغنائم لنا لأجل حفظ بلاده فهذه الغنائم يلزمها العذاب ولكن الله لم يعذب المسلمين ولم يمنعهم من الغنائم ذلك لأنهم بها كانوا نعمة على الأمم ولكن المفسدون في الأرض من الأجيال التي جاءت بعد القرون الثلاثة لم يجعلوا الغنائم لحفظ الأمم بل جعلوها لشهواتهم وهذا هو الذي يهلك الأمم . فالدمار الذي حلّ بأهم الاسلام كله تطبيق على القرآن . فاذا رأينا أهل الأندلس كما تقدم في السورتين السابقتين لهذه صاروا (٢٠) مملكة فافرقوها فيما تقدم ، واذا رأينا بني العباس في آخر

أمرهم تفرقت دولتهم شذروا من أيام خلافتهم . وإذا رأينا أمة الترك بعد ذلك كانت تفعل تحت خلافة بني عثمان ما كانت تفعله الأمم العربية بعد الصدر الأول أيقنا أن هذا كله تفسير لهذه الآية وأن مال الغنائم المستعمل في غير ماوضع له يجعل الأمم التي ملكته فرحة به مقسدة في الأرض والله لا يحب الفرحين ولا يحب المفسدين ، وإنما فرح هؤلاء بالمال لأنهم وجدوا أن القصد من الحياة هي الذات والنوم والكسل بلا عمل وهذه صناعة الديدان في الأرض ، فأنه ينتقم من هذه الأمم بالاذلال ، ومن تأمل أول القصص وآخرها وجدها مطابقين لأول (الأنفال) وآخرها . وما القصص في القرآن إلا إيضاح للحكم المودعة في القرآن ، فأنه أبان في الأنفال أن عذاب الله يمس من يأخذون الغنائم ولكنه أباحه لكم بمقتضى ما سبق في علمه القديم وهو أن أمثال أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة والتابعين لم يجعلوا المال وجهتهم فكان عمر يخطب على المنبر بشوب مرقع وأبو بكر يحرم على أهل بيته أخذ شيء من الغنائم إلا للضرورة فهؤلاء هم الذين فهموا القرآن وفهموا فعل النبي ﷺ وفهموا قوله تعالى - إن فرعون علا في الأرض - وفهموا قصة قارون وما فيها من ذم الفساد في الأرض وذم الفرحين ، لذلك تبرؤا من المال . أما ملوك الاسلام فأكثرهم جهلوا هذه المعاني فانحطت عزائمهم وخارت قواهم وذهبت دولهم لأنهم لم يفهموا لم أحلت الغنائم ولم يفهموا قوله تعالى - لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم - فكان قصة فرعون في هذه السورة وقصة قارون إيضاح لما تقدم في سورة الأنفال من المذكور في أولها والمذكور في آخرها ، ثم اعجب من قول قارون - قال إنما أوتيته على علم عندي - والرد عليه من الله بقوله - أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون - الخ فهذا مثل قوله في (الأنفال) - لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم - ثم انظر الى قوله تعالى - وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا وما يلقاها إلا الصابرون - فهذا فتح باب للعلم والحكمة والعلم هو الذي شرح أمر المال ، فترى الفيلسوف (قابس) قبل الميلاد بنحو (٥٠٠) سنة ألف الكتاب المسمى (نظر قابس) وفيه أبان أن السعادة ليست هي المال وحده ولا الملك ولا الأدب المزور ولا غيرها من عرض الدنيا وإنما السعادة ترجع الى كمال النفس بالصبر والوقار والحلم فاقراً ملخصه في (سورة البقرة) عند قوله تعالى - وبشر الصابرين - الخ وترى كتاب (الكوخ الهندي) المؤلف حديثاً ينحو هذا النحو . وترى أفلاطون في جمهوريته يبين طبقات الحكام والمحكومين ويذكر أن الأمة اذا حكمها أهل الطمع في المال وجعه أحاط بها وبهم الذل . فالأغنياء يجمعون المال والشعب يذل وكل منهم في شقاء . والأغنياء مهتدون من الفقراء لقلة الأولين وكثرة الآخرين .

ونظرة فيما تقدم في (سورة النمل) عند آية الملوك المفسدين وغيرها تعرف أن المال آلة للشقاوة عند قوم وللسعادة عند آخرين فهو تابع لعقول المستعملين له شرفاً وضعه . إن القرآن لم يهمل نظام الأفراد ولا نظام الأمم بل سلك كل سبيل لاسعادها وإنما هذه الأمم الاسلامية حيل بينها وبينه فهو كتاب يفسره كل علم في الأرض قبله وبعده . ومن عجب أن أكبر الفلاسفة جاء بحشه على مقتضى هذه الآيات . ولقد قرأ أفلاطون وقبله سقراط أن هذه الحياة الدنيا أشبه بالعدم لأن المادة في نظرهم ليست شيئاً مذكوراً . لماذا ؟ لأنها متغيرة وكل متغير متقلب غير ثابت لا يستحق اسم الوجود بل الذي يستحق اسم الوجود إنما هو الدائم والدائم إنما هي النفوس والعقول وفوقهما الله . وبناء عليه وجهوا عقول الناس الى مبدع الكون وازدروا بالدنيا ازدراء تاماً بهذا البرهان مع أنهم ما وضعوا أشرف النواميس والقوانين للحكومات وللجيوش وللأمة ليعيش الناس بسعادة . اللهم إني لأعجب من كتابنا كيف يكون هذا هو مشرب به ثم يحمله المتأخرون . يا سبحان الله . كيف يختم الله السورة بهذه الآية - كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون - وكيف يكون نفس هذا القول ملخص آراء أكابر الحكماء في العالم وعليه يجب على أن أكتب في سورة القتال عند آية - فاعلم أنه لا إله إلا الله - تلك الرسالة

المسماة (صراة الفلسفة) ليطلع المسلمون بعدنا على ملخص فلسفة الأئمة قديما وحديثا ويفهموا كيف يقول أولئك الفلاسفة ان المادة غير موجودة وأن هذه العوالم أشبه بالخيال ، وكيف يتجه أفلاطون وسقراط الى الخير المحض (الله) وكيف يقول علماء أوروبا الحاليين ان علومهم في هذا المقام ليست شيئا مذكورا بالنسبة لعلوم علماء اليونان المذكورين ، وكيف نرى ألمانيا تتبع مذهب (كنت) الألماني فذهبه يقرب من رأى أفلاطون ان المسلمين يجب أن يطلع كبرائهم وعظماءهم على هذا وواجب على أن أكتبه لهم لينظموا دولهم وعقولهم ومدارسهم على نهج علمي وليكونوا بمنجاة عن الافساد في الأرض الذي ورد في (سورة القصص) هنا وفي (سورة النمل) ولا يدخلوا في زمرة من نهاهم الله في (سورة الأعراف) فقال - ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها - فان الافساد في الأرض انما يفعلها الجاهلون الذين ورد ذكرهم في آية - إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها - الخ وفي آية - وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون - وفي آية - إنه كان من المفسدين - وفي آية - ولا تبغ الفساد في الأرض -

إن قرأء هذا التفسير حينما يطلعون على هذا مجرد اطلاع يدخلون في زمرة قال الله فيها في آخر هذه السورة - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا - ولولا أن الله علم أن الأمم العربية التي حلت هذا الدين سيكون من ذريتهم قوم فرحون بالمال وملوك يفسدون في الأرض ماصرح لهم بالنهي عن الافساد في آية - ولا تفسدوا - ولا عرض لهم في آية - فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض - علم الله عز وجل أن آباءنا ستكون هذه حالهم فلا القرآن بهذه الحكم التي تقر بها وتشهد بها تلك العقول الحكيمة أيام اليونان وبعدها ثم غشى على عقول أئمة اسلامية فجعلت ذلك واستحلت مرعى البغي والإثم فأذاقهم الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا وجعلنا نحن أبناءهم وعلمنا خطأهم وبصرنا وأفهمنا الحقائق فكتبناها واقتبسناها من القرآن وانشرحنا بها صدورنا فسيكون خلفنا إن شاء الله خلفا شريفا صالحا نافعا لعباد الله مستخرجوا لكنوز الله التي خبأها في الأرض رؤفا بالأمم عاطفا على الانسانية كلها لأنهم عباد ربه وهو يحبه ويحب عباده والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الخميس ٦ يونيو سنة ١٩٢٩

(الْقِسْمُ الثَّانِي)

وَلَوْ لَا أَنَّ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا

وَيَذَرُهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا
أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ * إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَقَالُوا إِن تَبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ تُنْخَطَفُ
مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ
تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى
يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا
أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَنْ
وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَا فِیه كَذِبٌ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ
الْمُخْضَرِينَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا
يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَهَمَّيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ
فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَمَعَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) الى قوله (ونكون من المؤمنين) أى لولا قولهم
إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت الينا رسولا يبلغنا آياتك فتتبعها ونكون من
المصدقين ما أرسلناك . وملخص الآية انما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجة عليهم * روى أن مشركى العرب
بعثوا الى رؤس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أن نعتهم في كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم
بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهروا بهذا قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى
موسى) أى هلا أوتى الكتاب جلة واليسد والعصا وغيرها مما اقترحنه تعنتاً قال تعالى (أولم يكفروا بما أوتى
موسى من قبل) ومعنى هذا أنهم سألوه الآيات التى اقترحوها كما كان يفعل موسى من خوارق العادات فردّ
عليهم بأنكم قد كفرتم بموسى كما كفرتم بى وبين ذلك بقوله (قالوا ساحران تظاهروا) أى محمد وموسى ساحران
تعاونوا يقوى كل واحد منهما الآخر . ومن قرأ - سحران - فهو بمعنى ساحران وعبر بالمصدر مبالغة (وقالوا
إنا بكل كافرون) أى بكل منهما (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) مما نزل على وعلى موسى
(أتبعه ان كنتم صادقين) أنا ساحران (فان لم يستجيبوا لك) دعائك الى الايمان بالكتاب الأهدى (فاعلم
أنما يتبعون أهواءهم) فانهم لو اتبعوا العقل لأتوا بحجة (ومن أضل ممن اتبع هواه) استفهام بمعنى النفي

حال كونه كائناً (بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالانهمالك في الشهوات (ولقد وصلنا لهم القول) أتبعنا بعضه بعضاً في الانزال ليتصل التذكير ووصلنا خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون ويتعظون ويقيسون أحوالهم بأحوال الأمم * روى انه آمن أربعون من أهل الانجيل منهم اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة ومنهم ثمانية جاؤا من الشام فهذا قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) والضمير للقرآن (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به) أى بأنه من كلام الله تعالى (إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) فقوله - إنه الحق من ربنا - علة لقولهم - آمنا - وقولهم - إنا كنا من قبله مسلمين - أى ليس إيماننا به مستحدث بل إنا كنا به مسلمين من قبل لأننا قرأناه في كتبنا الدينية (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) إحداهما على إيمانهم بكتبهم ، والثانية على إيمانهم بالقرآن (بما صبروا) أى بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان (ويدعون بالحسنة السيئة) يدفعون بالطاعة المعصية كما قال ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها» ويدفعون ماسمعوا من أذى المشركين وشتهم بالصفح والعفو (وعما رزقناهم ينفقون) فى سبيل الخير (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) تكرماً (وقالوا) للآمين (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) متاركة لهم وتوديعاً (لانتفى الجاهلين) لانطلب صحبتهم ولا نريدها أولانريد أن نكون من أهل الجهل والسفه لأننا نترفع عنهم (إنك لاتهدى من أحببت) لاتقدر أن تدخله الاسلام (ولكن الله يهدي من يشاء) فيقذف فى قلبه نورا يشرح صدره للاسلام (وهو أعلم بالمهتدين) المستعدين لذلك * روى مسلم قال نزلت فى رسول الله ﷺ حيث راود عمه أبا طالب على الاسلام إذ قال النبي ﷺ له عند الموت «يا عم قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرنى قريش يقولون إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك» وهذه وإن كان نزولها على ما ترى ليست خاصة بذلك ، انها قاعدة عامة ، فتجد المستعدين للحكمة والعلم والهدى أناسا لا تجمعهم رابطة ولا بلد ولا أمة ، فتجد أن المستعدين للفنون والعلوم والحكمة يخلقون ونفوسهم قابلة لذلك فالمدار على الفطرة الأصلية لا على القرابة وأمثالها * جاء الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف الى النبي ﷺ فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا فنزل قوله تعالى (وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا أولم نمسكن لهم حرماً آمناً) أى أولم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن فإن العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون أى كانوا وذلك لحرمه الحرم فهو مكان منعنا عنه الأذى من عداة وأغدقنا النعم على أهله ، فالشر عنه مدفوع والخير اليه وارد وهذا قوله (يجي اليه) يحمل اليه ويجمع فيه (ثمرات كل شئ) من الشام ومصر والعراق واليمن (رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى جهلة لا يتفطنون ولا يتفكرون فى أن حرمتهم آمن من الغارات تجي اليه الثمرات فالشر عنه نازح والخير اليهم وارد وهم فى ذلك على طريقة أكثر النوع الانسانى جهلوا ما هم فيه من نعمة العقل والأعضاء والجوارح والسموات والأرض والأنهار والجبال والنعم التى لا حصر لها فكل يجهل النعم العامة . فاذا قال الله فى أهل مكة - ولكن أكثرهم لا يعلمون - قال فى الانسان كله - إن الانسان لفي خسر - واستثنى بعضه وقال - إن الانسان لظالم كفر - وقال - قتل الانسان ما أكفره - فهذا هو الكفر وهذا هو الجهل . فلا فرق بين جهل الجاهل بنعمة الحرم وجهل الجاهل بنعمة المال والولد والجسم والعقل والحواس والسموات والأرض . لا فرق بين البكل والجزء فالناس لإقليلا يجهاون هذه النعم لا أهل مكة وحدهم - إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم - ثم أشار الله لذلك فقال لم يختص أهل مكة بهذا البطر بل سبقتهم أمم فبطروا فهلكوا وهو قوله (وكم أهلكتنا من قرية بطرت معيشتها) أى وكم من أهل قرية أثرت وطغت وبطرت أى ساء احتمالها للنعمة كحالككم فى ذلك غرّب الله ديارهم (فتلك مساكنهم)

خاوية (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى لم يبق منها إلا أقلها وأكثرها خراب (وكنا نحن الوارثين) أى لم يخلفهم فيها أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا) أى ما كانت عادته سبحانه أن يهلك القرى حتى يبعث رسولا في أكبرها وأعظمها لأن أهلها يكونون أفطن وأنبل كمكة وأهلها (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) بتكذيب الرسل أو الجهل والمعاصي وطر النعمة وما أشبه ذلك ، وكيف قصرتم نظركم على الحياة الدنيا ، أفلاتعلمون أن للنفس الإنسانية حياة ودواما (وما أوتيت من شئ) من أسباب الدنيا (فتتاع الحياة الدنيا وينتها) تمتعون به وتترينون مدة حياتكم المنقضية (وما عند الله) وهو ثوابه (خير) في نفعه من ذلك لأنه لذة لا يخاطبها كدر (وأبقى) وأدوم لأنه لا آخر له (أفلاتعقلون) فقتلبدلون الفاني بالباقي (أفمن وعدناه وعدنا حسنا) وهو الجنة (فهولاقيد) مدركه (كن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذي هو مشوب بالآلام السكر والانتقطاع (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) للحساب والعذاب وثم للتراخي في الزمان وهذه الآية زيادة بيان لما قبلها والاستفهام بمعنى النفي أى لا يستويان فإن الحسن الباقي خير مما ليس بحسن وهو منقطع * ثم أخذ يبين ما يلاقونه يوم القيامة بيانا لقوله - ثم هو يوم القيامة من المحضرين - وظهرنا لمناقشتهم الحساب (و) اذكر (يوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) أى الذين كنتم تزعمونهم شركائي (قال الذين حق عليهم القول) بثبوت مقتضاه وهو قوله تعالى - لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى هؤلاء هم الذين أغويناهم ثم استأنف فقال (أغويناهم كما غوينا) أى أضلناهم كما ضلنا فنعن لم نفعل إلا ما هو من عادتنا وسجيتنا ولم نفوهم إلا لما وجدناهم قائلين كما لا يقع الذباب إلا على عين قدرة فليس ذنبهم علينا وإنما عليهم عليهم هم لأنهم مشاكول لنا ولو كانت نفوسهم أرقى ما أضلناهم ولا أغويناهم لعدم المناسبة والمشاكلة ، فإذا فعلنا ما كان من طباعنا فهو فعلوا ما كان من طباعهم فلا يولمونا وليأوموا أنفسهم (تبرأنا إليك) منهم فليس علينا ذنبهم (ما كانوا إيانا يعبدون) وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وهل الذنب على الذباب إذا وقع على العين القدرة إنما العيب على صاحب العين لأنه لم ينظفها ولو نظفها لتباعد الذباب عنها طبيعة فهكذا هؤلاء هم المالمون لانحن ، هكذا الأمم الإسلامية اليوم لقلة العلم فيها يرسل أهل أوروبا لهم أقواما من العظماء منهم يعطونهم أموالا ليشوا فيهم أن هؤلاء يحكمونهم ويحفظونهم من غوائل الأمم ويدخلونهم تحت حمايتهم ورحمتهم فيطيحهم هؤلاء فيقول الأوروبي ليس الذنب على إنما أنت جاهل ومن طبعك أنك ضعيف ولا تفهم إلا الحياة الحيوانية فأنا استعبدتك لأنك جاهل ، ولو كنت متعلما ناظرا في هذه الدنيا وفيما خالق الله في السموات والأرض حافظا لشغورك متسلحا بالأسلحة التي تتيق ما تجاسرت أن أكلمك ، وكيف أجسر أن أكلم من هو مثلي أن يدخل تحت حكمي فليس العيب على في استعبادك ولكن العيب عليك لأنك أهل أن تخضع للأقوى لضعفك وجهلك (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوههم) من فرط الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) لعجزهم عن الإجابة ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا مارأوا العذاب في الآخرة ، ثم ان هؤلاء يسألون (سؤالين) سؤال الأول عن أشراكهم بالله وسؤال الثاني عن تكذيبهم الأنبياء ولما ذكر الأول أتبعه بالثاني فقال (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) أى ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين (فعصيت عليهم الأنبياء يومئذ) أى خفيت واشتبهت عليهم الأخبار والأعداء والحجج فلم يكن لهم عذر ولا حجة (فهم لا يتساءلون) لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة فهم إذن يسكتون (فأما من تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) أى جمع بين الإيمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلاحين) عند الله ، ثم ان عسى تحقيق على عادة الكرام . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة

﴿ جوهره في قوله تعالى - ولقد وصلنا لهم القول - الخ ﴾

(حديث يبنى وبين العالم صديق الذي اعتاد أن يباحثني في هذا التفسير)

بعد أن كتبت مانصه ﴿ ان توصيل القول لهم فيه معان غزيرة وعجائب وحكم ﴾ حضر صاحبي فقال أريد أن تولد هناماني من هذه الجلة ، هذه جلة مفهومة بنفسها وانك بهذا تطيل التفسير إطالة ربما لا تكون مجدية وربما يسأم منها كثير من الناس . فقلت له إني أرى أن هذا غير إطالة إنما التطويل هو القول الذي يكون أشبه بالمكرر وما سأكتبه هنا ليس بالمكرر بل هو حكمة أزيّنت للناظرين ، وحسناء أسفرت للعاشقين ، وحوراء برزت للمحبين

كأنما تبسم عن أولئ * منضد أوبرد أواقاح

جعت الى اعتدال قوامها وحسن شكلها زينة حلاها وفصاحة لسانها وجمال جنانها وحسن خلقها ورجاحة عقلها ، بها هام العاشقون ، وبحديثها طرب السامعون ، ألافلاً كشف لك عنها القناع بعد أن تنقد مهرها ، فقال ومامررها ، قلت أن تشعرا أن جسمك وروحك قد أحضرت صورتهم أمامك وأخذت تدرسهما ومتى فهمتهما فهمت معنى التوصيل وهنالك يتم لك الوصال . فقال إذن توصيل القول في الآية يهوزه دراسة جسمي ودراسة روحي . فقلت نعم . فقال إذن هذا تطويل لأنه تكرر كما قلت لك أولاً لأن دراسة الروح قد تقدمت في مواضع كثيرة . فقلت له لكل مقام مقال والحديث ذو شجون والكلام ذو ألوان فلا تدوم على حال تكون به * كما تلون في أثوابها الغول

هذه الدنيا عروس ذات ألوان ونحن خلقنا فيها فعلياً أن نبرز علومها ببسائط الألوان وأفانين الصور ومختلف الأصباغ . فقال وكيف ذلك . فقلت إن ذلك منا إنما هو نسج على منوال مانري في وضع الحكمة في خلق أجسامنا ، نحن نأكل ونلبس لمنافعنا وهذه المأكول والملابس والأصباغ والزينة والأزهار والطيور المفردة . لم يكن شعورنا بها ولا علمنا بمحاسنها من طريق واحد بل الطرق لعلمها مختلفة . فهذا التفاح نلمسه بأيدينا ونذوقه بألسنتنا ونشمه بحاسة الشم ونسمع صوت وقعته على الأرض بحاسة السمع ونرى شكله بحاسة البصر ، فهذه طرق خمس لنعرف ثمرة التفاح ، إن الحكمة قضت أن لا يكون العلم بالتفاحة عن طريق واحدة بل نرى لنا حاسة نلمسه من قرب وحاسة ذوق تحس بحلاوته فاحساس الحلاوة غير احساس النعومة فالحلاوة بالذوق فتحت الباب لأكلها وتمثلها بأجسامنا ، فأما الحرارة والبرودة والنعومة والثقل والخفة التي عرفناها باللمس فهي أقل درجة من الطعم الذي هو أقرب الى استعمالها من الثقل والخفة ، وحاسة الشم وظيفتها أنها تتقبل ذرات دقيقة منفصلة عن التفاحة واصله اليها من الهواء فتشوقنا لاجتماعها

أما حاسة السمع فالواصل لها من التفاحة اذا سمعت وقعها إنما هو الحركات الآتية في الهواء فهي حاسة اللف من سوا بقها . فأما حاسة البصر فإنها اللف واللف لأن الرسول الموصل لها إنما هو الضوء وهو اللف من الهواء الذي استعماله الشم والسمع

فلما سمع صاحبي ذلك قال هذه أقوال غريبة . ان المقام مقام سؤال مني لك في مسألة التوصيل في الآية فأجبتني بدراسة الجسم والروح . فقلت أنا فيه تكرر فأجبتني قائلاً إن العلم يجب أن ينوع ويكون أصباغاً وألواناً ثم أخذت تقول إن الله جعل العوالم التي حولنا تصل لنا من طرق شتى وضربت مثلاً بالتفاحة فأننا نعرفها بلمسها وذوقها وشمها وسمع صوتها ورؤية شكلها فهل ذلك القول هو نفس المقصود من تفسير الآية ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ هو نفس الأسلوب الذي نتوصل به الى معنى التوصيل في الآية أم هو تبيان نظام الله في تعليمنا الذي نقيس عليه تعليم أنما العلوم من حيث التفان . إني أرى أن هذا الذي تسكتبه يظهر لي أنه شروع في الأمرين معا أي أنك أردت أن تضرب بحجر واحد طيرين . فبينما أنت تمثل لتنوع المناهج في تعليم الناس العلوم مما فعله الله

في جسم الانسان من الخواص التي تدرك التفاحسة بأنواع من الادراك رحمة من الله بنا أن يرينا بطرق مختلفة لزيادة العلم . إذ أنت بنفس هذا المثال أخذت تشرح المقصود وهو الجسم والروح اللذان أردت أن أتصورهما أسمى وأفهمهما وبهذا الفهم أصل المعنى التوصيل في الآية وبعض سره . فقلت لقد أحسنت . نعم اني بهذا التمثيل أبين الأمرين معا . أبين أن تعاليم الأهم الإسلامية وغير الإسلامية يجب أن يكون على طرق شتى وكلها ترمى الى غرض واحد كما أن الله لما خلق العالم وخلق الانسان فيه جعل علمه بما حوله بطرق مختلفة ليحيط به علما على مقدار طاقته ويكون من نتيجة هذا أن أفهمك معنى - ولقد وصلنا لهم القول - قال فاضرب لي مثل ذلك حتى أعقله . فقلت انما مثل الانسان في هذه الأرض كمثل مالك عظيم الشأن رفيع المقام على المنزلة واسع الملك كثير الجنود والأعوان . ولا جرم أن مثل هذا الملك له عاصمة يعيش فيها وله بلاد نائية عن العاصمة ، فيها ماهو قريب من العاصمة ومنها ماهو بعيد عنها ، فأهل العاصمة يمكنهم المشول أمامه بأنفسهم ورفع قضاياهم له بدون رسول . قال نعم . قلت وسكان القرى المتوسطة في البعد يمكنهم أن يرسلوا نوابا عنهم قال نعم . قلت وسكان القرى التي هي في أقصى بلدانه يقدرّون على محادثة الملك بارسال رسائل كتابية بطريق البريد المعروف أو بطريق الحمام الزاجل أو بطريق البرق (التلغراف) قال نعم كل هذا ممكن . قلت هذه صفة الانسان في هذه الدنيا . إن الملك في عاصمته له أعوان يحيطون به في نفس قصره وله خواص يعيشون في عاصمته . قال نعم . قلت فالأعوان المحيطون به من خدام قصره يراهم كل حين . فأما ضواحي المملكة فانه يراهم حيناً بعد حين لمصالح المملكة . قال نعم . قلت هكذا هذا الانسان هو هذا الملك والعاصمة هي جسمه فاما الحرّ والبرد والثقل والخفة والنعومة والخشونة وما أشبهها وهي (عشرة أحوال) من أحوال المادة فانها تحيط بالجسم وهي تعرف بحاسة اللمس فقد أشبهت أعوان الملك المقيمين معه بقصره . وأما طعم التفاح وطعم المأكلة المختلفة من الحلاوة والمالحة والخراقة ونحوها فالقائم بها حاسة الذوق التي هي أرق من حاسة اللمس لأن حاسة الذوق هي أشبه بوزراء المملكة الذين يترددون عليها آناً فآناً ليتشاوروا معه في حياتها واصلاحها ثم إن المشمومات والمسموعات أشبه بسكان المملكة الذين ابتعدوا عن عاصمة الملك ، فأما المشمومات فانها ترسل ذرات دقيقة جدا كذرات المسك التي تتطاير في الهواء كل حين ولشدة دقتها لا يظهر أثر النقص فيه على طول الزمان فهذه الذرات التي تخللت الهواء لم تخرج عن كونها نماذج من جرم التفاح المخوكة في الشجرة أرسلت مع الريح يشمها الانسان فهي أشبه بالوفود التي أرسلها سكان القرى المتباعدة عن المملكة ليعرف الملك مقدار طاعتهم ممن حضروا منهم وناووا عنهم في الخضوع أمام الملك وتقول تلك الذرات التي نسميها رائحة أيها الملك اننا طائعون لك فهل ترغب أن يحضر بقية الجماعة ليكونوا خدما لك وعبيدا بل سيصبحون جزءاً من جسمك ولحماً ودماً وعظاماً ومخاً وعينا وأذنا . ولا جرم أن هذه الذرات أغلظ من الحركات لأن الحركات عرض والذرات جسم ثم إن حركات تلك التفاح في الشجرة وهي تترنح يمينا وشمالا وتعايق الأوراق وتضاحك القمر والنجوم وتفرح وتمرح وترسل تلك النغمات في أمواج الهواء فيسمعها صاحب البستان تعطى نفسه شوقا وتوقا الى احضارها والتغذي بها وهذه أشبه بارسال البريد بالخط والرقم في القطارات أو مع الحمام الزاجل ولا جرم أن الحركات في الهواء وسماها الطيف من الذرات المشمومات في الهواء كما أن حاسة السمع أشرف من حاسة الشم فتلك أقرب الى عالم الروح وهذه أقرب الى عالم المادة ، ثم إن صورة تلك التفاح لا يحملها النسيم ولكن يحملها عالم الأثير الذي يتوَّجج وبتوجه آلاف آلاف المرات في الثانية يحدث لنا ما نسميه ضوءاً فهذا الضوء يحمل تلك الصورة ويدخلها في حركات الأعين المركبات من أغشية متناسقة معدة لقبول تلك الصورة فتعجبنا فتنازلها . هذه هي الفنون وأنواع الطرق وألوان الطرق العلمية التي أبدعها المبدع الحكيم في صورة الانسان فلم يقتصر الانسان على

- (١) لمس التفاحة
 (٢) ولاعلى ذوقها
 (٣) ولاعلى الاحساس بأجزاء منها بحاسة الشم
 (٤) ولم يقف عند سماع حركات الهواء بسبب تحريكها
 (٥) بل تعالى الى عالم الأثير وضوئه فارتقت هذه النفس الى عالم الأفلاك ، لماذا ؟ لتعرف التفاحة فهي إذن استعانت بكل ماحولها ، استخدمت اللمس مباشرة والهواء والضياء وهذا الضياء مسافر لها من أقاصى العوالم التى ربما كان ضوؤها قد سافر إلينا منذ مائة مليون سنة نورية (اقرأ هذا فى سورة الفرقان عند قوله تعالى - تبارك الذى جعل فى السماء بروجا - فانك ترى هناك هذا المقام مشروحا وأن من الأجرام السماوية ما بعده عنا مائة مليون سنة نورية) هذه مراتب العلم عند الانسان
 (٦) إن العين كما تدرك صورة التفاحة بنفسها تدرك اللفظ الدال عليها مكتوبا بصناعة يدها
 (٧) وتدرك صورة رسمها بالآلات المصورة فهي إذن تعرف من ﴿ طرق سبعة ﴾ ثلاث منها بطريق البصر والأربعة الباقية بطرق الحواس الباقية
 ثم إن الحواس الثلاث الأولى أقرب الى العالم الأرضى فلذلك كانت صناعاتها سهلة قريبة المنال . أما حاسة السمع والبصر فانهما أقرب الى عالم الأرواح ولذلك ترى أن حاسة السمع تسمع كل ماحولنا قريبا وهذا المسموع يشمل كل ما هو قريب وكذا ما هو بعيد باللفظ لأن الكلام يعبر عن كل موجود قريبا أو بعيدا والبصر كما يدرك نفس الأشياء يدرك صورها التى صوّرت بالآلات التصوير . هذا هو الشرح الذى أردت أن أبينه لك أيها الصديق . وههنا ﴿ نتيجتان ﴾ النتيجة الأولى ﴿ ان العلوم والمعارف فى هذا النوع الانسانى يجب أن تنوع وتكون لها طرق مختلفة ، وقد عرف هذا علماء البيداجوجيا كما تقدم فى تفسير سورة الفاتحة فانهم يقولون للدرسين ليسمع التلميذ القول وليكتبه هو بيده وليكن مكتوبا بخط جميل ولتكن صور الأشياء مرسومة أمامه إذن يشترك السمع من المعلم وبصر المتعلم وكلام نفس المتعلم وكتابته للكلمة وصور الأشياء المرسومة أمامه كلها تشترك فى تفهيم التلميذ . إذن علماء تعليم الأطفال أخذوا يدركون الحكمة الأولى وهى حكمة صانع العالم انه أرانا ماحولنا بطرق مختلفة . فهاهم أولاء أخذوا يسيرون على منواله ومن ضلّ طريق الصانع الحكيم عاش جاهلا ، هذه هى النتيجة الأولى التى جاء الكلام عليها عرضا . أما ﴿ النتيجة الثانية ﴾ وهى المقصود من أصل المقال فهي ان الله عزّ وجل جعل جسم الانسان كأنه النور أو كأنه بطارية كهربائية وخلقه مناسباً لما حوله ومهد السبيل لانتفاعه بكل ذلك ، فالنور والهواء ونفس الأجسام كلها مستعدات لانتفاعه العلم ولنفعته . إن الله لما خلقه أراد أن يرفعه الى عالم أعلى ولا طريق الى رفعه الى عالم أعلى إلا العلم فطاه بطرقه وأكثر منها وابتلاه بالآلام واللذات والمرض والصحة والموت والحياة . كل ذلك ليوقظه للعالم الذى هو مسوق اليه فأكثر من الطرق لينجحه ليخرجه من هذه الأرض الضيقة وجعل فى الأرض حكماء وعلماء وأنبياء فهؤلاء زادوا فوق الحواس وانما زادهم فى الأرض ليساعدوا هذه الحواس وهذه المزعجات من حوادث الأيام والليالى على خروج الانسان من مضائق الأرض فأسمعهم أقوالا توقظهم الى عوالم عرفوها تارة بعقولهم كالفلاسفة وتارة بالوحى كالأنبياء فهؤلاء استعملوا حاسة السمع فسمعوا الكتب السماوية ومنها القرآن . ان البصر ازداد قوة برسم صور الأشياء بعد رؤية نفس أجسامها وبنظر الألفاظ الدالة عليها بوضع اللغات المختلفة شرقا وغربا هكذا السمع فضلا عن سماعه حركات المخاوقات سمع الألفاظ الدالة عليها ثم هو فوق ذلك سمع ما أنتجته العقول أوجاء به الوحى . كل ذلك تكميل للنفس لارتقاؤها الى العالم العاوى وازعاجها عن هذا العالم الضيق فقوله تعالى - ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون - تبين لآخر ما يتقرب من حاسة السمع وهو سماع

الوحى الذى يأتى للنفوس بما يحدث فيها حكمة فتستيقظ بعد الغفلة وتتلقى أشعة من نور الحكمة والعلم فتنبعث لدراسة ماحولها ، وهذا الذى كتبه الآن لم ينبعث فى نفسى إلا عند قراءة - ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون - فهذه الذكرى التى وصلت إلينا من هذه الآية

فقال صاحبي هذا بيان حسن ويظهر أن هذا الجسم الإنسانى مستودع علم فعليه نظام الدول الأرضية كما فى كتابك ﴿أين الإنسان﴾ وبه علم (البيداوجيا) أو علم تعليم الأطفال ، وبه الازدياد فى الحكمة ودراسة العلوم الطبيعية وعلم الفلسفة . فقلت نعم إن نوع الإنسان بعدنا سيكون فيهم أناس أبرع من العلماء فى زماننا أما الأمم الإسلامية فإن حوادث الدهر ومعجزات الليالى والأيام وأمثال هذا التفسير كلها متعاونات على إخراج أجيال منهم يكونون - خيرأمة أخرجت للناس - وسينهجون منهج ما أكتبه فى هذا التفسير وسيكون منهم حكماء وعلماء يتلمعون علوم الشرق والغرب بعشق وغرام وحب ولا يثنيهم عن ذلك الجلال عائق وهم الذين يقولون إن الله قد جعل أجسامنا مستمعة من كل ماحولها ، فعلينا أن نستمد من كل مخلوق فتعلم كل علم وندرس كل موجود ، ومتى قصرنا فى أى عالم من العوالم التى حولنا فالله لنا بالمرصاد ويقول لنا أيها الناس أنا لم أترك فرصة إلا انتهزتها لتعليمكم ولم أقف عند اللبس ولا الشك ولا البصر بل خلقت لكم اللغات المعبرات عن صور الموجودات ووصلتها لكم تكثيراً للعلم ، فاذا أغمضتم العين ولم تشموا ولم تلمسوا أرسلت المعانى بطرق الألفاظ حتى إن هذه الحاسة كأنها جميع الحواس ، فاذا كانت هذه أعمالى فعليكم أن تتخلعوا بأخلاقى ولا تدعوا فرصة إلا انتهزتموها فانتفعوا بكل شئ بالهواء وبالماء وبالنور وبكل موجود فهذا هو التوصيل وهذا هو حديث حجة الوداع ﴿ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع﴾ وهؤلاء هم الذين يقولون قوله تعالى - ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون - فهؤلاء وأمثالهم من أصحاب النبى ﷺ ومن على شاكلتهم هم الذين يتذكرون . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ والحمد لله رب العالمين

واعلم أن هذا القسم إلزام للكفار واحتجاج عليهم وقطع لأعدائهم بعد أن مهد لهم السبيل بذكر قصص موسى حتى يكون مدخلا للكلام معهم ومخاطبتهم وقطع أعدائهم ، ثم أعقبه بالقسم الثالث وهو من قوله تعالى - وربك يخلق ما يشاء ويختار - إلى قوله - وضل عنهم ما كانوا يفترون - وهو تذكير بآيات الله سبحانه فى الأرض والسموات كما ذكرهم فى القسم الأول بآياته فى الأمم الماضية حتى تتضافر الدلائل وتتحد الحجج فأخذ يذكر أنه سبحانه هو وحده مصور الصور باختياره يخلقها كما يشاء لإرادته لقضائه فلا شريك له كما يزعمون وعلمه محيط بما ظهر وما بطن وهو محمود فى الدنيا والآخرة وقضاؤه نافذ ، ومن أعظم نعمه أنه لم يجعل ظلام الليل دائماً ولا نور النهار دائماً بل أدار الأفلاك فكان ليل ونهار لينام الناس ليلاً ويعملوا للرزق نهاراً ، واليك بيان القسم الثالث

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ *
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَامٍ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ
عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيَالٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا

تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَاقْلُنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) أى وربك يخلق ما يشاء ويختار ما يشاء لا موجب عليه ولا مانع منه ولذلك كان هذا العالم على غاية النظام والاتقان والابداع فليس لأحد من المخلوقين اختيار فى شئ من ذلك (ما كان لهم الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير فليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما وله الخيرة عليهم وما يدخل فى هذا أنه له أن يرسل من يشاء رسولا فلا يجعل ذلك منوطا بمال أو بجاه فيستط بذلك قولهم - لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - وهما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي فالله مطلق التصرف وهو أعلم بمن استعدادهم قابل لذلك (سبحان الله) تنزيها له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره فإذا أراد النبي ﷺ أن يهذى أحدا من أحبائه أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظمائهم قال الله ليس لكم من الأمر شئ ، فلا النبي يهذى عمه ولا أهل مكة ينالون أن تكون الرسالة فى عظمائهم تنزيها لله (وتعالى عما يشركون) عن اشراكهم . ولما كانت القدرة المسبوقة بالارادة المعبر عنها بالاختيار يتقدمها العلم الذى هو مقدم على الارادة أعقبه بقوله (وربك يعلم ما تكن صدورهم) تخفى (وما يعلنون) يظهرون فلما اختص بالعلم بالاختيار خلق ما يشاء كما يشاء (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة) ذلك انه يحمد المومنون وأوليائه وأنبيائه فى الدنيا ويحمدونه فى الآخرة مثل قولهم - الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن - وقولهم - الحمد لله الذى صدقنا وعده - (وله الحكم) القضاء النافذ فى كل شئ (واليه ترجعون) بالنشور (قل أرأيتم) أى أخبرونى يامعشر الكفار (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما (الى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بضياء) يقول الله أخبرونى من إله غير الله يقدر أن يأتىكم بضياء إن جعل الله عليكم الخ (أفلا تسمعون) سماع تدبر واستبصار وكان الانسان اذا جنّ عليه الليل وفرض أن الشمس لا تطلع يقول فى نفسه ذلك فعبر بالسمع لأن الليل يناسبه السماع والنهار عكسه (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بليل تسكنون فيه) استراحة من التعب (أفلا تبصرون) ولما كان الضوء فى نفسه نعمة والظلمة انما هى عدم الضوء لم يصف الضوء اكتفاء بذكره هو ووصف الظلمة لتبيان فائدتها (ومن رحمة جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) بالليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بالمكاسب المختلفة والتنقل فى الأسفار والتقلب فى الأعمال (ولعلمكم تشكرون) أى ولكي تعرفوا نعمة الله فى ذلك فتشكروه عليها ولا شكر لغيره لأنه لا يكور النهار على الليل ولا الليل على النهار إلا الله تعالى فلذلك يعترف الكافرون بهذه الحقيقة على رؤس الأشهاد يوم القيامة بعد أن جهاوها أو تجاهلوا فى الدنيا وهو قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) هذا تكرر ير للتوبيخ على اتخاذ الشركاء فهو فيما تقدم دليل على فساد آرائهم وهنا تقرير أنه لا حجة لهم ولا شبهة وانما هو هوى وشهوة وهو قوله (ونزعنا) أخرجنا (من كل أمة شهيدا) وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا يعملون (فقلنا) للآثم (هاتوا برهانكم) على صحة ما كنتم تدعون به (فعلموا) حينئذ (أن الحق لله) فى أن الله ألوهيته لا يشاركه فيها أحد (وضلّ عنهم) وغاب عنهم كما يغيب الضائع (ما كانوا يفترون) أى يخلقون فى الدنيا من الكذب على الله . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة

﴿ عجائب القرآن في هذه الآيات ﴾

تأمل قوله تعالى - وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون - تأمل في هذا وتجب كيف يقول هنا - وله الحمد في الأولى والآخرة - نعم الله محمود في الدنيا يحمدونه الناس على ما عرفوا من نعم يحمدونه إذا أحسوا بها ، فيحمدونه الفقير متى أحس بالغنى ، ويحمدونه المريض متى نال الشفاء ، ويحمدونه الذليل متى أحس بالعز . وبالجملة حمد الناس وثناؤهم على ربهم إذا أحسوا بنعمه وذلك عام في جميع النوع الانساني ، فأما في أوقات الفراغ وهدوء البال فان الناس لا يتذكرون نعمة ربهم فلا يذكرون صحة البدن ولا قوته ولا العقل المركوز فيهم ولا الذكاء ولا يفكرون في نعمة الولد والأهل والأصحاب والأقارب ولا نعمة نظم المدن التي تحفظهم ليعيشوا فيها ، ولا نعم السموات والأرض والكواكب والشمس والقمر والأنهار والبحار فاناس ماداموا في خفض وسعة الرزق وبجودة العيش فانهم غافلون . لذلك أرسل الله رسوله ﷺ والأنبياء قبله ليدذكروا الناس بالنعم ليدرسوها متى درسوها أحسوا بها ومتى أحسوا بها حمدوا الله عليها . ولما كان النبي ﷺ آخر الأنبياء وأمر بالحمد كما رأيت في (سورة النمل) إذ قال الله له - قل الحمد لله وسلام على عباده - أمر ﷺ أن يصلي المسلمون بفاتحة الكتاب فقال ﴿ لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ﴾ وانما قال ذلك لأن الله أمره بالحمد ولا حمد إلا حيث تعرف النعمة لأن النعمة التي لا يعرفها الانسان لا يحمد عليها كما لا يحمد الأصحاء على العافية ولا المبصرون على خلق أعينهم اذا لم يهتروهم مرض فيذكروهم . لهذا ترى المسلمين في أقطار المسكونة قد اتخذوا الفاتحة شعارهم وتسمع في كل آن وقت الصلاة وفي خارج الصلاة قولهم ﴿ الحمد لله ﴾ وفي عقب الأكل وعقب كل نعمة ﴿ الحمد لله ﴾ فهذا من الحمد في الدنيا . ولا جرم أن الحمد يتقدمه العلم بالمحمود عليه حتى تشعر النفس بالنعمة . فالشعور إما بحادث طبيعي أو بطريق علمي والحادث الطبيعي المذكور بالنعم غير دائم بل هو قليل لأنه خاص بالمصائب والأمراض . أما الطريق العلمي فهو عام في النعم الجزئية والنعم الكلية . فبه تعرف نعم السموات والأرض والأنهار وخلق هذا العالم حتى يدرك الانسان أن هذه كلها مساعدة له على بقائه ونعمها واصله اليه بل يرى أن الناس جميعا ينفعونه في أمته وفي غير أمته ، فإذن العالم كله نافع له لافرق بين شمس وقمر وبحر وأمة نشأ فيها وأمة لم ينشأ فيها ، فالعلم يعرف الانسان هذه العوالم فيحمد عليها ويعرفه أن الناس اخوانه فيحبهم ، ومتى حمد الانسان على نعم الله في الدنيا حمد عليها يوم القيامة بل لا حمد في الآخرة إلا اذا تقدمه حمد في الدنيا إذ لا حمد حقا إلا على علم والعلم في الدنيا باق في النفس بعد الموت فمن لا يدرك هذا الوجود في الدنيا لا يدركه في الآخرة ، فاذا حمد العامة والجهال ربهم على طعام أو شراب أو مال أو جاه ، فالعالم أرقى وأرقى لأنه يحس في نفسه بحمد الله كلما نظر كوكبا أو نباتا أو حيوانا أو هبت ريح أو جرى نهر لأنه يراها كلها متعاونة متعاونة لخدمته وخدمة الناس بل يحمد الله لذلك الجمال البديع والبهجة والرونق والحسن ويرى هذا العالم كله جيلا فيكون الحمد أجلى وأبهى وأدوم وأبهج وأجل وهذا الجمال هو المقصود لذاته وهذا غاية الحمد ولما كان الأنبياء هم المذكرون بتلك النعم وآخرهم سيدنا محمد ﷺ ورد أنه هو رافع لواء الحمد وأنه له المقام المحمود فيرجع الأمر كله الى العالم لأنه لا حمد إلا بعد علم ، ونتيجة هذا القول أن هذه الأمة الاسلامية أمة حمد ويلزم من ذلك أن يكونوا علماء بهذا الوجود ، انظر أليس الأمر اليوم معكوسا ، إن حمد المسلمين اليوم لفظي إذ حمد العامة هو الغالب ، أما الحمد الاسلامي العقلي المبني على العلم والحكم والفهم فانه غائب اليوم انه سيقوم فيهم أناس ينبغون في العلوم ويعلمون هذه الأمة أنواعها ويتصرفون فيها ويهم الأكابر وهم يفيضون على الأصاغر وهذا هو السر في قوله في (سورة النمل) - وقل الحمد لله - وأتبعه بقوله - سيركم آياته فتعرفونها - لأن الحمد بلا معرفة حمد لفظي لا معنى فيه وهو جسم بلاروح ولفظ بلا معنى ، وأي فضل في حمد لا يحس حامده به ، فالحمد بعد المعرفة ولذلك قال في هذه السورة - وله الحمد في الأولى والآخرة - لأنه ذكر

المعرفة هناك في آخر (سورة النمل) ومثل هذا يقال في (سورة الفاتحة) ابتداء الله فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) ولا جرم أن الرحمة ﴿قسمان﴾ رحمة أفيضت على الأجسام ورحمة أفيضت على العقول ورحمة الأجسام مقدمة ورحمة العقول نهاية ثم أتبعها بقوله (الحمد لله رب العالمين) فذكر الترتيب ليوجه عقولنا إلى نظام هذه العوالم كما تقدم في الفاتحة وأتبعه بذكر الرحمة للدلالة على أنها سارية في العوالم كلها لتستوجب الحمد والاحساس بالنعمة ولما كان أكثر الناس كما قلنا لا يحسون إلا بما تشعر به حواسهم من النعم الطارئة ولا يفقهون النعم المترادفة لأنها بتكرارها عليهم يبطرون ولا يذكرونها . ذكر العبادة وانها خاصة بالله وسأل المؤمن أن يهديه الله الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم . فذكر هداية الله للنعم عليهم إلى الصراط المستقيم وهذه الهداية منشؤها العلم والعلم بالنعمة هو الذي يثير في النفس الحمد والاعتراف به . إن الأمة الإسلامية أمة حمد ونبينا ﷺ رافع لوائه ولاحد إلا على علم بالمحمود عليه والمحمود عليه جميع النعم والمسلم يسأل الله الهداية لصراط المنعم عليهم وصراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين هو الصراط السوي . هو العلم بالنعم . هو العمل الصالح والذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون هؤلاء هم المنعم عليهم فالأنبياء والصديقون متحققون بالعلم والأخلاق والشهداء تبع لهم وأما الصالحون فهم متحققون بالعمل أكثر من العلم فالصراط المستقيم شامل للعلم والعمل وبالعلم كما قلنا يثور الحمد في الانسان

إن هذه الآيات التي نحن بصددناها جاء فيها التسبيح - سبحان الله وتعالى عما يشركون - وتبعه التوحيد إذ قال تعالى - وهو الله لا إله إلا هو - ثم الحمد على النعم وهو قوله - له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم - فهذه ﴿درجات ثلاث﴾ تقديس وتوحيد أي أن الذات المقدسة ليست متعددة ثم حمد * وقد ورد « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة » وورد أيضا ﴿افضل الدعاء الحمد لله﴾ وقيل ﴿ليس شيء من الأذكار يضاعف ما تضاعف الحمد لله﴾ * قال الامام الغزالي ﴿ولا تظن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات﴾ اهـ

يقول مؤلف الكتاب إن أول الأمر وآخره المعرفة والعلم ، إن هذه كلها مذكرات بالعلم ، فاذا سمعت قوله تعالى - وآخذ عواهم أن الحمد لله رب العالمين - فانما ذلك الحمد لمعرفة أوجبه في الدنيا والمعرفة في الدنيا هي الاطلاع على نظام هذه الدنيا وجمال الله فيها وحكمته وبهائه وتلك النظم البديعة البهية التي تدهش العقل وتبهره فينطق بالحمد في هذا الجسم وبعده مفارقتة . وهذا الذي ذكرته كله واضح في هذه الآيات فانك ترى التقديس تلاه التوحيد أتبعه الحمد ، ولما كان الحمد لا يكون إلا على نعمة والنعمة العامة لا تعرف إلا بالعلم قال الله تعالى - قل رأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا - الخ يقول الله أيها المسامون إن ربكم مختص بالحمد في الدنيا والآخرة ولاحد إلا بعلم ، فانظروا في الليل والنهار فلو أن الليل دام عليكم أفلستم تحرمون من التصرف في معاشكم ، واذا كان النهار دائماً عليكم أفلستم تمنعون من وقت الراحة ؟ انظروا في رحمتي التي وسعت كل شيء ، انظروا فيها فاني جعلت ظلمة وجعلت نورا بنظام دوران الشمس ليكمل هناؤكم وسعادتكم فحمدكم لا يكون إلا اذا عرفتم رحمتي ولا تعرفونها إلا بالعلم ، ألم أمركم أن تقولوا - بسم الله الرحمن الرحيم - قبل - الحمد لله رب العالمين - أليس ذلك لتذكروا رحمتي التي وسعت هذا النظام وذلك بالتعليم ومتى عرفتم حمدتم . انتهى

﴿النعم والنعم مذكرات موجبات للشكر وهذه الآية ذكر فيها أعظمها﴾

(نمط آخر في تفسير هذه الآية)

ذكر الله الليل والنهار وانه رحنا بهما مريداً بذلك أن نعلم النعم فنشكر عايتها والشكر أعظم من الحمد المتقدم فالحمد باللسان وحب جميع الناس بالقلب وصرف النعم والمواهب كلها فيما خلقت لأجله ، فهذه الثلاثة هي الشكر

وأَسْهَأَ كَافَا الْعِلْمَ ، وَجَمَاعَ النِّعَمِ وَأَضْدَادَ النِّعَمِ جَعَتْ هُنَا . إِنْ اللَّهَ لَمَّا خَلَقْنَا فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ أَرَادَ تَرْيِيتَنَا وَالتَّرْبِيَةَ لِأَبَدٍ لَهَا مِنْ ضِدِّينَ نِعْمَةً وَنِقْمَةً ، فَالنِّعْمَةُ مُوَهَّبَةٌ ، وَالنِّقْمَةُ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَيْهَا ، وَعَبَّرَ عَنْ هَذَا كُلِّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْأَصْلُ كُلُّهُ دَوْرَانِ الشَّمْسِ وَمَبْدَأُ ذَلِكَ كُلُّهُ الْحَرَكَةُ فَبِالْحَرَكَةِ كَانَ دَوْرَانِ الشَّمْسِ ظَاهِرًا وَبِدَوْرَانِ الشَّمْسِ ظَاهِرًا كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَالنَّهَارُ عُنْوَانُ النِّعَمِ ، وَالظَّالِمَةُ أَشْبَهَ بِعَدَمِهَا وَعَدَمُ النِّعَمِ هُوَ النِّقْمُ إِذْ لَا نِقْمَةَ إِلَّا عَدَمُ النِّعْمَةِ ، فَهَذَا الدَّوْرَانُ أُتِّجَ فِيمَا عَلَى الْأَرْضِ مَا هُوَ مِنْ طَبَاعِهِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْ طَبَاعِ الدَّوْرَانِ الظَّالِمَةُ وَالنُّورُ أَيْ عَدَمُ النِّعْمَةِ وَوُجُودُهَا

﴿ كَانَ فِي الْأَرْضِ ﴾

جَبَلٌ وَوَادٌ وَسَهْلٌ وَخَزْرٌ وَبَحْرٌ وَوَبْرٌ وَعَامِرٌ وَخَرَابٌ وَخَصْبٌ وَجَدْبٌ وَحَلَوٌ وَمِلْحٌ وَهَوَاءٌ وَحَجَرٌ وَخَشَنٌ وَنَاعِمٌ وَحَرٌّ وَبَرْدٌ وَلَطِيفٌ وَكَشِيفٌ وَصَرٌّ وَحَلَوٌ فِي النَّبَاتِ وَحَيَوَانٍ مَفْتَرَسٍ ضَارِلُنَا وَأَنْعَامٍ تَنْفَعُنَا

﴿ وَكَانَ فِي أَجْسَامِنَا وَنَفُوسِنَا ﴾

أَعْمَى وَبَصِيرٌ وَأَصَمٌ وَسَمِيعٌ وَأَخْرَسٌ وَفَصِيحٌ وَأَعْرَجٌ وَضَعْدٌ وَأَقْطَعٌ وَذَوِيدٌ وَمَرِيضٌ الْبَدَنُ وَسَلِيمٌ وَكَذَا مَرِيضٌ الْقَلْبُ أَوِ الْجَنْبُ أَوِ الْمَعْدَةُ أَوِ الْأَمْعَاءُ أَوِ السَّكْبَدُ أَوِ الطَّحَالُ وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَعْضَاءِ وَمُقَابِلَةُ الصَّحِيحِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَكَانَ فِي الْإِنْسَانِ الْغَنَى وَالْفَقِيرُ وَالْعَزِيزُ وَالذَّلِيلُ وَالْبَخِيلُ وَالسَّكْرِيمُ وَهَكَذَا مِمَّا لَا يَسَعُهُ الْمَقَامُ وَكَانَ فِيهِ أَيْضًا الذَّكِيُّ وَالْبَلِيدُ وَالْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ وَالْأَحْقُّ وَالْعَاقِلُ كُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي ذِكْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَالْأَوَّلُ لِعَدَمِ النِّعَمِ وَالثَّانِي لَوْجُودِهَا وَمَا ذَكَرْنَاهُ كُلُّهُ لَا يَخْرُجُ عَنْهُمَا وَكُلُّ مَا عَلَى الْأَرْضِ نَاجِمٌ مِنْ آثَارِ الْحَرَكَاتِ السَّمَاوِيَّةِ النَّازِلَةِ عَلَى الْكَوْكَبِ الْأَرْضِيَّةِ فَكَأَنَّ النَّتَائِجَ تَابِعَةٌ لِلْمَقْدَمَاتِ نَاهِجَةٌ مِنْهَجَهَا سَائِرَةٌ عَلَى مَنَوَاهَا وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ تَمَرُّ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ غَافِلُونَ ذَكَرَ اللَّهُ النَّاسَ بِقَوْلِهِ - لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ - أَيْ لَعَلَّكُمْ تَعْرِفُونَ فَتَشْكُرُوا عَلَى النِّعَمِ وَلَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَلَمَ الْجَهْلِ وَأَلَمَ الذَّلِّ وَأَلَمَ الْفَقْرِ وَأَلَمَ الْمَرَضِ وَالْجُوعِ وَأَلَمَ الْفِرَاقِ وَأَلَمَ الْوَحْدَةِ مُحَرِّضَاتٍ عَلَى نِعْمَةِ الْعِلْمِ وَالْعَزْزِ وَالْغَنَى وَالصَّحَّةِ وَالطَّعَامِ وَالْاجْتِمَاعِ وَهَذِهِ أَشْبَهَ بِالسَّائِقِ لِلنَّاسِ إِلَى حُوزِ النِّعَمِ وَجَعَلَ لَذَّةَ الْعِلْمِ وَلَذَّةَ النَّصْرِ وَلَذَّةَ الثَّوَّةِ وَلَذَّةَ الصَّحَّةِ وَلَذَّةَ الطَّعَامِ وَلَذَّةَ الْاجْتِمَاعِ أَشْبَهَ بِالْقَائِدِ ، فَلِكُلِّ مَنْ ذَلِكَ سَائِقٌ مُؤَلِّمٌ وَقَائِدٌ مَلْدٌ تَحْمِلُهُ عَلَى اسْتِجْلَابِهِ ، وَمَنْ أَكْبَرَ قَائِدٍ لِلنِّعَمِ جَمَالَ الزَّهْرِ وَحُسْنَ الْقَرِّ وَبِهَيْجَةِ ضَوْءِ السُّكُوكِبِ . وَغَرَائِبُ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَلَفَتْ النَّظَرَ وَتَكُونُ فِي بَابِ السَّائِقِ أَشْبَهَ بِالْمَقْطُوعِ الْأَيْدَى وَالْأَرْجُلِ فِي بَابِ النِّقْمِ . ثُمَّ الْجَمَالَ الْفَائِقُ وَالْقَبِيحَ الزَّائِدَ أَحَدُهُمَا قَائِدٌ لِلنِّعَمِ وَثَانِيهِمَا سَائِقٌ يَسُوقُ النَّاسَ لِلْبَعْدِ عَنْ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ وَشَنَاعَةِ الْمَلْبَسِ وَسُوءِ الْحَيَاةِ

هَذَا كُلُّهُ هُوَ مَا وَضَعْتَ عَلَيْهِ الْحَيَاةَ فِي أَرْضِنَا وَيَقْرَبُ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى - وَمَنْ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفَرِّوْا إِلَى اللَّهِ - فَقَوْلُهُ - فَفَرِّوْا إِلَى اللَّهِ - هُنَاكَ أَيْ بِالْعِلْمِ وَقَوْلُهُ - لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ - وَلَا شُكْرَ إِلَّا بَعْدَ عِلْمٍ

﴿ نَتِيجَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ ﴾

عَلَيْكَ أَيُّهَا الذَّكِيُّ أَنْ تَفْهَمَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اللَّهَ يَغْضِبُ عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ نَامَتْ عَنِ الْعُلُومِ ، أَيْ قَطَّ الْمُسْلِمِينَ وَقَلَّ لَهُمْ أَقْرَؤُا جَمَالَ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَتَشْرِيحٍ وَعِلْمِ نَفْسٍ وَعِلْمِ فَلَكَ وَعِلْمِ الْبَحَارِ وَبِهَيْجَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَعَلَى كُلِّ غَنَى وَعَالَمٍ وَذِي جَاهٍ أَنْ يَفْهَمَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْصِمُوا التَّعْلِيمَ فِي سَائِرِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَأَنْ تَكُونَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ بِأَشْيَاءَ مَشْوُوقَةٍ مِنْ بِهَيْجَةِ الْأَنْوَارِ وَمَحَاسِنِ الْأَشْجَارِ وَجَمَالَ الْبَحَارِ وَصَوْلَةِ الْبَخَارِ وَعِزَّةِ النَّضَارِ وَضَوْءِ الْمَاسِ وَنَفَائِسِ الْأَحْجَارِ وَبِدَائِعِ الْأَسْرَارِ وَعَجَائِبِ الْأَثَارِ وَحِسَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَعَجَائِبِ الْفَلَكَ الْمَدَارِ - إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِأَوَّلَى الْأَبْصَارِ -

قُلْ ابْدُؤُوا بِهَذِهِ الْعُلُومِ فَاقْرَؤُوهَا فَإِذَا قَرَأْتُمُوهَا لِلصَّغَارِ فَعَنَى ذَلِكَ أَنْ تَقْطِفُوا مِنْ أَثْمَارِهَا وَتَسْمَعُوهُمْ مِنْ

أخبارها فيكونون مشتاقين فرحين بها وهذا الشوق يدفعهم الى اكتناه أسرارها اذا كبروا . ذلك هو المسمى (درس علم الأشياء) فيؤتى بنبد من كل علم وتعطى لهم كأنها حلاوى بها يفرحون وفاكهة بها يتفكهون فاذا كبروا قرؤا دروسها وعرفوا نظمها وتناولوا آياتها

هذا هو شكر ربكم فادرسوه ، وهذا هو دين الاسلام في المستقبل فتر بصوه ، وهذا هو توحيد الله وشكره فاشكروه ، وهذا هو الذى به تعمروا مدنكم وتعظم أئمتكم وتقوى شوكتكم وتحفظ أغوركم وتكثر نعمكم وتقل نعمكم ويهاجم عدوكم . هذه هى العاوم التى ترفعكم فى الدنيا بما ذكرناه وفى الآخرة بقاء الله ، فالدينا تكون لكم سامعة مطيعة وقلوبكم تعشق ربها وتحب خالقها وتأنس به فى هذه الحياة ، فاذا ما قرب موتها أنست بعالم الجلال وفرحت بقاء الله وهذا هو قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك هو الفوز العظيم -

وهنا ﴿ أربع جواهر الجوهرية الأولى ﴾ فى قوله تعالى - وربك يخلق ما يشاء ويختار -

﴿ الجوهرية الثانية ﴾ فى قوله تعالى - وهو الله لا إله إلا هو - الخ

﴿ الجوهرية الثالثة ﴾ فى بهجة العلم فى قوله تعالى - قل أرأيتم إن جعل الله - الخ

﴿ الجوهرية الرابعة ﴾ فى قوله تعالى - ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار -

﴿ الجوهرية الأولى فى قوله تعالى - وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة

سبحان الله وتعالى عما يشركون - ﴾

يقول المسلم فى صلاته « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » هذا لأنه أعلم بالمصالح فهو يعطى وهو يمنع لحكم هو وحده يعلمها ولن يعرف أحد من بنى آدم حقائق هذه الحكم إلا بقراءة كل علم على قدر الطاقة هو يخلق ما يشاء ويختار ليس الخيارات لأن علمنا قاصر وهو يعلم كل شئ ، واذا أردنا ضرب مثل هنا على ذلك وجدنا العالم كله والعاوم كلها مضرب أمثال ولاكنى أقصر على مسألة واحدة تأخذ باللب وتشرح الصدر فأقول

يعيش الجنين فى بطن أمه وفيه يتغذى بدمها ، فأمه تهضم الطعام فى بطنها وينقلب دما والدم يقابل الهواء الجوى بالتنفس فى رئتيها فيصلح لتغذية جسمها فيرجع الى القلب ويدخل الجهة اليسرى منه فيدخل من أعلاه فى تجويف يسمى البطن وينزل منه بفتحة الى تجويف أسفل منه يسمى البطن وهو أكبر من التجويف الأول ، ومن هذا التجويف الأكبر فى الجهة اليسرى يخرج منتشرا فى البدن أعلاه وأسفله ثم يرجع الى نفس القلب من الجهة اليمنى وهو ممتلئ مواد فحمة (كربونية) فيدخل فى تجويف صغير هناك ثم ينزل منه الى تجويف أسفل منه يسمى البطن أيضا ومن هذا الأسفل يخرج متجها الى الرئتين أى رئتي المرأة التى كلامنا فيها وهو يحمل المواد الفحمة فيقابل الهواء الجوى الداخل فيعطيه بنفسها تلك المواد ويصفى كما نضفى نحن الماء ونخلصه من المواد الغريبة بالآلات التصفية ، فهذه الرئة أشبه بالأوانى التى نضعها فى منازلنا وفيها الماء فينزل من مسامها خالصا سائعا للشاربين لاضرر فيه ، فالرئة كالأوانى المذكورة والدم كالماء ومتى صفى الماء فى الرئة وطهر بمقابلة الهواء الجوى أخذ من الهواء فى نفس الحال مواد الحياة (الكسوجين) بعد ما أعطاه المواد المهلكة السامة الفحمة (الكربونية) ورجع الدم يجرى الى الناحية اليسرى ودخل فيها كما تقدم . هذه هى الأعمال التى تحصل فى قلبى وقلبك أيها النكى وفى قلب المرأة ونحن لانشعر ولا نعلم . وليس شرح هذا المقام مقصودا بهذا المقال . كلا . لأنه قد تقدم مستوفى فى (سورة المؤمنون) عند آية - وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون - وانما الذى سقت له هذه المقالة أمر عجيب وغريب . سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذى اخترت هذا الوضع للقلب واصطفيت له هذه الدورة الدموية التى تتوقف حياتنا عليها . ولما كان هذا النظام معلوما لجميع الأطباء ويتبعهم المتعاملون فى الكرة الأرضية لم يكن

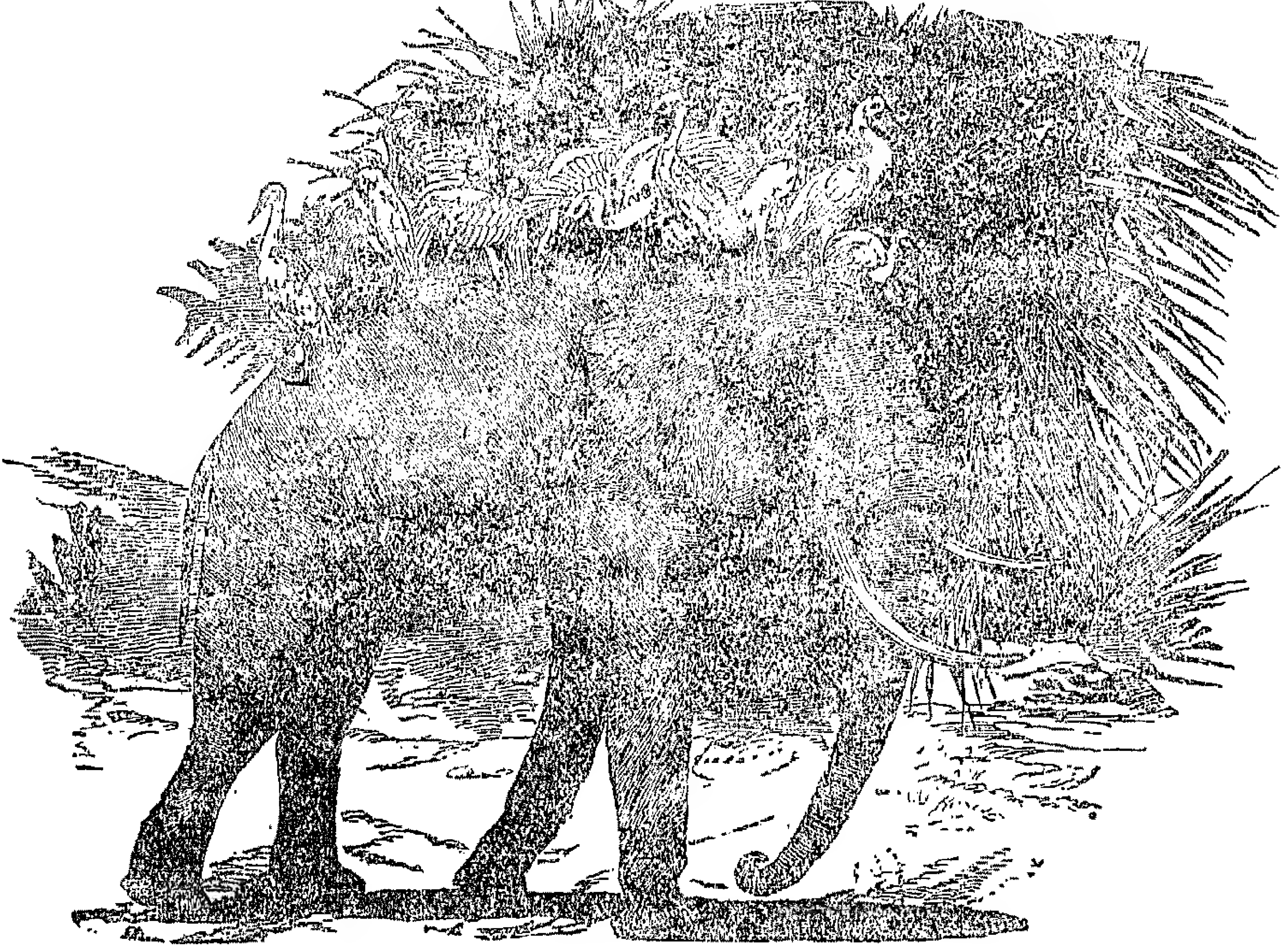
أمرا غريبا لأن كل مألوف متروك وكل غريب مرغوب ، فلتكرار هذا العمل زالت غرابته كما زالت غرابة الليل والنهار ، تشرق الشمس وتقرب وهكذا القمر والكواكب فلا تتحرك ساكنا في أكثر هذا النوع الانساني كذلك هذه الدورة السموية التي تدور في أجسامنا المملوءة حكما وعلمها قد أصبح الانسان كله إلا قليلا معرضا عن بدائعها وعجائبها ، وإذا رأى الناس كسوف الشمس وخسوف القمر أخذوا يتعجبون من ذلك لأنه نادر فرمما بعث الأذكىاء منهم الى التفكير . هذا في عالم السموات الذي نراه بأبصارنا . أما الدورة السموية فهي غائبة عنا لانراها بل لا يعرفها . الا العلماء الدارسون لها بل الدارسون لها أيضا قل منهم من يفكر في عجائبها إن دراسة العوالم حولنا أسهل علينا من دراسة نفوسنا وتشرح أجسامنا ، ولكن اذا اطالع هؤلاء الدارسون لتلك الدورة على ماسقت الكلام لأجله دهشوا من تلك الدورة وعجبوا وذلك هو المقصود من هذا المقال كله . ذلك أن التجويفين الأعلين الصغيرين اللذين يسميهما العلماء (بطينان) بينهما في أجسامنا الآن فاصل وحاجز فلاصلة بينهما . ذلك لأن الدورة الدموية لا تتم إلا بهذا الحاجز بينهما (انظر شكل الدورة الدموية في سورة المؤمنون)

وانما لم تتم الدورة إلا بهذا الحاجز لأنه يفصل الدم الوريدي الذي لا يصلح للتغذية في البطين الأيمن عن الدم الشرياني الذي يصلح للتغذية في البطين الأيسر كما علمت . إذن الله فعل في الدورة الدموية في جسمي وجسمك أيها الذكي مثل ما فعله في البحرين العذب والملح فقد جعل بينهما برزخا وحجرا محجورا فلم يخلط أحدهما بالآخر وجعل الحلو مشتقا من الملح بالبحر منه فيخرج الى الهواء فيخلص من الملح ثم يكون مطرا هكذا فعل الله في هذه الدورة خرج الدم الوريدي الذي لا يصلح للتغذية لما فيه من الكربون من البطين الأيمن ورفعته الى الرئتين فقابل الهواء الداخل بالتنفس فصفاه وجعله صالحا للتغذية . هذا هو فعل الله في جسمي وجسمك أيها الذكي الآن وجسم المرأة التي تحمل الجنين . انما الأمر الأعجب هو أن الحاجز الذي بين الأذين الأيمن والأيسر الذي بينا انه لا بد منه لأنه حاجز بين الدمين الشرياني والوريدي الآن لم يكن له وجود في الجنين فهو لي ولك ولأم الجنين ولكنه لم يكن عند الجنين ومتى ولدت أمه سدت هذه الفتحة حالا فمكان هنالك بوابا فتحت هذا الحاجز قبل الولادة وعند الولادة أقفله وبقى مقفلا ، والسبب في ذلك أن الجنين اذا وصل دم أمه اليه اتجه أولا الى الأذين الأيمن فبسد أن ينزل الى البطين الأيمن ومنه يتجه الى الرئة ليخلص فيها كما قدمنا يتجه حالا من الأذين الأيمن المذكور الى الأذين الأيسر مباشرة ومن الأذين الأيسر الى البطين الأيسر ومنه ينتشر في الجسم كله ، ذلك لأنه دم الأم ودم الأم الذي يجري الى الطفل كله شرياني . إذن لا حاجة الى دخول الدم في البطين الأيمن ثم خروجه الى الرئتين لأنه لا يعوزه ما يعوز دمنا نحن لأن ذلك دم مصفى في رئة الأم فهو دم شرياني . فرتة الطفل لانفس فيها لأن نفس الأم في رتتها قائم بما يجب . إذن لا حاجة لهواء يدخل في رتته لقيام رئة الأم مقام رتته . وعليه لا بد من اتجاه الدم من الأذين الأيمن الى الأيسر مباشرة ويعطل البطين الأيمن مادام الجنين في بطن أمه وتعطل الرئة أيضا ، ومتى ولد الطفل قابل فمه وأنفه الهواء الجوى ودخل الهواء الى الرئتين فهناك حالا يستد ذلك الحاجز ويدور الدم دورته المملوءة المشروحة شرحا كافيا وافيا والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الثلاثاء ٤ يونيو سنة ١٩٢٩

﴿ ضوء الجوهرة في قوله تعالى أيضا - وربك يخلق ما يشاء ويختار - ﴾

عبر بلفظ الرب إيدانا بالتربية فلم يكن الخلق إلا على مقتضى التربية ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لم يكن الخبر إلا على حسب المبتدأ ، فالمبتدأ هو ربك والخبر هو يخلق وفي اضافة الرب لضمير الخطاب ايدان بشرف المخاطب وانه جدير بأن يكون خليفة في الأرض يرعى الأفراد والأمم ، فالله يرعى ما خلق ورسوله ﷺ ومن اقتدى به يتخلقون بالأخلاق الكاملة التي أمرهم بها ليكونوا مربين للناس وجعل المشيئة خاصة به تعالى والاختيار

ولم يجعل لأحد من عباده اختياراً في إعطاء أو منع ، الربى الخالق الذى يعلم ما خلق لا يجعل لأحد سلطاناً ولا وزارة ولا استشارة فيما يدبره ، وهذا القول الاجمالى هو معنى الآية وهذا المعنى معلوم ، وإذا أردنا أن نجعل له مثالا تواردت آلاف الأمثلة بل ما فى هذا التفسير من عجائب الحكمة يصلح فى هذا المقام ولكن وقع اختيارى على هذا الفيل المسمى بالانجليزية (جيمو) وعليه صف من طيرأبى قردان تأكل الدود من جلده وهو مطمئن ساكن وهذه صورته (شكل ١)



(شكل ١)

أنا اخترت هذا المثال لأنه أثر فى نفسى أعظم أثر وكيف لا يؤثر وأنا أرى أكبر الفيلة واقفا ساكنا وهذه الطيور واقفة فوقه وهو مستلذ ساكن بل مبتهيج . هذا الفيل معلوم من طبائعه أنه قوى جدا وهو يقوم فى العمل مقام جماعة من الرجال وهو يقاتل الأسود والتمور وغيرها من الحيوانات المفترسة ولكنه فى نفس الحال حبيب صديق لأبى قردان ، ذلك الطائر الضعيف الذى لا سلاح له ولا قوة ، إن الفيل وإن لم يغلبه غالب من الحيوانات المفترسة فقد غلبه أضعف المخلوقات الذى هو أعدى أعدائه ولكنه لن يقدر أن يصل اليه ، إن له جلدا متينا قويا جدا وقد سلط عليه حشرة صغيرة تسمى (نيكس) فهى تعيش فيه وتتغذى بأكله وتؤذيه بأكلها وهو يحتك بالحجر وبالشجر لينحىها عن جسمه - ولات حين مناص - وكلما أوغل فى حكها أوغلت هى فى جلده وتعمقت وغاصت فيه فلن يقدر عليها فهى فى أمن وأمان ، فمن ذا الذى يغيب الفيل إلا أصدقاؤه أوائل القوائم على ظهره الآكلات عدوه المطهرات جلده من الآلام . وهذه الطيور البيضاء الجسم الصفراء العيون والمناقير قد عمات للفيل ما لم يقدر الفيل أن يعمل لنفسه . إذن هذه الطيور خير أصدقائه . قال شارح هذه الصورة باللغة الانجليزية (فعلى أن يتقدم بعضنا بعضا) هذا هو الذى استنتجته العالم الانجليزى من هذه الصورة نطرن نحن فى هذه الصورة فنجد الفيل العظيم احتاج الى الطيور الضعيفة وصارت صديقات له وهذا هو خلق الله وتر بيته بمشيئته ، ليس المدار فى هذا المقام على كثرة العلوم بل المدار على الاتقان والفهم ، وسترى أيها الذكى فى (سورة الروم) عند قوله تعالى - واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين -

كيف تكون الصور في أنواع الحيات وفي بعض الطيور وفي بعض الحشرات متشابهة وتشابهها يجعل سببا في حفظ الضعيف الذي لاسلح له لمشابهته والتباسه بالقوى إذ يخيّل إلى الذي يريد أهلا كما أنه ذو سلاح أو بطش شديد . هذا ما استراه هناك وسترى صوره الجيلة الموضحة الدالة على حكمة تفوق كل حكمة وعلم لم تعلمه الأمم إلا في أيامنا هذه . فإن علم الألوان (كما تقدم في سورة الكهف عند قوله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا -) لا يزال الآن في حال الطفولة ومع ذلك قد أصبح مظهر منه لنا الآن معجزة قرآنية فإن تلك الألوان وتلك الصور والابداع فيها والتفنن لا يدع أدنى شك لعافل في الحكمة التامة التي لا يعقلها إلا من عرفها وهل يعرفها إلا علماءها وهذا معنى كونه آيات للعلماء لجميع الناس . هذا ما سيأتي هناك ومعه شرحه لتبيان تلك المعجزة وهي أن هذه الآيات إنما يفهمها العلماء بفنّ الألوان وهي أيضا تصلح لهذا المقام لأن قوله تعالى - وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة - إذا تناولت ما استراه في الصور التي هناك أو الصور المذكورة في (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى - وما كنا عن الخلق غافلين - فيما تقدم أيقنت أن هذا الاختيار يسحر العقول ويدهشها . إذن أنا في هذا المقام لا أكثر من الأمثلة فإن ماضى وما سيأتي كاف في ذلك

وإنما الذي أقول الآن أن منظر الفيل وفوقه أبو قردان ماهو إلا كتاب كتبه الله بيده وقال اقرأوه . الفيل أقوى والطير ضعيف والحشرة أضعف . الفيل كمن العدو في جسمه ولم ينجه منه إلا طير ضعيف . إذن تعاون الفيل وأبو قردان على هذا الضعيف . إن هذا الكتاب الذي كتبه الله لنا بيده يجب علينا دراسته فنقول الفيل من الحيوانات الأرضية ذوات الأربع وأبو قردان من حيوانات الهواء والدود من الحيوانات التي تختفي عن الأعين في الأجسام

هذه أم ثلاثة أمّة تكون غالبا في الأجسام أو تحت الثرى ، وأهم فوق الثرى ، وأهم في الهواء . هذه كلها هي التي ظهرت في هذه الصورة ، فساكن الأرض وساكن الهواء تعاونوا على ما يسكن تحت الثرى أو في طبقات الأجسام . أيها الناس ، طير وحيوان أرضي برى تعاونوا معا ، هذه هي الصورة التي ترونها ، تعاونوا لأن الحاجة ماسة ، فهناك دفع أذى عن الفيل وغذاء لأبي قردان ، فهذا العمل أشبه بمن ضرب بحجر طيرين فهو غذاء للطير وشفاء للفيل . إذن هو غذاء وشفاء ، وهنا نقرأ (درسين «الدرس الأول») بعض أسماء الله تعالى الدرس الثاني نظام نوع الانسان ، (١) انظر الى الصورة وتفكر فانك تقرأ فيها أن الله ملك فمالك يدير الرعايا وهم في رحابه يعيشون وأى ملك ينظم كهذا النظام وهو (قدوس) منزّه عن كل ما لا يليق بكماله ومنها انه لا يخلق داء إلا خلق له دواء مثل ما رأينا هنا (السلام) فهنا أمان للفيل وأمان لأبي قردان وهو (مهيمن) فهو يفعل مع هذه الحيوانات فعل الطائر يهيمن على صغاره بأجنحته وهو (عزيز) قد غلب الفيل بتلك الحشرات وغلب تلك الحشرات بأبي قردان وهو (مؤمن) جعل هذه الحيوانات آمنة في أماكنها فرحة بنعم خالقها وهو (جبار) حكم على الفيل بما يؤذيه وأخضعه فذل لأضعف الحيوان واحتاج لبغاث الطير وهو متكبر لا يريد أن يدخل أحدا في هذا النظام فهو عمله وحده (الخالق) أى المقدر لهذه الموجودات (البارئ) الموجد لها (المصور) صورها على مقتضى الحكمة التي رأيناها هنا عيانا وهو (قهار) قهر الفيل وقهر الحشرة وهو (وهاب) وهب هذه الطيور أغذيتها من تلك الحشرات (رزاق) رزقها من جلده (فتاح) فتح لها باب الرزق (عليم) بما يصنع في هذا وفي غيره (قابض) قبض أرواح تلك الحشرات (باسط) بسط الرزق لتلك الطيور بأجسام تلك الحشرات (خافض) تلك الحشرات (رافع) تلك الطيور على الفيل (معزّ) هذه الطيور (مذل) هذه الحشرات الخ إذن أسماء الله الحسنى دراستها تكون أكمل في الحقول وهو (لطيف) وبهذا اللطف خلق المنقار الحاد والعيون القوية والأجنحة لهذا الطائر فغاص على تلك الحشرات فصار لطيفا بالفيل

واطيفا بالطير وهكذا

(٢) الدرس الثاني نظام الأمم الأرضية ﴿

وحق لي الآن أن أخطب الناس كافة ، ذلك لأن هذا كتاب الله وهذا خلق الله وأنا مفسر لكتابه وقد ينشرح صدرى لما أقول فيه ، فعلى أن أخطب أهل الشرق وأهل الغرب ، أخطبهم بكلام ربهم وأعماله العجيبة فأقول

يا أهل الشرق ، ويا أهل الغرب ، إن الله جعلكم أرقى من هذه الامم الحيوانية وجعلها هي أنفسها دروسا لكم ، فاقروا هذا الدرس وانظروا أمة من أمم الهواء قد اتحدت مع أمة من أمم الأرض مع تباعد ما بينهما وشدة اختلافهما واتساع نطاق البعد بينهما ، هذا قوى وهذا ضعيف ، هذا أرضى وهذا هوانى ، هذا له أجنحة وهذا له أرجل ، هذا له معدات وهذا له قنطرة وحوصلة ، هذا أسود وهذا أبيض ، هذا طعامه نبات وهذا طعامه حيوان . نعم أتم درستم يا أهل الأرض صفات الحيوان ولكن لم تدرسوا فنّ الأدب ونظام الأمم منه ، فإذا كانت هذه الحيوانات المتباعدات تباعدتا تاما قد اتحدتا وتعاونتا وفرح كل منهما بأخيه ، فما أجهلكم يا أهل الأرض ؟ رأيت الأمم الكبيرة أن الأمم الصغيرة لضعفها لم تستخرج ما فى أرضها من كنوز ولم تستثمر مواهبها ، فإذا فعلوا ؟ هجموا عليهم وأذلّوهم ومنعوهم العلم وهذا هو الخطأ والجهل

يقول الله لكم جميعا انظروا الفيل وأبقردان ، الألفة بينهما جامعة لاعداءة فيها ولاجهاد ، قتل الانسان ما أجهله - قتل الانسان ما أكفره - تفرقون ولا تفهمون تدرسون ولا تعقلون - صم بكم عمى فهم لا يعقلون - أعجزت الأمم العظيمة أن تكون مع الصغيرة كالفيل مع أبقردان تعاونا بالمحبة والمودة لا بالاذلال والاكرام ارتقت الأمم الأوروبية ولكنهم جاهلون طرق الاستعمار ، الأرض لم تزل مملوءة بالمتوحشين من نوع الانسان وهؤلاء لم يقدرُوا أن يعلموهم ، وغاية ما يعملونه أنهم يستعبدونهم وينهبون معهم نهب جاعات النمل القوية مع النمل الضعيف كما تقدّم فى (سورة النمل) فيكون هؤلاء سادة وهؤلاء عبيدا وتكون النتيجة أن السادة بعد أجيال وأجيال يألفون الراحة ويكرهون التعب ويفرحون بالبطالة وهناك تنقرض تلك الجماعات من الوجود . هذا هو استعمار أوروبا المعطوف على استعمار الرومان والأمم العربية فى القرون المتأخرة ومثلها استعمار التتار والترك العثمانيين ، فهؤلاء فى أواخر أيامهم كانوا عالة على الأمم يستنزفون ثروتهم وهم مذمومون - فقطع دابر القوم الذين ظاهروا والحمد لله رب العالمين -

والحق الذى لا محيص عنه أن الأمم الأرضية اليوم لاسعادة لها إلا بالمعاونة العامة وهذه يعوزها مفكرون دارسون لها حتى يكون الضعاف فى أواسط أفريقيا وفى غربها مع الأقوياء فى أوروبا أشبه بأبقردان مع الفيل هذا هو الذى فهمته من هذه الصورة (أى شكل ١) فى تفسير قوله تعالى - وربك يخلق ما يشاء ويختار - فهو الذى وضع لنا فى الأرض نملا يأسر بعضه بعضا وطيرا يصاحب فيلا ، وقد اخترنا أسوأ المثاليين فى القرون الخالية فلنختر أشرفهما فى الأيام المقبلة لنكون ناهجين فى العمل أحسن المنهجين . انتهى يوم الثلاثاء ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٩ م

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى - وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة

وله الحكم واليه ترجعون - الخ ﴾

جاء فى هذه الآية أن الله واحد وأنه محمود أوّلا ومحمود آخر وأنه هو سبحانه له الحكم وأن المرجع اليه ثم أعقبه بذكر الليل والنهار والضياء والظلام . ومن عجب أن المحاور بين (طيماس) وهو حكيم من أصحاب (فيثاغورس) وبين (سقراط) الفيلسوف المشهور تناسب كل ما فى هذه الآية وأخلصها هنا جميعها لمناسبتها هذا المقام بعد أن أثبت منها فى (سورة الشعراء) ما هو أكثر مناسبة للطب فى آية - وإذا مرضت فهو يشفين -

ذلك أن طيماوس ابتدأها بقوله ﴿إِنَّهُ يَسْتَعِينُ بِاللَّهِ فِي شَرْعِهِ فِي مَهْرَفَةِ مَبْدَأِ الْعَالَمِ عَسَى أَنْ يُلْهِمَهُ اللَّهُ الْقَوْلَ الْحَسَنَ وَيُلْهِمَ السَّمْعَ قَبُولَهُ﴾ ، ثم أخذ يفرق بين القديم والحادث فالقديم متصف بالوجود ويدركه العقل أما الحادث فليس له وجود حقيقي وإنما يدركه الحس والخيال ويحتاج إلى علة في وجوده المجازي ، ثم أخذ يثبت حدوث العالم بأنه مرئي ملموس مادّي ، وكل ما ثبت له هذه الصفات فهو محسوس ، فكل ما هو محسوس فهو مدرك بالوهم والحس فهو إذن حادث والحادث لا بد له من علة ، ثم أبان أنه عاجز عن شرح وفهم الإله لأن المتكلم والسماع من البشر ، ثم ذكر سبب خلق العالم وقال سببه أن الله جواد وقد عمد إلى الأشياء المضطربة فوزنها فركب لها عقلا والعقل جعله في النفس والنفس جعلها في الجسد فجعل صورة العالم كله كصورة حيوان واحد مشتمل على كل حيوان والعالم في نظره حيوان عاقل مرئي جسده مركب من العناصر الأربعة في نظره إذن العالم مركب من العقل والمادة وشئ مشترك بينهما فهو كله أشبه بجسم إنسان واحد وقبل ذلك التكوين لم يكن ليل ولا نهار لأنهما حصلا عند تكوين الأفلاك . إذن لا نحكم إلا على الحادث أما القديم فلا ، والكواكب التي هي من هذه الحيوان الكبير وهو العالم سواء أكانت سيارة أم ثابتة أجرام حية (في نظريهم هم) بها تكونت الأيام والشهور والسنين ، ويقول إن الله لما خلقها خلق لها أرواحا وهي الملائكة تدبرها وخطبهم يقول أنتم حادثون وهذا الحادث ليس نقصا لكم لأن قوتي تحفظكم فأنتم لا يلحقكم موت ، وهنالك خلق أرواحا في كل كوكب وفي الأرض والقمر والكواكب الثابتة وأطلع تلك الأرواح على العوالم كلها ثم قال لها أنا خلقتكم من عنصر الروح الملكية وسأُنزلكم إلى عوالم المادة وتكون لكم شهوة فمن اتبع العقل رجع إلى كوكب سعيد ومن اتبع الشهوة نقلته في حيوان بعد حيوان على حسب ما غلب عليه من الشر والشهوة ، وقبل ذلك خاطب أرواح الكواكب فقال لها أنتم دائمون وأنا آمركم أن تأخذوا هذه الأرواح التي هي أيضا إلهية وتسكنوها في أجسام وتغذرها بما يناسبها وتكون تلك الأشخاص مركبات مما يموت وهو الجسم ومما لا يموت وهو الروح مع إحداث حيوانات أخرى ليكمل النظام العام ﴿وهذا القول الذي قاله طيماوس لسقراط أكثره موافق للإسلام فقد ذكر بقاء نفوسنا ونفوس الملائكة وذكر العقاب للذنوب والسعادة للصالح وذكر أن الملائكة موكلون بالعالم وذكر أن العالم حادث وهذا عجيب جدا أوقفنا على أن نقل الفلسفة من اليونانية إلى العربية كان مشوها إذ نقلوا القول بقديم العالم فظهر أن ذلك النقل كان عن صغار علمائهم وأن ذلك الخلاف في الكتب كان ضياعا ، وأقول الآن يجب الاستقلال في جميع المباحث فإن الاتسكال على الأهم مضیعة لأمتنا والذي ينافي ديننا مسألة كون العصاة يصبحون حيوانات ، فنفس (طيماوس) يقول هذا ظن لا يقين وعليه فإن شر يعتنا ذكرت جهنم وهذا عذاب يقين ، ومن الحكم العجيبة أنه يقول «إن الله خلق الأرواح وخاطبها» وهذا بعينه آية - واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم - الخ وهذا من أعجب العجائب أن يكون نبينا ﷺ قد نزل الوحي عليه وهو لم يزال عالما بما كان يختلج في قلوب علماء اليونان ، وأقول إن هذه معجزة كبرى بل كل هذا المقال معجزة وأي معجزة ، وكيف يثبت طيماوس المبدأ والمعاد وقدم الله وإثبات اليوم الآخر والعذاب والثواب وإن أخطأ في تعيينهما ويثبت بالظن خطاب الله للأنفس قبل نزولها إلى عالمنا الأرضي ، كل ذلك قبل الرسالة المحمدية بنحو تسع قرون

وهنا بهجة العلم التي هي أنسب لهذه الآية بذكر النور والعين ، قال مانصه بالحرف الواحد ﴿قال أفلاطون ثم بين (طيماوس) تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره ، قال إن البصر نار جعله الله في داخل العين فمن تلاقيه بالنار الموجدية من خارج يتولد الابصار وبسط القول في مدح البصر وبيان منافعه قال إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على إدراك الشمس والكواكب ما كنا نتمكن من الكلام عن السماء والعالم إذ من مراقبة اليوم والليل

وتحول الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشهور بالزمان وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم فنه نشأت الفلسفة وهي أنفس ما أنعم الله به على البشر ﴿

ثم قال ﴿ إن الله لم يقصد من إيجاد البصر فينا إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل في السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا وتنظيمه على نسق ما نراه في السماء من ترتيب العقل في دوراته إذ هو وذلك طبيعة واحدة ﴾ انتهى

يقول (طنطاوى جوهرى) مؤلف هذا التفسير إني لما اطلعت على هذه الجلة الأخيرة اعترانى ما يشبه الدهش والبهير وفكرت في هذا النوع الانساني في الوقت الحاضر لاسيما أمة الاسلام ، اللهم إنك أنت خلقتنا في هذه الأرض غرباء عن المادة فحجبت هي أكثر عقولنا فكيف نرى هذا الجبال ، جمال النجوم ونظام الشمس والقمر والكواكب ونرى الشهور والسنين ونحن غافلون لم يخطر ببالنا من تلقاء أنفسنا أن تلك العوالم المنظمة قد جعلت نبراسا لعقولنا التابعة لها ونحن نقرأ كل يوم - وزيناها للناظرين - ونقرأ - أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بزيناها وزيناها وما لها من فروج - ونقرأ - قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا - الخ فها هو ذا ذكر الليل والنهار وانهما لمنافعا ، ويقول في آية أخرى - هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقتره منازل لتعلموا - الخ أوليس من أعجب العجب أن يأتي رجل يوناني فيقول إن البصر لم يخلق فينا إلا لنلاحظ هذه الكواكب وسيرها ونفكر أن نظامنا يكون على نظام السموات التي نظمها عقول عالية عقولنا مخلوقة على مثاها . أوليس هذا هو قوله - ووضع الميزان * ألا تظنوا في الميزان -

أيتها الأمم الاسلامية ، إني أكتب هذا وان نفسي في خجل أن أرى أن هذه الحكمة وهذا الاشراق وهذه النظرات السامية تكاد تكون مفقودة في أممتنا الاسلامية في القرون المتأخرة ، أنا أقول لن يكفي المسلم أن يقرأ هذا في كتاب . كلا . بل لا يتسنى للمسلمين أن يتأثروا بهذه المباحث إلا اذا نظروا بأنفسهم وفكروا بعقولهم ففكر الاستقلاليا ، فمن وفقه الله لهذا هداه الى النظرات في الكواكب ليلا فيفكر في جلالها الظاهري ويتأمل في عجائبها بنفسه يوما فيوما ثم يدرس مبادئ الفلك وهذا هو قوله تعالى - أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض - هنالك يتأثر الوجدان ومن هذا التأثير تحصل المعرفة ، فالكتب وحدها لا تفيد بل لابد من النظر الاستقلالي

اللهم إنك أنت المنعم وأنت الهادي . اللهم إني ألجأ اليك أن تجعل هذا الكتاب ذكري لشبان من النوع الانساني مسلمين وغير مسلمين لأنك أنت رب الجميع والمنعم على كل نسمة بما يناسبها وخير النعم ما كان علما وحكمة فاجعله يا الله نورا لبصائر المستعدين من العالمين والحمد لله رب العالمين انتهى صباح الاثنين يوم آخر شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧

﴿ الجوهرة الثالثة في بهجة العلم في قوله تعالى - قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة - الخ ﴾ حدثني الحارث بن همام قال رأيت في المنام كافي مت وغسلت وكفنت وصلى على ودفنت وفي نفس الوقت كان روحي ترفرف بهيئة تشبه هيئة جسمي ولكنها هيئة روحية نورية فأخذني ملائكة أوقفوني في عوالم من النور البهيج الذي لا مثيل له في الأرض بحيث لا أتمكن من وصفه لبهجته وجماله ثم أحسست في نفسي بخواطر على هيئة السؤال والجواب وأنا في حال الدهش من الجلال وكأن الحق يخاطبني بلا حرف ولا صوت وأنا أجييب في سرى وكأنه يقول لي يا عبدي أنا أحبك فقلت في سرى ربما كان هذا الخاطر شيطانيا والاف كيف أستحق هذه المحبة وأنا مقصر في أعمالي كلها ، فقلت في سرى وما علامة حب الله لي فكان الجواب ما يأتي ﴿ علامة حبى لك اننى شغلت عقلك في طول حياتك ، فأنت في حضرك وسفرك وفي كل حال من أحوالك تبحث عني وتفكر في أعمالي ، فهذه لم تكن إلا من الحب الذي ألقته في قلبك لي ولن يحبنى أحد إلا كنت أنا محبا له

قبل أن يحبني ، ألم تقرأ - يحبهم ويحبونه - ثم قال ﴿ وقد خلقت العالم كله لأجلك ﴾
قال فلما خطر لي هذا الخاطر وكأنه خطاب من الله اعتراني الدهول ورفعت طرفي الى السماء وقلت يا الله
أنا لست بقادر على أن أفهم هذا فأجبت بما يأتي ﴿ طرب نفسا وقرعينا وسأعلمك معنى ذلك ، من أين أنت
روحك ؟ فقلت هي قبسة من نورك فقال وهذا النور حكمت عليه أن يترني تربية تدريجية في العوالم المادية
ولا يكون ذلك إلا بأبوين يلدانك وأمة يعبدش فيها هذان الأبوان وأمم تحيط بهم تساعد هذه الأمة بتجارة
ومعاملة وهذه الأمم كلها لا بد لها من الحيوان والنبات والماء والمعادن والأرض والهواء والكواكب الثابتة
والسيارة . فقلت نعم حقا أنا لا أخلق إلا وأنا مصحوب بهذا كله فقال لي الله في سرّي فأنا لأجلك خلقت
الشمس والقمر والمجموعة الشمسية والمجرة والسدم والأرض ومن عليها ، قال فقلت في نفسي انه لم يخلقها لي
وحدي فأجاني قائلا أضرب لك مثلا رجلا له عشرة أبناء أسكنهم بيتا من خرف الحيطان مفروش الأرض
مضاء السقف بالمصابيح وهؤلاء الأبناء يتعاونون على جلب الرزق ودفع الأعداء ، فهل هؤلاء الأبناء كل واحد
منهم شر على البقية من اخوانه أم هو خير فقلت بل هو خير لأنه وان شارك اخوته في الرزق فقد شاركهم في العمل
والمنفعة لهم ، فقال إذن كل واحد من العشرة الأبناء في حياة وسعادة بالمنزل نفسه وبجميع اخوته المساعدون له ،
فقلت نعم قال فهكذا أهل الأرض كلهم فكل امرئ منهم يصح أن يقول خلق العالم كله لأجلي ولأبنائي هذه
القضية بل يؤيدها وجود أمثاله من بني آدم في الأرض لأن كل انسان منتفع بالناس تعلما وتجارة ومدنية ونظاما
كما انتفع من الشمس والقمر والسحاب والهواء . إذن لكل عاقل أن يقول خلقت لي السموات والأرض وما
بينهما كما تقول المرأة في حق زوجها واخوتها وذريتها هؤلاء كلهم لمنفعتي وخدمتي وكل من هؤلاء يقول مثل
ما تقول هي ، وعليه لكل انسان في الأرض أن يقول خلق العالم كله لأجلي ، قال ثم هجس في نفسي أن
هذه المعاني كامنة في قوله تعالى - ألم يجدك يتيما فآوى - فاليتم اللغوى معروف وهو الذي يحب القلوب في
ذلك اليتيم فتكفله ، أما اليتيم العلمي فهو احتياج النفوس الى تربيتها في الأجسام واصلاحها بهذه العوالم كلها
وأول اليتيمين رمز لثانيهما ، فكل نفس في حد ذاتها مفتقرة الى هذه العوالم افتقار من فقد أباه الى من
يعوله ، وقوله - والضحي * والليل اذا سجي - قد شمل العوالم كلها فالعالم العلوي والسفلي ليلا ونهارا مسخر
لكل امرئ في الأرض

قال الحرث بن همام فلما تم هذا الخاطر في نفسي قلت يا عجبا وهل هذا دليل على حب الله لي ؟ فخاطبت الله
في السر قائلا إذن أنت تحب كل مخلوق وكل انسان كافرا ومسلما لأن كل واحد من هؤلاء يقول مثل ما أقول
فأجاني الخاطر في سرّي يقول ﴿ إن الله لم يخلق الخلق إلا وهو يحب أن يخلقه ومن كشف منهم له الغطاء
عن حقيقة الأمر وأحس بوجدانه بما ذكرته لك الآن فهو المقصود الحقيقي لأن روحه أصبحت راقية ، أما
بقية الخلق المغمورين في الجهالة فأمامهم دهور ودهور يتيهون في بحر الجهالة والعمية والضلال ، ثم قال إن
الله خلق الخلق وأعدّهم للرقى ومن أحس بهذا الوجدان وثبت في نفسه فذلك دليل على أنه استعد للعبادة
الحقيقية والنور والبهجة والجمال ﴾

ثم قال الحرث بن همام فقلت في سرّي ان المحبة في أهل الأرض اذا ملك قلب امرئ أضنته وأحرقت
فؤاده وأمراضته وماهى إلا أن يحب الرجل امرأة ردحا من الزمن فما بالك اذا أحب العالم مبدع هذه الصور
أنواع الجمال ؟ فكيف يطيق ذلك ؟ وكيف يكون ذلك الحب . قال فأجاني الخاطر في سرّي قائلا أما قولك
كيف يكون ذلك الحب فأقول ، أذكرك بما تقرأ في الحكمة والعلم فتفكر في رجلين رأيا طائرا على شجرة
مثل الزقراق البدي (المرسوم في سورة يوسف وفي سورة النمل) فهذا له نوع من الجمال فوق الشجرة وقد
تمايلت الأغصان وهبت الرياح وتغنت الأطيوار فأحدهما لم يفكر فيه والثاني فكر في جماله ومنفعته وكيف

أعدلاً كل الدود الذى يأكل الزرع ، فهناك يحارب به ويدهش ويقول انى كما أنتفع بالشمس والقمر والكواكب وأهل بلدى وأمتى والأمم والجبال والأنهار هكذا أنتفع بهذا الطائر هو وأمثاله التى تبلغ نيفا وثلاثين كما تقدم فى (سورة طه) و (سورة يوسف) فهذه كلها جيوش وجنود مجندة أرسلت الى من العالم الأعلى لتلتقط الدود وتحافظ على حياتى ، هناك يخرج من هذا الخاطر الى ماهوارقى عنده ويقول فى نفسه من أنا؟ وماهى حياتى؟ وماهذه الطيور والأمم والدول والكواكب . إن الأمر لأعظم وأكمل . أى حكمة دبرت . وأى تدبير أحكم إن الأمر لعظيم . هنا تدبير محكم ربط الشجر والطيور بالدود والزرع والانسان . هذه حكم ونظم محكمة مضبوطة هناك تطير روح هذا المفكر الى عالم الجبال وتفكر فيه وتشرح وترجع الى مبدع هذه النظم وهناك يرى الجبال بالبصرة ويدهش عقله ويطير لبه . وهذا الحب والدهش والتعجب ليس اختياريا بل هو أشبه بحب المرأة لولدها والعاشق لمعشوقه . والناس فى حق أصحاب الجبال على (قسمين) قسم عرف الجبال وهام به وقسم عرفه ولم يهم به لعدم استعداده . وكما اننا اذا أنبنا بطفل أمام مائة امرأة وهو يبكي طالبا ارضاعه لانرى واحدة منهم تتقدم اليه اكثر من غيرها إلا امرأة واحدة هى أمه التى تلقيه ثديها لأنها هى التى بينها وبينه مناسبة أشد من غيرها وان كان النساء كلهن يتأثرن لبكائه ويردن ارضاعه هكذا مناظر هذا الوجود كمسألة الطائر المتقدمة والتقاطه الدود وحسن النظام العام فهذا ينظره العالم والجاهل وعلماء الزراعة وغيرهم ولكن لا يتأثر بالحب لمبدع العالم إلا نفوس خاصة كما لم يؤثر بكاء الطفل الأثر القوي إلا فى أمه . هناك دعيت فى سرى وقيل لى إذن أنت محبوب فعلا لأنك اذا نظرت أمثال هذا الطائر طار بك وأخذ منك العجب كل مأخذ ووجدت فى نفسك حبا لا يحس به من حولك مع أنهم يشاهدون مثل ما تشاهد ويعلمون مثل ما تعلم بل نفس علماء الحيوان وعلماء النبات يعلمون هذا أكثر منك ولكنهم لا يتأثرون فيرى عالم الزراعة أن ورق السنط قد حفظ بشوكة طلعت بجانب كل ورقة وأن عنق ورقة (البازلاء) وعنق ورقة الورد قد حفظ كل منهما بما خلق ملازما له كما تقدم فى (سورة النمل) رسم ذلك . يرى ذلك عالم الزراعة فلا يتأثر به لأنه ربما لم تكن روحه من الأرواح المستعدة لفهم الجبال كما لم يستعد الطفل لادراك جبال الغايات

ثم قال الحارث بن همام ، وختمها تاف فى سرى خطابه لى قائلا (إن كل العوالم ساعية مجدة للرقى ولم يحظ بتلك المحبة إلا نفوس خاصة هى التى أدركت ذلك الجبال ، أما البقية فانهم الى الآن لم يصلوا الى ذروة الكمال فلم ينالوا هذه المحبة . هذا جواب السؤال الأول وهو كيف يكون هذا الحب

أما قولك كيف يطبق ذلك الحب فأقول هذا هو بيت القصيد . اعلم أن أرواحكم فى هذه الأرض لها صلة بالأرواح العالية فهى نفوس جزئية لها نسبة الى النفوس الكلية التى بها نظمت العوالم كلها بأمر الله وهى المدبرات أمرا . فهذه وضعت فى الأرض والأرض كلها جبال وحكم وعجائب وبدائع فلو أن هذه النفوس كشف لها الجبال فيما حولها لماتت وتصدعت ولكن الله لرحته أحاطها بالمصائب والجهل والحسد والحرب والمرض وغيرها لئلا تعرف ذلك الجبال فيدهشها فلا تتحمله فتهلك ، فانظر الى آثار رحمة الله ، جهل وذل وعمل وأشغال متعبة وهموم ، كل ذلك جعل غطاء يغطي جبال هذه العوالم المحيطة بالانسان من كل جانب بل على مقدار كثرة الجبال فى العوالم كان الغطاء الذى غطاه فكثرة الأعمال والجهل والثورات والفتن فى الأرض وضعت بمقدار وفرة الجبال لتغطيه وتحجبه . فأكثر الخلق محجوبون عن الجبال فى أنفسهم وأجسامهم وحيواناتهم ونباتهم وأرضهم . فأما الذين كشف لهم بعض الجبال فهو لاء أيضا تنزل بهم الكوارث والنوائب فتعجب عقولهم عن ذلك الجبال كالباقين وانما يتجلى لهم الجبال وقتا بعد وقت فى فترات على مقدار طاقتهم لا يكلف الله نفسا إلا وسعها -

(نور الجوهرة الثالثة الصحة والشمس)

جاء في جرائدنا المصرية في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٦ مانصه
يقول الدكتور (بنتلي) عميد كلية الطب بكالكتا ان الشمس تسبب زيادة سكان الممالك أو نقصها كما
تسبب نمو المحصولات أو ضعفها . وعلى ذلك يقول الدكتور انه في أمريكا والهند استدلوا على أن الشمس تؤثر
في إنماء الأجسام والمحصولات الزراعية وأن عدم وجود الحرارة يضعف الأجسام والمحصولات أيضا . ويزيد
أن الصحة لا تسلم إلا في نور الشمس وتحت حرارتها اه

﴿ الجوهرة الرابعة في قوله تعالى - ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار - الخ بعد قوله

- قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا - الخ ﴾

اعلم أيها الذكي أن هذا المقام عظيم القدر سامي المنزلة ففهم الرحمة هنا يعوزه أن تجتهد النفس في أن
تخلص من عاداتها وتخلص ولومؤقتا من شؤونها حتى تتفرغ الى فهم رحمة الله بشمسه وكواكبه نهارا وليلا
وبالظلمات والأنوار . واعلم أن السبيل لذلك ما قاله الله في سورة أخرى - فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد
ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار اهلك ترضى * ولا تمدن عينيك الى
ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى * وأمر أهلك بالصلاة واصطبر
عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى -

خلقنا الله في الأرض وأفاض علينا نعم الشمس والكواكب والأنوار ولكنه في الوقت نفسه سلط علينا
الأعداء من كل جانب كلما أحسن اليهم المرسلون والعلماء بافاضة العلم والخير أساؤهم وسلقوهم بالسنة حداد
ومن جهة أخرى سلط على كثير من الأخيار في الأرض حب الموازنة بينهم وبين معاصريهم في المال والرزق
والولد والجاه . إن أهل الأرض من الصالحين والطالحين جميعا قد أحاطت بهم هذه المزعجات ممن حولهم ومن
أنفسهم ، يجدون من بني آدم العداوة والبغضاء ، لاسيما الأقارب والقرناء ، ويجدون من أنفسهم طمعا لا حد
له وميلا لزخرف الحياة الدنيا ، فالأنفس في عذاب واصب مزدوج من داخلها ومن خارجها فأني وكيف تقدر
هذه النفوس ان تخلص للنظرة العامة في هذه الشمس الجيلة والكواكب البهجة وبهاؤها وظلمة الليل وضياء
الشمس . كلا . فالقوى النفسية في الانسان محدودة وقد وزعت بين قوتين قوة داخلية وأخرى خارجة

اللهم إنا نحن بني آدم على الأرض مساكين خلقتنا في أرضك الجيلة تحت شمسك البهية المتألثة وكواكبك
البديهة ثم أحكمت اقفال أبواب السماء على أكثر نفوسنا فغابت في دجى ظلماتها وانهمكت في مطالب دفاع
الأعداء وجلب الكساء والغذاء ، فنفسنا أبدا ما بين قوى الدفع والجذب فأني لها أن تخلص من ذلك وتنظر
رحماتك الواسعة المحيطة بها

علم الله أن ذلك الخلق فينا فقال لنا أيها الناس ، أما ذم الأعداء وحسدكم وايداؤهم فدواؤه الصبر وما الصبر
إلا الجنة (بضم الجيم وتشديد النون) التي تتخذونها لكم دروعا تتقون بها ايذاء الأعداء وأنا مع الصابرين
، وأما مطالب أنفسكم وحبها زهرة الحياة الدنيا فإياكم أن تمدوا أعينكم الى ذلك لأنها زهرات وهل للزهرات بقاء ؟
إذن لابد من صبر على الضراء وصبر عن الشهوات . إذن الناس موثقون بوثاقين والوثاقان لهما حل واحد
وهو الصبر ، صبر على قول الأعداء وصبر عن الشهوات ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ احتقار ما يصيب الانسان داخلا
وخارجا . هذا هو قوله تعالى - فاصبر على ما يقولون - راجع للصبر على كيد الأعداء . وقوله - ولا تمدن
عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم - الخ راجع للصبر عن الشهوات . وهاتان الخصلتان يرجع اليهما كل مكروه
من مرض وفقر وفراق وهكذا . فهذه هي القواطع التي تقطع الناس وتصرفهم عن معرفة رحمة الله عز وجل

في شمسه وقره وكواكبه . وبالصبر والرضا بالقضاء والقدر رضا مبنيا على العلم والحكمة . يتفرغ الانسان لهذا الوجود ويفهم إذ ذاك قوله تعالى - وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار اعلاك ترضى - لأن النفس لا ترضى إلا بالعلم والعلم لا يكون إلا بعد أن تذهب تلك القواطع يأمرنا الله بالتسبيح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ويأمرنا بذلك في بعض ساعات الليل ويقول لنا في هذه الآية التي نحن بصدددها - ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله - . قد قلنا إن الانسان موثق بوثاقين من الداخل والخارج والوثاقان يحلان بالصبر ولكن الزهد في الدنيا والصبر على الأذى وحدهما ليس معناه أن الانسان فهم هذا الوجود لأن هذا ماهو إلا تخلية ولا بد من التحلية كدخال الحمام يتجرّد من الأقدار ثم يلبس الثياب هكذا هنا اذا خلصت النفس من هذه القواطع فلتشرع في درس هذا الوجود ولتقف أيها الذكي صباحا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في موضع خال والجو جيل فسيح وقد أقبلت جيوش الصباح البيض الصباح أو المشرقات الحسان البهجات في دياجي الظلمات . فهناك تنظر فترى دولة وموكبا مقبلا فتطلع الشمس وترسل الحرارة الى الهواء فتجري الرياح الى الماء فيثور البخار الذي يصير سحابة فتقابله الرياح فتحملة الى الاقطار فيمطر فيكون أنهارا تسقي النبات والحيوان والانسان . أوترى تلك الثريات اللامعات التي لاحد لجالها في الدجى وهن باهرات لا يعرف لهن أمد ولا يوقف لهن على عدد ثم تنظر فترى أن حياة كل مخلوق موقوفة على الشمس وضوؤها وحرارتها وأن كل ماهو جيل في الأرض مشتق من بهاء تلك المشرقات ، وما هذه الزيتة التي تتباهى بها الغانيات الحسان في الأرض إلا من آثار ذلك الضياء ، ألم ترى أن الأصباغ التي نوعها الانسان في الثياب ماهي إلا من الفحم الحجري الذي حفظ ضوء الشمس قبل آلاف الآلاف من السنين ثم استخرج الناس منه تلك الأصباغ الآن والأضواء ، وبذلك الحرارة المخزونة أجروا المركبات في الطرقات ونوعوها ووزعوها في الأقطار

نفس الانسان شريفة كبيرة عظيمة تعطي الملك والنعم والمال والولد وتملك الأقطار والبلاد ولكنها تقول كلا . كلا . هل من مزيد ، هي حقان نور الله ، نحن لانرضى في الأرض بما نملك . لوملك كل منا هذه الأرض جميعها لقال هل من مزيد فكيف اذا كانت الأرض موزعة بيننا فلا سبيل لنا إلا العداوة والبغضاء في اقتسامها وانما لم نرض بذلك لأن هذه النفوس عالية شريفة لا ترضى إلا بعرفة حقيقة هذا الوجود ومتى عرفت اطمأنت وسكنت . فهذا معنى قوله تعالى - لعلك ترضى - أما إهلاك الأعداء وأما مد عينيك الى ما متعناهم به من مال وولد فهذا لا يرضى هذه النفوس إلا وقتا ما ثم ترجع للطالبة وتقول أين المنتهى . ومتى أدرك الانسان جمال هذا الوجود (ويكفيك مؤقتا قراءة هذا التفسير أو أكثره) رضيت نفسه وفهم معنى - فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - الخ وأدرك السبب في ترتيب الرضى على التسبيح والتنزيه لا غير إذ يرى أن ما يصيبنا لم يكن إلا لارتقائنا والله منزّه عن قصد الايلام بلا فائدة . ومتى اعتقد ذلك اعتقادا مبنيا على النظر والعلم رضى وفهم سر معنى كون رضوان خازن الجنان فهو من هذا الوادي وكفى في هذا المقام من أسرار وبهذا المقام يفهم المسلم في صلاته معنى مخاطبة ربه قائلا ﴿أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت﴾ فأنت أهل الثناء والمجد دائما . ومعلوم أن الثناء لا يكون إلا على نعمة وهذا المنع بعد فهم الحقائق صار نعمة . والمصلى يقوله إما تعبدا وتكافا إن كان جاهلا واما بعلم وعقل ان كان عارفا بأمثال ما يذكر في هذا التفسير وهنالك درجات فوق ذلك

فهناك يمتزج التسبيح بالتحميد إذ يرى في طلوع الشمس والكواكب وغروبها حياة وموت وزرعا وحصادا ويدرك النعم ويعقل السبب في الموت والمرض وأن كل شر لم يكن إلا خيرا وأن الأمر عظيم ويفهم - واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا - ويرى أن الملك الكبير كما يكون يوم القيامة يكون في الدنيا بالفهم والعلم

غاية الأمر أنه يكون هناك أظهر ولكنه ظاهر لذوى البصائر الآن . إن هذه الطائفة التي اتصفت بما أقوله الآن وعرفت مقصود الوجود على مقدار طاقتها تعرف نعم الله فتحمدوه عليها وتشكروه ويخامروا قلوبها حبه لما ترى من جماله وإحسانه الذي لا حد له وتفهم أن رحمة لا حد لها وتعقل أن الموت الذي هو أعظم المصائب المخيفات في الدنيا ما هو إلا مقدمة لابد منها من مقدمات الرحات لأنه يستحيل أن تكون هذه الرحمة التي لا حد لها تأتي بنعمة إلا مقدمة لنعمة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان النعمة ضرورية لجلب نعمة أرقى من النعم السابقة

هذا هو الذي تضمنه قوله تعالى هنا - ومن رحمة جعل لكم الليل والنهار - الخ فهذا الاجمال تصور مبادئ الرحمة التي في هذه الآية فنزله الله عن الايلام لغير نتيجة وهذا هو التسبيح ونعرف نعمه التي لا حد لها وهذا هو التحميد وهذا هو غاية الرضا واذن نفهم - لعلاكم ترضى - هذه هي الرحمة العالمة

أما الرحمة العملية فانظر أيها الذكي الى بنى آدم تجدهم قد تخبطوا في قبول هذه النعمة . رأوا الشمس وضوءها فإذا فعلوا ؟ رأوا الطيور والأنعام والحشرات متمتعات فرحات بضوء الشمس فقلت أمراضها وكثرت خيراتهم ونعمها . أما هذا النوع الانساني فانه لما أعطى قوة الفكر والتمييز أخذ يتوارى عن السعادة وينحط في دركات الشقاء بسوء تديره وكبل في قيوده وحيل بينه وبين سمادته بالتباهي وألهاه التكاثر في المال والولد والزينة والزخرف وجع المال والأكثار من الملابس والتفنن في الأطعمة والانزواء في القصور والمنازل فخرم الهواء النقي وضوء الشمس والأطعمة الطبيعية فأحاطت به المسكروبات (الحيوانات الدورية) وأوردته موارد الهلكة بالطاعون والحصباء والجذري والحصى وأمثالها وقتلته الأسقام بسبب البطنة وسوء اختيار الأغذية واتباعه ظواهر اللذات الحسية ونبذه مقاصد المطاعم والمشارب ولذلك الإشارة بقصة أبينا آدم التي ذكرت في مواضع من القرآن يقول تعالى - فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى - فانظر هذا المقام في أول سورة الحجر وفي أواخر سورة طه ، فهناك ترى خطئ هذا الانسان وجهله في الشرق والغرب ومريض بدنه بجهله سواء في ذلك أطباؤه وعلمائه وعملائه وجهلاؤه

لعمرك الله ما نزلت تلك القصة ولا كررت تأديبا لآدم . كلا . وإنما ذكرت عظة لنا وتأديبا وهذه القصة قد نزلت على الأنبياء ثم على نبينا ﷺ والناس لا يكادون يفطنون لها حتى اذا كان هذا الزمان أخذ الناس يفطنون لهذا الوجود ويبحثوا فأداهم بحجهم الى أن التوارى عن الشمس والانزواء في البيوت والانهماك في اللذات كلها عذاب واصب . أما المطاعم واللذات فقد تقدم الكلام عليها مفصلاً في (سورة الشعراء) عند قوله تعالى - واذا مرضت فهو يشفين - وفي (سورة طه) عند قصة آدم وفي (سورة الحجر) كما تقدم وفي (سورة الأعراف) عند قوله تعالى - وكأوا واشربوا ولا تسرفوا - وفي (سورة البقرة) عند قوله تعالى - أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير - فاقراً ما هناك فان فيه غنى لك ولدويك وحكمة ونورا ميئنا

وأما أمر الشمس فان الناس اليوم عرفوا قيمة الخلاوات والهواء والتعرض لضوء الشمس فعلى المسلمين أن يذكروا ما عندهم من العادات وليكن لهم وجهة صحية بعلم وفهم وليعلموا أن الله عز وجل عمم نور الشمس وجهله سعادة وصحة للطيور وللأنعام وللحشرات المقيمات في الحقول والبساتين فليس من المعقول أن يكون نعمة هذه المخاوقات ثم هو نفسه يكون نعمة على الانسان

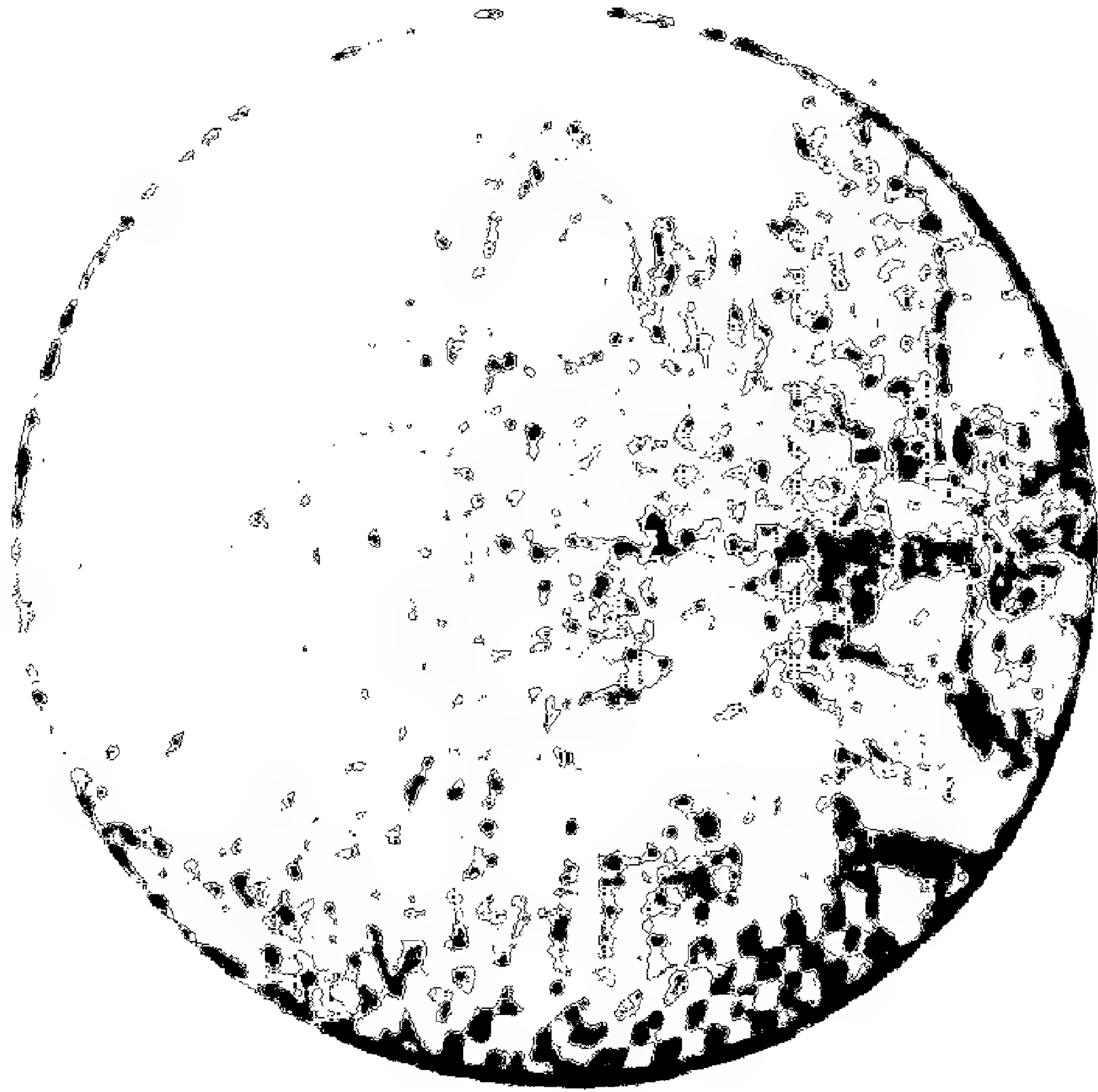
قد أجمع الأطباء أن ضوء الشمس يجب أن يتخلل جميع حجرات المنزل حتى تقتل الحيوانات الدورية بل ان الأمر فوق ذلك . هاهم أولاء أهل ألمانيا أخرجوا التلاميذ من المدن والمنازل وأخذوا يعلمونهم في الخلاء ليتلقوا العلم وهم معرضون للشمس التي هي رحمة مرغوبة لانقمة مرهوبة ، فهناك ما اطلعت عليه في « مجلة كل شيء » فاقراه قراءة من يريد أن يعمل بالعلم ، فاذا قرأته فتفكر فيه وغير نظام مدارس المسلمين وأخرجهم من ظلمات الحجرات الحظيرة القذرة وقل لهم أيها الناس إن الله جعل ضوء الشمس رحمة بنص الآية ثم ألهم

الأمم وعلمها فعرفت فوائدها الضوء فاعترفوا من رحمة ضوء الشمس ولا تحبسوا أبناءكم في تلك الأماكن القذرة التي لا يدخلها ضوء الشمس وابتعدوا من فضل الله فهذا كلام الله وهذا عمل العلماء من عباده فهذا ما جاء في تلك المجلة بنصه

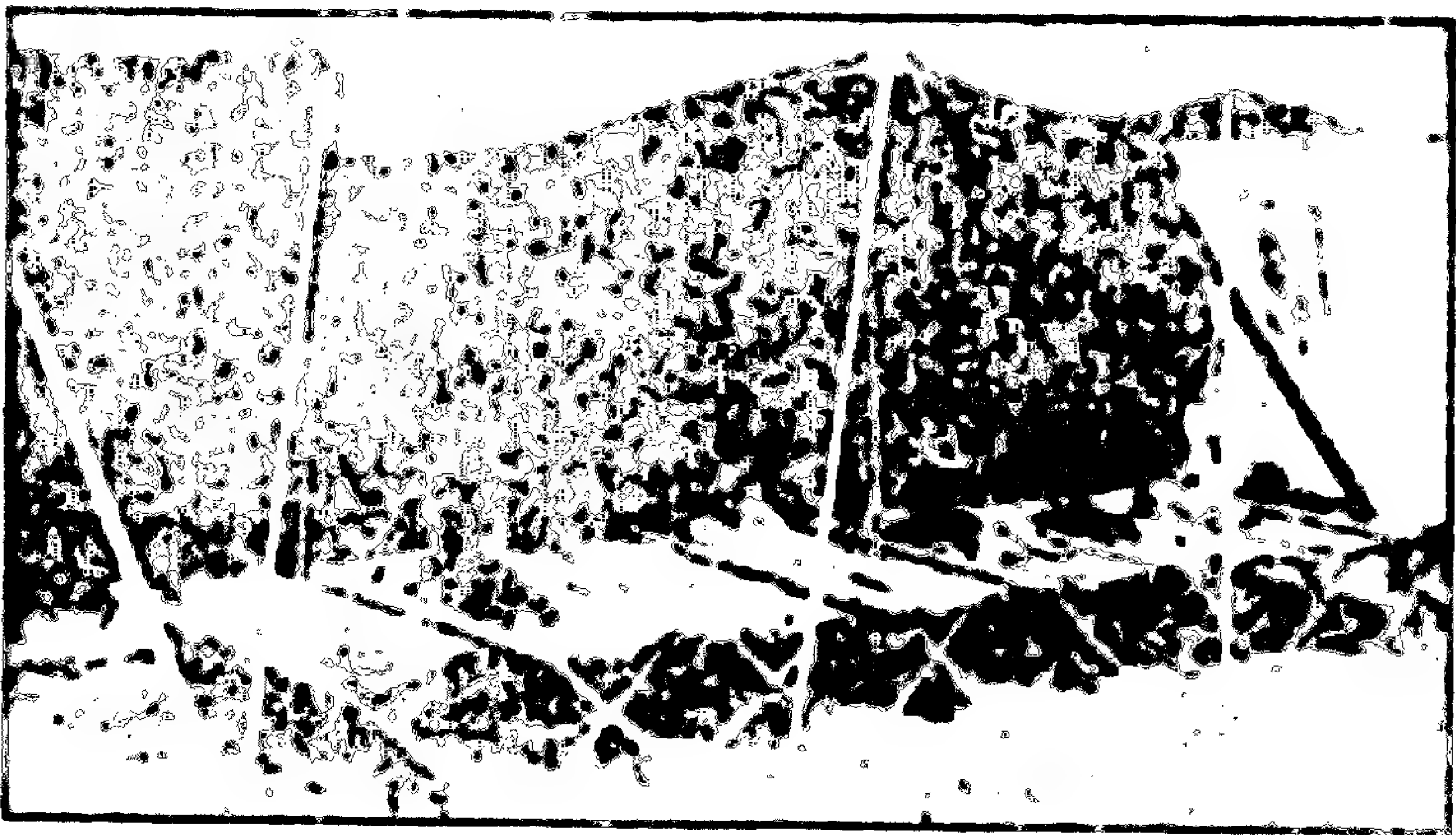
(التعليم في الهواء الطلق)

يؤمن الأطباء الآن إيماناً عظيماً بفائدة الضوء والهواء الطلق ، ولذلك هم ينصحون للرضى بالتعرض لضوء الشمس والتخفيف من الملابس بل ينصحون باستعمال الضوء الصناعي إذا كانت الفيووم كثيرة كما هي في لندن . وقد بنى الألمان وغيرهم مدارس مكشوفة يجرى التعليم فيها في الخلاء فإذا أمطرت السماء أو التلاميذ والمعلمون إلى الغرف ، ويرى القارئ هنا ثلاث صور للمدرسة أطفال جديدة أنشئت قريباً من (بورجيه) في فرنسا وهي تجمع الصفار من منازلهم كل يوم بالآتوموبيل وتخرج بهم للخلاء فيجرى التعليم بين الحقول تحت الشمس عند اعتدال الهواء ، فإذا لم يكن الجو موافقاً فقد التلاميذ في المدرسة الأصلية وهي بناء عادي به الغرف الخاصة بالتدريس وبهذه المدرسة الآن ٨٠ تلميذاً (انظر شكل ٢) و (شكل ٣) و (شكل ٤)

(شكل ٢ - التلاميذ في المدرسة الجديدة التي أنشئت أخيراً في فرنسا يلعبون في الحقل أثناء الاستراحة بين درسين)



(شكل ٣ - التلاميذ على الموائد)



(شكل ٤ - التلاميذ في خيامهم في الخلاء يستريحون على أسررتهم عقب الغداء)

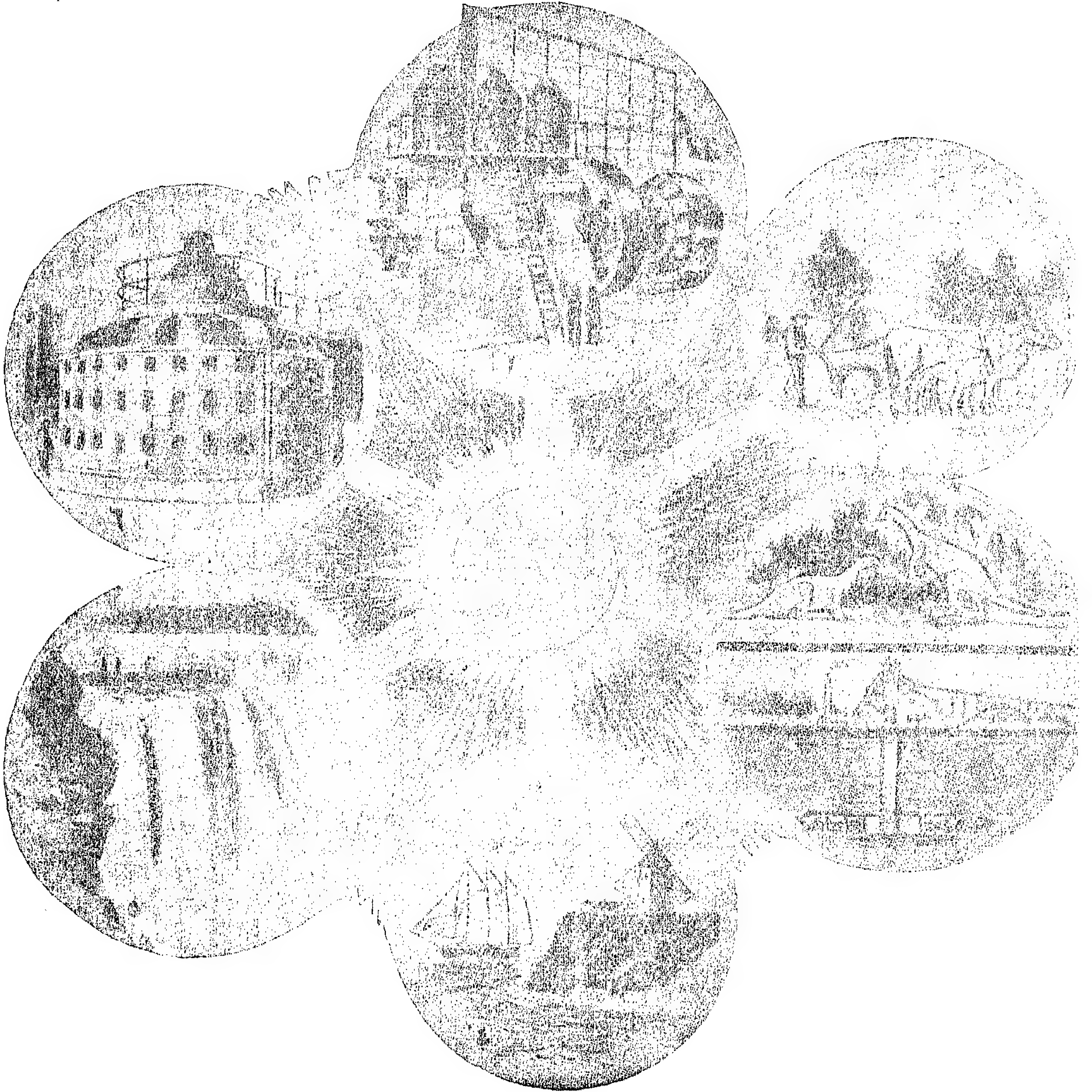
فلما اطلع صاحبي العالم على هذه الصورة وفيها التلامذة في الخلاء مهترئين للشمس ، قال أتدري ما يقول الناس حين يرون هذه الصورة ، يقولون إنك تأتى بالجزئيات فتجعلها كليات ، هذه فرنسا ربما قام فيها أفراد وصنعوا هذه للتجربة وجعلوا مدارسهم في الخلاء تحت الهواء والشمس فهل يصبح هذا قاعدة وعلماً وأيضاً إن أمر الشمس يحتاج الى ايضاح ثم لماذا أدخل من على الرحلة وما رأيك في تعليم المسلمين اليوم وغدا فقلت سأشرح هذا المقام في هذه الفصول ﴿ الفصل الأول ﴾ في منافع الشمس وما يتخيله الناس في مستقبل أمرهم بالنسبة لها ﴿ الفصل الثاني ﴾ علاقة الشمس والهواء بارتقاء الأمم وفي ذلك ﴿ مقصدان ﴾ المقصد الأول ﴿ آراء ابن خلدون في أن التضيق على المتعلم يورثه الخيبة وتقعده به عن المعالي ﴾ المقصد الثاني ﴿ فيما قاله العالم السويسري الذي جاء الى مصر الآن ﴾ الفصل الثالث ﴿ في أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم ﴾ الفصل الرابع ﴿ في شرح الكلام على الرحلة في هذا المقام ﴾ الفصل الخامس ﴿ آرائى في التعليم عند المسلمين اليوم وفي المستقبل

﴿ الفصل الأول في منافع الشمس وما يتخيله الناس في أمرها غذا ﴾

- (١) إن الشمس بها يكون البخار فيصير سحابا فطرا فيكون النبات والحيوان
- (٢) إن الفحم الحجري المظمور تحت الأرض من مئات ألوف السنين قد خزنت فيه حرارة الشمس وهاهو الآن تجرى به المركبات وتسرع الحركات
- (٣) بالشمس كانت الرياح اللاتي تجرى بها السفن والمطاحن . إن الشلالات بها تستخرج الكهرباء والشلالات وما أشبهها نتائج الشمس لأن نفس الأنهار سببها الشمس
- (٤) وكل محرك كهربائي لا يسير إلا بوقود وقوة والقوة أصلها من الشمس
- (٥) وقد تخيل العلماء أن الشمس في المستقبل سيجعل لها زجاج بلوري يجمع الأشعة ثم يوزعها ومعنى هذا أننا بدل أن نرجع الى ما خزن من حرارتها قديما في الفحم المظمور في باطن الأرض نتبع مباشرة لنفس الضوء بالآلات خاصة ونخزنه ونستعمله أي اننا نأخذ ضوء الشمس مباشرة بدون تلك الوسائط القديمة التي صنعها الله لنا لضعفنا وجهلنا ، أما الآن فالعلم يفتح لنا كل مغلق وهذا هو الرسم الذي تخيله الناس نقلته من مجلة « كل شيء » (انظر شكل ه في الصفحة التالية)

(الشمس مصدر كل قوة في الارض)

هذا الرسم يبين أهمية الشمس للبشر وكيف انهم المرجع الأصلي لكل القوى التي نستخدمها على وجه الأرض ، وقد رسمت الشمس في الوسط ورسمت حولها بعض الأشكال التي نستخدم بها قوتها أي الأجهزة التي تستمد قوتها من الشمس



(ه شكل)

- (١) آلة لاستخدام أشعة الشمس في المستقبل وهي صورة تخيلية
 - (٢) الأحياء كلها تستمد قوتها من الشمس إما مباشرة أو غير مباشرة
 - (٣) الفصح ليس إلا نباتا مطمورا والنبات انما تشييه الشمس
 - (٤) الشمس تسبب حركة الرياح فتستخدم في المطاحن وفي السفن
 - (٥) الشلالات والأنهار انما نشأت عن تبخر المياه وسقوطها مطرا
 - (٦) المحركات الكهربائية لا تسير إلا بوقود أى بقوة مستمدة من الشمس
- ﴿ ايضاح الصورة المتقدمة ﴾

تكثر الصحف هذه الأيام من ذكر القلق الذى ينتاب العلماء بشأن نفاد الوقود ، فالبتروك والفحم سينفدان عن قريب ، وقوة المياه الساقطة محدودة ، أما قوة الرياح والمد والجزر فلم يمسها أحد إلا قليلا ولذلك يكيد العلماء قرايحهم لابتكار طريقة للارتفاع بقوة الشمس مباشرة ، فكل ما فى الأرض من قوة مخزونة ماضية أو مستقبلية مرجعه الى الشمس وحدها فى

- (١) رسم يمثل آلة لتوليد القوة من الشمس رأسا وبها زجاج باورى يجمع الأشعة ثم يوزعها ، والرسم خيالى لأنه لم يتحقق للآن ولن يتحقق إلا فى زمن بعيد جدا وفى
- (٢) صورة حارث يحرق الأرض ، فكل ما فيه وفى الأشجار والثيران من قوة مستمدة من الشمس فالشجر يخزن قوة الشمس بواسطة ورقه وحياة الحيوانات كلها متوقفة على حياة النبات والنبات لا يمكنه أن يعيش بدون ضوء الشمس . وفى

- (٣) يرى القارئ صورتين العليا تمثل الأشجار القديمة والزواحف المنقرضة . وهذه الأشجار قد طمرها التراب فصارت الآن فخما ، فصدر القوة فى الفصح هو الشمس أيضا لأنها هى التى أنبتت نباته . وفى
 - (٤) ترى مطبخة هوائية وسفينة وكلتاها تستغل الرياح والرياح لا تتحرك إلا بفعل الشمس التى تسلط أشعتها على بعض الأماكن فيخفف الهواء عند ما يسخن ويرتفع فيأتى غيره مكانه فتولد الرياح . وفى
 - (٥) يرى القارئ شلالا ينتفع بسقوط المياه منه فى توليد الكهرباء بائية وقوته تعزى أيضا الى الشمس التى هى سبب تبخر المياه وتكوين الأمطار والأنهار . وفى
 - (٦) يرى دينام كهربائى ولده البخار الذى تولده الشمس أيضا فهى التى أوجدت الوقود لاجاد البخار
- وبهذا تم الكلام على الفصل الأول

﴿ الفصل الثانى فى بيان علاقة الشمس والهواء ونحوهما بارتقاء الأمم وفيه « مقصدان » المقصد

الأول « آراء العلامة ابن خلدون فى التضييق على المتعلمين فقد عقد فصلا عنوانه ﴿

(فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرّة بهم)

قال ، وذلك ان ارهاق الحد فى التعليم مضرّ بالمتعلم سيما أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعمله المكر والخديعة لذلك . الى أن قال وفست الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره ، ثم أخذ يقيس الأمم على الأفراد وضرب مثلا باليهود وانهم يوصفون فى كل أمة وعصر بالطرح والتخايب والكيد وسببه ما تقدم ، ثم أخذ ينصح المعلم أن لا يستبد بالمتعلم وتقل من الاستاذ محمد بن أبى زيد فى كتابه الذى ألفه فى حكم المعلمين والمتعلمين انه لا يزيد فى الضرب عن ثلاثة أسواط ، وهنا ذكر موعظة عمر وخطاب الرشيد للأحرار معلم ولده وقوله له يا أحرار إن أمير المؤمنين الخ

هذا ما قصدت نقله من مقدمة العلامة ابن خلدون وهو وإن لم يكن فيه نص على الهواء والشمس اللذين نحن بصدد الكلام عليهما لمناسبة الآية ففيه ذكر العناية بالمتعلمين وإن في إذلالهم بوضعهم في سجن ضيقة ومنع الهواء والشمس عنهم ضرراً أشدّ وذلاً أعظم من الضرب وهذا هو الذي صرح به المستر (مان) الذي انتدبه وزارة المعارف المصرية أثناء طبع هذه السورة من علماء النفس والتعليم في بلاد سويسرا وهو الذي عقدت له

﴿ المقصد الثاني ﴾

فإن وزارة المعارف كلفته أن يضع تقريراً وافياً عن التعليم في مصر بجميع فروعها ، فمن حسن حظ هذا التفسير أني اطلعت على ما كتبه في هذا الصدد فرأيت يقول ﴿ لقد رأيت مدارس كثيرة في نفس بلاد الريف والجوّ حول المدارس حسن جيل والمزارع تحيط بهم والتلاميذ مع ذلك لا يبتعدون عنهم ملاحح السرور فكأنهم محبسون وقد حرموا من الهواء والشمس ، ونصح المعارف أن تجعل الشمس والهواء يحيطان بهم وأن يجعل لهم حرية في الذهاب والإياب وأن يشعرهم المعلمون بأن لهم كرامة الخ واقترح أن المعلمين يذهبون بهم أحياناً إلى الخلاء في الشمس والهواء ويعلمونهم هناك اه

أفليس هذا من العجب ، أتى بعد أن أحضر صورة المدرسة الفرنسية أطلع على التقرير أثناء ترجمته فأجده يصرح بإخراج التلاميذ إلى الخلاء في الشمس أحياناً . أليس هذا من التأييد لهذا التفسير . ومعلوم أن جميع مدارس أوروبا تنحو نحو الخلاء والشمس والاستقلال

﴿ الفصل الثالث في أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم ﴾

إن هذا الموضوع مناسب لما قبله من تبطبه ، ذلك أن العلامة (فنلند) ألف كتاباً موضوعه « إطالة العمر » فقد قال هو وغيره ﴿ إن الكلب يبلغ تمام نموه في سنة ونصف ، والحصان في ثلاث سنين وهكذا السكك حيوان زمان يتم نموه فيه ومدة تمام النمو المذكورة تبلغ ثمن عمره إذا لم يقتل بسبب آخر ، فيعيش السكك (١٢) سنة ويعيش الحصان (٢٤) سنة ويقاس عليهما بقية الحيوانات ﴾

ثم قال هو وغيره ﴿ إن نهاية نمو الإنسان تكون في (٢٥) سنة وبضربها في (٨) تكون مائتي سنة والسبب الذي منع عن الناس طول عمرهم أنهم لا يعيشون بالبساطة والقناعة والاعتدال بل يفرطون في كل أمر مع الانحراف عن النظام الطبيعي ومن ذلك العبودية للشهوة والتقليد والبطالة والري . أنا لست أقول هذا الكلام حق من كل وجه . كلا . وإنما أقول علينا أن نعتدل لتصح أجسامنا ، وقد ذكر أن (هنري) عاش (١٦٩) سنة وهو إنجليزي و (جون بافن) البولندي عاش (١٧٥) سنة و (يوحنا) النرويجي عاش (١٨٠) سنة و (طوزمبار) عاش (١٥٢) سنة . وهناك رجل زنجي يعيش الآن وعمره (٢٠٠) سنة اه

﴿ الفصل الرابع في الكلام على الرحمة ﴾

يقول الله تعالى - ومن رحمته - الخ . معلوم أن أول السورة - بسم الله الرحمن الرحيم - والمسلم في كل صلاة يذكر الرحمة عشرات المرات ، فالرحمة تكرر في كل زمان ومكان . يقول الله - ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار - الخ فهذه الشمس المضيئة التي جرت بها الأنهار والرياح والسموات واخضر الزرع وعاش الحيوان والإنسان وجرت السفن والقطرات والكهرباء وبها كانت الأصباغ المخترة الكثيرة التي تفتخر بها الغادات فهي كلها من القطران المستخرج من الفحم كما تقدّم في آخر (سورة النمل)

فهذه الشمس ومنافعها التي لا حصر لها من بعض رحمته . ومعلوم من حديث الصحيح أن الرحمة في الأرض واحدة نشأ عنها هذه السعادة في الأرض والرحمة بين الأمهات وذريتها والآباء وأبنائهم في الإنسان والحيوان وهذه الرحمة واحدة من مائة رحمة أخرى جميعها للناس في عالم آخر بعد فراق هذه الأرض

﴿ الفصل الخامس آرائى فى التعليم عند المسلمين اليوم ﴾

إن الأمم الإسلامية فى الأكثر اليوم ليس عندها إلا الكتابيب المهددة لحفظ القرآن وهى فى أكثرها أشبه بالمقابر قدرة لاضوء فيها ولاهواء لإقليا وهذه مضرّة بالمنعمن باجتماع الأمم . فقال صديقى العالم هل تظن أن المسلمين يقنعهم هذا القول ؟ هذا يقنع الراقين منهم لأنهم يعلمون اتساع ديننا . أما الأمم المتأخرة منهم فانها لاتثق إلا بما يرد عن المتقدمين . فقلت أذكر ك بما ورد أن النبى ﷺ كان يوحى اليه وهو سائر فى الغزوات ومتى نزلت عليه آيات أو سورة اجتمع القوم أو لهم فى الطريق وآخرهم وهو على دابته يقرأ لهم ما نزل عليه ﷺ فهاهو ﷺ ألقى عليهم الدرس فى الشمس والهواء الطلق . أفليس هذا يكفىك أن تعرف أن جلوس المسلمين فى الهواء الطلق موافق لسنة النبوية . ومن عجب أن الحج فيه الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة وهكذا جميع أعمال الحج . وترى الحاج قد امتنع عن كل زخرف فى هذه الحياة ولا يلبس المخيط وإنما يلبس إزارا ورداء ، فكيف كان الحج على هذا النمط ؟ نعم هذا أمر تعبدى . نحن لا نذكر ذلك ولكن هذا التعبدى ظهر بعض سرّه اليوم . الله أكبر . يتجرد الحاج من المخيط ويقف عارى الرأس تحت الشمس المحرقة يوم عرفة ويهرول بين الصفا والمروة . أليست هذه مبادئ سقنى عليها أهم بعدنا سعادة للإنسانية غير هذه الحال . إن آدم أكل من الشجرة والقرآن والتوراة وغيرها صرحت بذلك وعصيان آدم ربه نزل به القرآن فهو مع صحته يرمز به حالنا نحن . فهاهى ذه الأعمار قصرت لانحراف الناس فى ما كاهم ومشاربهم وما لبسهم وفى طمعهم وفى شرهم ولذاتهم فهلكوا سريعا

إن بنى آدم باجتماع الأطباء انحرفوا عن سواء السبيل فى أحوالهم النفسية والجسمية ، فرأينا الصحابة رضى الله عنهم يأكلون الخبز غير منخول زهدا فى الدنيا ، ولكن العلم الحديث اليوم أثبت أن هذا صحة لأبدانهم ، وهاهى ذه الأمم تنحون نحوهم طيبا لا زهدا ، ومثلها مسألة الحج فهى لنا تعبد ولكن من الذى تعبدنا ؟ الذى تعبدنا هو الله . ولما نظرنا وجدنا أن الأمم اليوم تستشفى بالشمس (انظر ما تقدم فى سورة الشعراء شكل ١٠) فانك ترى الفتيات فى الشمس يستشفين بنورها ، ثم انظر المدرسة الفرنسية فى هذه المقالة التى ترى تلاميذها مكشوفين للشمس . إذن البساطة فى الحج من حيث الملابس وظهور بعض الجسم للشمس هو أولا عبادة مقدسة وثانيا هو مبدأ يتخذ للشفاء والصحة والقوة والعلم وهذا ضد الترف المهلك للأمم ونفس الهرولة بين الصفا والمروة مبدأ يقاس عليه الحركات التى تقوى الأجسام وهذه كلها حكم غير حكمة العبادة المقدسة العالية . أليست ترى أن تقليل الملابس وكشف بعض الجسم للشمس وترك الترف هو هذا الذى يحبه النوع الإنسانى الآن ليدهد بالحياة وتصح أجسامه . إذن الحج من فوائده فتح باب التجرد من أمور الزينة والشهوة لتصح الأجسام ومنها فتح باب الرياضة البدنية وأيضا اجتماع الناس فى مكان واحد ولبسهم ملابس متماثلة رجوعهم الى الفطرة الأولى وفيه اشارة الى انكم أيها الناس جميعا يجب أن تتعارفوا وتتركوا الترف والنعيم وهذا الترك هو الذى يجمعكم والذات تفرقكم ، والصوم يلحق بالحج لأن فيه ترك الأكل فأما الصلاة فهى درس اجالى لجميع العلوم كما أوضحته فى بعض هذا التفسير ، الصلاة مبدأ العلوم والزكاة مبدأ المودات بين الأمة والحج مبدأ المساواة العامة وصحة البدن وهكذا . انتهى نصف الليل ليلة الأربعاء ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٩ وبهذا تم الكلام على القسم الثالث من السورة

(القسم الرابع)

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ

بِالْمُصِيبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ
 اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ
 فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ
 أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمًّا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ
 الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ
 قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * نَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ
 يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ
 وَيَسْكَانُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا
 وَيَسْكَانُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
 وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
 الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ
 قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ
 الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ
 بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *

هذا القسم تطبيق على ما تقدم من أقسام السورة راجع إليها متمم لها مكمل لمقاصدها منه لما ترمى إليه ،
 ابتداء الله السورة بما يأتي

- (١) بذكر أن فرعون علا في الأرض وأنه من المفسدين
 - (٢) ثم ذكر قصة موسى وفرعون ونجاة الأول وهلاك الثاني وقومه
 - (٣) ثم أردفه بذكر نظير ذلك من كفار قريش وأفهمهم أنهم كقوم بطروا معيشتهم فخربت ديارهم
 - (٤) ثم أتبع ذلك بمن أنعم عليهم وتعلموا وشكروا
- ذلك ملخص السورة ، ثم أتبع ذلك بذكر قارون وأنه بغى على قومه وقد كثرت ماله فأبطره الغنى ونسبه
 إلى علمه وتكبر على قومه وانقسم الناس في أمره (قسمين) قسم النعماء وهؤلاء حقروا زينة وماله وقسم
 الجهلاء وهؤلاء تمنوا مثل ما أعطى قارون ، فلما وقعت واقعته وانشقت السماء مجده فكانت واهية وسقط قارون
 في الهاوية عرف الجاهلون الحقيقة بهذه الحادثة وأدركوها بتلك الكارثة فأما أهل العلم فلم تزدتهم إلا ثباتاً ،

إن ذلك أشبه بما حصل لفرعون وموسى ومحمد ﷺ وكفار قريش ففرعون كقارون وكأهل مكة لما طغفوا وأسرفوا واستكبروا وتدمير قارون وما يملك كتمير فرعون وجنوده وكذلك هلاك قريش . لذلك ختم السورة بأن الدار الآخرة يحرم منها ﴿ اثنان ﴾ العالون في الأرض والمفسدون وينالها من تنزهوا من هذين وهذا نظير ما في أول السورة - إن فرعون علا في الأرض - الى قوله - من المفسدين - فهنا يقول الآخرة لمن لم يتصف بهذين الوصفين وتجرد من الأمرين وفاز بالحسنين التواضع واصلاح الأرض . ثم ختم السورة بأن كل شيء هالك إلا ما كان على نسق يرزاه الله كما كان موسى ومحمد ﷺ والذين أوتوا العلم مع فرعون وقريش وقارون ، وملخص ذلك أنه لا آخرة إلا لنبي أو حكيم أو عالم أو متبع سنتهم . فهؤلاء هم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً فكأن السورة في هذا القسم خلصت مرتين مرة في قصة قارون ومرة في قوله - كل شيء هالك إلا وجهه - في آخر السورة . اذا عرفت ذلك فلنشرع في

﴿ تفسير الألفاظ ﴾

قال تعالى (إن قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه (فبغى عليهم) طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره وتكبر عليهم وظلمهم (وآتيناه من الكنوز) الأموال المتذخرة (ما إن مفاتحه) أي خزائنه جمع مفتاح بفتح الميم وأما ما يفتح به فهو بكسرهما وما بمعنى الذي منصوب والجملة صلته (لتنوء بالعصبة أوى القوّة) أي لتثقل العصبة ، فالباء إذن للتعديّة ، يقال ناء به الجمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة والقوّة الشدّة ، وقوله (إذ) متعلق بقوله (قال له قومه) المؤمنون وبنبيهم موسى عليه السلام (لاتفرح) لاتبطر بكثرة المال كما قال تعالى - ولا تفرحوا بما آتاكم - وكيف يفرح الناس بما أوتوا وهم زائلون من هذه الأرض (إن الله لا يحبّ الفرحين) بزخارف الدنيا لأنهم قوم غافلون ، ثم أبان المقصود من المال في هذه الدنيا فقال (وابتغ فيما آتاك الله) من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بأن تكون أبا لأمتك ناظراً في شؤونهم مرقياً لهم حافظاً لكرامتهم حريصاً على اسعادهم بحيث يكون مالك معيناً لفقرائهم مرقياً لهم (ولاتنس نصيبك من الدنيا) لأنك واحد منهم والمال مال الله والخلق عياله ، فليس معنى انفاق المال للناس أن تنسى نفسك . كلا . بل ابدأ بنفسك فاذا نسيت نصيبك من الدنيا فأنت مذنب لأنه لا معنى لإحياء نفوس الناس وامانة نفسك واصلاح حياتهم وافساد حياتك ، ولما قرّر هذه الحقيقة أخذ يتم تحريره على الاخسان فقال (وأحسن كما أحسن الله اليك) لأن ما لديك من المال والقوّة والعلم ليس منك وإنما هو من الله وكما أن ضياء الشمس والكواكب من الله خلقه فانه الى خلقه منفعة هكذا ما أنعم الله به عليك فهو من الله والى عباده ومنهم نفسك (ولاتبغ الفساد في الأرض) بالظلم والبغى (إن الله لا يحبّ المفسدين) لسوء فعلهم فأجاب قارون ناسياً أن الله هو الذي وهبه هذه النعم مدّعياً أنه استحقها بقوّة فطنته وذكائه وعلمه (قال إنما أوتيته على علم عندى) فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم في المال والجاه أى إنما أوتيته حال كوفى على علم كائن عندى كعلم التجارة والكيمياء ، ولا جرم أن العلوم كلها كشجرة ذات أغصان وفروع فمن اقتصر على أحدها أغرم به وجهل سواه ، ومما مثل الناس إلا كمثل قوم عمى أمسك كل بجزء من الشجرة فقال أحدهم إن هذه الشجرة ناعمة رائحتها طيبة وهو قد أمسك بالزهرة وقال آخر إن هذه الشجرة خشنة مدوّرة وقد أمسك بالجذع وقال ثالث إن هذه الشجرة رقيقة كورق الكتابة كثيرة القطع معلقة في سقف مربوطة بحبال دقيقة يريد الورق وهو متصل بفروع صغيرة دقيقة هكذا العلوم من قرأ منها علم التجارة أو علم الكيمياء على فرض استخراج الذهب به فانه يغرم به ويقول إنما العلوم لجمع المال وهو المقصود وماعداه فجهالة . ومن قرأ علم الزهد والتصوّف احتقر المال وتعلق بأسباب الكمال وتهذّب النفس وههنا قارون كان من القسم الأوّل وكلا القسمين في نقص مشين فلا بد من معرفة سائر العلوم معرفة اجمالية ثم التفرغ لواحد منها ولا يكون المسلم كما كان قارون

يحفظ علما واحدا ويجهل سواه فيعيش ناقصا وحيدا لأن ذوقه لا يطابق أذواق الناس فيصبح عالم التجارة عدو صاحب تهذيب الأخلاق ويكون الناس في تقاطع ، فعلى الناس أن يقرؤا سائر العلوم فعلم الزهد لابد منه لدى المال حتى لا يكون أحدهم مغرما بالمال فتضيع حياته سدى . ولذلك وبخه الله فقال لماذا عرفت علوم الدنيا وتركت علوم الآخرة والدنيا والآخرة لى ، هلاقرأت العلمين (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جها) للمال أى أغره علم المال فافتخر به وجهل علم تواريخ الأمم الغابرة والقرون البائدة وكم فيهم من كانوا أكثر منه مالا وأعز نفرا فهلكوا

فقل لمن يدعى علما ومعرفة * حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

ولذلك يقال « البلاء خير من الفطنة البتراء » فهؤلاء جميعا واقعون فى الهلاك محكوم عليهم بالاعدام لافرق بين الأولين وبين الآخرين ومنهم قارون انهم يهلكون بذنوبهم لأن الله عليم بظواهر ذنوبهم كما هو عالم ببواطنهم فيهلكهم (ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون) وكيف يسألون وأمرهم عنده معلوم ، ثم أعقبه بذكر بعض ذنوبه ليعلمنا الله كيف تكون الذنوب الكبائر والموبقات كامنسة فى مظاهر لا يظنها الناس إنما ولا يعتقدونها ذنبا بل تلك المظاهر أحوال عادية وأمور مباحة مظاهرها رجاسات وباطنها زلات بل أعظم الزلات فياليت شعري أى شين وأى إثم فى قوله تعالى (خرج على قومه فى زينته) وماذا فعل ؟ يقال انه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلثمائة جارية بيضاء عليهم الخلى والثياب المروهن على البغال الشهب ، ولأحاجة الى نقل أقوال غير هذا لأنها عبارات متقاربة وإنما المقام مقام هذا السؤال أى ذنب فى هذا وهل ظهور الانسان مع نسائه ومع الفرسان وعليهم ملابس جميلة حرام ، إن هذا ليس بحرام إلا إذا كان هناك بعض ملابس محرمة وهذه الملابس حرمتها من الصغائر . إن هذا المظهر مظهر مباح فما ذنب قارون إذن ؟ ولماذا يذكر ذلك المظهر بعد قوله ... ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون - وهل اذا تمنى الجهال مثل ذلك الجبال والزينة إذ (قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لنوحظ عظيم) من الدنيا ، هل هذا ذنب لقارون وإنما هؤلاء لجهالتهم تمنوا مثل قارون كما نرى ونسمع فى كل قرية و بلدة وضيفة هذه العبارة بعينها حتى ان الرجل والشاب والمرأة والفتاة ليقول كل منهم ياليت لى مثل ما أوتى فلان وفلانة على أى نعمة كشوب جميل أودابة يركبها أو بهيمة يأكل لبنها أو مزرعة يحصد غلتها وما أشبه ذلك ، إن هذه عادة جميع أهل الأرض فى زمن قارون وقبل قارون وبعد قارون ، فما ذنب قارون إذن ؟ نعم ذنبه ظاهر فى الآية إذ قال تعالى - فبغى عليهم - وسيأتى ما فعله من أنه برطل المرأة الباغية لتتهم سيدنا موسى ، فهذا بعض البغى منه ولذلك ذمه الله وخسف به وبداره الأرض . أقول ولكن ذكر خروجه على قومه فى زينته لابد فيه من أمر خفى والافلاماذا يذكر بعد ذكر هلاك الأمم وأن المذنب منهم لايسأل عن ذنبه كما قال تعالى - فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولاجان - والجواب على ذلك ، ان من الذنوب ذنوبا باطنية وقال علماؤنا رحيم الله انها أشد فتكا بالانسان من الذنوب الظاهرية . إن الله لم يذكر فى القرآن إلا انه بغى على قومه وانه - قال انما أوتيته على علم عندى - وانه - خرج على قومه فى زينته - ولم يذكر ماسأقصه عليك مما نقله المفسرون عن بنى اسرائيل من أمر المرأة وغيرها ، فلنبحث فى هذا الذى جاء فى الآية . إن فيه لكبائر الذنوب مثل الكبرياء والاعجاب والتعالى على الناس . فهذه وأمثالها ذنوب كبائر ويقول علماؤنا انها هى المهلكة . إن هذه المظاهر إما أن تكون من أشرف الأعمال وإما أن تكون من أضلها فاذا كانت لاظهار مجد الأمة وقهر عدوها وكسر نفسه واظهار العظمة الدينية والقومية فهى جهاد فى سبيل الله . فأما اظهارها لاذلال النفوس وكسر القلوب والتعالى على الاخوان وأبناء البلاد فذلك تفرق للكلمة واظهار للعظمة فى غير موضعها فان الناس اخوانه ومتى تعالى عنهم خفضهم فلا جامعة بينهم ولا رابطة تربطهم

فيذلون في الدنيا بانقضاء الأعداء عليهم وفي الآخرة بجحيمهم . فظاهر قارون كانت من القسم الثاني قصتها الله ليعلم المسلمين ويقول لهم لتكن نفوسكم شريفة وإياكم أن تطغوا إنما نظري لقابكم لا بصوركم ، فكم مظهر نعمة يريد بها تعالى والتفاخر ، وكم مقيم زينة وصانع وليمة أو عرساً أو مأتماً وهو في ذلك كله كفارون ، ليست هذه المظاهر عند كثير من الناس إلا ليظهروا بها الكبرياء والتعالى على الناس واطهار العظمة ... من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون - إن هذه الآية وردت في المرأتين ، ففهل قارون وأمثال قارون من كل ذي مال ولو قل في الأمة الإسلامية يدخله الرياء والعجب بالنفس والكبرياء والتعالى على الأقران وهي المهلكات المزججات قال تعالى - أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون - هذا هو القرآن وهذا كلام الله وأكبر مصيبة حلت بالاسلام أن الذنوب الباطنية لم تذكر في مدارس التعليم واكتفى الناس بالأحكام الشرعية الظاهرة وظنوا أن التعليم في البواطن خاص بالمجاذيب والصوفية وهذا من أكبر عيوب التعاليم الإسلامية . إن هذا هو السبب في أنك ترى بعض المسلمين في المكتبات العامة النافعة لا يساعدون ، وترى الناس يصرفون أموالهم في الزينة والزخرف والسفر إلى أوروبا للنزهة والرياضة ومصر التي هي بلاد يسافرونها كل سنة نحو خمسين ألفاً يصطافون في أوروبا ، وترى الناس في المسام والأعراس يدفعون أموالاً كثيرة ، كل ذلك لأن التعاليم الإسلامية اليوم لم تدخل القلوب . إن التعاليم الإسلامية إنما قصرها الناس على ظواهر الأجسام وتركوا القلوب فارغة لاعلم ولا رجة ولا احساس إلا ما جاء عفوا وبدون قصد . فأما تربية الوجدان فانها متروكة للأهل والأقارب والبيئة . إن المسلم إذا سمع هذه الآيات يقول انها في الكفار فأما أنا فيكفني الاسلام وهذه أكبر خطر . يقول المسلم « مدمت لا أؤذي أحداً ولا أسرق ولا أؤذي فأنا لا ذنب علي » وهذا هو الخطأ الفاحش والذنب العظيم . إذن أين أمثال هذه الآيات ولم أنزل القرآن . إن استنار المسلم بالدين واحتججه به وقوله إني مسلم وإنما هذه الآية واردة للكفار هو الذي أوقع الأمة في الجهل وضياح المال والبذخ والزينة والاسراف خسف بنا وبدارنا الأرض خسفاً معنوياً وذلك حقيقياً . فلئن خسف بقارون وبداره الأرض فهلك هلاكاً حسياً فلقد خسف بنا وبدارنا الأرض خسفاً معنوياً ، فأينما تول وجهك في بلاد الاسلام لا ترى إلا جهالة عمياء وضلالاً ورياء إلا قليلاً من ذوى النفوس الشريفة فهم الذين يرجع اليهم وسيقيمون بنشر أمثال هذه بين المسلمين وسيرجع للاسلام مجده على يديهم ويكونون نورا للمسلمين . إن الله ماقص هذا القصص إلا ليرينا أن أمثال هذه الذنوب كالكبرياء والرياء والتعالى ليس ذنبها في الآخرة وحدها بل شؤمها يحصل في الدنيا كما حصل اليوم للمسلمين ، هذا في ضمن قوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم) بأحوال الدنيا والآخرة لأولئك المتقين (ويلكم) دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لا يرتضى كيف تتعالون بالزينة وتفخرون بالحلية (ثواب الله) في الآخرة (خير لمن آمن وعمل صالحاً) مما أوتي قارون ومن الدنيا وما فيها (ولا يلقاها) أي المثوبة أو الجنة والعامل الصالح (إلا الصابرون) على الطاعات وعن المعاصي وبذلك الصبر وحفظ الشهوات يصرفون ما لهم لوجه الله وللأعمال العامة ويكونون قدوة صالحة ويرفعون أممهم ويحفظون مجدها ويجهلون ما لهم لاسعاد أممهم فينالون بذلك الصبر الثناء في الدنيا وحب الناس وفي الآخرة يدخولون الجنة فانه لا آخرة إلا على حسب الدنيا . إن النفوس الانسانية مصروفة إلى الهوى والشهوة والعادات الموروثة والامور المحسوسة . انظر الى المسلم انه يريد أن يوجه قلبه في الصلاة لله ولذكر والقراءة والمعاني فلا تطاوعه نفسه وتنصرف الى أمور تهمها هذا طبعها فاذا جاهدتها مرة بعد مرة قوت وثبتت وتذكرت ثم يصير ذلك عادة جديدة ثم يستلذ بها هكذا في المال تنصرف النفس الى الزينة واطهار الشرف والغنى والجاه والثروة فاذا وجدت من يفهمها أن المال ليس لهذه السفاسف بل لتلبية

الدين وشريف العواطف ويذكرها مرة بعد أخرى صار ذلك عادة لازمة واستلزم بها لذة دائمة ويسمع ثناء الناس عليه والآخرة خير وأدوم . إن اتجاه قلب المصلي بعد شموسه وجناحه وشروده وانقياده بعد نفوره للحضور في الصلاة وصرف ذى المال ماله للمحتاجين وللمنافع العامة بعد رايته وكبريائه وجهالاته لم يكن إلا بالصبر . إن ردع النفس عن طبعها لا يكون إلا بالصبر عن المألوف والبذل في المعروف . هذا معنى قوله تعالى - ولا يلقاها إلا الصابرون - ولا جرم أن قارون لم يكن منهم ككثير من أمثاله من أغنياء الأمة الاسلامية الآن بل انه استهان بالمال على اهانة قومه وعصيان ربه ككثير من أغنياء المسلمين الآن وقد ذكر المفسرون منها ما يأتي (١) أوحى الله الى موسى أن صر بنى اسرائيل أن يعلقوا في أرديتهم خيوطا أربعة في كل طرف خطا أخضر كالون السماء يذكرني به اذا نظروا الى السماء ويعلمون اني منزل منها كلامي فامثل بنو اسرائيل وتكبر قارون وقال هذا فعل الأرباب ليعيدهم

(٢) جعل الله الحبورة هارون وهي رئاسة المذبح فكان بنو اسرائيل يأتون بقراباتهم الى هارون فيضعها في المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله ففسد موسى وهارون وقال أنا أقرأ التوراة وأنت تنال الرسالة وهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك فأقام له موسى الحججة أن هذا من الله فعدتها سحرا . ذلك أن القوم وضعوا عصيهم في قبة وحرسوها طول الليل فأورقت عصا هارون ولم تورق سواها من العصي فقال هذا سحر كالمعجود ولكم سحررت قبل هذا

(٣) أسره بالزكاة فلما جمعها استكثرها وعصى ولم يعطها

(٤) أراد أن يفضح موسى بين بنى اسرائيل فبرطل بغيا لترميها بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجناه فقال قارون ولو كنت أنت قال ولو كنت أنا قال إن بنى اسرائيل يزعمون انك فجرت بفالانة فاستحضرت فناشدتها موسى عليه السلام بالله أن تصدق فقالت جعل لي قارون جعل على أن أرميك بنفسى نفرت موسى شاكيا منه الى ربه فأوحى اليه أن صر الأرض بما شئت فقال يا أرض خذيه فأخذته الى ركبتة ثم قال خذيه فأخذته الى وسطه ثم قال خذيه فأخذته الى عنقه ثم قال خذيه فحسفت به وكان قارون يتضرع اليه في هذه الأحوال فلم يرجعه فأوحى الله اليه ما أفظمك استرجك سرارا فلم يرجه وعزتي وجلالى لودعاني مرة لأجبتة ثم قال بنو اسرائيل انما فعل ذلك ليرثه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله

إن ذلك كله كان نتيجة عدم صبره أى انه لم يكبح جماح نفسه عن رعوتها وميلها الى الكبرياء والشهوات والقرآن لم يجئ فيه هذا التفصيل وليس فيه إلا قوله تعالى (فخسفنا به وبداره الأرض) مرشدا بذلك المسلمين أن يصرفوا هواهم عن التعالى والكبرياء والتعالى في الزينة لكلا يخسف بهم وبما هم الأرض كما حصل الآن فقد أصبح ما هم تحت تصرف غيرهم من الأمم المحتلة وذلك لجهلهم وقلة علم وعظمتهم إلا قليلا فصرف الناس أموالهم وعقولهم في الرياء والمباهاة وجهلوا المقصود من المال ومن الحياة فضاغت بلادهم وهذا هو الخسف العظيم ، وأى شيء خسف قارون وداره ؟ الخسف الآن خسف الأمم بتماها ، يدخل جيش الأعداء القاهر في بلدة من بلاد الاسلام فيصبح الناس عبيدا للغاصبين وضحية الطامعين ، ذلك هو الخسف الأكبر ، خسف أمة لا خسف فرد ، فليخسف الفرد ولتبقى الأمة ، أما الأمم الاسلامية الحديثة فانها ابتليت بخسف الأمم والأفراد والجهل كثير من الوعاظ الغافلين الساهين النائمين الجاهلين ، الخسف حتم لسكل صراء و باغ وجاهل بمقاصد المال ومقاصد الصحة والعلم ، يخسف بهم سواء أكانوا أمما أم أفرادا كقارون (فما كان له من فئة) أعوان (ينصرونه من دون الله) فيدفعون عنه عذابه (وما كان من المنتصرين) الممتنعين منه يقال نصره من عدوه فانتصر اذا منعه منه فامتنع . وكيف يكون له معين . وكيف يكون للأمة الغافلة ناصر

وهو وهى قد فرطوا في قواهم وأضاعوا مجدهم وخرّبوا بيوتهم بأيديهم . إن النصر للصابرين . إنما النصر نتيجة الصبر على حفظ المال وحفظ الشهوات والعقول وجعل ذلك كله للفضائل والمنافع العامة

﴿ ضرب مثل لحال المسرفين في ما لهم بالمسرفين في ما كان لهم ﴾

أضرب لك مثلاً يوضح لك السابق كله لتعلم أن هذه الآية لم تنزل في القرآن ليتعجب الجاهل من قارون كيف خسفت به الأرض وكيف كانت النقي لم يفرها المال بل نطق بالحق وهو براءة موسى وأشباه ذلك . كلا . إن هذه القصص جاءت لحقائق علمية ومعاني قدسية وحكم عقلية وآيات عمرانية وعجائب نظامية وسعادة اسلامية للمسلمين في مستقبل الزمان * قال أطباء هذا العصر من النمساويين والألمان وغيرهم ﴿ إن الذين يتعاطون اللحم والبيض واللبن وأمثالها من كل ما فيه غذاء كثير التغذية تقوى أجسامهم وتحمر وجوههم ويحسدون أقرانهم لأن المواد الغذائية في هذه الأصناف الثلاثة قوية فتدخل في نسيج الجسم وخلياته بقوة فتملؤها فيظهر ذلك على الوجوه والأعضاء وتحمر الحدود وتقوى الجسم . وهناك فريق ثان ضعيف البنية منهوك القوى قد أضرب به المرض فظهر في جسمه القروح والبثور والعوارض الكثيرة وهو يئن من المرض ولا يقوى على هضم الطعام أحيانا ، فيقول الناس إذا رأوا الأول قائما بينهم هاشا باشا ياليتنا كنا مثله ويحسدونه على ما آتاه الله من قوة الجسم والبدن والجمال والحسن . بينما الناس على هذه الحال إذا ذلك القوى المتين خرّ صريعا في يوم أو بعض يوم ، أما ذلك المريض الضعيف فانه كثيرا ما يعيش بعد ذلك سنين وسنين وهذا أمر عجب ، الغذاء حسن جيل مقو فهل المقوى ضار ؟ وماذا يصنع الناس ، فأجاب هؤلاء الحكماء قائلين اعلم أن الرجل القوى الجسم كان ضعيفا والضعيف الجسم كان قويا لأن القوى الجسم لما أكل هذه المواد السامة وامتلاّت به أنسجة جسمه ولم ترحم تلك الأنسجة ولم تشفق عليها ولم تكن كالأغذية الواردة عليها من المواد النباتية والفواكه والحبوب ، تلك الأغذية التي تدخل تلك الأنسجة بلطف وتؤدّها لأنها ليست كثيرة التغذية بل قوة الغذاء مصحوبة بمواد أخرى تحول بينها وبين تلك الأنسجة فلا ترهقها كما أرهقها أمثال اللحم ومماعه أقول لما حصل كل هذا في جسم ذلك القوى ظاهرا وامتلاّت الأنسجة بالمادة الغذائية احتاج الجسم أن يخرج الفضول ويستريح مما زاد عن قوة الأنسجة الممتلئة فلا يجد لذلك سبيلا فامتلاّ الجسم كما يمتلئ النهر بالماء حتى يفيض ولا بد من قطع موضع من الجسر ، هكذا ذلك الجسم يتمزق في يوم أو بعض يوم ، أما ذلك الضعيف فان جسمه لما امتلاّ كذلك القوى فانه لقوته فتح منافذ سماها الناس أمراضا كالقروح والبثور والأمراض فتخرج الداء من الأجسام ويستريح الجسم وما ذلك بداء وإنما هو صحة للجسم وإخراج للفضلات منه فتكون النتيجة هكذا « المريض قوى والصحيح ضعيف »

هذا هو الذي قاله الأطباء في العصر الحاضر وبنوا على ذلك أن الانسان خير له أن يأكل البقول والفواكه والحبوب وأن يمتنع عن اللحم والبيض واللبن أو يقلل منها ما استطاع لذلك سبيلا . أفلمست ترى أن صاحب الثروة الواسعة الذي أشبهه قارون في بذخه كذلك القوى الجسم . أولست ترى أن الذي أنفق ماله لأهل قريته ونفع أمته وذلك العالم الذي جعل عامه لأمنته أشبه بذلك المريض الذي قوى جسمه على دفع الأذى . ألا ترى أن ما يظنه الناس انه فقر عند ما يعطون المال لمستحقه أشبه بما يظنه الناس مرضا بظهور القروح والبثور فاذن يكون المنفق غنيا والممسك المتباهى بالزينة فقيرا . أوليس هذا أشبه بما في قوله (وأصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (بالأمس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) يبسط ويقدر بمقتضى المشيئة لا لكرامة تقتضى البسط ولا لهوان يوجب القبض فالقبض والبسط كالليل والنهار والصغر والكبر والصيف والشتاء يمران على الصالح والطالح امتحانا لهما واختبارا وترية من رب العالمين وقد أخطأ الانسان فانه إذا أكرمه الله ونعمه يقول - ربى أكرم من * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى

أهانن * كلا - ثم كلا إن الأمر امتحان واختبار وتربية وافظ « وَى » للتعجب و « كَأَنَّ » للتشبيه أى ما أشبه الأمر - أن الله يبسط - الخ (لولا أن من الله علينا) فلم يعطنا ما تمنينا (لخسف بنا) لأنه يحقق بنا ما حاق به فيخسف بنا (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمه الصارفون لما فمنا نفعه قليل ومن هؤلاء المكذبون برسالة . أليس هذا هو ما يحصل الآن أمام أعيننا في الدنيا لاسيما في هذا العصر

(١) ألم تر الى قيصر الروس كيف كان له السلطان التام والقدرة والصولة والعظمة والجاه وقد ملك مقاليد الروس ، وما ادراك ما الروس ، أمة عظيمة قوية تحتها أمم وأى أمم ، مائة مليون أو يزيدون ، فإذا حلّ به لما جاءت الحرب الكبرى ؟ أنزله قومه من على عرشه وذبحوا أبناءه أمامه وأنزلوه بعد ذلك داراهلوان وقتلوه قتلا شنيعا بعد أن أجاعوه وأذاقوه مرّ السكال . أليس ذلك هو عينه ما حصل لقارون وللمسرفين في ما كاهم مخالفين نصيح الأطباء ، يحسد هم الناس ويقولون ياليت لنا مثل قيصر انه لذو حظ عظيم ، ياليت لنا صحة مثل هذا السمين الوسيم من الأصحاء ، أفليس الناس يحسد انقلاب الأمر على قيصر وحلول المنون بذلك السمين الوسيم يقولون نفس هذا المقال يقولون نتعجب كأن هذه الدنيا دار خدعة ، انظر الى قيصر كيف أبادته الجنود وأهلكه من كان يغتر بهم وذلك لأنه استبدّ بالأمر وخرج على قومه في زينته وهو يريد الحياة الدنيا والناس كاهم كانوا له كالعبيد . هكذا حصل في الاستانة وخلع عبد الجيد من ملكه وهكذا كثير من ملوك أوروبا

(٢) أولست ترى أن أولئك الموسرين من مصر وأهل الشام والمغرب وغيرهم من أقطار الاسلام الغافلين عن منفعة المال يتباهون بالدور والعقار والولائم ويتظاهرون بها وقد ركبهم الدين ورهن العقار والفرجة واقفون لهم بالمرصاد يخربون بيوتهم بالدين وهم غافلون والناس من حول هؤلاء المثرين يقولون ياليت لنا مثل ما أوتي فلان المثرى ، انظروا الى زينته ، انظروا الى قصوره ، انظروا الى الجوع التي جعها في عرسه أو مأتمه ثم ينقضّ عليه دائنوه فيبيعون العقار ويخربون الديار ويصبح كأن لم يكن بالأمس . ذلك مشاهد في كل قرية وبلد وضيفة ولكن الناس غافلون وترى الذين كانوا يحسدونه بالأمس بعد سقوطه يقولون - ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر - لولا أن الله لطف لكان جعلنا مثله مغرورين فأصبحنا عبرة وشماتة للآخرين في الداء العضال . ذلك هو المقصد من قصة قارون ثم ذكر الله نتيجة جميع ما تقدم فقال (تلك الدار الآخرة) الإشارة للتعظيم أى تلك التي سمعت من أبناء الأمم وعرفت وصفها ، وقوله - الدار - بدل والآخرة صفة الدار والخبر (نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض) غلبة وقهرا (ولافسادا) ظلما على الناس كما أراد فرعون وقارون وكفار مكة لما آذوا النبي وأصحابه (والعاقبة) المحمودة (للمتقين) ما لا يرضاه الله (من جاء بالحسنة فله خير منها) ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) أى إلا مثل ما كانوا يعملون ولما كان الصابرون الذين لا يفخرون على الناس وتكون أموالهم وحياتهم وقفا على أهمهم موعودين بالشواب في الآخرة أعقبه بما يفيد أن الحظ في الدنيا والآخرة لهم فلهم الآخرة ولهم الدنيا ، فالذى لا يتبع الهوى في شهوة الطعام له الصحة الحقة والذي يسلك سبيل الانفاق في المنافع العامة يرى في الدنيا سعادة لا يحلم بها ذلك المسرف المرائى بما يتهيا له من حب الناس وثنائهم عليه وإكرامهم له وتبجيله واعظامه فقال (إن الذى فرض عليك القرآن) أى أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه (لرأى الى معاد) دنيوى وأخروى ، أما الدنيوى فانك ترد الى مكة اذا اشتقت اليها لأنها مولدك ومولد آبائك ، وأما الأخروى فانك ترد الى المقام المحمود الذى وعدت أن تبعث فيه وهذا المقام أنت تحمده ويحمده كل من عرفه ، ولقد تقدم أن هذا المقام يشير الى ارتقاء العلوم في هذه الأمة في مستقبل الزمان كما ارتقت عند أسلافنا ، فهم رفعوا منار العلوم التي هي مناط الحمد كما قدمناه وسيرفعونه كما أوضحناه . وملخصه أن هذه الأمة سترقى في مستقبل الزمان . وملخص ذلك كله أن الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا وهم منفقون أموالهم في الخيرات ينالون الخير في الدنيا والآخرة كما حصل

لرسول الله ﷺ إذ قال له جبريل لما نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها «أشتاق إلى بلدك» قال نعم قال فإن الله تعالى يقول - إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد - فهذه الآية لا مكية ولا مدنية ، ثم قرّر ذلك فقال (قل ربّي أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب في الدنيا والآخرة كما قال تعالى - وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين - (ومن هو في ضلال مبين) وما استحقه من العذاب والاذلال في الدنيا والآخرة كما قال تعالى - لهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون - والمقصود من ذلك نفسه عليه الصلاة والسلام والمشركون وكنا كل مهتد وكل ضال كما عرفت . ولما كان الصبر على شدة الكفار ومقاساة الأهوال شديداً على النفوس وقد وعد الله نبيه على صبره على أذى قومه وما يلاقيه من الصعاب أن يردّه إلى مكة في الدنيا وإلى المقام المحمود في الآخرة . أكد ذلك بما سبق له من شوقه إلى لقاء جبريل ونزول الوحي أيام الفترة في أول النبوة فلقد كان لشدة وجده وهيامه وغرامه بملاقاة جبريل وتلقيه الوحي منه يكاد يلقى نفسه من فوق الجبل وذلك الشوق جعله الله في الأنبياء وفي العلماء والحكماء ليكون ذلك أدعى إلى صبرهم على مقاومة الأعداء ومقارعة الإخوان ومصادمة الحوادث فانهم لو لم يشوّقوا لتلك المراتب ولم يرتقبوا تلك الفضائل بل أتت لهم سهلة هنيئة سرية لجوها إذا أودوا أو أتركوها إذا قهروا فالاشتاق للشيء الذي لم يلبه وكرره وهو ممتنع عليه محبوس عنه إذا بلغ منه بعد اليأس كان أحزّص الناس عليه وألزمهم له وأغرمهم به وأحبههم إليه وهذا قول الله تعالى (وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب) أي يوحى (إلا رجّة من ربك) أي ولكن رجّة من ربك ألقى إليك الكتاب فأنت أوتيت الكتاب بعد الشوق وقطع الرجاء فهانحن أولاء وعدناك بالعزّ في الدنيا والمقام المحمود في الآخرة الآن وقد كنا شوّقناك إلى الوحي ومنعناه عنك وقد قطعت رجاءك استزادة لشوقك لتزيد بالكتاب غراماً وعليه حرصاً حتى تصبر على الأذى وتقاوم المشركين (فلا تكوننّ ظهيرا للكافرين) أي لا تكوننّ مميّنا لهم بمداراتهم والإجابة إلى طلبهم وكيف يكون ذلك منك وأنت مانلت هذا الكتاب إلا بعد الطلب القوي والشوق إن ذلك أدعى لصبرك هكذا أكرمناك ودبرنا أمرنا - وما كنا عن الخلق غافلين - وهكذا جميع الحكماء والعلماء والمصلحين يشوقون إلى المعالي ثم يمنعونها زماناً ليصبروا على ما أحبوا متى نالوه وهذه سياسة الله في هذا العالم الأرضي إنه لطيف بما يشاء (ولا يصدّك عن آيات الله) عن قراءتها والعمل بها (بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك) إلى عبادته وتوحيده (ولا تكوننّ من المشركين) بمساعدتهم (ولا تدع مع الله إلهاً آخر) وذلك القول لقطع أطماع المشركين وكيف يصدّونك أو ينالون بغيتهم منك أوتسكون أنت معهم ونحن قد أحكمنا أمرنا بما ذكرناه فشوّقناك ثم أرسلناك وهذا القول يقتضي أن سياسة الشوق أعظم وسيلة للنفع العامة ، فالعناية والتشويق للأفراد وللأُمم والجماعات إلى فضيلة من الفضائل هي الداعية للاستزادة منها فعلى المسلمين في أنحاء المعمورة أن يشوّقوا الشبان إلى مجد آبائهم وإلى حفظ بلادهم وإلى استخراج ثمرات أرضهم ومعادن جبالهم ويدشّنون فيهم هذه الفكرة ويحضّوهم حضاً دائماً على ذلك وعلى النظر في العجائب بذكر بعض جاهلها ، وكلما تمتعت هذه المطالب ازداد الشبان بها غراماً حتى إذا نالوا بغيتهم استمسكوا بتلك المزايا أجيالاً وأجيالاً حتى تنحور العزائم وتدور السوائر وتضمحل الأهم وتموت الهمم ذلك يؤخذ من هذه الآيات إذ رتب الله أمره لنبيه بأن لا يعاون الكافرين ولا يصدّ عن آيات الله وأن يدعو إلى ربه وأن لا يكون من المشركين ولا يتخذ غيره وكيلاً على أموره كلها ولا يعتمد إلا عليه . كل ذلك رتبته على أنه شوّقه إلى الوحي وأوحى إليه بعد اليأس ، هكذا فليفعّل المسلمون وليقيم بذلك المدرّسون في البلاد الإسلامية ، وقوله (لا إله إلا هو) معروف (كل شيء هالك إلا وجهه) أي إلا ما أريد به وجهه لأن كل شيء أريد به غير الله فهو هالك ، فكل ما لمصلحة فيه كما تقدّم من الأمثلة بقيصر الروس وبالأغنياء في الإسلام المسرفين الجاهلين وبقارون

وفرعون وكفار مكة كل فعل هؤلاء هالك (له الحكم) فصل القضاء بالعدل فيخذل المسرفين المرائين وينصر
الفاضلين العادلين على وجه الحكمة وطريق الصواب (واليه ترجعون) للجزاء بالحق . انتهى التفسير اللفظي
للقسم الرابع من السورة . وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى في قوله تعالى - نخرج على قومه في زينته - ﴾

لقد ذكرنا في هذا التفسير في سور كثيرة أن التنعم مضعف للأجسام والعقول والهمم ، ومن لطائف
الاسلام انه حرم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال ، ذلك ليقتل باب التهم الذي يورث القعود عن
المعالي ، والأهم لاحياة لها إلا بالرياضة البدنية ومزاولة الأعمال العسكرية ومشاق الجندية لحفظ الثغور ونظام
البلاد وقوة الأجسام وصيانة النفوس والقوى من الضعف . إن السعادة كل السعادة في ترك التنعم وكثرة
الأعمال الجسمية وترك النعيم فانه أدعى للسعادة والهناء والصحة والقوة وحفظ البلاد

﴿ اللطيفة الثانية في قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض

ولا فسادا والعاقبة للمتقين - ﴾

إن ذكر هذه الجلة بعد ما قص الله من قصص قارون وموسى وما تجلى للناس من أمر المال وانه زائل
وأن الذين أوتوا العلم قالوا إن ثواب الله خير الخ ثم خسفت الأرض بالمال وصاحب المال . أقول إن ذكر
هذه الجلة بعد ما تقدم فتح باب لأرقى ما وصلت اليه الحكمة والفلسفة . ياسبحان الله . أليس من العجب أن
يكون أرقى الحكماء في نظر علماء العصر الحاضر والغابر يقولون ﴿ إنه لا يصح أن يسمى موجودا إلا ما كان
معصوما من الزوال ﴾ . واقد نسمع كثيرا من حكماء القدماء يقولون ﴿ إن الحركة وجودها ضعيف وبرهنوا
على ذلك ﴾ فهذه هي القاعدة التي بنى عليها أن العلم لا يبنى إلا على ماهو ثابت ، فأما ما لا ثبات له فلا يبنى العلم
عليه . ولا جرم أن مافى السموات والأرض كله متغير والمتغير غير ثابت وغير الثابت لا يبنى عليه علم فالعلم الذي
نعقله مبنى على أمور وراء هذه المادة ويسمونه (عالم المثال) وكل ما نراه أو نحس به فما هو إلا ظلال لذلك
العالم أو صور له أو آثاره لا غير وذلك العالم هو الثابت الذي يبقى فلذلك نرى العلم باقيا فهو باق ببقاء ما بنى عليه
والمادة لا بقاء لها فلا علم يتعلق بها ، وعلى ذلك يقول أولئك الفلاسفة ﴿ فلنوجه وجوهنا للعالم الذي يبقى
ولنحقر هذه الدار الفانية ﴾

أما الدار الدنيا فليست دار حياة وانما هي دار متقلبة متغيرة فليس من حقها أن تسمى حياة كما أنه ليس
من حقها أن تسمى موجودة ، فاعجب من القرآن ومن أن تشرحه حكمة الحكماء وعلم العلماء ، فجّلّ الله وجلّ
العلم ، واعجب كيف يقول الله في آية أخرى - وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون - فأفاد أن عدم
العلم هو الذى يمنع الناس من أن يفهموا أن عالم الأرواح هو العالم الثابت وهو الموجود على الحقيقة وما سواه
من المادة باطل ، وهل يفهم هذا القول إلا أولوا العلم المذكورون في هذه السورة وهو ذلك - وقال الذين
أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير - وأفاد أن ذلك يعوزه الصبر . انتهى صباح يوم السبت قبيل ظهر (٢١)
يوليوسنة ١٩٢٩ م

﴿ اللطيفة الثالثة . الموازنة بين فهم الصحابة رضى الله عنهم وبين فهمنا فى القرآن ﴾

كيف كان سلفنا الصالح يفهمون القرآن ، وكيف كان فهمهم سببا فى انهم ملكوا ملك فارس والروم ،
وكيف كان فهمنا للقرآن بعد ذهاب الدول الاسلامية والقوة العربية غير محمد ولا مفيد فغلبتنا الأمم وصرنا لهم
خاضعين . ذلك نفهمه من حكاية الربيع بن زياد مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال الربيع بن زياد
الحارثى كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره
بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعا (أى أن يتخذ كل واحد منهم له خليفة يقوم بالحكم فى غيابه)

قال فلما قدمنا أتيت (يرفأ) فقلت (يا يرفأ) مسترشد وابن سبيل أي أهليّات أحبّ إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأومأ إلى بالخشونة فاتخذت خفين مطارقين أي مطبقين يقال طارقت نعليّ إذا أطبقتهما ويقال لكل ماضوعف قد طورق ولبست جبة صوف واثت عمامتي على رأسي أي أدت بعضها على بعض على غير استواء ويقال رجل ألوث إذا كان أهوج مأخوذ من اللوثة ، فدخلنا على عمر فصفنا بين يديه فصعد فينا وصوب فلم تأخذ عينه أحدا غيري فدعاني فقال من أنت قلت الربيع بن زياد الحارثي قال وماتتولى من أعمالنا قلت البحرين قال كم ترتزق قلت ألفا قال كثير ففأصنع به ؟ قلت أتقوت منه شيئا وأعود به على أقارب لي فما فضل منهم فعلى فقراء المسلمين قال فلا بأس أرجع إلى موضعك فرجعت إلى موضعي من الصف فصعد بنا وصوب فلم تقع عينه إلا على فدعاني فقال كم سنك قلت خمس واربعون سنة قال الآن حين استحكمت ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بلين العيش وقد تجوّعت له فأثي بخبز وأكسار بعير (الكسر والجدل والوصل بكسر الأول في الثلاثة العظم ينفصل بما عليه من اللحم وجع الكسر أكسار) فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد فجعلت أنظر إليه يلحظني من بينهم ثم سبقت مني كلمة تمنيت أني سحنت في الأرض فقلت يا أمير المؤمنين ان الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا فزجرتني ثم قال كيف قلت ، فقلت أقول يا أمير المؤمنين ان تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل ارادتك إياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتي بالخبز لنا واللحم غريضا (أي طريا) فسكن من غربه (أي لانت حديثه) وقال أههنا غرت (أي ذهبت) قلت نعم فقال ياربيع إنا لو شئنا ملأنا هذه الرحاب من صلائق (الصلائق كل مطبوخ ومشوى بالنار) وسبائك (هو ما يسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو الحواري والرقاق تسمى سبائك) وصناب (هو صباغ يتخذ من الخردل والزبيب ولكني رأيت الله عز وجل نبي على قوم شهواتهم (أي عابهم ووبخهم) فقال - أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا - ثم أمر أبا موسى باقراي وأن يستبدل بأصحابي اه

﴿ الكشف الحديث ﴾

(في إيضاح قوله تعالى - كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون -)
اعلم أن هذه الآية أصل عظيم من أصول العلوم الطبيعية والذي جاء في نص هذه الآية هو آخر رأى وصل له العلماء ، انظر إلى علوم اليونان فلقد ابتدأت حياتي العلمية الفلسفية بقراءتها ولم أكن أعلم بالحديث فرأيت القوم يقولون ان السموات والكواكب كل هذه أزلية أبدية ولا يمكن خرقها ولا التثامها فهي قديمة كما أن الله قديم وباقية كما ان الله باق ولا يمكن أن تجزأ ولا تنفصل . أقول ومعلوم أن هذا المذهب يخالف ديننا على خط مستقيم ، ثم إن المتأخرين من العلماء أجمعوا أن هذه الكواكب مركبات من عناصر وانها كانت بخارا قديما وفي المستقبل ترجع بخارا الخ ولا جرم أن هذا يوافق ديننا أي ان علماء أوروبا قرروا ما يوافق ديننا موافقة تامة وان كانوا لا يعلمون ولكن بقيت العناصر وهي فوق الثمانين ، فهذه لا تنحل مطلقا ، فإذن هي دائمة وتقوم في دوامها مقام السموات في بقائها عند القدماء فرجع الأمر إلى مثل ما كان عليه القدماء . هنالك ظهر علماء زماننا فقالوا . كلا . بل كل هذا الوجود ونفس هذه المادة تنعدم كما تنعدم مركباتها ، وآخر رأى هو أن العناصر محكوم عليها بالفناء كالمركبات منها

﴿ إيضاح هذا المقام . النظرية القديمة ﴾

قد أبنت لك أن بعض علماء اليونان ومن تبعهم من علماء الاسكندرية أيام دولة الرومان بمصر قد قالوا ﴿ إن السموات لا تنحل ﴾ وأزيد عليه أيضا انهم قالوا ﴿ إن المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن مركبات من عناصر أربعة وهي الماء والتراب والنار والهواء ، فإذا حكمنا بأن السموات وكواكبها لا تنحل ولا تتجزأ ولا تنفنى فإنا نحكم أيضا على الماء والنار والتراب بأنها لا تنحل ولا تتجزأ ، فالشمس لا تنفنى والقمر لا

لا يفنى والكواكب لا تفنى ﴿ واستمر الأمر على ذلك مئات السنين

﴿ نقض هذه النظرية ﴾

هنالك جاء متأخرو علماء الاسلام كما تراه في ﴿ كتاب المواقف ﴾ للعلامة العنبري وهكذا السيد وغيرهما فزلزلوا بعض القواعد كقولهم ﴿ إن الأرض تدور حول الشمس وليست الشمس دائرة حول الأرض ﴾ ثم جاء (كوبرنيكوس) و(غاليلي) من علماء أوروبا وأوضحوا هذا ودونوه وهذا وإن لم يكن نقضا لهذه النظرية هو فتح باب للنظر فيها والتفكير والهدم . هنالك نظر المتأخرون من الفرنجة مثل العلامة (لافوازييه) فانه وضع هذه النظرية وهي

﴿ المادة لا تنعدم ولا تتجدد ﴾

ومعنى هذا انك لو أثبت بمادة خشبية وأحرقتها فان الأجزاء تتفرق فبعضها يطير في الهواء وبعضها يبقى خفا في الأرض وهكذا . نحن نأكل الخبز فالحب لم يذهب منه شيء فانك لو وزنته فوجدته رطلا فهذا الرطل يقسم أقساما فقسم يصير دما بعد تمام هضمه وقسم يخرج مع العرق والبول وقسم يخرج مع الفضلات ، فدمنا موجود يصير لحما وعظما ومخا الخ والفضلات والعرق لا تزال في هوائنا وفي أرضنا وفي حقولنا فترجع في أجسام نباتنا وحيواننا أو في تراب أرضنا . هذا هو الوجود كله عند (لافوازييه) وهناك حللوا هذه المادة فوجدوا أن العناصر الأربع مركبات من عناصر أطف منها ، فالماء من الأكسوجين والهيدروجين والهواء من الأكسوجين والاوزون ومعه بخار الماء والفحم وهو الكربون ومواد أخرى ، وقد عرفوا من العناصر فوق الثمانين ولها جداول عجيبة تبين المناسبات بينها كما ستراه في (سورة العنكبوت) فهذه العناصر وإن أبطلت النظرية القديمة لم تحل بها المشكلة ، فاذا قلنا ان الكواكب مركبة من عناصر كما يتركب حيواننا ونباتنا وماؤنا وأرضنا وأن هذه الكواكب وهذه الأرض ستتحلل وتذهب مركباتها وتتفرق وأن ذلك معروف من أضواء تلك الكواكب فانهم حللوا بالمنظار فوجدوا في كل كوكب أضواء مختلفة كالنحاس والحديد والرصاص الخ أي انهم وجدوا هذه الكواكب مركبات من عناصر هي نفس العناصر الأرضية والشمسية لأن أشعة تلك الأضواء تشبه أشعة المعادن المختلفة المذكورة وبحثوا بحثا طويلا في معاملهم . أقول إن هذا أيضا لم يحل المشكلة لأن هذه العناصر التي تتحلل اليها الكواكب لا تفنى كما هو رأي (لافوازييه)

﴿ الرأي الحديث الموافق لقوله تعالى - كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون - ﴾

(رأى العلامة جوستاف لوبون)

اطلع العلماء اليوم على مادة اسمها (الراديوم) فهذا الراديوم له ضوء غريب عجيب جدا . ذلك أن أشعته لها مزايا لا توجد في غيرها بها تتحلل أجزاء العنصر أي ينقص وزنه فهذا أدهش العلماء كيف يكون هذا الشعاع سببا في نقص الوزن فأخذوا يعللون ذلك بعلم لم تصب كبد الحقيقة وذهبت أدراج الرياح ، ولكن (جوستاف لوبون) قال ما يأتي ﴿ إن جميع العناصر تقبل هذا الانحلال ولكن الراديوم أقواها وأسرعها انحلالا مع علمنا أن جزءا واحدا من ألف جزء من الجرام في الراديوم الذي هو أسرع المواد انحلالا يبقى دهرا وهو يشع الملايين وملايين الملايين من تلك الذرات حتى يصبح معدوما تماما أي ان الراديوم المذكور يصير قوة لا مادة ومثله العنبر وإن كان أبطأ انحلالا عن الراديوم وهكذا سائر العناصر قابلة لهذا الانحلال لكنها أبطأ وأبطأ ثم قال وهذا الانحلال البطيء يكون بخروج أجزاء ضوئية سرعتها في الثانية الواحدة (٢٠٠.٠٠٠) مائتا ألف كيلومتر . وقرر العلماء الذين وافقوا (لوبون) انهم لو استطاعوا أن يحلوا جراما واحدا من الحديد في ثانية واحدة أي لو قدروا أن يعدموه كما يعدم الراديوم ويحوّله الى قوة لا وزن له لأفادونا قوة من هذا التحول تعادل قوة تجرّ قطارا حديديا حول الكرة الأرضية أربع مرات فان القوة التي يتحوّل اليها ذلك الجرام تساوي

قوة (٦٨٠٠) ألف ألف حصان ﴿ ومعنى هذا أن المادة التي نراها والعناصر التي تتركب منها كل نبات وحيوان وإنسان تنعدم كلها ، وما هذه العناصر إلا قوى مخزونة متراكمة مجتمعة سميها مادة وما هي إلا حالة من حالات عالم يسمى الأثير ، فالأثير الذي لا وزن له ولا لون ولا يرى ولا يعرف إلا بالعقل والاستنتاج هو الوجود كله ، فإذا رأينا كهرباء أو ضوءاً أو نوراً أو حرارة رمغنطيساً قلنا هذه كلها قوى يتحوّل بعضها إلى بعض وهي في المعنى شيء واحد هو الأثير المالمى للفضاء في جميع هذا الفراغ فإليه يرجع كل شيء بل هو كل شيء ، وما هذه العناصر الأرضية والسموية بالنسبة للأثير إلا كلماء قد صار ثلجاً أو بخاراً صامداً ، فاذن أنا وأنت وأرضنا وسماؤنا وعناصرنا كلها عبارة عن قوى أشبه بقوى الكهرباء والنور تجمدت وتكاثفت وهانحن أولاء نراها تنحل في الراديوم مثلاً . إذن هذا الوجود الذي نعيش فيه والذي نسميه مادة متنوعة إلى عناصر وإلى كواكب وشموس ماهو إلا قوى متجمدة متكاثفة كتكاثف البخار فيعود ماء فالبخار إذا صار ماءً أمكن رجوعه إلى بخار ثانياً هكذا المادة . فاذن لا مادة ، واذن فهمنا قوله تعالى - كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون -

﴿ حظ هذا التفسير ﴾

أفلا ترى أن هذا التفسير حظه عظيم ، انظر إلى التوفيق ، انظر كيف أمكن انطباق الآية في آخر السورة على آخر كشف حديث وكيف كانت هذه الآية توافق نفس العلم الذي به ارتقت أوروبا وقهرت المسلمين به ، اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة ، بل انظر فوق ذلك إلى ما استراه في (سورة العنكبوت) أنا الساعة أكتب هذا صبح يوم الأربعاء وهو ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٣٦ وذلك أثناء طبع هذا التفسير بعد أن تمّ تأليفه وقد كنت كتبت في (سورة العنكبوت) في العام الماضي ما يناسب هذا المقام ولم أكن لأعلم ولم يخطر لي أن آخر الشعراء هو عيسى أول العنكبوت ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لم يكن ليخطر لي أن قوله تعالى - كل شيء هالك إلا وجهه - هو عيسى مادونته في (سورة العنكبوت) من أن - الم - في أول السورة هي عبارة عن حروف مفرقة وهذه الحروف المفرقة تفتح باب العناصر وأن المركبات السماوية والأرضية ترجع إلى عناصرها كما ترجع الكلمات والخطب والقصائد إلى الحروف الأبجدية وأن الأمم الإسلامية يجب عليها أن تنظر في التحليل والتركيب لأن العالم الذي نعيش فيه لا نعقله إلا بتحليله كما أن القراءة لا تتم إلا بمعرفة حروف الهجاء التي تتركب منها الكلمات وهناك في السورة جدول للعناصر والصلة بينها . إذن سورة العنكبوت أصبحت موضحة لسورة الشعراء من بعض الوجوه واتصل آخر الثانية بأول الأولى

﴿ ظهور هذه الوحدة في النبات والحيوان ﴾

(الذرة والخروع)

إن الذرة كما تقدم في (سورة الفاتحة) يكون فيها أعضاء الذكور في أعلى عودها والأنثى في وسط العود والخروع يكون ذكره أسفل والأنثى أعلى ولكنها عند الالتحاق تنزل الأنثى فتكون أسفل من الذكر فيقع اللقح عليها ثم تكون الثمرة فيهما ثم يعدم الذكران والاناث ، وهذه الحال حاصلة في كل نبات ، والنخل وإن امتاز ذكره عن أنثاه هكذا حالة الذكر والأنثى متعاونان ثم يذهبان ، وكل حيوان وكل إنسان أشبه بعود الذرة وعود الخروع فانك ترى شجرة الخروع وتقول هي واحدة وترى النباتات من الذرة فتقول هي واحدة ومع ذلك ترى في هذه الوحدة ذكرًا وترى أنثى فهما ممتازان ، فهنا وحدة تنوعت ، هكذا النخل وحدة تنوعت وهكذا الإنسان والحيوان ، فالرجل والمرأة فيهما معنى الوحدة التي رأيناها في الذرة والخروع وهذه الوحدة تذكرنا بالوحدة القائمة في الوجود فهو كله يرجع للأثير والأثير شيء لا وزن له ، فالظاهر كلها ذاهبة ، هذا كله معنى قوله تعالى - كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون - والمجد لله رب العالمين

﴿ ايضاح لهذا المقام بأوسع مما تقدم وذلك تذكيرة في قوله تعالى - كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون - وقوله تعالى في سورة أخرى - كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام - ﴾
 إن هاتين الآيتين من واد واحد ، فقوله - هالك - وقوله - فان - كلاهما اسم فاعل وهو حقيقة في الحال ، وكثيرا ما كنت أسمع بعض أساتذتي يقولون ذلك وأن الموجود على الحقيقة هو الله ولا موجود سواه الآن ، ولما كانت العقول اليوم في الأمم لا تعرف إلا الحقائق أخذت أبحث في هذا الموضوع فوجدته يرجع الى ﴿ مسألتين اثنتين ﴾ المسألة الأولى ﴿ هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ﴾ المسألة الثانية ﴿ هل هذه العوالم صائرة الى الزوال ؟

أما المسألة الأولى وهي هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ، فاعلم أيها الذكي أن نفس المادة من سموات وأرضين وما بينهما قد صعب على العلماء اثباته وحاروا في تحقيقه ، وبيانه أن القدماء من علماء الفلسفة قالوا إن هذه المادة مفرقة على حواسنا ، فهذه الأضواء والحركات والسكنات والألوان والقرب والبعد اختص بها البصر ، وهذه المسموعات من صوت الانسان والحيوان والجمادات اختصت بها حاسة الشم ، وهذا الثقل وهذه الخفة وهذه الحرارة وهذه البرودة اختصت بها حاسة اللمس ، وهذه الحلاوة وهذه الملوحة والمرارة وما أشبهها اختصت بها حاسة الذوق

اننا لما فكرنا في هذا الوجود لم نعرف منه إلا هذه الصفات وهذه الصفات شئ والمادة شئ آخر ، أما المادة فأننا لم نعرف لها برهانا ولا برهان على وجودها إلا هذه الأوصاف فهذه المحسوسات ماهي إلا أعراض وأخيرا حكموا بأن المادة وجودها ضعيف

هذا ما يقوله قدماء الفلاسفة وهذه المحسوسات هي التي عرفوها في (علم المقولات) وهي كلمات عشر تشمل جميع هذا الوجود والذي ذكرته لك منها هنا ملخص كلمة منها وهي (الكيف) والكيف عندهم يرجع الى كيف محسوس والى كيف معقول والذي ذكرته هو الكيفيات المحسوسة التي استنتجوا منها ضعف أدلة وجود المادة . هذا آخر آراء القدماء في المسألة الأولى وهي هل المادة موجودة وجودا حقيقيا

﴿ آراء المحدثين ﴾

أما آراء علماء العصر الحاضر فانهم وافقوا القدماء ولكن على منهج غير منهجهم قالوا إن الذي نعرفه من هذه العوالم أماننا انما هو الأثير والأثير شئ تصوّرناه ولم نره وهذا الأثير فيه حركات كثيرة وتلك الحركات تتنوع فمنها حركات تصير كهرباء . ومنها حركات تصير نورا ، ومنها حركات تصير حرارة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذه المذكورات من النور والحرارة والكهرباء ماهي إلا حركات ظهرت بمظاهر مختلفة أي انها شئ واحد اختلفت مظاهره بحسب استعداد قوانا نحن الأحياء على الأرض . فأما ما نراه من جماد ونبات وحيوان وانسان وجبل وحجر فما هو إلا نفس هذه الحركات حصل لها ما حصل للحركات التي صارت نورا وكهرباء وحرارة غاية الأمر أن الحركات التي صارت نورا قليلة بالنسبة للحركات التي صارت قححا أو قطننا أو ذهباً أو فضة فان الحركات التي سمينها نورا تعد بملايين الملايين فقط فيقال إن حركات النور في الثانية الواحدة من حوالى (٤٠٠) مليون مليون الى حوالى (٧٠٠) مليون مليون . فأما الحركات التي تكون حجرا أو شجرا أو ماء فانها تعد بأكثر من هذا فيقال مثلا انها ستة آلاف مليون مليون فبدل أن كنا نقول إن الحركات في النور تعد بمئات الملايين صرنا نقول إن الحركات التي صارت مادة تعد بألاف الملايين . إذن الموجودات كلها ترجع الى حركات وكلما كانت الحركات أقل كان الموجود أطف وكلما كانت الحركات أكثر كان الموجود أكثف . واعلم ان هذا يخالف ما هو معروف في بادئ الرأي . ألا ترى رعاك الله أن النور سريع الحركات وأن الحجر والشجر معدومة الحركات . فانظر كيف انقلب الوضع وأصبح ما كان يظهر لنا انه كثير الحركات قليل الحركات

وما كان قليل الحركات قد كثرت حركاته

فياعجبنا من وجودنا في هذه الأرض ، الأوضاع مقلوبة والأحوال معكوسة والعلم يظهر لنا الحقائق على غير ما نعهد . سبحانه اللهم حكمت علينا أن نعيش في عالم مقلوب الوضع معكوس الحال ، نرى الشمس جارية حول الأرض فيقول العلم . كلا . الأرض جارية حول الشمس . ونرى أن المال والولد والدنيا كل ذلك سعادة فيقول لنا العلم والدين . كلا . فالسعادة غير هذا . ونرى بحسب نظرنا أن الإنسان متى مات فلا وجود له ويقول العلم والدين . كلا . بل هو حي . إن هذه الحياة مقلوبة الوضع معكوسة الحال ترىنا الكبير صغيرا والصغير كبيرا والعظيم حقيرا والحقير عظيما

فهاك برهاننا على ما نحن بصدد من أن المادة كلها ترجع لحركات أذكرك بما تقدم في (سورة النور) عند قوله تعالى - الله نور السموات والأرض - فأذكرك بقطرة الماء المذكورة هناك وانها رجعت الى جزئيات ضعيفة وتلك الجزئيات يبلغ عددها نحو عدد نجوم السماء ثم هي مع هذا كله لا تملأ فراغ هذه القطرة بل تملأ جزءا من مئات الآلاف من الفراغ المذكور ثم هذه الجزئيات مع صغر مقدارها بالنسبة للفراغ الذي تشغله القطرة ظهر انما ترجع الى كهرباء سالبة والى كهرباء موجبة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ نقطة ضوء تجرى حول نقطة أخرى ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة وباختلاف مقادير هذه السرعة في الجرى اختلفت المادة بحسب ما نراه فقلنا هذا اكسوجين وهذا ادروجين وهذا ذهب وهذا فضة الخ والحقيقة أن هذا كله أمر واحد هو نور أو كهرباء لا غير وباختلاف الحركات ظهرت المواد المختلفة . أما أنا فاني أجد الله عز وجل . أجدك يا الله على انك وفقتني لتلخيص هذا الموضوع وشرحت صدرى لتبينه فيعرف الأذكى في أهم الاسلام وغيرهم أن العلم الذي وصل الى عقول أمم الأرض الآن أظهر أن الموجود انما هو حركات والحركات ضوء أو كهرباء أو حرارة أو ذهب أو قرح أو حديد لا أقل ولا أكثر . فالحقيقة شيء والظواهر شيء آخر

واعلم ايها الذكي أن كثيرا من الناس حينما يقرؤون هذا يهجم في نفوسهم خواطر تعجبهم فيقولون ﴿ اذا كان الموجود ما هو إلا حركات اختلفت مظاهرها فكيف يكون عندنا جنة ونار وحساب وعقاب ودنيا وآخرة إذن هذا كله لا وجود له ﴾ وهذا قول من لا تحصيل عنده . فاننا اذا عرفنا حقيقة هذه الدنيا على حسب ما وصلت اليه عقولنا فليس معناه أن هذه الموجودات والمظاهر لا عمل لها . كلا . فان فائدة هذه المباحث في مثل هذا المقام أن تظهر لنا الحقائق فأما تعطيل قوانا وملاكاتنا وأعمالنا فهذا ضرب من الجهل . إن هذه الحقائق تثير عقولنا وتفهمنا أن هذه العقول أمرها عظيم وانها قادرة أن تحيط علما بالمادة علويها وسفليها ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ انما أكبر من الشمس والأقمار والكواكب الثابتة والسيارة لأنها تحكم عليها وتتصورها وتتحيلها وترجعها كلها الى أمر واحد . إذن هذه العقول نور أكبر من النور الذي خلقت منه المادة بدليل أن هذه العقول حكمت على جميع العوالم فقالت انها نور والنور يرجع الى حركات والحكم أفضل من المحكوم عليه ، فنفس هذا المبحث يرىنا عظمة نفوسنا وشرفها وانها تكبر وتعظم أن تخضع لهذه المظاهر بل مقامها الأسنى أن تعيش في ملا أعلى ومقام أشرف - في مقعد صدق عند مليك مقتدر -

﴿ آراء أفلاطون ﴾

ولاجرم أن هذه الآراء قد عرفت اجالا أفلاطون إذ يقول ﴿ إن هذه المادة لا ثبات لها ومالاتبات له فلا ثقة به ومالاتقة به لا يصح مناطا للعلم بل العلم مبني على أمور ثابتة ﴾ وما هي هذه الأمور الثابتة ؟ هي التي سماها هو « المثل الأفلاطونية » التي أوضحها في غير هذا المكان ، وما هذه المثل الأفلاطونية إلا العوالم العقلية التي تعلو عن المادة ، ولم ورد عليه من اعتراض ، ولم أجيب عنه ، وسترى هذا المبحث في (سورة القتال) إن شاء الله تعالى في رسالة ﴿ مرآة الفلسفة ﴾ التي ظهر فيها هذا الوجود أوضح مما قاله أفلاطون ولا يرد علينا

ماورد عليه من الاعتراض ذلك لظهور الحقائق في زماننا والله واسع عليم
 سبحانه اللهم وبحمدك ، علمت الأولين وعلمت الآخرين وجعلت العلم كله يرجع الى أمر واحد وأهملت
 (أفلاطون) قبل الميلاد ما علمته لعلماء العصر الحاضر ، إنك رحيم بعبادك معلم الأولين والآخرين ، ومن عجب
 أن علماء الهند قديما يقولون كما رأيته في كتاب ﴿ راجا يوقا ﴾ المترجم الى الانجليزية من الهندية ﴿ إن المادة
 أصلها عقل بدليل انها ترجع اليه ﴾ ألا ترى أن الغذاء فينا يرجع الى قوة فكرية ، فمن المادة العضلات
 والأعضاء ومنها نفس العقل إذن رجعت الى أصلها وهذا رأى عجيب وهذا رأى يقول به (استوارت سميث)
 فانه يقول ﴿ ان المادة ماهي إلا عقل تكاثف ﴾ وهذه العبارة منقولة عنه في نفس ذلك الكتاب . انتهى
 الكلام على المسألة الأولى وملخصها

(١) ان القدماء يقولون ﴿ إن الكيفيات المحسوسة البالغة ٣٦ كيفية مفرقة على حواسنا وحواسنا لم
 تدرك المادة وانما أدركت هذه الكيفيات لاغير ﴾ إذن وجود المادة ضعيف

(٢) علماء العصر الحاضر يقولون ﴿ إن العوالم كلها ترجع الى حركات فلا فرق بين الضوء وبين الحجر كلاهما
 حركات والحركات أضواء والأضواء باختلاف حركاتها تصبح محسوسة لنا فان كثرت الحركات كانت مواد صلبة
 وان قلت كانت سائلة وان زادت قلتها كانت ضوياً أو كهرباء الخ

(٣) أفلاطون من علماء اليونان يقول ﴿ إن المادة لا تثبات لها ولا تثبات له لا يصح أن يكون مناط العلم
 بل لا يصح أن يسمى موجودا فالموجود الحقيقي هو العالم العقلي المسمى المثل الأفلاطونية ﴾

(٤) يقول القدماء من علماء الهند ﴿ إن المادة أصلها فكر بدليل انها تعود الى فكر ﴾ ويقرب منها
 رأى (ستوارت سميث) ومن قرأ آراء (اينشتين الألماني) لا يجد لها تعدو ما كتبناه هنا فهو يقول هذا القول
 بعينه غاية الأمر انه أوضحها وأطال فيها وأعلن عنها . فهذا العالم الألماني أعلن أيام الحرب الكبرى هذه
 المسألة وقال ﴿ إن هذا الكون ساكن لا وجود لشيء فيه وماهي إلا حركات ظهرت لحواسنا مختلفة المظاهر ﴾
 وهذا رأى قد تقدم في هذا التفسير فارجع اليه إن شئت

وهذا هو نهاية الكلام على المسألة الأولى وهي هل المادة موجودة وجودا حقيقيا تفصيلا واجالا وأجد
 الله على التوفيق ونعمة العلم ونعمة الايضاح والحمد لله رب العالمين

﴿ المسألة الثانية هل هذه العوالم صائرة الى الزوال ﴾

اعلم أيها الذكي أن المسألة الأولى رجع الأمر فيها الى تحقيق هذا الوجود وانه راجع للحركات لاغير ولكن
 هذه الحركات مظاهر وهذه المظاهر لها قيمتها العظيمة فحياتنا كلها وأعمالنا ودنيانا وآخرتنا ترجع أ كثرها
 الى هذه المظاهر فليس معرفة أصل الوجود بمن فتيلا عن نفس هذه الموجودات فائق عليه حواسنا له مقام
 عظيم في العلم فلا ينبغي لنا أن نفعل ما يفعله كثير من جهلة الصوفية الذين يقولون ﴿ اذا لم يكن في الوجود إلا
 الله فالعلم يكون جهلا والبحث جنونا ﴾ وهذا يرجع بالانسانية الى الكسل والجهل والعجز ويقول ﷺ
 « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل الخ » إذن لهذه المادة التي هي مظهر
 من مظاهر الحركات والأنوار مقام عظيم وعليها مدار المباحث وهي السبيل الموصل الى ما وراءها وحينئذ نقول
 هل هذه المادة التي ظهرت أمام حواسنا يوما ما ستفنى بحسب ما يظهر لحواسنا ، وهنا ظهر في الدنيا ﴿ رأيان
 اثنان ﴾ الرأي الأول ﴿ وهو القديم ﴾ لاشئ يزيد على المادة ولاشئ ينقص منها « وهذا رأى (لافوازيه)
 وهو يعتبر اليوم الرأي القديم . ومعنى هذا أنك اذا أحرقت خشبة أمامك ثم جمعت ما بقي من رمادها ومطار
 في الجوّ من دخانها وبخارها كان مساويا في وزنه لوزن الخشبة . وعليه يكون الماء والهواء ونحوهما لا تفنى
 فالماء يدخل النبات ويخزن فيه ثم يتحلل هذا النبات والماء الذي كان فيه لا بد أن يرجع بخارا كرة أخرى

ولا يفتنى وهكذا الهواء ونحوه . إذن المادة تتحلل وتتركب وكأنما هي حروف الطبع توضع في الصندوق وترتب وتنظم ويطلع بها الكتاب ثم تفرق كرة أخرى وهكذا فالحروف واحدة معلومة محدودة في المطبعة والكتب المطبوعة بها تعد بالمئات والآلاف هكذا هذه العوالم بحسب النظر الظاهر والمشاهدة في هذه الحياة

﴿ رأى الحديث « لاشئ يزيد على المادة ولكن كل شئ صائر الى الزوال » ﴾

لعلك حين تسمع هذا القول تقول ان المسألة الأولى والمسألة الثانية اللتين ذكرتهما مرجعهما واحد فان المسألة الأولى رجع الأمر فيها الى أن العوالم كلها ترجع الى الحركات والحركات الى الأثير ، وهذا رأى القائل ان المادة صائرة الى الزوال معناه يرجع لهذا ، فرجع الأمر الى أن هذه المادة تتحات وتتجزأ وتصير في آخر أمرها الى القوة والقوة ترجع الى الأثير فقلت . كلا . ليست المسألتان واحدة وايضا به ضرب المثل أن أقول انظر حباك الله العلم وألهمك التوفيق وشرح صدرك للحكمة وأنا لك الكمال الى رجل أصيب بمرض عصبي وهذا المرض جعله يرى أشباحا من عجة وأشخاصا يظهرون له فيؤذونه ويسمعونه ما يكرهه ولا يزالون يوالون الظهور له وهو يستغيث ولا مغيث ويسأل ولا يجيب وهو في الحقيقة مظهر له إلا ما خيلته له نفسه من الصور الخيفة التي ظهرت له كأنها حقيقة فلا تزال تلك الصور تظهر له وقتا فوقتاً حتى يوارى في ثرى رموه بسبب ظهور تلك الأشباح المزجة والتاريخ القديم والحديث قص علينا قصص هؤلاء العصبيين الذين اوردتهم مرضهم موارد الخنف وأقلقتهم تلك الصور وأمضت مضاجعهم وهياتهم للموت ومفارقة الحياة ، لست في هذا التمثيل أتخيله تخيلاً بل هو حقيقة عرفها علماء الطب وعلماء الأخلاق ، هذا المريض بذلك المرض العصبي يرى تلك الأشباح ، لماذا ؟ لأنه مستعد لذلك فاستعداداً هياً له تلك الأشباح والمظاهر وهذه حقيقة عنده لا تقبل الشك ولذلك تمنع عنه النوم والأكل والشرب واللذات ثم يرد أحواض المنيا ليخلص من هذا العذاب المهيئ ، فبينما هو كذلك اذا الناس حوله يصفونه بأوصاف الجنون والتخبط والطبيب يقول إن أعصابه فيها مرض هياً له ظهور هذه الصور فهنا ﴿ رأيان ﴾ رأى الجمهور الذي سلمت قواه العقلية من الخطل فهو يقول لا صور ولا أشباح ، ورأى المريض الذي أصيب بهذا الخطل والخبل فهو يقول بوجود صور وأشباح والجمهور تكون نتيجة معارفه انه لا يفرع لأشباح ولا يخاف من عفاريت وهذا العصبي يتأثر فيموت

اذا عرفت هذا المثل فاعلم انه منطبق على المسألتين السابقتين . فمثل الناس في الأرض إلا كمثل هذا هذا العصبي المريض . ومماثل العوالم الروحية التي خلصت من المادة إلا كمثل العقلاء الذين في الأرض حول هذا العصبي . ومماثل الصور والأشباح التي تظهر له إلا كمثل هذه المادة الظاهرة لنا في الأرض الآن . فاذا قال العصبي هنا صور وأشباح وقد صدق فعلاً وما كذب وقال الناس حوله لا صور ولا أشباح وقد صدقوا وما كذبوا فهكذا نحن الآن في الأرض نقول هنا موت وحياة وساء وأرض وجاد وحيوان ونبات وقد صدقنا وهناك عوالم أخرى روحية لا ترى إلا أنواراً وحركات وقد صدقوا فنحن صادقون في اعتبار هذه العوالم موجودة وصادقون في قولنا باعتبار آخر انها غير موجودة . ومن الجهل أن نخلط أحد المقامين بالآخر ثم إن هذا المريض العصبي اذا بقى على حاله مريضاً وانفق أن الصور والأشباح لم تعد تظهر له فهذه حال أخرى نظيرها ما نقوله في المادة نحن فأننا نقول ان المادة آيلة للزوال ونحن على حالنا الحاضرة أي اننا بالعلم عرفنا أن هذه المادة ونحن في حالنا الحاضرة تأخذ في الزوال وترجع الى قوة والقوة ترجع الى عالم الأثير . إذن هنا فرق بين المسألة الأولى والمسألة الثانية ، المسألة الأولى فيها أن هذه العوالم لاحقيقة لها بل ترجع الى الأثير في التحقيق العلمي وهذا كالمثال الأول للمريض بالمرض العصبي ، والمسألة الثانية ترجع الى أن المادة ونحن على حالنا صائرة الى الزوال كما ان العصبي وهو مريض زالت الأشباح وماعدت تظهر له

هذا هو الفرق بين المسألتين ، فالمسألة الأولى فيها بطلان العوالم في التحقيق العلمي ، والمسألة الثانية تفيد

أن بطلان المادة يصير عملاً واقعاً تطبيقاً للعلم على العمل ، وعليه نقول - كل شيء هالك إلا وجهه - و - كل من عليها فان - أما في الحال الآن في التحقيق العلمي وأما في الظواهر وفي مقامنا الانساني في الأرض . بل نحن مأمورون ومسوقون الى العمل في العالم بجهد باعتبار انه موجود فعلاً وجوداً يناسب حالنا ، وأما في المسائل بأن يبطل هذا العالم الذي ظهر لنا ويزول من الوجود فعلاً كما انه زائل الآن في النظر العلمي ولا يجوز للناس أن يخطوا أحد المقامين بالآخر فلا يقول جهال المسلمين وبعض الذين يدعون التصوف ﴿ إذا لم يكن في الوجود إلا الله فلم النصب والعمل فلنتوكل ولنعم ﴾ وإذا قال بعض المتفلسفين صغار العقول من الذين قرؤا قصور العاوم وجهلوا الحقائق ﴿ ليس عندنا في الوجود إلا هذه المحسوسات فعلم النصب والتعب في تحصيل الحقائق ولا حقائق إلا ما نراه فلنعش للذات ﴾ فهؤلاء يقال لهم أنتم مساكين جهلتم علوم الأمم المحيطة بنا وأدركتم كسلهم الى هذه الفكرة فوقفتم في أول الطريق فأنتم مغرورون ، وهؤلاء يأكلون كما تأكل الأنعام والارمثوى لهم ولما اطلع صديق العالم على هذا المقال قال لقد أجبت صنعا ولكن هنا ﴿ سؤالان * الأول ﴾ انك جعلت النوع الانساني أشبه بالمرضى مرضاً عصبياً يرى الأشباح ولا حقيقة لها . إذن هذا الانسان الآن في حال نقص . فقلت إن الانسان في هذه الأرض روحه من عالم النور ووجوده في أرضنا يعدله عن مقامه السامي الشريف وهذا هو المرموز له بقصة آدم إذ عصى وأكل من الشجرة وهذا هو المرموز له بالذنب ، ألم تر الى قوله تعالى - واستغفر لذنوبك - ألم تر الى المسلم يقول في كل صلاة في الجلوس بين السجدين ﴿ رب اغفر لي وارحمني الخ ﴾ إن المسلم يطلب المغفرة دائماً أذنب أو لم يذنب ، ولا معنى لطلب المغفرة لغير ذنب . إذن هناك ذنب عام لنوع الانسان وهو تجسده في هذه المادة والذنب هنا ليس بالمعنى المتعارف بل بمعنى آخر كالنقص أو الاحتجاب عن مقام الكمال أو البعد عن عالم الأرواح والصفاء والنور ولهذا المعنى تفسر كثير من الآيات كقوله تعالى - إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - ولا ذنب لنا نبينا ﷺ متقدماً أو متأخراً من الذنوب المعروفة . كلا . وإنما الذنب هنا بمعنى الوجود في هذه المادة الجسمية التي هي أشبه بسجن يسجن فيه الناس ولكنهم بالعبادة والعلم والعمل يتخلصون من ذلك السجن ، فالذنب هنا يرجع الى معنى يقرب من هذا ، ولا جرم أن هذا المعنى ملازم لكل حي في الأرض . إذن نبينا ﷺ أشبه بمن دخل السجن لا ليسجن ولكن دخله ليخلص المسجونين ولكنه في أثناء بقائه في السجن قد حجز وأبعد عن مقره العالي الشريف فلأمانع أن يسمى هذا ذنباً مجازاً . وهذا هو السر في طلب الاستغفار . هذا هو السؤال الأول

فقال أما ﴿ السؤال الثاني ﴾ فاني أقول انك لم تبين لنا ايضاح المسألة الثانية وهي أن الكون صائر لازوال ومن الذي قال بهذا الرأي وما برهانه ؟ فقلت ان هذا الرأي رأى الدكتور (جوستاف لوبون) العالم الفيلسوف الفرنسي فان الناس يقولون ﴿ إن علم الطبيعة أساسه الجوهر الفرد ﴾ ولكنه هو يقول ﴿ إن المادة تنحل فعلاً ﴾ وجعل المادة أشبه بالنبات والحيوان والانسان ، فكل نبات وكل حيوان تنحل وترجع الى المواد الأصلية والعناصر المألومة ، فهكذا المادة تكون على الحال الأثيرية ثم تصير كواكب وأرضين ثم تنحل وترجع الى عالم الأثير فهي كحيوان أو كنبات ، وقد قرط علماء أوروبا كتابه الذي شرح فيه هذه الآراء وسماه « نشوء المادة » أحسن تقریظ ثم قالوا انه أعظم كتاب علمي ظهر بعد كتاب « أصل الأنواع » لدارون وملخص كلامه أن الرأي القديم القائل ان الكون مركب من مادة قابلة للوزن ومن قوة تحرك المادة ولا تقبل الوزن أيضاً وتكون كهرباء وحرارة ونورا الخ ومن أمر لطيف يسمى أثيراً غير قابل للوزن أيضاً تسبح فيه الجواهر الفردة وهذه العوالم الثلاثة كل منها مستقل عن الآخر فهو يقول إن هذا الرأي القديم خطأ وان هذه العوالم الثلاثة لا فواصل بينها . فالمادة تتحوّل الى قوة والقوة تتحوّل الى أثير . يقول (جوستاف لوبون) لا ثبات

هذه المسألة ﴿ إن الراديوم وما أشبهه يذهب هباء منثورا ويذوب من الوجود بارسال ذرات صغيرة منه ذات سرعة عظيمة ﴾ ويقول إن جزءا من ألف من جرام (الراديوم) الذي هو أسرع المواد انحلالا يبقى دهرا وهو يشع ملايين الملايين من تلك الذرات الى أن تتحوّل مادّته الى قوّة أخيرا فعلا . إن جميع المادة لا فرق بينها وبين الراديوم غاية الأمر أن الراديوم أسرع انحلالا وانحلال الراديوم يكون بارسال ذرات صغيرة منه بسرعة تقرب من سرعة النور أى (٣٠٠.٠٠٠) كيلومتر في الثانية وقد قاسوا تلك القوى التي تضع في أثناء انحلال المادة فوجدوها أشدّ القوى في هذا العالم وقد قالوا انهم لو قدروا أن يحولوا جراما من الحديد بحيث يهدم في ثانية واحدة لتحوّل هذا الجرام الى قوّة تعادل قوّة (٦) آلاف مليون و (٨٠٠) مليون حصان وهذا المقدار كاف أن يجرّ قطارا حديديا حول الأرض (٤) مرّات ومن هذه القوّة الكامنة في المادة النور والكهرباء والحرارة والجاذبية ، فهذه تتحوّل بعضها الى بعض لأن أصلها واحد وما الكهربية إلا نتيجة انحلال المادة وهكذا ضوء الشمس فهو ناتج من انحلال مستمر في عناصر وهكذا

فهذا هو الرأى الجديد لجوستاف لوبون القائل إن العالم المادى مصيره الزوال ككل حيوان وكل انسان وهذا هو تفسير الآية . يقول الله تعالى - كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون - إذن أصبح الرأى الجديد هو المفسر لهذه الآية ، فكل شئ هالك إلا وجهه فلا فرق بين النحلة والنملة وبين نفس المادة العامة فكل منها له عمر محدود ثم ينعدم ، فاذا رجع الحيوان والنبات الى المادّة الأرضية والهوائية رجعت المادة جميعها الى عالم الأثير وعالم الأثير عالم إلهى لا ندري سرّه - وأن الى ربك المنتهى -

وما عالم الأثير إلا كعالم الخيال الذى نحسه فى نفوسنا فإن الانسان متى أغمض عينيه وهو مستيقظ أخذ يحول فى عوالم لانهاية لها يشاهدها بحاسة باطنية ثم ان العصور التي تبرزها فى الخارج لا تصنعها إلا بعد أن تتصورها فى خيالنا كما أن المادة الخارجية لا تظهر إلا من الأثير فإلى عالم الأثير عالم مجهول لا يقربه لنا إلا هذا الخيال الذى نتخيله ولا نراه

فلتظروا الإسلام بعدنا وليتأملوا هل أمكننا تفسير هذه الآية إلا بقراءة علوم الأمم حولنا ؟ ألسنا بهذا نعرف قوله تعالى - ويقول الذين كفروا لست برسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب - فالعلماء فى الأمم بعدنا هم الذين يفهمون أسرار النبوة ويعقلون معنى - كل شئ هالك إلا وجهه - ومعنى - وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير - الخ

وهذا وأمثاله هو السبب فى أن القرآن يذكر فى الامور العظيمة العلم وأولى العلم ويقول الله - شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط - إذن دين الاسلام فى المستقبل لا يحمله إلا أمم ارتقت بالعلم ودرست مناهل كل فن ، فويل بعدنا للمسلمين الجاهلين ، وويل ثم ويل لمن قرأ هذا التفسير ولم يكن نبراسا ونورا مشرقا للمسلمين فأعرض وتولى عنهم مع قدرته ولم يكن مصلحا لعقول المؤمنين . انتهى ما أردته فى تفسير هذه الآية عند الطبع يوم الاثنين أول يوليو سنة ١٩٢٩ م

﴿ جوهرة نان ﴾

(الأولى) فى بعض سر - طسم -

(الثانية) فى الصلة بين السورتين

﴿ الجوهرة الأولى فى سر - طسم - أى الطاء والسين والميم فى أول سورة القصص ﴾

فى ليلة الخميس ١٨ يوليو سنة ١٩٢٩ خطر لى وأنا ذاهب الى المنزل هذه المعانى فى سر - طسم - فى أول هذه السورة . لقد جاء فى أول السور المتقدمة أن هذه الحروف قد خصت لتذكر المسلمين اليوم بأهم ما ينقصهم من الكمال فى هذه الحياة وغيرها وهذه السورة طبعا بدئت بما يشير لذلك فيها . إن هذه السورة مبدوءة

بقصص فرعون محتومة بقصص قارون ، ولا جرم أن فرعون يستضعف طائفة من الناس واستعجيا نساءهم لأنه مفسد . ثم إن هذه الطائفة من الله عليها وفارت ، إذن أهمل ما في هذه السورة أن الطوائف الضعيفة المستعبدة يوما ما تنصر على أعدائها . وتلك الأيام نداؤها بين الناس . ومثل ذلك أمر قارون فإنه أعطى المال ففرح وأفسد ثم ذهب هو وماله وكان الذين أوتوا العلم أرشد من أوتي المال . هذا ملخص ما في السورة طوائف ذليلة ، سياسة ، أو مالا يكون ما لهم الفوز ، فالسياسة في أول السورة في قصص فرعون وموسى والمال في آخرها في قصص قارون ، فلما كانت هذه المعاني هي أهم ما يقصد في زماننا لرقى المسلمين كان ما فتح الله به في هذه الليلة مناسبة لذلك ، ألم تره أشار بالطاء لطائفة وبالسين لأنها واستعبادها وهذه السين مذكورة في - يستضعف - و - يستحي - وفي - المفسدين - فالسين في الكلمتين الأوليين مذكورة مع الازلال وفي الآخرة لتوجيه الفكر إلى صفة الظالمين وهو الفساد ، ولما كانت هذه الطوائف الضعيفة لا بد من نصرها كثير ذكر الميم في هذه المعاني إذ قال - ونريد أن نتق على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم - الخ فالميم في - طسم - تشير إلى جعلهم أئمة لأن الميم جاءت في الكلمتين وفي جعلهم الوارثين وفي نمكنهم في الأرض . إذن - طسم - في هذه السورة فيها ملخص السورة ، ولعل قائل يقول هذه الحروف لم تأت في أول الكلمات غالبا بخلاف كثير من السور السابقة فأقول إن من فهم أسرار حروف أوائل السور فيما تقدم يسهل عليه استخراج خوى هذه السورة من الحروف في أولها ، إذن من عرف ما تقدم يعرف الحكمة الإلهية واذن يفقه ما ذكرناه هنا سرها ، لذلك جعل الله هذه الحروف هنا موزعة على آيات كثيرة وليست أكثرها في أول الكلمات وظهور هذا السر الآن في هذا التفسير يرمى الغرضين الغرض الأول هو ما تقدم وهو أن الطوائف الضعيفة لا بد من فوزها وأن الله رؤف بها ، فالطاء للطائفة والسين لأنها والميم لنصرها ، وهذا ملخص السورة كما تقدم ، فهذا الغرض اليوم يشير إلى رقي المسلمين كأنه يقال لهم أيها المسلمون كل ذليل يعز بعد ذله فاقروا التاريخ ، فإياكم أن تقنطوا من رحمة الله فسيرجع لكم مجدهم فلستم أول أمة ذلت بعد عزها ﴿ الغرض الثاني ﴾ أن تحترس الأمم الإسلامية وغير الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها من الغرور بالملك واستضعاف الأمم فإذا قويت أمة إسلامية فلتعلم أن الله لها بالمرصاد وإذا ذلت أمة فإن الله يقتص للمظلوم من الظالم ، وكل هذا تشير له - طسم - فكأن هذه الحروف مبشرة لكثير من الأمم الأذلاء ومنذرة للأطم الأقوياء وأن الله ينصر الضعفاء يوما ما عليهم فيجب الاحسان للأطم الضعيفة والنصح لهم والحمد لله رب العالمين

﴿ الجوهرة الثانية في الكلام على الصلة بين آخر سورة القصص وأول سورة العنكبوت ﴾

اللهم إنا نحمدك على جمال العلم وبهاء الحكمة ، أريتنا يا الله في قصة قارون أنه غرته المال والخزائن و - قال إنما أوتيته على علم عندي - ووبخته على أنه جهل تصرفك في الدول واهلاكك للأطم وشهد الذين أوتوا العلم أن هذا ظل زائل وقلت للناس في غضون ذلك أنك لا تحب الفرحين وأنك لم تجعل العقوبة إلا للذين لا يفسدون في الأرض ولا يريدون العلو فيها ثم ختمت السورة بأن هذه المواد غير موجودة عند التحقيق وإنما هذه النفوس الأرضية قد حكم عليها أن يكون نظرها للوجودات نظرا يحبسها فيها ويجعل عقولها مشغولة بهذه المادة وفي الحقيقة لا مادة وإنما تلك أشياء أقرب إلى الخيال منها إلى الحقائق ، فناسب أن تكون سورة العنكبوت مبتدأة بمسألة الفتنة وأن هذا النوع الانساني مبتلى كله كما ابتلى الأنبياء والعلماء وذلك ليجتهد الناس في أعمالهم ويصل كل منهم إلى درجته التي استعد لها ، ثم أخذ بعد ذلك يحرض على الجهاد وأن لقاء الله لا يكون إلا بهذا الجهاد . إن هذا الانسان كله مكبل بقيوده محبوس في سجنه حكم عليه حكما قاطعا أن يعيش في ظلمة الطبيعة ويقضى الضرورة الحيوانية ويتلبس بالطين ويزاول شهوات البهائم ونزوة السباع وضراوتها

فلست تراه إلا ساعيا جهده لكسرة يأكلها وشهوة يسدها وغضب يثيره فقواه موزعة وآراؤه مشتتة هذا هو الانسان أوله وآخره ، وما الدين ولا العلم ولا العمل إلا سعى للخلاص من هذه الطبيعة الطينية . واعلم أيها الذكي أن هذه المعاني لا تكشف إلا لمن أدرك ما عليه الناس الآن . إن الناس تراهم في هذه الأرض مجبورين مقهورين على أعمال كاهلها نصب وتعب وما أرضنا إلا جواهر نارية متكاثفة وباطنها مواد محرقة وكل نبات وكل حيوان أجسامها قابلة للاحتراق ونحن لاهية لنا إلا بالحرارة التي هي من طبع النار ، وهانحن أولاء ننتقل من سجن الى سجن فاذا سجننا في سجن الجوع أو الشبق وهو بنا من هذين السجنين بتعاطي الطعام وباجتماع الذكور بالاناث دخلنا في سجنين آخرين وهما سجن حوز المال وحب الترف وذل المحافظة على ماملنا ثم الحسد والبخل وما أشبه ذلك ، وسجن الذرية الذين نسعى ونكد لتربيتهم وتعليمهم ونحزن لمرضهم وجهلهم فنحن نخرج من سجن الى سجن ومن عذاب الى عذاب ونحن نظن اننا سعداء فرحون ثم إن الأم كالأفراد فهم متعادون منافقون مخادعون متحاربون - لقد خلقنا الانسان في كبد - قتل الانسان ما أكفره - إن الانسان لفي خسر - وكيف لا يكون في خسر وهو مشغول بما كفيته البودة وسعدت به حشرة أبي دقيق ، حشرة أبي دقيق دودها يأكل ورق القطن وتجده موفرا لها فهي به سعيدة ، وما نال الانسان من سعيه مثل ما نالت تلك الحشرات الساكنات في قصور خضراء من ورق القطن فيها ثريات لامعات بهجات هي أزهار القطن ، وهذا الانسان كله أوله وآخره يسعى ليحصل سعادته في الدنيا فلم ينل ثم هو يخلو بنفسه ويفكر في أصل العالم ومنشئه وهذه النجوم والشموس ولماذا خلقنا في الأرض وهكذا فيجزئه البحث فيرجع طرفه خاسئا وهو حسير

هذه هي مرتبة الانسان ولهذا أمر بالجهاد ليخرج من هذه المآزق وضربت له الأمثال تارة بقصة آدم وآونة بقصة قارون ، فاذا وجدنا قارون افتتن بالمال فذلك ليس خاصا به بل كل الناس بل الذي لامال عنده قد يكون قلبه معلقا به كقارون ، وكمن صعلوك لا يملك شروى نقيرا عمته الدنيا وأصلته ، وكمن غنى زهدا فهما كما قيل

علقتها عرضا وعلقت رجلا * غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

واعلم أن جميع الذنوب التي وردت في الشرائع السابقة واللاحقة كالزنا والسرقة والقتل ما هي إلا آثار أو نتائج لما كن في هذه النفوس من الشهوة والغضب ، فمثل تلك الصفات في النفوس إلا كمثل الأقداء في العيون ، وما مثل هذه الذنوب إلا كمثل الذباب يقع عليها فلوم تكن في العيون أقداء لم يقع الذباب عليها فوقوع الذباب شبه به الذنوب والقذى في العين شبه به أساس تلك الذنوب ومن أزال الأساس فقد أزال ما بني عليها ولا تزال هذا الأساس إلا بالجد والاستغفار والتوبة والأعمال الصالحة والرجوع الى مبدع العالم واعلم أيها الذكي أن من عرف ماقلته لك الآن وأدركه حق الادراك عرف أسرارا في الديانات وحلت له مشاكل كثيرة ﴿ مثال ذلك ﴾ أن المسلم يقول في الجاوس بين السجدين ﴿ رب اغفر لي وارحمني واجبرني وارفعني وارزقني واهدني وعافني ﴾ فقول المسلم اغفر لي في كل ركعة ليس معناها انه قد أذنب فعلا فكم من المسلمين من يقول اغفر لي ولا ذنب له وقد كان ﷺ يقولها وقد أجمع العلماء انه معصوم من الذنب فهو ﷺ وكثير من المسلمين لا ذنوب لهم فكيف يطلب هؤلاء الطاهرون غفران ذنب لم يقع منهم . إذن طلب الغفران منصب على أساس الذنوب وهي الطبيعة الترابية التي شبهناها بقذى العين الذي هو السبب في وقوع الذباب عليها . إذن المسلم يطلب غفران الذنب سواء أذنب ذنبا أولم يذنب لأن هذه الطبيعة الطينية معرضة للذنوب فاذا كان المسلم مذنباً طلب غفران هذه الذنوب الفرعية وان لم يكن مذنباً طلب إزالة أساس الذنب لا غير ، وبهذا نفهم قوله تعالى - إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - فالغفران

هنا منصب على تلك الأساس التي اقتضتها الطبيعة الانسانية في هذه الأرض

﴿ بيان ما يشير الى هذا المعنى عند الأمم السابقة ﴾

واذا أنت أيها الذكي رجعت الى ما تقدم في آخر (سورة المائدة) وقرأت أن الدين المسيحي ما هو الا صدى صوت ديانات تقدمت في مصر والهند والتبت والعراق عند الآشوريين والبابليين وأهل المكسيك القدماء وهكذا ترى بعضه في (سورة مريم) منقولاً عن علماء الألمان الكاشفين لهذا المعنى سنة ١٩٠٣ فيما وجدوه على الألواح في بلاد العراق ، أقول اذا رجعت الى ذلك كله وقرأته وفهمته حقاً فهمه أيقنت أن الصلب كان أمراً شائعاً في تلك الأمم على سبيل الخرافة وقد نقل الى الدين المسيحي نقلاً لا غير وأن هذا الصلب لابن الله البكر ليخلصهم من ذنوبهم بخروجه من هذه المادة وانهم جميعاً يغمسون أنفسهم في الماء (ماء المعمودية) وأيضاً قد شاع في أكثر الديانات وآخرها الاسلام أن آدم عصي وأنه هبط من الجنة الى الأرض وهكذا فكل ذلك من واد واحد ، نعم تلك الديانات منسوخة عندنا نحن المسلمين والمنسوخ لاحقاً له ، ولكن كلامنا الآن في شيوع هذه الآراء في الأمم . ان العقول الانسانية لا تقل في فطرها عن فطرة الحيوان بل فطرة الانسان أرقى وأرقى ولم نجد في الحيوان غرائز باطلة بل هي كلها غرائز شريفة أبدعها المبدع الحكيم ، فاذا كان هذا في الحيوان فكيف إذن بالانسان الذي جعله الله خليفة في الأرض وشرفه فكيف تعم فيه خرافات الصلب وهذا الصلب لابن الله البكر ، وكيف تشيع عادة ماء المعمودية ، أقول إن هذا كله انما شاع في هذه الديانات وقبلته الفطر الانسانية وبقيت فيها دهوراً ودهوراً لأن هذا النوع الانساني كله يحس بأنه موضوع في طبيعة تبعد عنه مقامه العالي وشرفه الرفيع فهو عاص وهو يحتاج الى التطهير من المعصية فماء المعمودية ما هو الا رمز لطهارة النفس بالعلم والعمل والصلب خروج النفس من هذه المادة وارتقاؤها وتنزهاها عن شهوات أهل الأرض . كل هذه المعاني مخبوءة في عقول أهل الأرض فتارة تظهر بهذه الخرافات كالصلب وماء المعمودية وتارة تظهر بهيئة حقائق مثل انها ذنوب ويطلب من الله غفرانها ، ومثل ان أبانا آدم قد عصي وهبط من الجنة . كل ذلك يرجع الى تلك الأساس التي ذكرتها لك ، ولست أقول لك ان كل دين من تلك الأديان كان حقاً بل أقول ان هذه خرافات ابتدعتها الناس في الأمم وقبلتها نفوسهم ولكن لماذا قبلت النفوس هذه الخرافات ؟ انما قبلت هذه الخرافات لأنها تعبر عن فطرها

ولما أراد الله انتقاذ الانسان من الخرافات وعلم انه استعد لاظهار بعض الحقائق أنزل دين الاسلام وعبر بالمغفرة والذنوب . هذا ثم انك اذا سمعت الله يقول في آخر القصص - فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون - فان هذا راجع الى الذنوب الفرعية ، واذا سمعته يقول - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً - الخ فهذا راجع الى طهارة تلك الأساس وتمهيداً ، واذا سمعته يقول - نخرج على قومه في زينته - الخ فذلك لفروع تلك الأساس واذا سمعت ذكر الجهاد والفتنة في أول العنكبوت فما هو إلا إتمام لما في آخر القصص وهكذا ذكر الأعمال الصالحة والسيئات والأشغال كل ذلك تكميل لما في آخر السورة قبلها . انتهى والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ١٩ يوليو سنة ١٩٢٩ م

(تذييل)

(حكمة ألقاها الله على قلوب بعض عباده من الصوفية وهي ان من ادعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل

وهي من حكم قصة قارون قائمها لتحديد الزهد في الدنيا)

هذه القصة كما ذمّت المال والدنيا حرّضت على عدم نسيانها بالكلية ، فالقصة أعطتنا طريقاً وسطاً فلا نكون عالة على الناس ولا نكون طماعين جاعين ، ولقد شاع في أيامنا هذه أن كثيراً من الشيوخ ورجال

الصوفية وجهالة الوعاظ يحقرون أمر الدنيا للناس فيبطل سعى كثير من العامة ويكون نفس أولئك الشيوخ عالة على الأمة يلتمسون منها الهدايا تقرّبا إليهم مما هو شائع معروف وهذا إثم وضلال ، فالله ما خلق العقل والقدرة والأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة ليعطلها ولكنه فصلها تفصيلا لأعمال تقوم بها فتظهر مواهبها في الحياة الدنيا والآخرة ولقد رأيت في كتاب الشيخ الشعرائي المسمى « درر الفواص على فتاوى سيدي علي الخوّاص » مانصه « سألت شيخنا رضي الله عنه عما استندا إليه الزاهد في الدنيا من الأسماء والحضرات الإلهية فانه لا بد لكل شيء في العالم من استناده الى حقيقة إلهية ونرى الحق تعالى رجح وجود العالم على عدمه فبخلق من تخلق هذا الزاهد ؟ فقال رضي الله عنه الزهد في الدنيا هو هدى الأولين والآخرين المتبعين للأوامر الإلهية لأن الله تعالى قد عشق الخلق في الوجود وزينه لهم وجعل ذلك حجابا عليه لا يصل أحد الى معرفته تعالى إلا بالأعراض عن زينة الكونين ، فن زهد في الدنيا والآخرة فقد تخلص لربه عز وجل ومن زهد في الدنيا فقد تخلص للآخرة ومن لم يزهد في الدنيا لم يتخلص بشيء وتعس وانتكس ، فالزاهدون قد تخلقوا بأخلاق الله تعالى في كون الله تعالى منذ خلق الدنيا لم ينظر اليها أعني نظر محبة ورغبة والافهوتعالى ينظر اليها نظرتدبير وامداد ولولا ذلك ما كان لها وجود ، وكذلك الزاهد لا ينظر الى الدنيا نظر محبة ورغبة وانما هو نظر تدبير لمعايشه التي لا يصح له أن يستغنى عنها فان من ادعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل إذ الغنى بالحق حقيقة لا يصح بالاستغناء عن الوجود نعت خاص بالله عز وجل فابق مقصود القوم بالزهد في الدنيا لإفراغ القلب وعدم العمل في تحصيل مازاد على ضرورات العبد لا غير عكس مرادهم بالرغبة فيها . فقلت له إن بعض الناس يزهد في الدنيا ويقول انما أزهد فيها توسعة على اخواني في الرزق فما حكمه ؟ فقال رضي الله عنه هو زهد معاول . فقلت له فكيف ؟ فقال لأن في اعتقاده ان الذي تركه قسمه الحق له ثم أعطاه للخلق وهو باطل . فقلت له فما الخلاص في مقام الزهد ؟ فقال رضي الله عنه الخلاص أن يكون بما ضمنه الحق تعالى أوثق منه مما في يديه ثم يتصرف فيما في يده تصرف حكيم عليم إذ هو نائب الحق من حضرة اسميه المعطى والمانع فيمنع بحق ويعطى بحق والله غفور رحيم » انتهى وبهذا تم الكلام على (سورة القصص) والحمد لله رب العالمين

سورة العنكبوت مكية

إلا من أول السورة الى قوله تعالى - وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون - فدية
وآياتها ٦٩ - نزلت بعد الروم

(وهي قسمان)

(القسم الأول) في تعليم الصبر والجهاد وطاعة الوالدين والمجاهدة في سبيل الله وفي برّهما ومجاهدة
الأصحاب وعدم إطاعتهم اذا أرادوا فتنة المؤمن ، ثم قصص الأنبياء من أول السورة الى قوله - وما كان الله
ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون -

(القسم الثاني) في محاجة الكفار وأهل الكتاب واثبات النبوة من قوله - مثل الذين اتخذوا من
دون الله - الى آخر السورة

(القسم الأول)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَهُ سُوءٌ سَعِيقٌ
الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ رَبِّكَ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ *
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةِ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَنْ يَجَاءَ
نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ
خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ
فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ
السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا
لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ * أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
* يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
أُولَئِكَ يَقْسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا
اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ
وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا
فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * وَلُوطًا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَتُنتَنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ
* وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا
ظَالِمِينَ * قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ عِلْمٍ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ
الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا
تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *
وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا إِلَيَّ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَادًا
وَتَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ
وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَنهَضْنَاهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ فَأَنزَلْنَاهُمْ سَاءَ
مَنْ أَخَذْنَاهُ الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

التفسير اللفظي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الم) تقدم الكلام فيه في سورة آل عمران ، وسيأتي بيان أتم لها في هذه السورة ، فانك ستري
قريباً أن - الم - هنا تشير إلى قوله تعالى - أُولَئِكَ يَرْوَاهُ كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ - الخ ففيه - الم - وذلك
ليحقق العلماء بالحكمة ، ههنا أخذ الله عز وجل يصل هذه السورة بما قبلها ، إن أواخر السورة السابقة كان
في ذكر قارون وأهل العلم والجهلاء وكيف كانت الزينة القارونية تغر الجاهلين وكان أهل العلم غير مغترين بها
ولا جزعين من فواتها ولا فرحين بنواها لعلمهم أن دوامها مستحيل وأن هناك ما هو أبهج منظراً وأبقى أثراً
وهي الحكمة والعلم ونعيم الآخرة فكان ملخص ذلك المجاهدة في ترك هوى النفس فلا علو على الناس ولا
فساد في الأرض ، فهذه السورة ابتدئت بمحيط هذا الموضوع والتدقيق فيه فقال الله (أحسب الناس أن
يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أي أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم - آمنا - كلاً انهم لا يتركون
لقولهم آمنا بل يمتحنهم الله بمشاق التكليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع
المصائب في الأنفس والأموال والفقر والقحط ومصايرة الكفار ، ولقد فتن الله بعض الناس ببعض لتخلص
نفوسهم من أسرار المادة وذل الطبيعة لأن التهذيب والتأديب إما بالعلم والمعرفة والعبادة وإما بأنواع المصائب
فكلها جعلها الله في الأرض لتخلص الناس من أشراك هذه المادة

(١) فيجاهد المرء شهواته المذكورة في آخر القصص حينما يرى زينة المترفين والأغنياء كزينة قارون
وهذا الجهاد إما بالعلم كما قص الله عن أهل العلم إذ قالوا - ويلكم ثواب الله خير - الخ وأما بالعبرة والنوازل
كالجهلاء لما رأوا هلاك قارون فعرفوا معرفة سطحية وقولوا - ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر -
(٢) ويجاهد أبويه ويكون معهما بوجهين فهو بارٌّ بهما عاص لأمرهما إذا أمراه بالكفر كما سيأتي
(٣) ويجاهد الأصحاب إذا أغروه أن يكفروا وسهلوا له الأمر كأن يقولوا له « نحن نحمل عنك خطاياك »
وملخص ذلك كله جهاد الشهوات ، جهاد الأصحاب ، جهاد الأعداء ، وكل ذلك اختبار للناس وتهذيب
واعلم أن كل ما رواه المفسرون في هذا المقام من أنها نزلت في عمار أو في مهجع أو غيرهما لم يرد له ذكر
في الصحيح وفوق ذلك رواياتهم مناقضة للحقيقة لأنهم ذكروا أن بعضهم أودى في مكة والمؤمنون في المدينة
وذلك يناقض كون السورة مكية وكثير من أحاديث النزول ليست في الصحيح فتفطن ، ولم يرد في هذه السورة
من الصحاح إلا حديث أم هانئ كما سيأتي رواية الترمذي وحديث ابن عباس رواية رزين وبقية الصحاح
لا شيء فيها مما يخص هذه السورة ، وسأتبع هذه الطريقة في بقية التفسير إن شاء الله تعالى ، فلا ذكر بقية

تفسير هذا القسم فأقول

ههنا يقول الله أيها الناس لا تظنوا اني خلقتكم سدى انما خلقتكم لأرقيكم لعالم أرقى من عالمكم ولا يتم ذلك إلا بعلم وعمل ، ولما كان العلم والعمل وحدهما لا يقويان على ارتقائكم ساعدتكم بما ينتابكم من النوازل والمصائب الطبيعية والأنفس والآفاق لأن هذا يرقى نفوسكم وان كنتم لا تشعرون ولم أدخل العبادات من ذلك فلقد أمرتكم بالتخلي عن بعض المال والشهوات والجوع في الصيام لأكمل بالعمل التهذيب الذي وضعته بالطبع في أرضكم كما أني كلفتكم بالزراعة والكسب لإصلاح معاشكم فأكثر معاشكم بالطبيعة التي نظمها ولا يكمل إلا بعملكم هكذا المصائب والنوازل وتغير الأحوال التي لا تقفرون عنها كل حين مهنات لنفوسكم فجاء الدين فأكملها تهذيباً وتأديباً بصرف النفس عن المال والولد إلى الزكاة والحج والصلاة والجهاد وغيرها حياتكم كلها حياة شقاء شئتم أم أبيتم فان جاهدتم ارتقيتم والا كان العذاب واصباً عليكم في الدنيا وبعد الموت لأن الميت اذا لم يكن له أجنحة من العلم والعمل يطير بها هناك فكيف يعيش في تلك الأجواء النقية الحرة البهية فلذلك لم أخلكم من الجهاد كما لم أدخل من قبلكم من الأهم البائدة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) فذلك سنة قديمة قديمة شرعناها لكم كما شرعناها للأهم قبلكم فلا ينبغي أن يتوقع الناس خلاف ذلك (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أي فلينظرن الله الصادقين والكاذبين وليميزنهما أولي جازينهما فالمراد بالعلم أثره ومن ظن خلاف ذلك من الناس فهو سبي الحكم جاهل (أم حسب الذين يعملون السيئات) كالشرك والمعاصي (أن يسبقونا) أي بل أحسب هؤلاء أن يفوتونا فلا تقدر أن نجازيهم (ساء ما يحكمون) أي بئس حكماً يحكمونه حكمهم ، وكيف يحكمون هذا الحكم وأنا لم أخلق الخلق سدى ، أنا ربيتهم في عالم المادة وهذا بهم بأنواع التهذيب والتعذيب والرياضة والعلم عسى أن يلمحوا في هذا العالم نور جلالى وجمالى (من كان يرجوا لقاء الله) في الجنة وأن يشاهده ويرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فليفرح (فان أجل الله آت) وكيف لا يفرح وكل مصيبة نزلت أو تكليف جاء به دين فأنما جعل ليقرّب العبد من ذلك المقام ويبعده عن ظلمة المادة وليس الله بغافل عن المطيع والعاصي (وهو السميع) لأقوال الفريقين (العليم) بما أكنته قلوبهم من كفر وجهل أو إيمان وعلم فيضع كلا في مركزه الخاص به ، فعلى المرء أن يجاهد حتى يبلغ تلك المرتبة العالية (ومن جاهد فأنما يجاهد لنفسه) لأنه يريد أن يتخلص من عالم النقص حتى يستعد لمشاهدة العوالم اللطيفة ثم يصل إلى الله ولا يكون ذلك إلا بتلطيف النفوس فليس ذلك الجهاد راجعاً لله بل هو لنفس العبد (إن الله لغنى عن العالمين) فهم في حاجة إلى لقائه بتصفية نفوسهم لاهو فالجهاد إذن لهم لاه إذ لا معنى لعمل لا تعود فائدته على العامل نفسه فكل عبادة أو تكليف يراد بها ارتقاء النفس فقول العبد - إياك نعبد - ليس الله في حاجة إليها بل تلك تلطف النفس بعض التلطيف بذلك التوجه فتتخلص شيئاً فشيئاً من المادة وهذا هو قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) كالكفر بالإيمان والمعاصي بالطاعات فترفع نفوسهم عن العالم المظلم (ولنجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون) أي أحسن جزاء أعمالهم والحسن في الجزاء أن تكون الحسنة جزاؤها حسنة والأحسن أن تكون الحسنة جزاؤها عشر حسنة أو أكثر ثم أخذ يشرح بعض الجهاد في الوالدين إذ قال (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) أي وقلنا له أحسن بوالديك حسناً أو قلنا افعل بهما حسناً (وان جاهدك لتشرك بى ما ليس لك به علم) أي لا علم لك بالهيتة بل هو منفى أي تشرك بى شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً (فلا تطعهما) في ذلك وكيف تطيعهما في معصية خالقك وخالقهما (إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) فأجاز بكم على الخير والشر * روى أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه وأن أمه حلفت لا تنقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ولبثت ثلاثة أيام كذلك ثم إن ابنها أوقع في قلبها اليأس من إسلامه فرجعت فأكات وأن هذه الحادثة أيضاً كانت سبب هذه كانت سبب

التي في لقمان والأحقاف وهذه الرواية لم ترد في الصحيحين ولا بقية الكتب الستة ، ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) أي في جنتهم فليستعدوا لذلك بالجهاد فالصلاح درجات وللعلم درجات وكل يوم القيامة يدخل فيمن هو أهل لهم ، وليس الصلاح مجرد دعوى لادليل عليها بالعمل . إن الصلاح لا يكون إلا بالجهاد والصبر على الأذى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى الله) كما حصل من تهذيب الكفار المؤمنين (حصل فتنة الناس) أي ما يصيبه من أذيتهم في الدنيا ليصدّوه عن الإيمان (كعذاب الله) الذي قدره على الكافرين ليصرفهم عن الكفر ، فهؤلاء يجزعون من عذاب الناس ولا يصبرون عليه فيطيعون الناس في كفرهم كما يطيع المؤمن ربه لخوفه من عذابه وهل فتنة الناس كعذاب الله كلا . إن عذاب الله أشد وأبقى فهؤلاء لا ثبات لهم ولا صبر ولا سعادة لأحد إلا بالصبر وإنما يروغون كما يروغ الثعلب ويتقلبون تقلب الحرباء وذلك التقلب لضعف قلوبهم ، ولذلك إذا جاء نصر أو غنيمة قالوا إنا معكم وهذا قوله تعالى (وإن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) في الدين فاشركونا فيه ، فهؤلاء هم المنافقون (أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) من الاخلاص والنفاق ثم أكد فقل (وليعلن الله الذين آمنوا وليعلن المنافقين) يقال إنها نزلت فيمن أخرجهم المشركون معهم إلى بدر وهم الذين نزل فيهم - الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم - ولذلك يقال إن هذه الآيات العشر من أول السورة إلى هنا مدنية وباقي السورة مكي وقد علمت أن الأحاديث ليست في الصحاح المعلومة

هذا ولما تم الكلام على جهاد الوالدين وما بعده من المنافقين ذكر جهاد الأصحاب الذين يغرون أصحابهم لتركوا الدين فقال (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبلنا) الذي نسلكه في ديننا (ولنحمل خطاياكم) فانركوا الاسلام واتبعوا ديننا القديم وعلينا أن نحمل خطاياكم وهذا قول صناديد قریش لمن آمن منهم (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون) في قولهم نحمل خطاياكم (وليحملن أثقاهم) أثقال ما اقترفوه من الإثم (وأثقالا مع أثقاهم) أي وأثقالا آخر معها فان من سنّ سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزر من اتبعه شيء (وليسألن يوم القيامة) سؤال تقرّيع (عما كانوا يفترون) من الأباطيل التي أضلوا بها ، وههنا ابتداء سبحانه بذكر قصص الأنبياء ليتعظ المسلم بما يرى من جهاد المجاهدين شرحا لقوله - ولقد فتنا الذين من قبلهم - الخ فابتداء بما فاتن به نوح ومن معه حتى يصبر الناس كما صبروا وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى ، فهؤلاء كلهم صبروا هم وأتباعهم على ما أؤذوا فنجوا وهلك أعداؤهم

﴿ جوهره في قوله تعالى - ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين - ﴾
اللهم إنك خلقتنا في الأرض ونحن فيها أشبه بالفرق في بحر لحي ، أرواحنا قبسة من نورك فأنزلتها إلى الأرض ولبست كل روح جسمها ووقعت في حيص بيص فهي أبدا تجاهد لتنجو من الخطر الملازم لها وهي هذه الأجسام وشهواتها وأخلاقها وأحوالها ، وليس الجهاد قاصرا على أمر دون أمر فالجهاد يشمل كل عمل يرفع هذه النفس عن الدنيا ويقوّيها في سفرها وينتشلها من غرقها ويخرجها من بحر هذه الحياة اللجج والجهاد ﴿ نوعان ﴾ جهاد داخلي وجهاد خارجي ، فالجهاد الداخلي لقوّي الشهوة والغضب فيعتدل الانسان في قوّيه الجسمية والعقلية ، وجهاد خارجي وهو دفاع الأعداء وبعض العبادات ومنها الحج فهو من أهم أنواع الجهاد بل الحج يذكرنا بسعادة نوع الانسان ويرمز إلى ﴿ فائدين ﴾ منها صحة البدن واجتماع الأم بسلام ، إن الاسلام لو لم يكن فيه سوى الحج لكفى لسعادة الانسان ، ففيه جهاد النفوس بترك المحيط من الشباب كما تقدم قريبا في (سورة القصص) عند الكلام على منافع الشمس في آية - قل أرأيتم - الخ والاجتماع بالاخوان من سائر الأقطار ليشهدوا منافع لهم . واعلم أيّدك الله أيها الذكي أن مسألة الحج يقصد بها إلى أمر عظيم وهو

نبتد التعالى والتكبر وترك الترف والنعيم اللذين يسببان هلاك الأمم في هذه الدنيا ، ولقد فاتني في سورة الحج وفي البقرة وغيرهما من السور التي ذكر فيها الحج أن أبين أكثرهما ذكرته هناك ولكن الله عز وجل يريد أن يمن على أمم الاسلام بالعلم والحكمة ، فأول ما خطر لي خاطر الحج من حيث الصحة العامة بتعرض الجسم لضوء الشمس كان بسبب محادثة شاب معي أخذ يذكر مناسك الحج وأن أوروبا قد أخذت تنبذ القصور والدور وتذهب الى أعالي الجبال لتعرضوا أجسامهم لحرارة الشمس تبعا لأوامر الصحة ، هنالك حضر لي هذا الخاطر فكتبت بعض ذلك في (سورة القصص) كما قلت لك آنفا ولكن انظر . ان الانسان يعيش ويموت وهو لا يزال في حاجة الى الاطلاع ليعلم ما لم يكن يعلم فاني في هذا اليوم صباح ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٩ اطلعت على هذا الموضوع في «الرحلة الحجازية» لصديقي محمد لبيب بك البتوني فرأيت وفي الموضوع حقه فسالخصه هنا تلبية لنداء الوجدان واتماما للكلام على الجهاد لأن جهاد النفوس الانسانية في الحياة الدنيا يجب أن يشمل الجهاد الجسمي والجهاد الروحي وجهاد الأجسام بصفاتها وخواصها من الأمراض بترك الاكثار من الماء كل وباستخلاص أنفها في الحياة والصحة وبتترك الاكثار من الملابس التي تضر بالصحة في كل أمة بحسبها . والجهاد الروحي بحب الاخوان بل بحب جميع الأمم ولن يكون ذلك إلا بترك الترف والتنعيم والحرص ومد يد المساعدة العامة فلا مترف في الأرض يساعد لخوانه ولا ضعيف جسم يقوم بأود محتاج . إن الحياة جميعها جهاد . ومما كان يهيج بالي ويزيد بلبالي أمر الملابس فاني وجدت الأمم قد اختطت لأنفسها خطة ضيق الملابس والتصاقها بالجسم ولم أجد في هذا الانسان إلا مقلدا . الناس جميعا مقلدون وقليل فيهم المفكرون وهذا القليل لا قوة له على اخضاع هذه الجوع ، ولطالما وقفت أمام صورة في المتحف المصري يقال انها صورة (شيخ البلد) فكنت أجد الجسم ليس عليه إلا إزار واحد ففجئت وصرت أقول ياليت شعري ، أليست هذه مصر ، أليس هذا منها وأنا منها ، فلماذا اكتفى هذا الرئيس ومقرؤوه بالازار ونحن لبسنا ملابس وماهى إلا جل ثقل علينا . هذا الموضوع وغيره حرّك وجداني فبحث فلم أجد لي سبيلا إلا مناسك الحج وفهم بعض أسرارها فعرفت أن الله فرضه ليقول للناس ها هوذا وصف رقي الانسان ليقرا الناس علم الصحة فيعرفوا أن صحتهم لا تتم إلا بالتجرد في بعض الأوقات من الثياب وتعرض أجسامهم للشمس وليكونوا بزي واحد تقر يباحثي يتحاربوا فتكون مدارس الغرب ومدارس الشرق على وتيرة واحدة ، هنالك يتعاونون جميعا وهنالك تقلّم لهم الأرض خيراتها وكنوزها . ولم أجد كتابا يشرح هذا الموضوع مثل ما جاء في تلك (الرحلة) وهذا نص ما جاء فيها تحت العنوان التالي وها هوذا

﴿ لباس الاحرام ﴾

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جدا والمصريون كانوا يستعملون في أول أمرهم المئزر ثم البرنس وهو قطعة من القماش تلتقي على الأكتاف وتربط بحزام وترسل الى الركبتين في العامة أو الى أسفل منهما في الخاصة حتى اذا ترقّت الدولة في عمرانها أطالوا من ذلك البرنس الى السكعين ولبسوا من تحته قميصا لا أكمام له أخذوه عن الأثيوبيين (١) وكانوا في مبداء أمرهم يلبسون ثيابهم بلون واحد (أخضر أو أزرق أو أحمر) ثم انتهوا باستعمال كثير من الألوان في ثيابهم مع ما كانوا يوشون به دائر ملابسهم بالأشرطة المنقوشة . أما الاشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش ويمرونها من تحت ابطنهم الأيمن ويغطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يثبت طرفها إما بعقدة أو بمشبك

(١) هم سكان أثيوبيا وهي مملكة قديمة كانت في جنوب مصر في المنطقة التي بها الحبشة وما والاها شرقا الى الصومال وشمالا وغربا الى جزء عظيم من السودان المصري

(انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثاني من دائرة المعارف الفرنسية الكبرى) ثم غيروا هذا الزي بأن لبسوا قيصا صغيرا ومن فوقه شئ يشبه العباءة والأعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة . وأهل اليونان كانوا يلبسون رداء طويلا واسعا ويمرّونه من تحت ابطنهم الأيمن بعد أن يلفوا به وسطهم ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر ثم صاروا يشملون بهذا الرداء الجسم جميعه . ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الأيمن مع الرأس من فتحة ما بينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الأيسر ثم يلف الجسم بباقي هذه الشملة ويسمون بها (شيون) كما تراه الى اليوم في عرب البادية المصريين خصوصا عرب الغرب منهم . ولا شك في أنهم أخذوا هذا الزي من الرومانيين أو القرطاجيين ولبث فيهم على بداوته الأولى الى الآن وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية وقد شاهدت شيا مماثلة تماما على قاعدة المسلة التي في القسطنطينية في ميدان السلطان أحمد وعلى بعض النواويس الموجودة في متحف الاستانة بل وفي النقوش الموجودة في سقف جامع القهرية (القهرية) وهو أول كنيسة بنيت في الاستانة وحولت الى مسجد بعد الفتح . أما أنتكخاتنا المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين في قديم الزمان كانت تنحصر في لبس المئزر وهو فوطه يلف بها النصف الأسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل في أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية (١)

وأخص بالذكر ما رأيته على هذه الصورة تمثل « كفرين » المشهور بشيخ البلد في القاعة حرف (٨) من الدور الأول نمرة ٧٤ وهو باني هرم الجيزة الثاني ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التي كانت توجد في القرن الحسین قبل المسيح ، ثم تمثل (رعنفر) من العائلة الخامسة في القاعة حرف (٥) ثم تمثل (امور وأمون) وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطريقة النجني تمثله بمئزر بسيط ولا يمكن تحقيق ما على نصفه العلوي لأن يد الزمن قد محت ما عليه ، ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنز والنجاسية التي في دواليب المتحف لابسة شبه احرام كامل وقد شاهدت من بينها تمثالا من الفخار للعدراء وهي ملتحفة بشملة تغطي جميع جسمها وابنها على يدها

أما القاعات الرومانية واليونانية التي على يمين صحن المتحف من الدور الأول ففيها مثال الاحرام بأشكاله التامة فترى في وسط القاعة حرف (١) امرأة رومانية من الرخام الأبيض الوردى بهيئة احرام كامل أعني انها ملتحفة برداء أبيض يغطي كل جسمها ماعدا رأسها ، ويقرب منها مثال رجل من الجرانيت الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الأيمن وهو ما يسمونه في الاحرام بالاضطباع وفي رجله نعال لاتغطي ظاهرا القدم اللهم إلا عروة يدخل فيها الابهام ويخرج منها سيران رفيعان يتصالبان على مادون الكعبين ويربطان فيما دون العقب وهو ما يسمونه في الحجاز بالنعال الشرقية التي أجمعت المذاهب الأربع على صحة الاحرام بها وهذه النعال تراها أيضا في قدم منفصلة عن جسمها موضوعة على يسار الداخل في القاعة حرف (٨) ومتاحف الفنون الجميلة في جميع أنحاء الدنيا غاصة بصور الناس في العهد القديم وهم في لباسهم البسيط الذي يمثل لباس الاحرام بل هو هو بعينه والقوم يمثلونه تماما في تشخيص الروايات التي تمثل الزمن القديم الروماني أو اليوناني وخصوصا في تمثيل صور الأنبياء والحكماء . ويقال ان اليهود كانوا يستعملون في معابدهم لبس غير الخيط . أما الآن فيكتفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه (تليت) أو (تيسوت) ليتشبهوا بموسى عليه السلام في بساطة لباسه . ومن هذا ترى أن ملابس الناس في الزمن القديم بل في جميع أدوار الأمم الخالية حتى في إبان الحضارة كانت على هذه البساطة ، وليس هذا بغير فائدة فان آلة الخياطة ما كانت معروفة في تلك

(١) هذا اللباس شائع للآن في أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التي لاتزال على فطرتها الأولى

ونشاهده على كثير من أعراب البادية في احرامهم وفي غير احرامهم

الأزمان ، ولقد كان الناس يستعملون أولا في خياطة ملابسهم شوك الأسماك وسل النخل ثم توصلوا الى استعمال الابر الحديدية ، أما الإبر التي من الصلب فانها لم تخترع إلا في القرن الرابع عشر للمسيح ولم يذع استعمالها في أوروبا إلا في القرن السادس عشر ، وكان أبسط تلك الملابس شكلا ونوعا ملابس الاشوريين الذين هم اخوان الكلدانيين الذين خرج منهم ابراهيم لأن كليهما من الجنس السامي ، وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذي كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا - وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق - وما زالت هذه السنة قائمة في حج البيت الى الآن ، وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة والا فالغرض من الاحرام لبس غير المحيط مطلقا اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا وما فيها الى بساطة الوجود وبدأوته ، خرج الى ربه من أهمة الحياة ورففها وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشري من حيث البساطة التامة التي كان مظهرها ذلك الزي الذي يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها فيستوى فيه الصعوك والملوك . هذا الزي الذي يستقبل الانسان في مهده ويشيعه الى لحده حتى كأنه يقول الى ربه « اللهم إني قد نزعيت عن نفسي ظاهرها وباطنها رداء قد وشته الأباطيل وموّهته الأضاليل وخرجت اليك وقد جردت نفسي لك مما أملك طامعا في نيل مالا أملك من نعم إن عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة أو أقضى بها إن مت في سبيلك ومحبتك وطاعتك وأنتقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر في زمرة المقبولين والصديقين زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين »

وهل رأيت ذلك اللباس الاكروسى البسيط « لباس الرهبان » الذي رسم عليه كل من تمثال (غليوم الثاني) امبراطور ألمانيا والأمبراطورة قرينته وأرسل بهما ليوضعا في الملعب الألماني الذي بني في بيت المقدس وسافر البرنس (ايتل) لافتتاحه رسميا بالنيابة عن والده الأمبراطور في شهر ابريل سنة ١٩١٠ على أنه لا يعزب عن فطنتك وينبوع عن فكرتك أن الأطباء وجدوا أخيرا أن الانسان لا بد له من تعريض جسمه الى الهواء المطلق ومؤثرات الجو نحو شهر من كل سنة يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه بفضل ملاصقة أوكسوجين الهواء لجميع مسام جثمانه ، وبهذه العملية يحترق ما في الدم من الكربون الذي تشبع به أثناء دورته من الفضلات التي تخلفت في الجسم فيعود الى القلب دما نقيا زكيا صالحا لتغذية الحياة بمادة القوة التي تكون بها العافية التامة والصحة العامة التي هي قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها . لذلك ترى الاوروبيين وعلى الخصوص الانجليز (لاعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الجبال أو الى شواطئ البحار فيخلعون ثيابهم إلا مايسترعورتهم ويقيمون على هذه الحال شهرا أو أكثر يستعيدون فيه ما فقدوه من قواهم في سبيل العمل طول سنتهم ، وكثيرا ما رأيت الفرنجة في هذه الأماكن الصحية على شاطئ البحر حفاة عراة معرضين بكل جسمهم للهواء وبرودة الجو أو حرارة الشمس جلة ساعات وليس عليهم إلا تلك العانة المستعارة التي يغطون بها السبيلين ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء ولا غرابة اذا رجعت بنا المدينة الحديثة الى كثير مما كان عليه القدماء في بدائتهم الذي يسميه الجهلاء خشونة وتوحشا . انتهى ما أردته من تلك الرحلة والحمد لله رب العالمين

واعلم أيها الذكي كما قدمت لك أن الحياة كلها جهاد وانما أطلت الكلام على الحج لأن فيه أصول سعادة الأمم جسما وروحا فهو نموذج الجهاد العام وأي جهاد يفوق توافق الأمم وارتباطها واتحادها وأول من قام بذلك رسول الله ﷺ فهو الذي حرك الأمم شرقا وغربا وهاهي ذه الموجة التي أرسلها فيها قد سكنت في الشرق ثم تحركت في الغرب ثم رجعت الى الشرق ثانيا ، كل ذلك لم يقصد منه إلا اجتماع جميع الأمم شرقا وغربا ورمز لذلك بالوقوف بعرفة والتجرد من المحيط وغير ذلك من المزايا والاحكام وصرح بذلك فقال - حتى تضع

الحرب أوزارها - هنالك قال العلماء إن ذلك يوم يصبح أهل الأرض ﴿قسمين﴾ قسم مسلم وقسم مسلم اه
﴿خطابي للمسلمين﴾

أيتها الأمم الإسلامية ، حكمة الجهاد عامة تشمل العبادات والأعمال المدنية كلها والصناعات والسياسات ،
إن ذلك كله إما فرض عين وإما فرض كفاية ، فالصلاة والصيام ونحوها فروض عين والعلوم ونظام المدن
والصناعات فروض كفايات وتحتاج إلى جوع كثيرة حتى تكفي الأمة ، فالنجارة والحداثة والكهرباء وصناعات
السفن والطائرات ونظم المدن كلها فروض كفايات واجب على الأمة أن تتعاون عليها طوعاً أو كرهاً ، وليس
عمل من هذه الأعمال يكفي فيه الفرد الواحد فالجوع هي التي تتعاون على كل ذلك

أيها المسلمون ، لقد أودع الله في عقول الأمم وفي أديانها بذور السعادات ، هاهوذا لم يذر العباد يتخبطون
ويفرقون في بحر الحياة اللجج بل أسعفهم بأصول العلم وغرسها في أفئدتهم وفي عاداتهم وفي دياناتهم ، لك
الحمد يا الله على نعمك العمة ، أنت الذي ألهمت القدماء ألا يبنوا بناء ولا يعملوا عملاً إلا نقشوه على الأحجار
وكتبوه في الطوامير وأبقاه الأولون للآخرين ، أنت يارب أبقيت آثار الأولين ليتبعها الآخرون ، هذه مصر
والعراق والشام وبلاد الهند وأمريكا والصين وأوروبا يظهر كل يوم فيها كنوز مدفونة وأجسام مطمورة ونقوش
مفهومة أبقاها الأولون للآخرين ، أنت الذي دفنت الفصحى الحجرى قديماً ثم أبرزته لأهل الأرض الآن ليكون من
أكبر أساس السعادة في العالمين ، فالأرض ملأتها بالذخائر والنقائس والنقوش وأودعت فيها وفي الجو كهرباء
تصل الناس بعضهم ببعض وهم يتعجبون ، ولما كانت الديانات في الأرض من وحيك ونزلت بأمرك وقبل
الناس دعوة الرسل بالهامك كنزت فيها علوماً وخزنت فيها حكماً كما كنزتها في الأرض والهواء والماء والسماء
ألهمت الأنعام والحشرات وكل حيوان إلهامات كلها نافعات لها وأنزلت للإنسان ديانات وجعلتها هدى
للعالمين في كل زمان بحسبه ، وهذا ديننا كنزت فيه علوماً وعلوم وهذه العلوم لا يثيرها إلا البحث والتتقيب ،
التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج التي هي أركان الإسلام قد كنزت فيها سعادات الأمم ، هذه الصلاة
التي هي بعض الجهاد المذكور في هذه الآية قد جعلتها مذكرة بجميع الحكمة والفلسفة وما الحكمة ولا الفلسفة
إلا ما أجنسته السماء وأقلته الأرض ونظام هذا العالم ، المؤمن صباحاً ومساءً يقول ﴿ربنا لك الحمد ملء السموات
وملء الأرض وملء ما بينهما الخ﴾ كما قدّمناه مراراً ، وهل جميع الطبيعيات والرياضيات إلا ما في السموات
والأرض ؟ الله أكبر . لقد أنعم الله على بنعمة هذا التفسير وما هو إلا سر الصلاة التي هي ركن من أركان
الجهاد المذكور في هذه السورة وسيأتي فيها - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر - ، فهنا يقول تعالى - ومن
جاهد فانما يجاهد لنفسه - وفي أواخر السورة يبين أهم أركان الجهاد وهو الصلاة الخ

﴿رؤى المؤلف الكثيرة بالفتوح﴾

اعلم أيها الذكي انني من إبان شبابي كنت أرى رؤى كثيرة جداً كلها تدل على ما أعمله الآن وبشرت
بأن هناك عملاً نافعا لا بد منه ، ولما بلغت سنني نحو (٥٩) سنة رأيت وقت الصباح كأنني أقول أنا يارب قائم
بأعمالي ولا تقصير عندي فأين إذن ما بشرت به فسمعت قائلاً يقول كذبت أنك لا تحضر قلبك في الصلاة فلما
استيقظت أخذت أحضر قلبي في الصلاة بقدر الامكان فانفتح الباب لهذا التفسير . ومن عجب أن كثيراً من
المسائل تحضر لي بعد الصلاة أو في أثناءها ، وبسبب هذا الاستحضار عرفت أن الصلاة ملخص العلوم أو مفتاح
لأصولها وهكذا سميت الفاتحة فعلمت إذن أن المسلمين بتأملهم في الصلاة يصبحون أمة غير هذه الأمة .
الصلاة عبادة ولكن إذا كنا نرى الناس يشربون الماء ويأكلون النافعة ومع ذلك يحللونهم ويدرسونهم
حتى يتم الانتفاع بهما ، فإذا كان الماء والهواء والتراب لا يتم الانتفاع بهما إلا بتحليلها فكيف بالصلاة والصيام
والزكاة والحج ، أفليس انتفاع الجهال بهما في العبادة كانتفاعهم بشرب الماء ، أو ليس الانتفاع بكشف أسرارها

وما ترمى اليه كاتتفاع الأمم الآن بتحليل الماء والهواء الخ أليس هذا سرّ قوله تعالى - يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات - فالدرجات لأولى العلم أما الجهلاء فلاحظ لهم من العبادة إلا كخط الشارب من الماء . هذا ما أقوله في الصلاة وسيتم الكلام عليها في آية - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر - الخ ولأذكر الحج بعد الصلاة لأنه هو الذي أفضنا فيه الكلام قريبا وقد ظهر أن الله كنز فيه آثار الأمم وأصبحت الأمم العريقة في المجد ترجع الى حال البساطة وسهولة الحياة فيسعدون سعادة لم يحلم بها أولئك المترفون الغافلون إذن الحج الذي هو من أركان الاسلام قد حل في طياته بذور السعادة والمدنية المستقبلية التي يرجع فيها الانسان الى الاجتماع العام والصحة التامة

فانظروا أيها المسلمون ، صلاة تحث على الفلسفة وحج يحث على الصحة العامة ونظام الاجتماع العام . وههنا جاء دور الزكاة ﴿ الزكاة ذكر فيها الامام الغزالي انها مساعدة للفقراء ومذهبة لشح النفس فان الانسان اذا ملك حب المال قلبه أقلقه وأخزته بعده عنه بموته هو أو بأخذه منه ظمها أو بالقضاء والقدر ﴾ ويقول ﴿ إن المقصود من ذلك راحة النفوس ﴾ ونقول نحن فكما أن الصلاة مذكرة بالعلوم والحج بالاجتماع العام وصحة الأبدان هكذا الزكاة يراد بها أن يكون الناس جميعا اخوة كما نقلته عن الامام الغزالي في أواخر (سورة البقرة) فانه يقول ﴿ إن مال الانسان للامة كلها عند الخواص أما الزكاة فانما تؤخذ من البخلاء ﴾ فتبين إذن أن اتفاق المال بالزكاة متمم لنظام الاجتماع الذي فهمناه من الحج فالحج يعطينا درس الاجتماع العام والصحة والزكاة تكمل ذلك بالمساعدة . وههنا جاء دور الكلام على الصيام

الكلام على لصيام معروف في الكتب ولكن نحن الآن في تفسير القرآن وتفسير القرآن انما يكتب لأجل الأمم كلها لأن القرآن كتاب الله والناس عباده والصوم درس من أهم مظاهر منه اليوم في الأمم علم الصحة ، نعم هو قربي الى الله ولكن فيه فوائد أخرى ، إن علم الصحة اليوم قد تطوّر وأخذ الناس يهجر المداواة بالعقاقير ويكتفون بالرياضة البدنية والجوع ، يصوم المسلم ويصلي المسلم ويحج المسلم ولكني أقول إن من أكبر العار أن لا تظهر أسرار هذا الدين إلا على يد الأمم لا على يد المسلمين . يحج الناس ويكتفون من الحج بظواهره ويقف العلماء في الأمم الاسلامية عن دراسة الحقائق الاجتماعية

الله أكبر . بعد هذا التفسير سيقوم في الاسلام فطاحل العلماء ويدرسون كل شئ في الوجود وبعد ذلك يدرسون أركان الاسلام ومتى درسوا عرفوا انها يراد بها اجتماع جميع الأمم شرقا وغربا على الصحة والتعاون العام . هذا الصيام درسته الأمم في زماننا وعرفوا بعض سره ففتح لهم بابا واسعا من علوم الصحة والمداواة الله أكبر . وههنا إذا أسمعتك ﴿ مقالين ﴾ أحدهما ﴿ مقال عن حال زعيم الهندوس الأكبر مهاتما غاندي ﴾ والثاني ﴿ ما جاء في مجلة « كل شئ » تحت عنوان (المعالجة بالصوم) فهناك ما قاله معرّب كتابه المسمى ﴿ كتاب الصحة ﴾ ومعرّبه الاستاذ الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي وهذا نص ما قاله في مقدمة التعريب

إن من سوء حظ الشرق أنه لم يفقد استقلاله السياسي فحسب بل قد فقد استقلاله الفكري أيضا ولذلك نراه يقلد الغرب في كل شئ حتى إنه أصبح لا يفكر في نفسه ولا يقيم للأشياء وزنا ولا يميز بين الحق والباطل بل لا يزال نظره الى الغرب فان رآه يقول لشيء إنه حق قال هذا أيضا إنه حق وبالعكس أنا لا أكره الغرب ولا أنكر فضله في العلم والمدنية ولا أحرّم الاقتباس والاستفادة منه ولكن الذي أقبحه وأشمئز منه هو الاستعباد الفكري للغرب لأن هذا الاستعباد اذا تمكن من نفوسنا لن نستردّ حريتنا السياسية المغصوبة وان نجدد أسس قوميتنا المنهدمة . أقول هذا لأنني أخشى أن ينبذ فريق من القراء هذا الكتاب قبل أن يطلع عليه ، لا لأنه يستحق النبذ بل لأنه جاء من مصدر شرقي بحيث فيحسبه سخافة شرقية ، فلذلك أرجو من هو على هذه الشاكلة أن يتمهل في الحكم عليه ليقراه بامعان فان لم يحبه فليمره إن شاء ،

وانى تطينا هؤلاء أقول إن هذه الآراء ليست خاصة بهاندى وحده بل هناك فى أوروبا وأمريكا أيضا ثورة كبيرة على الطب وأساليبه وأدويته بل إن تقدم العلوم أخذ يهدم أركان هذا الطب الذى نسميه (الحديث) ويسمونه هنالك (القديم)

الى أن قال « إن هذا الزعيم كذلك يدعو الناس الى المعيشة الفطرية الساذجة ونبدالبدخ والترف الى التخلق بالأخلاق الفاضلة والمحبة الشاملة العامة والتمسك بجميع ما فى الأديان من الخير والتقوى وخشية الله والرافة بالبشر . ليت شعري كيف يكون عجب المعتزين بالمدينة الغربية اذا رأوا هذا الزعيم الهندي بأعينهم ، انهم ليرونه عاريا حافيا حاسرا قد تجرد من الملابس قائلا لا يصح لى أن أتجمل بالملابس والملايين الكثيرة من بنى جلدتى لا يجدون ما يسترون به عوراتهم ويقون به أجسادهم من الحرّ والبرد ، فتراه الآن متجردا ليس على جسده لباس اللهم إلا إزار صغير يستر به عورته . وكذلك شأنه فى مأكله ، لا يأكل المشتهيات والم لذات والأطعمة الشائقة ، ليس ذلك لأنه يرى رأى المتقشفين الغفل الذين يحرمون أنفسهم من الطيبات ويحسبون ذلك قربا الى الله بل يرى ذلك مضرا بالصحة البدنية والعقلية فلذلك نراه لا يأكل الملح ولا اللحم ولا العدس ولا الحبوب ماعدا خبز القمح نادرا وقد حصر غذاءه فى الفواكه وهو يكثر من أكل البرتقال والموز ويفضلهما على غيرهما من الفواكه »

الى أن قال « وأكبر دليل على قوته انه صام أربعين يوما متتابعة لم يذق فيها أى شئ ومع ذلك لا أغشى عليه ولا أحس بضعف بل مازال يكتب لجرائده المقالات ويغزل كل يوم من القطن المقدار الذى قرره لنفسه ومن أعجب ما رأيناه أنه بينما كان ثقله قد قل كثيرا فى الاسبوع الأول من الصوم حتى خافوا على نفسه أخذ يزداد وزنا بعد ذلك وقد تحير الأطباء فى تعليل ذلك . ثم انه فوق ذلك قد ملك زمام نفسه فيعيش كما قرّر لنفسه أن يعيش فلا ينام إلا القدر الذى قرّر أن ينام ويقوم بجميع أعماله بنظام تام بدون أن يطرأ عليه أى خلل ثم انه لا يغضب أبدا ولا يستعجل ولا يفرع بل يبقى دائما هادئا مطمئنا كأنه مالك نفسه سخرها فأصبحت له أطوع من بنانه . ومن عجيب أمره انه يعيش مع زوجته ولكنه يحسبها كأخته أو أمه كما صرح بذلك فى إحدى خطبه فقال « أنا وزوجتى قد اتفقنا على أن نعيش كالأخ والأخت أو كالابن والأب أو البنت والأم فأنا لها كأب وهى لى كأم » وكلامه هذا لا يرتاب فيه لأن عيشته مفتوحة وليست بسر وهو لا يكذب أبدا مهما اضطرت له الأحوال اه » هذا ما أردت نقله من ذلك الكتاب المذكور والحمد لله رب العالمين

وأقول ، إن هذا الزعيم الهندي قد جمع بين فضيلة الصيام وفضيلة الحج فاستفاد بهما صحة وقوة . هاهوذا تجرد من أكثر الثياب . وهاهوذا قلل الطعام فنال الصحة والعافية . ولست أقول ان هذا عبادة ولا انه يثاب عليها . كلا . لأن الصيام لا يصح إلا من مسلم وكذا الحج وأيضا الحج انما يكون بمكة لا بالهند ولكن ليس المقام فى خصوص التدين بل المقام فى أن منافع الصوم ومنافع بعض مناسك الحج فى حد ذاتها مقوية لصحة الانسان كما قرّرناه . فهذه فى الحقيقة دراسة للحج وللصيام من بعض الوجوه . وعلى المساهين بعدنا أن يتولوا هذه الدراسة ليتموا ما نقص فى أمم الاسلام . انتهى الكلام على المقال الأول

﴿ المقال الثانى ﴾ ماجاء فى مجلة « كل شئ » بتاريخ ١٨ يوايو سنة ١٩٢٧ تحت العنوان الآتى

(الصوم للمعالجة)

كان الناس ولا يزالون للآن يصومون للأغراض الدينية وقد يكون صومهم كليا أو جزئيا ، وفى الهند يعمد الصالحون الى الكف عن الطعام كلية جلة أيام ، ولا يزال بعض الأقباط فى مصر يصومون عن الطعام والشراب كلية ثلاثة أيام فى ذكرى يونس الذى بلعه الحوت ، أما الصوم الجزئى فى الامتناع عن اللحم كما يفعل بعض

المسيحيين الى الآن

وجميع الذين يصابون بكثرة الزلال في الدم أو بتصلب الشرايين ينصح لهم الأطباء بالامتناع عن اللحم وخاصة ذلك اللحم الأحمر والامتناع أيضا عن تناول زلال البيض ونحو ذلك بل من الأطباء من ينصح لكل من جاوز سن الأربعين أو الخمسين أن يمتنع كلية عن اللحم والاقتصار على الأغذية النباتية ، وقد فشت عادة الصوم في هذه الأيام حتى ان طبيبا فرنسيا يشير على كل انسان جاوز الأربعين أن يصوم صياما كاملا يوما في الاسبوع ، ويشير أيضا بأن يتعاطى مسهلا في الصباح حتى تبقى أمعاؤه فارغة لا يشغلها شغل يوما كل أسبوع ، ومن الأطباء من ينصح بالامتناع عن العشاء للسنين

ولكن فائدة الصوم ليست للأمعاء وحدها بل هي أيضا للجسم كله وذلك لأن الجسم اذا لم يحمل الدم الى خلاياه طعاما جديدا انكفأ على نفسه تأكل منه الخلايا القوية الخلايا الضعيفة وفي الوقت نفسه بزوال الشحم من الجسم تظهر المسالك وتحمل معها فضلات كانت تعوق الدورة الدموية فاذا انتهى الصيام بعد ثلاثين أو أربعين يوما لم يبق بالجسم سوى خلايا قوية . وللجسم عقل يهتدى به أيام الصيام فهو يتخلى عما لا فائدة فيه الى ما فائدته صغيرة ، أما الأنسجة التي لا يمكن للجسم العمل بدونها فلا تلتف من الصيام . فاذا شرعنا في الصوم فاننا نفقد أولا الشحم ثم اللحم ، أما الأعصاب ومادة الدماغ فلا تنقص درهما واحدا بعد صيام ثلاثين أو أربعين يوما وذلك لأن مادة الأعصاب ثمينة وعليها ميزان الجسم كله وعقله وهي اذا فقدت شيئا لم تستعص . أما اللحم والشحم فيمكن استعادتهما بعد فقدهما . والصيام الذي يمارسه الناس للعلاج الآن هو عن الطعام فقط . أما الماء فان الصائم يشرب كما يحب ويشتهي لأنه في حاجة اليه حتى يغسل خلايا جسمه وأنسجته ويحمل معه الفضلات ويظهرها منها ، وبعض الصائمين الآن يضع قطرات من عصارة الليمون أو الفاكهة أو الخضراوات الطازجة على الماء حتى لا يحرم الجسم من الفيتامين لأن جسم الانسان قد يستطيع أن يعيش بلا طعام نحو خمسين أو ستين يوما ولكنه لا يمكنه أن يبقى هذه المدة بالفيتامين

ويمكن كل انسان أن يمارس الصيام ولكن يجب الحذر من الإفطار لأن الصائم اذا بقي نحو عشرين يوما بلا طعام رقت جدران معدته وأمعائه واعتاد جسمه حالة الصوم فاذا فاجأ قناته الهضمية بطعام جامد فقد يؤذي نفسه بذلك أذى كبيرا إذ قد يغشى عليه من هذه الصدمة وقد ينخرق جدار الأمعاء أو المعدة ، فالإفطار يجب أن يكون رويدا رويدا حيث يتمصص الصائم جرعة بعد جرعة

ونحن نذكر فيما يلي تجارب المستر (ارفنج) وهو رجل انجليزي صام خمسين يوما بغية التخلص من ضعف المعدة وضعف الأعصاب الناشئ عن تراكم الفضلات في الجسم ، فقد قال انه ابتداء أول يوم من الصيام بأن شرب ستة أكواب من عصارة البرتقال وفي اليوم الثاني شرب أقل من ذلك من هذه العصارة أيضا وفي اليوم الثالث لم يشرب سوى الماء القراح وبقى على ذلك عدة أسابيع وكان أحيانا يمزج الماء بقطرات من عصارة الليمون . وبعدها الاسبوع الأول من الصيام زالت الشهوة للأكل فكان يتريض بالمشي ميلين أو ثلاثة في اليوم على مهل وفي غير مشقة وكان لسانه قد اكتسى بفرو أبيض يكاد ينفصل عنه اذا مسح . ويقول الراسخون في فن الصوم إن الصحة لا تعود الى الجسد حتى يزول الفرو الكاسي للسان . ولكن الواقع انه لا يزول تماما وإنما عند اقتراب نهاية الصوم يتحسن اللسان ويرق هذا الكساء من الفرو ، وكان المستر (ارفنج) قد هبط وزنه واستمر الهبوط الى الاسبوع الرابع حين وقف الجسم فلم يفقد في الأسبوعين سوى رطلين أو رطلين فقط . وفي اليوم الثامن والأربعين جلس في الشمس فنام نومًا طويلا استيقظ منه وهو في غاية الضعف وقضى اليوم التاسع والأربعين وهو في الفراش . وفي اليوم الخمسين عاد اليه نشاطه فنهض وزال عن لسانه بعض فروه فقمع بهذه المدة وخاصة عند ما رأى أن الآلام التي كان يشكو منها قد زالت كلها

أما كيفية رجوعه فانه شرب في اليوم الحسین نصف كوب من اللبن تمصه كما يمص الانسان الليمونة .
وفي اليوم التالي صار يشرب كوبا من اللبن كل ساعتين فيمتصها أيضا وبعد ذلك يتناول كوبا من اللبن كل
نصف ساعة واستمر على ذلك أربعة أسابيع تناول في نهايتها (عجة) وكان قد فقد في صيامه ٤٠ رطلا استعادها
وزاد عليها ، ومن غريب ما رأى انه كان يلبس نظارات لقصر نظره فلما صام عاد اليه نظره كله سليما اه
﴿ ضرب مثل لخال العابدين الذين يفكرون في العبادة بحال قراء القرآن بلا تعقل ﴾

اعلم أن مثل العباد الذين يعبدون ولا يفكرون في عبادتهم ولا يعرفون مقصودها كمثل من يقرأ القرآن
بلا فهم ولا عقل فكلاهما له ثواب على مقدار نيته ولكنهما في مرتبة ضعيفة ، هذا في القراءة وهذا في العبادة
فاذا فكر العابد وأدرك معاني الكلمات التي يقرأها في الصلاة التي يقيمها ومقاصد الزكاة التي يؤتيها ومناسك
الحج التي يؤديها وعبادة الصوم التي يتقرب بها كان هؤلاء كلهم أشبه بمن يفهم معاني القرآن ويعمل به ، فاذا
ارتقى العابد عن هذه الدرجة أدرك السر المصون والجوهر المكنون كالذي ذكرناه هنا في أسرار كان الاسلام
وانها بذور لسعادة انسانية عامة في الطب وفي الاجتماع والتعاون العام كان ذلك خليفة الله في أرضه وكان أشبه
بمن ارتقى عقله في القرآن وأدرك أن علوم الحكمة كلها وأسرارها موافقة للقرآن وأن هذه العلوم كلها لا تخالف
بينها وبين القرآن الذي أنزله الله بالوحي وانه كلما كان الانسان أضعف منزلة وأقل فهما وأسخف رأيا تباعدت
مسافة الخلف بين دينه وبين العلوم عند عقله ، وكلما ارتقت نفسه منزلة وازداد عقله كمالا تقارب العلم والدين
عنده على مقدار ارتقاء علومه وعقله والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

الجهاد على ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ جهاد بالفریزة . جهاد بالعقل . جهاد بالوحي . والأخيران أفضل من
الأول . إن الجهاد بالفریزة لا يهوزه عقل ولا فكر ولا روية فهو أضعف رتبة وأقل قيمة ، فأما الجهاد بالعقل
وبالوحي فهما أرقى منزلة وأكمل شرفا وأعظم قدرا

ألا ترى رعاك الله أن هذا الانسان فطر على ألا يحب إلا بممنوع وألا يفرح إلا بما تباعدت أقطاره وصعب نواله
وعز مطلبه وتمنع وتولى بركنه كما نرى أن الماس والياقوت والزبرجد وأمثالها من الأحجار الثمينة يحرص عليها
الناس كل الحرص لغلاء ثمنها وصعوبة مطلبها ووعورة طرقها وهم يشاهدون أمامهم في منازلهم وحقوقهم
وسماهم زهرا جيلا وكوكبا مشرقا متلاثلا أجل من الياقوت والماس والزبرجد وأبهج وأعلى ولكن الزهر
والسكواكب مبذولات والماس والياقوت ممنوعان ، لذلك رغب الناس في الممنوع وزهدوا في المبذول ولذلك
نجد السكواكب في السماء لا يفرح بها الجهلاء وانما يفرح بها المفكرون من العلماء ويحقرون الأحجار الثمينة
أنواع الزينة في هذه الأرض اذا وازنوها بما عرفوا من جلال السكواكب وسيرها في مداراتها ودقة حسابها
وبهجة نظامها ، فالجاهل وقف عقله عند الزبرجد والياقوت والعالم ارتقى فخرهما ولكنه سعى سعيا حثيثا
وجد حتى ارتقى الى الأفلاك . كلاهما لا سعادة له إلا بالجهاد . فالجاهل جاهد بالمال حتى نال الماس والزبرجد
والياقوت . هنالك وقف عقله وحط رحله وأنشد

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافر

والعالم جاهد جهاد الأبطال في ارتقاء عقله وبذل ثمن ذلك النوال بالسهر والنصب والتعب والجهد وأنشد

على قدر أهل العزم تأتي العزائم * وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها * وتصغر في عين العظيم العظائم

وقال آخر ومن تكن العلياء أكبر همه * فكل الذي يلقاه فيها محبب

وقال غيره فالدنيا ولا الدنيا وخير * من ركوب الخنا ركوب الدنيا

وقال غيره لا تحسب المجد تمرا أنت آكاه * لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إذا عرفت هذا فهناك نبذة في الجهاد بالفريزة ثم أتبعها بنبذة في الجهاد بالعقل ثم أذكر تأييد الوحي للعقل في الجهاد وذلك في ﴿ثلاثة فصول﴾

﴿الفصل الأول في الجهاد بالفريزة﴾

إن من قرأ هذا الكتاب أوجلة صالحة منه عرف كثيرا من غرائز الحيوان فإنه يراه مفرقا في سور كثيرة فانظر رعاك الله في (سورة النحل) وأعجب من نظامه ونظام الأرضة فانك تراها مرسومة هناك في جانب رسم ملكة النحل وجنودها المحيطين بها . فهاتان دولتان عظيمتان دولة الأرضة ودولة النحل ومثلها دولة النمل . الله أكبر . جل الله . إنك يا الله رحيم لطيف حكيم عليم ألهمت الأرضة فجعلت لها دولة لاتضارعها في أرضنا دولة من دول الانسان ولا الحشرات ولا الطيور وعدد كل دولة من دول الأرضة لا يعرف منتهاه فهي أعظم من مملكة النمل والنحل . وإذا كان الناس الآن وجدوا أن أعظم دولة للنمل عرفوها قد بلغت (٥٠٠) خمسمائة مليون نملة ولا نظير لها في الممالك الأرضية إلا الدولة الصناعية المتكلفة التي هي انكثرت بل هي لم تصل لهذا العدد مع ملحقاتها التي ليست ملتزمة بها إلتمام رعايا النمل . أقول عرف الناس ذلك كما تقدم فانهم لم يقدرُوا أن يحصوا مملكة واحدة من ممالك الأرضة كما تقدم شرحه في سورة النحل وسيأتي تمام الكلام على ذلك في (سورة سبأ) عند آية - مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته -

ها أنا ذا أيها الذكي ذكرت لك ممالك ثلاث أنت عرفتها في هذا التفسير مشروحة فاقراها في سورة النحل وفي سورة النمل وفي سورة سبأ وأقتصر لك عليها في بيان الجهاد بالفريزة . فهذه وغيرها من الطيور والحشرات وحيوانات البر والبحر نرى جهادها جهادا اجتماعيا لا فرديا فأيقنا بهذا أن الجهاد كلما كان من جمع كان أقوى وأعظم وكلما كان فرديا كان أضعف وأقل فائدة . والعبرة في هذا أن الناس كلما كانوا أكثر عددا في العمل والجهاد كانت الثمرة أضعافا مضاعفة على مقدار كثرة العدد على شرط أن تكون الجماعة مهما كثرت على رأى واحد ومشرب واحد وفكرة واحدة ونظام قوى متين . فاذا كان الجهاد بالفريزة الذي أثبتنا أنه أقل مرتبة من الجهاد بالعقل والوحي لم يكمل إلا بالاجتماع فليكن ذلك الاجتماع فيما هو أكمل منه أكثر وجوبا وأولى بالعناية . انتهى الكلام على الجهاد بالفريزة

﴿الفصل الثاني في الجهاد بالعقل﴾

أيها الذكي ، إن العلم سعادة وهناء ، وأي سعادة وأي هناء من أن نجد في هذا المقام أن غرائز الحيوان في اجتماعها قد اتصلت بأراء الحكماء والفلاسفة

أيها الذكي ، اننا بالبحث في العلم كلما أوغلنا ازددنا بهجة وسعادة ، وأي بهجة وأي سعادة أعلى وأدوم من اتفاق الغرائز في الحيوان مع عقول الحكماء في الشرق والغرب ﴿وبعبارة أخرى﴾ ان عقول الناس كلها انما تسعى لترجع العلم كله والحياة كلها الى مبدأ واحد وقاعدة واحدة ، فكما وصلوا لهذا التوحيد في عمل ما أحسوا بالهناء والسعادة وكلما تباعدت القواعد واختلفت الاصول كانت العقول أقرب الى الشقاء وأبعد من السعادة لما تجد من التناقض والاختلاف في هذا الوجود

هذه الحشرات وهذه الطيور وهذه الأنعام نرى أكثرها كبرت لها ممالك منتظمة أيما نظام متقنة أيما اتقان ، فهل تحب أن أثبتك نبأ عقول الحكماء والعلماء ، انظر كيف ضربوا الأمثال للاجتماع ، انما ضربوا الأمثال بنفس الحيوانات واجتماعها واتلافها واتحادها في طلب النافع والفرار من الضار ، وانما ضربوا هذه الأمثال بالحيوانات لأنهم أيقنوا بعقولهم انها لو فهم المقروء وكتابه -م المفتوح ومدرستهم العامة ، فالأهم قديما قبل نزول الانجيل والفرقان كانوا يضربون الأمثال بالحيوان للاجتماع وان كان ذلك ضربا من الصور على طريق الخيال لأنه أقرب الى الأفهام وأدعى الى الاقبال . يقصدون بذلك أن الجهاد يكون أتم كلما كان عدد

المجاهدين أوفر ونظامهم أتم . فانظر الى أمثال ﴿ كذبة ودمنة ﴾ الذى ألفه بيدبا الفيلسوف وترجه عبد الله ابن المقفع الى العربية بعد أن ترجمه (برزديه) الطيب الفارسي الذى كان أبوه من المقاتلة وأمه من عظماء بيوت الزمامة من الهندية الى الفارسية فان من الأمثال هناك ما جاء فى باب الأسد والثور من تمثيل (بيدبا) الفيلسوف رأس البراهمة للمتجابين يقطع بينهما الكذب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء ثم لا يلبث أن يتقاطعا ويتدابرا بالأسد والثور اللذين تحابا وحصلت بينهما المودة والمحبة . ثم جاء (دمنة) وأخذ يشي بينهما ويقول للثور يا ثور إن الأسد يريد أكلك وقال للأسد إن الثور يريد مقاتلتك وعلامة ذلك أنك اذا توجهت اليه وجدت حركات غريبة فلما رأى الأسد الثور خاف الثور واضطرب فظن أنه يريد مقاتلته ففتك بالثور الأسد ثم ظهرت الحقيقة بعد ذلك وحكم على (دمنة) جزاء كذبه

ومن تلك الأمثال مثل الحمامة المطوقة فقد ضربها ذلك الفيلسوف ليعلم الناس انهم يقدرّون على الاتحاد سواء أكانوا من وطن واحد وأمة واحدة أم من أوطان مختلفة وأمم كثيرة . ذلك أن دبشليم الملك قال لبيدبا الفيلسوف قد سمعت مثل المتجابين يقطع بينهما الكذب والى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك فحدثني ان رأيت عن اخوان الصفاء كيف ابتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض فذكر الحمامة المطوقة وهى سيدة الحمام إذ وقعت هى وهنّ فى الشبكة فخطبتهم خطبة قالت « لاتخاذلن فى المعالجة ولا تكن نفس إحداكن أحب اليها من نفس صاحبها ولكن تتعاون جميعا فترفع الشبكة » فلما علت الحمامات فى الجوّ استعانت المطوقة بمجرد كان صاحبها قديما يسمى (زيرك) فنزات معهنّ بالشبكة عنده فقرض الشبكة حتى فرغ منها ففتحت المطوقة وأخواتها . فلما رأى الغراب صنع الجرذ مع الحمام أحب مصاحبته وانضم اليهما السلحفاة والظبي . فكما تعاون الحمام الذى هو من نوع واحد تعاون الغراب والظبي والجرذ على نجاة السلحفاة حين جاءها الصياد ليقنصها . هذه أساليب تلك الأمثال التى ضربها حكيم الهند لجهاد الانسان المؤيد بالجماعة انتهاجا لخطه الحيوان بغريزته وبهذا انتهى الكلام على الفصل الثانى

﴿ الفصل الثالث فى الجهاد بالوحى الذى هو أعلى من سابقه ﴾

قد ذكرنا آنفا أن الهدى ﴿ ثلاث طرق ﴾ طريق الغريزة ، وطريق العقل ، وطريق الوحى ، وكل مرتبة أرقى مما قبلها وأقلّ مما بعدها ، وربما يظنّ قوم أن غريزة الحيوان كوحى الأنبياء وربما يستدلون بقوله تعالى - وأوحى ربك الى النحل - وهذا خطأ فان الغريزة فطرية ساذجة وان كانت صادقة والوحى أمر علوى يحكم العقل ويصقله ويرقيه ، فالوحى جاء لتنظيم العقول والغريزة لنظام العمل فى الحيوان والعقول الانسانية أرقى من الأعمال الحيوانية ومنظم الأعلى أرقى من منظم الأدنى

هأنذا رأيت غرائز الحيوان فهى بها مجاهدات وعقول الحكماء وتعليمهم للناس فقد جاء على مقتضى غريزة الحيوان ، فهل لك أن أسمعتك ما جاء بالوحى فاقرأ ما سمعته واعجب من هذا الوجود ، حيوان ذوا اجتماع بغريزته وانسان يتعلم الاجتماع بتعليم حكمائه ثم أنبياء نراهم ينظمون اجتماع الانسان على نسق غرائز الحيوان وحكمة الحكماء فى الانسان بحيث يصقل تلك العقول ويهيئها

فاسمع ما أقصه عليك من جهاد رسول الله ﷺ عسى أن نهيج نهجه . فانظر كيف كاتب الأمراء والملوك وحملهم على التآلف والتآزر والمودة والاخلاص حتى اتحدوا والتأموا وصاروا أمة واحدة يشار اليها بالبنان . فهذه جهاد الغريزة وجهاد العقل اللذان بدأهما الله فى الحيوان والانسان أكملهما بما هو أعلى فأرسل نبينا ﷺ يذكر العقول بما اختبأ فيها من الكمال الفطرى - انما أنت مذكر - إنا نحن نزلنا الذكر - فما الوحى إلا تذكير للناس بما سترته عاداتهم وتقاليدهم عن فطرتهم الشريفة الالهية المستمدة من سماء الكمال وكمال الجلال

(خير مناهج الجهاد)

اعلم أن للجهاد مناهج وطرقا مذلة عبدها (بتشديد الباء) أناس مضوا قبلنا وخير المجاهدين من درس سير العظماء والعلماء والحكماء ، فلتقرأ أيها الذكي سير أولى العلم والحكمة واعلم أن الله ما خلقنا في الأرض إلا لننمي كل قوانا التي خلقها فينا وفصلها تفصيلا . أما والله ليس أن كل امرئ عن هذه الأعضاء المفصلة وهذه الحواس المكملة وهذه العقول المحكمة وعما أعطيت من نعم وما أتيح لها من قوى وقدر

واعلم أنك مسئول عما أودع فيك من هذه العطايا والنعم فجاهد أمد الحياة ولتبدأ بجهاد نفسك ، فإذا رأيت منها خورا أضعف عزيمته فاستعن بالله وأدم الدعاء وثق به فإنه يجيب دعائك لاسيما إذا كان هذا الدعاء عن شدة ولوع بما تدعوا اليه فتكون أشبه بالمضطرفهنا الاجابة محقة لاشك فيها

وخير من تقتدى بهم في جهاد نفسك وفي ارشاد غيرك رسول الله ﷺ فإذا أملت بك حاجة فادع كما دعا رسول الله ﷺ إذ يقول « اللهم إني أسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سرّي وعلايتي لا تخفى عليك شئ من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير والوجل المشفق المعترف بذنوبي أسألك مسألة المسكين وأتهل اليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبة وفاضت لك عيناه وذل جسده ورغم أنفه لك ، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رؤفًا رحيمًا يا خير المسؤولين ويا خير المعطين »

ومن دعائه ﷺ في الاستسقاء « اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا مغيثا صريحا (١) نافعا غير ضار عاجلا غير آجل » ومن دعائه « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام (٢) والجبال والظراب (٣) وبطون الأودية ومنابت الشجر » ومن دعائه « اللهم اسقنا غيثا مغيثا صريحا غدقا مجللا (٤) عاما طبقا (٥) سحبا (٦) دائما ، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللاؤاء والجهد (٧) ما لا نشكوه إلا اليك ، اللهم أنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع واسقنا من بركات السماء وأنبت لنا من بركات الأرض ، اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعري واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إني كنت غفارا فأرسل السماء علينا مدرارا »

وإذا أصابك هم أو دين فقل ما أمر به رسول الله ﷺ « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » فإذا دعوت به وداومت فإن الله يجيب دعائك كما روى في الحديث وهكذا من الأدعية التي وردت في الصحاح ، فإذا قويت نفسك وهذبت ورأيت فيها ميلا قويا إلى الارشاد والنفع العام فاعلم انه لا يقف أمامها ما يمنعها ولا يصدها أحد في العالمين . وإياك أن يصيبك خور أو ضعف واسمع مارواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شئ فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل

(١) المرء الطيب السائح والمريع المنصب وكلاهما بوزن كريم

(٢) جمع أكمة وهي الراية

(٣) الجبال الصغار واحدها ظرب ككتف

(٤) الغدق المطر الكبار القطر ، والمجل الذي يجلل الأرض ويعمها بمائه أوبناته

(٥) مائلا للأرض مغطيا لها

(٦) قوله سحبا بفتح السين وتشديد الحاء أي دائم النزول

(٧) اللاؤاء الشدة والجهد المشقة كقف

الشیطان » واعلم علما ليس بالظن أن الله لما خلق هذه النفوس الانسانية جعل قواها موزعة على ما يحتاج اليه النظام . واعلم انك اذا منحت منحة إفاضة الخير والارشاد والتعليم فان تأثيرك على سامعك حاضرا وعلى قارئ كلامك غائبا لن يكون إلا على مقتضى ما تملى به نفسك فعلى مقدار الأحوال المضمرة في نفسك تكون نتائج كلامك . اننا نرى النار تحرق بجوهرها وكذلك الماء يحيى بنفس جوهره لا بهوارض فيه وهكذا السم السم في الإهلاك والسواء في الشفاء . كل هذه مؤثرات بأنفسها وطبائعها هكذا شأن التعليم والارشاد ، فاذا رأيت نفسك متجهة وطال الأمد على هذا الاتجاه فاعلم انك رجل قد أذن لك وقد اصطفت لترقية العقول واصلاحها فشمع عن ساعد الجد وادرس سيرة رسول الله ﷺ وسير الصحابة وعظماء الأمة وحكماءها واقف آثاره ﷺ في وعظه وارشاده للأفراد وللجماعات الذين كانوا معه ولمن بعدهوا عنه ، فاذا رأيت هذا كله مفروسا في نفسك من غير تكاف ولا تصنع فاعلم انك منصور مقبول الوعظ والارشاد فجاهد في الله بعد أن تقرأ أمثال ما قاله ابن شهاب « بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول اذا خطب ، كل ماهوات قريب لا بعد لما هو آت ولا يجعل الله لهجة أحد ولا يخف لأمر الناس ، ماشاء الله لا ماشاء الناس ، يريد الله شيئا ويريد الناس شيئا ماشاء الله كان ولو كره الناس ، ولا مبعده لما قرب الله ولا مقرب لما بعد الله ولا يكون شيء إلا باذن الله » وهكذا تقرأ خطبته ﷺ لما قدم المدينة * قال ابن اسحق « كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل . انه قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال (أما بعد) أيها الناس فقد تموا لأنفسكم تعلق^(١) والله ليصعقن^(٢) أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولي فبلغك وآيتك مالا وأنزلت عليك فاقدمت لنفسك ؟ فليظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ثم لينظرن قدومه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يتقى بوجهه من النار ولو بشق من تمر فليفعل ومن لم يجد فبكامة طيبة فانها تجزى الحسنه بعشر أمثالها الى سبع مائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

قال ابن اسحق . ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال « إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينته الله في قلبه وأدخله في الاسلام بعد الكفر فاختره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تنقس عنه قلوبكم فانه قد سماه خيرته من الأعمال فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم . إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٣) »

وتقرأ ما ورد عن أحمد بن حنبل انه ﷺ قال « أما بعد فان رجلا يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض وانهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله تبارك وتعالى يعتبر بها عباده فينظر من يحدث منهم توبة الخ » وتقرأ خطبة حجة الوداع . لما زالت الشمس يوم عرفة أمر ﷺ بناقته القصواء^(٤) فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي فخطب الناس خطبة عظيمة نذكر لك نصها من رواية ابن هشام في سيرته وهاهي ذه

(١) بنون التوكيد

(٢) من باب علم

(٣) روى ذلك هناد وعن أبي سامة مرسل

(٤) القصواء لقب ناقة رسول الله ﷺ ولم تكن قصواء أى مقطوعة طرف الأذن

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحسبكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير ، أيها الناس اسمعوا قولي فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها وأن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وأن أول دماءكم أضع دم بن ربيعة بن الحارث (وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل) فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية (أما بعد) أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسيء (١) زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليه (٢) ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . (أما بعد) أيها الناس فان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه . وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا فانهم عندكم عوان (٣) لا يملكن لأنفسهن شيا وانكم انما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين اخوة فلا يحل لمسلم من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، أأهل بلغت ؟ فقال الناس اللهم نعم فقال رسول الله ﷺ اللهم اشهد »

فاذا قرأت هذه الخطب وأمثالها علمت أن لكل مقام مقالا واتهمزت فرص الحوادث والوقائع وهنالك يسمع قولك ويهش السامعون له وييشون . فانظر كيف انتهز ﷺ فرصة كسوف الشمس وجعلها موضوع وعظ . فهكذا فليكن تعليمك على حسب الوقائع والأحوال ولتكن أنت نبراس زمانك باجتهادك أنت نفسك واذا رأيت ظمأهم وفتنا طمت فتفكر في قوله ﷺ في بعض خطابه ﷺ أما بعد فان الدنيا خضرة حارة وان الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء ، ألا إن الغضب جرة توقد في جوف ابن آدم ، ألا ترون الى حجرة عينيه وانتفاخ أوداجه (٤) فاذا وجد أحدكم شيا من ذلك فالأرض الأرض ، ألا ان خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا ، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا . فاذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء النفي وسريع الغضب سريع النفي فانها بها . ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب وشر التجار من كان سيء القضاء سيء الطلب . فاذا كان الرجل حسن القضاء سيء الطلب أو كان سيء القضاء حسن الطلب فانها بها ،

(١) النسيء التأخير في الوقت . كان العرب يؤخرون بعض الأشهر الحرم الى شهر آخر

(٢) ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم

(٣) عوان بالفتح معينات لأزواجهن أو عوار كما في رواية أي أمانات عندكم

(٤) الأوداج عروق الدم في العنق

ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته . ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامّة . ألا لا يمنع رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه . ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند أمير جائر . ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه ﴿

وهي نفسك لتذكير الناس بأمثاله . ومتى علمت قبول جهادك فيمن يليك ورأيت النفوس مشرقة لما تقول متبعة طريقك في جهادك وأن عواطفك قد أشربت قلوب من حولك بتأثير وعظك وهديك فهناك يجب عليك أن تخاطب من بعد عنك كما فعل رسول الله ﷺ . قد كان رسول الله ﷺ يريد أن يجعل الناس كلهم في الأرض أمة واحدة فلننسخ نحن على منواله ولنوقظ العقول الإسلامية لتتجه لإصلاح الأرض مع الأمم . أفلا تعجب منه ﷺ إذ أخذ يدعو الأمم أمة فاقراً ما كتبه ﷺ إلى صاحب اليمامة

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوزة (١) بن علي . سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والحافر (٢) فأسلم تسلم واجعل لك ماتحت يديك (وكان الحامل لهذا الكتاب سليط (٣) بن عمرو العامري فأكرم هوزة وفادته) وكتب إلى النبي ﷺ يقول ما أحسن ما تدعوا إليه وأجله والعرب تهاب مكاني فاجعل إلى بعض الأمر أتبعك وأجاز سليطاً بجائرة وكساه أثواباً من نسج هجر فقدم بذلك كله إلى النبي ﷺ فأخبره وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال لوسائلي سبابة من الأرض ما فعلت باد وباد ما في يديه . وقد مات هوزة مرجع رسول الله ﷺ من الفتح »

ثم اقرأ ما كتبه إلى ملك عجمان « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر (٤) وعبد ابن الجندى (٥) سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوكم بدعاية الاسلام أسلموا تسلموا فاني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين وأنكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرّا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيل تحلّ بساحتكما وتظهر نبؤتي على ملككما وقد بعث بالكتاب مع عمرو بن العاص نخرج به حتى وافى عجمان ، قال عمرو فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً فقلت إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك فقال أخي المقدم عليّ بالسن والملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال وما تدعو إليه ؟ قلت أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وتخلع ما عبد من دونه وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فان لنا فيه قدوة . قلت مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت انه كان أسلم وصدق به وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للاسلام قال فمتى تبعته ؟ قلت قريباً فسألني أين كان اسلامك ؟ قلت عند النجاشي وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال فكيف صنع قومه بملكك ؟ فقلت أقرّوه واتبعوه . قال والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم . قال انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في رجل أفصح له من الكذب . قلت ما كذبت وما نستحلّه في ديننا . ثم قال ما أرى هرقل علم بالاسلام النجاشي . قلت بلى . قال بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت كان النجاشي يخرج له خرجاً فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال لا والله لوسائلي درهما واحداً ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه أئدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً . قال هرقل ، رجل رغب في دين فاختره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال أنظر ما تقول يا عمرو . قلت والله صدقتك قال عبد فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه . قلت يأمر بدعاة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر

(١) هوزة بوزن جوزة

(٢) الخلف للبعير والحافر للفرس وبطلقان عليهما

(٣) سليط بوزن جميل

(٤) بوزن جعفر (٥) بضم ففتح فسكون وهو مقصور

وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال ما أحسن هذا الذى يدعو اليه لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا . قلت إنه إن أسلم ملكه (بتشديد اللام) رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فبردها على فقيرهم . قال إن هذا خلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقات في الأموال حتى انتهت الى الإبل قال يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه . فقلت نعم . فقال والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا قال فسكت ببابه أياما وهو يصل الى أخيه فيخبره كل خبرى ثم إنه دعاني يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي^(١) فقال دعوه (٢) فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس فنظرت اليه قال تسكلم بحاجتك فدفعته اليه الكتاب مختوما ففرض خاتمه وقرأ حتى انتهى الى آخره ثم دفعه الى أخيه فقراءه مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه ارق منه قال ألا تخبرني عن قریش كيف صنعت . فقلت تبعوه إما راغب في الدين وأما مقهور بالسيف . قال ومن معه ؟ قلت الناس قد رغبوا في الاسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال فما أعلم أحدا بقي غيرك في هذه الخرجة وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعه توطئك^(٣) الخيل وتبيد خضراك فأسلم تسلم ويستعماك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال . قال دعني يومى هذا وارجع الى غدا فرجعت الى أخيه فقال يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه حتى إذا كان الغد أتيت اليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت الى أخيه فأخبرته أنى لم أصل اليه فأوصلنى اليه . فقال إني فكرت فيما دعوتنى اليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا مافى يدي وهو لا تبلغ خيله هنا وإن بلغت خيله ألفيت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت وأنا خارج غدا فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه . فقال ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل اليه قد أجابه فأصبح فأرسل الى فأجاب الى الاسلام هو وأخوه جميعا وصدقوا النبي ﷺ وخليا (بتشديد اللام) بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانوا على من خالفنى .

وهكذا تتأمل كتابه ﷺ الى المنذر بن ساوى . بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي الى المنذر ابن ساوى وكتب اليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، أسلم أنت فاني أجد اليك الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبى فعلية الجزية فأسلم ، وكتب الى رسول الله ﷺ (أما بعد) يا رسول الله فاني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث الى في ذلك أمرك ، فكتب اليه رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فاني أجد اليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله (أما بعد) فاني أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح إنما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا واني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعتلك عن عمالك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية ﴾

وبعد ذلك تنظر مكاتبة ﷺ الى ملك الحبشة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة ، أسلم أنت فاني أجد اليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله و كلمته أنقأها الى مريم البتول^(٤) الطيبة الحصينة فملت بعيسى نخلته الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاته على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالنبي

(١) الضبع وسط العضد أو ماتحت الابط وقوله بضبعى مشى ضبع بوزن قلب

(٢) بالبناء للمجهول (٣) بتشديد الطاء (٤) البتول أى العابدة

جاءني فاني رسول الله واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى . وقد بعث النبي ﷺ بكتابه هذا مع عمرو بن أمية الضمري (١) فقال للنجاشي يا أحممة إن على القول وعليك الاستماع إنك كأنتك في الرقة علينا وكأنا في الثقة بك منك لأننا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك . الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجوز وفي ذلك الموقع الجز واصابة المفصل والا فأت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرق النبي ﷺ رساله الى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمنتك على ما أخافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر فقال النجاشي أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب وأن بشاره موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل وأن العيان ليس بأشقي من الخبر . ثم كتب النجاشي كتاب جواب النبي ﷺ الى محمد رسول الله من النجاشي أحممة ، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فو رب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقا (الفلافة بين النواة والقشر) إنه كما ذكرت وقد عرفت ما بعثت إلينا وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ﴿

وهكذا تفكر في كتابه ﷺ الى كسرى ملك الفرس ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة - لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين - أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس . فلما قرئ عليه الكتاب من رقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال مزق الله ملكه وقد كان ﴿

ثم نقرأ كتابه ﷺ الى المقوقس ملك مصر والاسكندرية وهذا نصه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فاني أدعوك بدعاية الاسلام (٢) أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط - يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم - الآية ، وقد بعث به ﷺ مع حاطب بن أبي بلتعة فلما دخل على المقوقس قال له إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال (٣) الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بعيرك ولا يعتبر غيرك بك . فقال إن لنا ديننا لن ندعه إلا لما هو خير منه . فقال له حاطب ندعوك الى دين الاسلام الكافي به الله فقد ماسواه . إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشاره موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إليك الى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل وكل نبي أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبي ولسنا ننهك عن دين المسيح ولكننا نأمر بك به . فقال المقوقس إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوة باخراج الخبء (٤) والاخبار بالنجوى (٥) وسأ نظر وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه الى جارية له ثم دعا كاتبه له يكتب بالعربية فكتب الى رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك (أما بعد) فقد قرأت كتابك

(١) بفتح الأول

(٢) دعوته وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل

(٣) النكال العقاب الذي يزجر الغير (٤) المختبئ (٥) السر

وفهمت ماذا كرت فيه وما تدعوا اليه وقد علمت أن نبيا بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين هما مكان في القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك ولم يسلم ﴿ وهكذا تقرأ كتابه ﷺ إلى هرقل ملك الروم وهذا نصه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فإني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (١) - يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فاقولوا أشهدوا بأننا مسلمون - ولما قرأ هرقل الكتاب فكر في الأمر ثم جمع عظماء الروم في قصره بجمص (بكسر الحاء) ثم أطل عليهم فقال « يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبأي هؤلاء النبيّ خاصوا (٢) حيصة حجر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال ردوهم عليّ وقال إني قلت مقالتي آنفا (٣) أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت » فسجدوا له ورضوا عنه ﴿

فاذا تبعت أمثال هذه المكاتبات والخطب ألفتها ﷺ يخاطب الأمراء في بلاد العرب بأسلوب غير الذي يخاطب به الملوك ويعطى كل ذي حق حقه . ألا تراه يقول لملك الحبشة ﴿ وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ﴿ ولكنه يقول لملك عمان وأخيه ﴿ وانكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وان أبيتما أن تقرّا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما ﴿ فانظر الفرق بين الكتابين اللذين اختلفا على مقتضى الحالين

فاذا قرأت هذا وأمثاله هنالك تعرف كيف ترقى الأمم الاسلامية الآن وكيف تتحد مع غيرها في الأعمال النافعة وانظر تلتطف حاطب بن أبي بلتعة مع المقوقس وقوله له ﴿ لسنا نهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به ﴿ وهذا أمر عجيب ووازن بين هذه المعاملة ومعاملة ملك عمان . إن هذه الأحاديث والأخبار تعطينا فكرة عامة وهي أن نلبس لكل حال لبوسها ونجد في رقي الأمم الاسلامية ونكلم كل امرئ بما يصلح له ولا تنفرا ممة منا إذن دين الاسلام في مستقبل الزمان سيقوم به قوم أرقى وأعلى من رجال تقدمونا بعد العصر الأول الذي هو خير العصور والعصرين بعده وسيكون اصلاحا لجميع الأمم والحمد لله رب العالمين

(بيان عام في أمر الجهاد)

للك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة . رأينا جبال صنعك وحكمك البالغة التي نظمت بها الأفلاك في علاها والحيوانات في فلالها والأمم في هداها

يقف المصلي ذا كرا رحمتك بسم الله الرحمن الرحيم يكررّها كل حين ويعترف بأنك أنت ربيت جميع العوالم مع رحمتك التامة وحكمتك الشاملة وقيامك بالقسط فيها وعدلك في الحكم وهو قد شاهد نظامك في حركات الأفلاك ومداب الأسماك فيطلب إذ ذاك هدايتك لصراطك وما صراطك إلا شمول الرحمة وعموم الحكمة والنظام - مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم - فصراط ربي تألف الطيور في الهواء والأنعام في العراء وعيشها بسعادة وهناء وصراط ربي أن يلهم أمثال (بيدبا) كما ذكرناه آنفا أن يصوغ الحكم ويعلم الناس الاتحاد تشبها بالجمامات وبالجمامة المطوقة مع الفار والسلحفاة والغراب وصراط ربي أن يتحد الناس على المنافع العامة . اللهم إنك أنت الذي ألهمت النمل فأحكمت نظامها وعلمت النحل فهديتها طرقها ورسمت للحكماء رسما في عقولهم فنسجوا على منوالك في إلهامك الحيوان ، ولعمري ما مكاتبه رسول الله ﷺ

(١) جمع أريسي نسبة إلى أريس كنفيل وهو الفلاح

(٢) نفروا (٣) قريبا

الى ملك عمان والحبشة ومصر والروم والفرس إلا على نهج صراط الله في الهداية فهناك هداية بالغرائز أولا
وبالعقول ثانيا وهنا هداية بالوحى الذى نزل ليصقل العقول ويجمع الشتات ويؤلف بين القلوب ، سبحانه
اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت الحكيم العليم

﴿ زيادة ايضاح ﴾

أنت يا الله جعلت صلاة المصلى شاملة معانى عامة إذ يلحظ نظام السكواكب وتجاذبها ونظام الجسم الانساني
في دعاء الركوع والسجود فيرى انتظام الوضع بين السكواكب وانتظام الحركات في سيرها وجمال الترتيب
والتنسيق والجنردة والاتساق في السمع والبصر والمخ والعظم والعصب وما استقلت به القدم فلا يسهه إلا أن
يطلب أن يكون الناس في اتحادهم على مقتضى ما شاهد في الآفاق وفي جسمه وهنالك يرى أن الهداية للصراط
المستقيم هي صراط الله الذي له مافى السموات ومافى الأرض كما انها هداية الله الذي - مامن دابة إلا هو آخذ
بناصيتها - واذن يرى المصلى أن الصراط المستقيم في الفاتحة هو صراط المنعم عليهم لا صراط المغضوب عليهم ولا
صراط الضالين فان هاتين الطائفتين لم يخلقوا للنظام العام وسعادة الأمم فان أهل الغضب والضلال متساكسان
وهل يجمعهما إلا المهديون الى الصراط المستقيم وهذا هو الذى حصل أيام النبوة ﷺ ما كاد يسمع آية
- قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا
أربابا من دون الله - حتى أرسل رساله الى الأمصار وخاطب الملوك يريد أن يكون النوع الانساني على وتيرة
واحدة من حيث نظام السياسة ويجعل أولئك الذين على صراط مستقيم مسيطرين على أولئك المغضوب عليهم
والضالين . أرسل ﷺ رساله وقواده وجيوشه وكان ذلك كله بلذة روحية فكان الصحابة والتابعون لا يريدون
إلا وجه الله وان من قرأ سير الصحابة والتابعين ودرس محاورات هؤلاء مع الملوك والأمراء كما تقدم في
محاورة حاطب بن أبي بلتعة مع من أرسل اليه من الملوك ومحاورة عمرو بن العاص كذلك وقرأ ما تقدم في
(سورة الكهف) محاورات عبادة بن الصامت مع المقوقس وكيف كانوا يفحسونهم في الخطاب ويدعون للحق
فالحق والحق أقول لولا هذه اللذة الروحية ما توغل المسلمون في بلاد الله شرقا وغربا . إن الله جعلهم
رسل نظام عام على شريطة أن يكونوا رحمة للأمم على مقدار ما تتحمله هذه الطبيعة الطينية . ياسبحان الله
بقيت هذه الخصلة (٣٠) سنة كما قال ﷺ ﴿ الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون ملكا عضوضا خلف من بعد
الخلفاء ملوك لم يكونوا كالخلفاء ﴾ . إن الخلفاء كانوا يعامون مقصود النبوة فخرموا على أنفسهم مال المسلمين
علما منهم أن الأمة اذا انغمست في الشهوات زال ملكها في الدنيا وعذبت في الآخرة . ناهيك ما تقدم في
آخر (سورة القصص) من حكاية الربيع بن زياد لما وفد على عمر رضى الله عنه فقرأه تجد أنه خاف من قوله
تعالى - أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون
في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون - ماذا كان يخاف عمر ؟ خاف عذاب الهون وخاف عذاب الخزي
في الحياة الدنيا اذا استمتع بالذات ولذلك لم يبيع لنفسه أن يتخذ ما كل لمجرد اللذة

هذا هو رأى أكابر الصحابة ، حرم عمر على ابنته أن يضمخ ثوبها بطيب المسلمين ونظيره في ذلك أبو بكر
وبقية الخلفاء الراشدين ، خلف من بعدهم خلف بعضهم أضعوا النخوة والعزة وتلهوا بالتفنن في اقتناء
الجوارى والانغماس في اللذات بعد الغزوات فكانوا لا يبالون باذلال الأمم ولا باذلال المسلمين وأخذوا ببعض
الدين وتركوا بعضه . ذلك ان الله أباح الأسر ولكنه يقول - فلاقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك
رقبة * أو اطعام في يوم ذى مسغبة * يتما ذا مقربة * أو مسكينا ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا
بالصبر وتواصوا بالمرجة * أولئك أصحاب الميمنة - فالله أول ما ذكر في هذه الآية قال - فك رقبة - إذن
فك الرقبة أهم مابه تقتحم العقبة وذكر بعدها الإطعام ثم ذكر الايمان مع الصبر والمرجة . إذن هنا فك الرقبة

أولاً والمرجة آخر وهكذا دخل العتق في أكثر أبواب الفقه

إنه ﷺ أرسل لمنفعة الأمم ولما وجد النوع الانساني قد تأصلت فيه عادة الأسر أبيع له أن يأسر كما تأسر الأمم فلوانه حرم أسرهم على المسلمين لا ترضوا فانهم في الحرب يأسرهم غيرهم اذا غلبهم واذا غلبوا غيرهم لا يأسرونهم وهذا هو هلاك الأمم الاسلامية وظلمهم ، لذلك أباح أخذ الاسرى ورغب في العتق وجعل بين المعتق والعتيق ولاء ومودة حتى ان المعتق يرث من أعتق كالقريب . ومعنى هذا كانه أن يكون الأعداء أصدقاء (وبعبارة أخرى) تصبح الأمم المغلوبة مندجة في الأمم الغالبة بطريق الولاء الذي هو كالنسب هذه الأحكام لامندوحة عنها ، فالمسلمون يأسرون غيرهم ثم يعتقونهم وخير من هذا أن يمنوا عليهم فلا أسروا ولا فداء . وكل هذا كان موكولا للملك والمالوك كانوا يستبدون بالأمر ، ثم تغاضى المسلمون بعد ذلك عما يسمعون من أخلاق أبي بكر وعمر وعلي وأمثالهم فاستباح المالوك لأنفسهم كل أنواع الزينة والفسوق وجهلوا تلك الأخلاق الفاضلة ، واذا سمعوا قوله تعالى ... فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا - أوسمعوها الآية المتقدمة التي أخافت عمر رضى الله عنه وهي - أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها - الخ يقولون هذه وردت في الكفار فأصبح فهم المتأخرين غير فهم المتقدمين فانغمسوا في اللذات فذهبت نخوتهم ودولهم وعزهم والله لا يظلم الناس شيئا

إن رسول الله ﷺ كان هو الذي يقتبس منسه الصحابة الحقائق ثم انكمش المسلمون وتركوا هذه الفضائل واقتصروا على الفقه وظنوا أن الحرام والحلال كافيان في الاسلام وتركوا آيات كثيرة جدا ظنوها نزلت في الكفار أوفى المنافقين ، فبهذا صار الاسلام غريبا وكيف لا يكون غريبا وآيات العبر ونظام الأمم قد تركت وجعلت خاصة بقوم غيرنا . إذن بعض المسلمين صدق عليهم قوله تعالى - واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول - فالترفون في الآية هم أنفسهم الذين قال الله فيهم - أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا - الخ . سرفى بلاد الاسلام شرقا وغربا فانك لا تجد لهذه المباحث العامة راجا اللهم إلا في هذا الزمان فان النهضة قد سرت بين المسلمين وسيتم أمرها ، واعلم أن المسلمين في زماننا لاملجأ لهم إلا أن يقوم فيهم مجددون مصلحون ينهرون السبل ويوضحون الطرق ، واني أجد الله عز وجل أن يكون هذا التفسير قد جعل فيه روح الإصلاح ، وهناك كتاب في بلاد الاسلام معروفون يسرون على منهج الإصلاح وهذا زمان النهضة وسياخذ حظه ويرقى الأمم التي تدين به ان شاء الله

﴿ جهاد بعض المتأخرين من الأمم الاسلامية السابقة جهاد خذلان وانتكاس ﴾

لقد طال الأمد على أمننا الاسلامية ففست القلوب وكثر الفسق والفجور فأين الجهاد ؟ والجهاد يراد منه الإصلاح ، وكيف تصلح أمة انغمست في الشهوات وتلى فيها المصلحون بعد العصور الأولى وكلما عمادى الزمان ازداد العصيان بسبب الترف والجهل العميم . فوازن رعاك الله بين أزمان النبوة إذ أريد جعل أهل الأرض أمة واحدة وبين أيام انحطاط دولة العرب باسبانيا وطردهم منها في كلام العلامة (سديو) الفرنسي وهذا نصه

﴿ الباب الرابع في انحطاط دولة العرب باسبانيا وطردهم منها ، وفيه « خمسة مباحث » المبحث

الأول » في وقوع عدة ممالك اسلامية من اسبانيا تحت حكم ملوك النصارى ﴾

نعود الآن الى ما سلف من تاريخ عرب اسبانيا فنقول ﴿ لما أغارت الأهالي على عساكر الموحدين المحافظين باسبانيا أوقعوا بهم أول نكبة وأخطبها لسكرتهم أباطوا عنهم جورا يلزمهم أن يستعدوا عقبه لصد النصارى بتجديدهم للحكومة مركزا عموميا تفنى عليه المصالح العامة لسكرتهم عدلوا عن ذلك وأخذ كل ينظر في مصالحه الخاصة ، ولذا انقسمت الحكومة الاسلامية الى عدة دول صغيرة مستقلة عن بعضها لم يكن منها ذات شوكة في الجلة إلا مملكتا (والنسة) و (الجرو) ومملكتا (ابن هود) و (محمد الجار) وكان ذلك التفرق مساعدا

للفرنج على أخذهم عدة ممالك واحدة بعد أخرى

ثم قال **وسلك** (فرينند) مسلك السياسة بتوليته محمد الجار على جميع بلاده الرحبة الممتدة من حدود الجزيرة الى المرية بين جبل طارق وهو يسقه بشرط أن يؤدى له جزية كل سنة وجنودا زمن الحرب ويذهب الى المشورة التي تنعقد في (قسطنطينة) ثم حاصر فرينند ومعه محمد الجار مدينة اشبيلية التي كانت كرسى سلطنة المرابية والموحدين فقاومه أهلها زمنا طويلا لورود مدد اليهم من الوادى الكبير وعبورهم قنطرة من سفن على هذا النهر الى مدينة تريانة المشتملة على لوازمهم فجهر (فرينند) في جون بسقاية ومينيات اقليم جاليسة سفنا صغيرة استولى بها على مصب نهر الوادى الكبير ثم ألقى سفنا كبيرة كسرت تلك القنطرة بشراعهاف كان لأهل اشبيلية مجاعة سلموا بها المدينة الى فرينند سنة ١٢٤٨ بشروط توافقتهم لبيع أملاكهم ميعادها أطول من ميعاد أهل (والنسة) وقد تيسر لهم بأخذ (مدينة اشبيلية) سرعة انقياد جميع البلاد التي على ميمنة نهر الوادى الكبير وجالوا حين استيلاء البرتغال على مدينتي لولة وإيامنتة سنة ١٢٤٩ بسواحل البحر التي بين نهر الوادى الكبير والوادى اليانغ جولة منتصر مؤيد فأخذوا مدنا بعضها للمسلمين

فانظر كيف ترى (فرينند) مع محمد الجار يحاربان (أشبيلية) وقد سلمت لفرينند أى ان الأمير المسلم يساعد الفرنجى على أن يملك بلاده اسلامية ، ذلك لأن الترف والنعيم هما اللذان يقعدان بالأُمم عن المعالي ثم تأمل ما تقدم في المجلد الثالث عشر في (سورة الشعراء والغل) فانك تجد تاريخ القوم واضحا وانهم غرقوا في بحار الفسوق والفجور ولله عاقبة الامور

ولأختم هذا المقال بما لم أذكره فيما مضى مما أنتجته التخاذل الذى سببه الانغماس في الشهوات وشيوع الغزل والتفنى والتفاخر بالخمر وانحراف الأمة عن العاوم والمعارف ورضاها بالقشور فتفرقت وذاق بعضها بأس بعض ، ذلك عبرة لمعتبر وتبصرة لمدكر

جاء في تاريخ (زينى دحلان) صفحة (٣٠١) ما نصه **وسلك** من الممالك التي في شرق الأندلس بر بشت وسرقسطة والشعر الأعلى ومدينة طايطة ومرسية وبلنسية وغير ذلك والمتغلبون عليها من ملوك الطوائف بنو سليمان ابن محمد بن هود الجذامى من سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وكان قبلهم متغلبا عليها بنو منذر بن مطرق التجيبى فانزعها منهم بنو هود في السنة المذكورة فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمائة نازها جيش الاردملش وحاصرها وقصر الأمير يوسف بن سليمان بن هود في جبايتها ووكل أهلها الى نفوسهم فأقام العدو عليها أربعين يوما ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوات لقلته واتصل الخبر بالعدو فشد القتال عليها والحصر لها ، وكان لها مدينتان فدخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة افرنجى ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من أنهر الى المدينة تحت الأرض في سرب موزون فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدّت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلأذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال فأعطاهم العدو الأمان فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضى ابن عيسى وهما نهران الوجوه وحصل للعدو من الأموال ما لا يحصى حتى إن الذى خص بعض مقدمى العدو ألف وخمسمائة جارية أبكارا ومن وقار الحلى والكسوة ما يحمل خمسمائة جبل وقدر القتلى والأسرى مائة ألف نفس . ومن نوادر ماجرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادى من كان بالقرب منها أن يسطيها جرعة ماء لنفسها أولولدها فيقول لها اعطنى مامعك فتعطيه ما معها من كسوة وحلى وغيرها ، وكان السبب في قتلهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع في قتلهم ، فلما قتل منهم نيفا على ستة آلاف نادى الملائكة بتأمين من بقي ، وأمر أن يخرج من بقي بالبلد فازدحوا على الباب الى

أن مات منهم خلق كثير ونزلوا من الأسوار بالجبال خشية الازدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء وقد كان تحيز في المدينة جماعة ولم يخرجوا وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم فلما خلت بمن أسروا قتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودى في تلك البقية أن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان وأرهبوا وأزعجوا فلما حصل كل منهم بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الفرنج بأمر الملك وأخذ كل واحد منهم دارا بمن فيها وكان جماعة من أهل المدينة قد نفروا ولادوا برؤس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صورة الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن بقي أجهل ، وكان الفرنج لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأمور والأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم أن يطاء بعض النساء ذوات المهنة أنطاهن خدمه وغلمانهم يعيشون فيهن وبلغ الكثرة منهم ما لا يمكن أن يوصف على الحقيقة ، ولما عزم ملكهم على القبول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبقار والثيبات ذوات الجلال ومن صبيانهم ألوفا جعلهم معه ليهديهم إلى من فوقه من ملوكهم وترك من رابطة خيله يرب بشر ألف وخمسمائة ومن الرجال ألفين

وما كان في هذه الواقعة الشنعاء أن بعض تجار اليهود جاء (بر بشر) بعد الحادثة ملتصقا فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا كن حصان في سهم قومس منهم كان يعرفه قال فذهبت إلى منزله واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا في نفيس ثيابه والمجاس والسريركا خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيء من ريشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشهور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته فرحب بي وسألني عن قصدي فعرفته وجهه وأشرت إلى وفور ما أبذل له في بعض اللواتي كن واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتي فتبسم وقال بلسانه ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك أعرض عنهم وتعرض لمن شئت ممن صيرته لخصني من سي وأسرى من أقاربك فقلت له أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لي فيه وبقر بك أنست وكنفك اطمأنت فاعطاني بعض من هنا فاني أعطيك رغبتك قال وما عندك فقلت العين الكثير الطيب والبر الرفيع الغريب فقال كأنك تشهيني ما ليس عندي ، يابجه ينادى بعض أولئك الوصائف (يريد يابجه فغيره بهجته) قومي فأعرضي عليه ما في ذلك الصندوق فقامت إليه وأقبلت بيد الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلوى فكشف وجعل بين يدي العلاج حتى كانت توارى شخصه ثم قال لها أدنى إلى من تلك التخوت فأدنت منه قطعة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر حتى حار ذلك ناظري وبهت واسترذلت ما عندي ثم قال لي لقد كثرت هنا عندي كل شيء حتى ما ألتذبه ثم حلف لي أنه لو لم يكن عنده شيء من ذلك ثم بذل لي أحدمثل ذلك ماسخت بهذه الجارية التي تطلبها نفسي فهي ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه واصطفيتها لنفسى لمزيد جاهها لأجل أن تلد لي وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا إذا ملكونا حين كانت دولتهم وقد رد الله لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة وأشار إلى جارية أخرى كانت مغنية لوالدها ثم قال لها يا فلانة خذي عودك فأخذت العود وقعدت تسويه وأنا أنامل دمعها يقطر على خدها فتسارع العلاج ومسح به يده واندفعت تفني بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العلاج وأظهر الطرب فلما يئست مما عنده قت منطلقا واطلعت على كثرة ما بأيديهم من السبي والمغنم فطال تعجبي قال في نفخ الطيب فهذا مقنع لمن تدبره وتذكره لمن تذكره - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - فان أهل الأندلس لما توالى عليهم النعم انهمكوا في اللذات والشهوات وحل بهم داء التقاطع وقد أمروا بالتواصل والألفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة وأنهم كانوا يعلون أنفسهم بالباطل ويفترون بالنعيم الزائل وقد بهسوا

عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سد نفورهم حتى جاس عدوهم بخلال ديارهم ثم سرى البثق اليهم جميعا فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اهـ

وانما سقت هذه الحادثة لترى أيها الذكي كيف كان اتباع الشهوات سببا في التخاذل والتخاذل سبب في انتهاك العدو حرمة البلاد وضياع المال والعرض والشرف والجاه ، وانظر كيف أصبحت الفتاة بهجة مملوكة لعليج في نفس منزل أبيها ، وكيف يأمر تلك الفتاة التي كانت مغنية لأبيها أن تغني له ، وأليس مما يؤسف له أن يجعل الرجل ابنته مغنية له . كل ذلك دليل على ضياع الأهم . نعم هذه المدينة في السنة التي بعدها استرجعها المسلمون كما في نفس التاريخ وفعولوا بالفرنجة ما فعله الفرنجة بالمسلمين ولكن ليس المدار على الانتصار المؤقت في بلدة من البلاد بل المدار على استقامة القلوب وارتقاء النفوس فهو النصر الحقيقي

واذا أراد الله ذل قبيلة * رماها بتشتيت الهوى والتواكل

﴿ كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خلود أُمّ الاسلام ﴾

لقد ذكرت لك أيها الذكي فيما تقدم كيف تمزقت الوحدة الاسلامية بعد القرون الأولى ، وكيف انغمس المسلمون في الشهوات والمعاصي وفسقوا فسوقا أدوا ثمنه وهو الأسر والذل والفتك والضياع ، وكيف دخل العدو الدار وفسقوا بالبنات والنساء أمام الأزواج والآباء ، وانظر الى الفتاة (بهجة) كيف اصطفاها العليج لنفسه بحجة انها كانت ابنة رجل عظيم وقد استخدمها في نفس منزل أبيها على فراشه ، وانظر كيف وكل الأمير الأندلسي يوسف بن سليمان أمر أهل بر بشتري أنفسهم وقال لهم دافعوا عن أنفسكم

إن أعظم سبب في فشل الأمم ومنها الأمة الاسلامية أن الأمر يوكل الى أناس يظن فيهم الخير فاذا مات الآباء ونشأ الأبناء على الترف والنعيم بقي الناس مسحورين بالابن كما مسحروا بالآب فيطبع ذلك الابن وابن الابن الشعب بطابعهم فهو يرتفع في ملاهيته ولذاته وهم يقلدونه ، ولما رأت الأمم الحاضرة ذلك استبدلت مجالس النّواب والشيوخ بذلك النظام العتيق . فاذا كان الملك فاسقا جاهلا لم يضربهم شيء فلهم الحل والعقد وعليه التصديق فليكن كما شاء جاهلا أو عالما . هذا هو الذي عليه الأمم الآن ولكنهم لم يصلوا الى هذا إلا بعد جهاد وجهاد وصبر طويل وتجارب هداهم اليها الاسلام ، وانما قلت هداهم اليها الاسلام لأنك اذا رجعت الى تفسير (سورة التوبة) عند آية - يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار - الخ رأيت هناك أن الانقلاب الاوروبي ما حدث إلا بما قرأه أمثال (فولتير) و(روسو) من كتب المسلمين المنهوبة من الأندلس أو المأخوذة من مصر (اقرأ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت) تحت عنوان « الحضارة الاسلامية والحضارة الاوروبية » فلقد أثبتت هناك ذلك بأجل العبارات ، وقرأ قبيل ذلك كيف كان ظلم القسيسين والبابوات ، ولعمري لم يكن ذلك إلا للخضوع القبيح الذي يخضعه الانسان لغيره جهلا بقوله تعالى - وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله - وبقوله تعالى - ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأسروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون * وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين -

وفي القرآن من أنواع المحاورات بين الرؤساء والمروسين ما لا بدع عذرا المعتذر وقد غفل عن هذا المسلمون واستيقظ له الاوروبيون ، ولقد تقدم في هذا التفسير أمثلة كثيرة لاستيقاظ الاوروبيين والموازنة بينهم وبين المسلمين ، ولا كتف الآن بأمر عجيب نشر في جرائدنا في وقت طبع هذا المقال لاسعاد هذا التفسير والعناية

الإلهية به يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٢٩ فقد جاء في جريدة الاهرام مانصه

﴿ ٤ أغسطس ﴾

(أو يوم اعلان حقوق الانسان)

عند ما تشرق شمس هذا النهار ويستقبل الناس يوما جديدا يتم انقضاء مائة وأربعين سنة كاملة على اليوم الذى أتحدث عنه الآن

ففى يوم (٤) أغسطس من عام ١٧٨٩ ذكرى قيمة بالخلود فى نفوس الشعوب المجيدة التى تعز بالحرية والأمم الناهضة التى تنشدها ، وحقيق بالفرنسيين خاصة أن يبجلوه تبجيلهم ليوم (١٤ يوليو) الذى جعلوه عيدهم القومى وهولا يمتاز فى الواقع إلا بهدم حصن الباستيل وقتل حراسه القلائل والتمثيل بهم أشنع تمثيل واخراج بضعة نفر من أقبية المظلمة لاهم فى العير ولاهم فى النفير

أما فى يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ وان شئت الدقة فى مساء ذلك اليوم فقد نال الشعب الفرنسى ما كان يصبو اليه ويجهاد فى سبيله وهو اعلان حقوق الانسان على أساس المبادئ التى نادى بها (جان جاك روسو) ومحاولات الامتيازات التى كانت للأشراف ورجال الدين الذين طالما أنقأوا كاهل الشعب ودفعوا به فى قرار سحق من الفقر المدقع والضرر المفجع واليك البيان

فى مثل يومنا هذا منذ قرن وأربعين سنة بالتمام كان الناس فى باريس فى هرج ومرج على أثر الظفر الذى عقد لهم لواؤه بهدم الباستيل فى (١٤ يولييه) من العام ذاته والفلاحون فى الأقاليم يعمنون هدماً وسلباً فى قصور الأشراف التى تمثل الباستيل بينهم حتى لا يكونوا وراء أهل باريس فى ميدان المجد والفخر والبلاذ من أقصاها الى أقصاها فى ثورة مروعة انكمش أمامها رجال الادارة خشية أن يحل بهم ما حل بحاكم الباستيل وزادت الحالة سوءاً حين امتنع التجار عن عرض ما لديهم من الأقوات خوفاً من السلب والنهب ، واذ أدرك الغوغاء مقدار قوتهم صاروا يشورون لأقل شئ وينقضون على كل من توهموا فيه العداء لهم ، فتارة يصلبونهم وطورا يقطعونهم إرباً وكانت سفليات النساء فى الأسواق فى مقدمة أولئك الفتاك وأكثرهم شراً . ووقف مجلس الأمة (وكان مؤلفاً من الهيئات الثلاث الأشراف والقساوسة والعامة) يراقب الحوادث فى حيرة ووجل خوف سوء العقبى وكل ما تبينه أعضاؤه من الموقف انه لا يرجى لذلك الحال من هدوء إلا اذا جرد الأشراف والكنيسة من امتيازاتهم ، على أن ذلك لم يكن محتمل الوقوع إذ وقف الملك لويس السادس عشر يشد أزر هؤلاء وينصاع اليهم بتأثير زوجه الملكة (مارى انتوانت) فظل خطر الموقف مسلطاً فوق الرقاب جميعها الى أن كان يوم (٤) أغسطس سنة ١٧٨٩ واذا المعجزة تقع من تلقاء نفسها ، فى مساء ذلك اليوم وقف فى مجلس الأمة أحد الأشراف وكان فقيراً واقترح النزول عن امتيازات الأملاك ، فهاهى اللحظة حتى دب ديب الغيرة فى النفوس وتبارى الناس فى تنفيذ هذا رأى ، وما انقضت الليلة حتى كان الأشراف قد نزلوا عن كل امتيازاتهم وكذلك أعلنت حقوق الانسان فى تلك الليلة على أساس المبادئ التى نادى بها (روسو) ومجملها أن الناس ولدوا أحراراً متساوين فى الحقوق وأن الغرض من الحكومات ضمان الحرية والأملاك الشخصية وصيانة الحقوق وحماية الأرواح ومنع المظالم وأن لكل أمة الحق فى وضع القوانين وتقرير الضرائب ولها وحدها السلطة العليا فى البلاد وليس لأحد أن يستعمل هذه السلطة إلا بإرادتها . وحين أعلنت هذه المبادئ أخذ الناس بها وجاءت الجمعية الأهلية بعدئذ فأدخلتها فى صلب الدستور وهكذا تقوضت مظالم العهد القديم وأشرف العالم على عصر جديد ملؤه العدل والحرية والمساواة

ذلك هو يوم (٤) أغسطس سنة ١٧٨٩ الذى يتم بانبلاج شمس هذا الصباح مرور ١٤٠ سنة عليه ، واذا

كانت أحداث كبرى وخطوب جلال أتت بعده في إبان الثورة الفرنسية حتى شاهد القرن التاسع عشر أياما سوداء ملؤها الدم والدمار فان ذلك كله لا يحجب عن الناس نعمة ذلك اليوم المجيد انتهى

(قصة نوح عليه السلام)

قال تعالى (واقعد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) وقد كان عمره ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وفي ذكر الألف تخيل لطول المدة الى السامع لأن القصد من القصة تسليية النبي ﷺ وتثيية ومجاهدته لما يكابده من الكفرة ، وإياك أن يصدقك عن هذه القصة ما تراه من طول الأعمار التي لم نعهدها ولم يظهر في التاريخ المعروف نظيرها فان التاريخ القديم مجهول جهلا تاما ، وليس المقصود من مثل هذه أن نبهت في السنين كيف كانت وأمثال ذلك فانك اذا ظننت أن ذلك هو المقصود لم تنفع بالقصة . إن الانسان اذا قرأ أن قوما قاسوا شدايد وطالت المدة عليهم وهو يعلم أن مدته قصيرة اطمأن وصبر وجاهد لينجو ويهلك عدوه كما هلك أعداء نوح (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أى طوفان الماء وهو يطلق على كل ما طاف بكثرة من سيل أو ظلام وما أشبه ذلك فلتعتبر بهذا ولا تضع وقتك فتقول كما يقول البعض ﴿ إن السنة عبارة عن دورة الأرض حول الشمس مرة ﴾ فرجما عبر هؤلاء في أيامهم بالسنين عن دورة القمر حول الأرض وهو شهر عندنا واذن يكون عمر نوح كالأعمار المعتادة التي لا تبلغ مائة سنة ، أقول لك لا تضع وقتك في هذا فانا نلجأ اليه عند القطع بعدم حصول ذلك والمقام ليس مقام تاريخ بل المقام مقام جهاد وصبر وأدب ولم ينل أحد السعادة إلا بالاجتهاد والجهاد ومقارعة الخصوم ، فاذا طالت المدة كان ذلك أدعى الى التأسى والاقتداء (فأنجيناه وأصحاب السفينة) أى أنجيننا نوحا ومن ركب السفينة معه (وجعلناها) أى السفينة أو الحادثة (آية للعالمين) يتعظون بها ويستدلون بها

﴿ جوهرة في قصة نوح وسفينته ﴾

اقرأ ما تقدم في (سورة هود) وفيه بيان أن الطوفان في القرآن جزئي لا كلي وهناك تقرأ المقام مفصلا على مقتضى الكشف الحديث ولكن اطلعت بعد ذلك على تفصيل أوفى في كتب حديثة مختلفة ، فمن ذلك ما جاء في بعض المجلات العلمية بتاريخ يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٣٤٨ - ٢٢ يولييه سنة ١٩٢٩ وهذا ملخصه « يرى بعض العلماء اليوم أن قارة تسمى (ليموريا) كانت في الاوقيانوس الجنوبي وتتصل بآسيا من جهة وبأفريقيا من جهة أخرى وان قارة أخرى تسمى (اتلنتس) كانت وراء جبل طارق وكانت قد أفرقيا وآسيا معا ثم غطاها ماء الاوقيانوس ففرقت . وأن قارة أخرى كانت في الاوقيانوس الباسفيكي على بعد ألفي ميل وأربع مائة ميل غربى سواحل أمريكا الجنوبية وقد أغرقها الماء وذهبت كأمس الدابر ، فهذا طوفان أغرق قارات في أزمان قديمة لا يعيها التاريخ وهناك قصص للطوفان بعضها في التوراة وبعضها جاء في مجموعة (سجلات جلعيمش) في النصوص البابلية وبعضها عن أهل الصين وبعضها عن أهل الهند ، أما قارة (ليموريا) فهذا ملخص ما جاء عنها في هذا المقال بذلك التاريخ وهذا نصه

﴿ جغرافية العالم القديم . القارات الضائعة وكيف اختفت . الحيوانات الباقية والمنقرضة ﴾

تذهب الى (جزيرة مدغشقر) بعثة علمية لدرس حيوانات هذه الجزيرة وأحافيرها ولتعلييل بعض الظواهر البيولوجية الغريبة فيها ومن جملتها قلة الارتباط النسبي بين الحيوانات التي فيها والتي يختلف بعضها عن بعض الى حد مدهش ، ومع ان هذه الجزيرة لا تبعد عن سواحل أفريقيا أكثر من ثلثمائة ميل فان بينها وبين حيوانات القارة الافريقية بونا شاسعا ، من ذلك انها خلو من ذوات القوائم الأربعة الكبيرة الأجسام ماعدا

بقر الماء (فرس البحر) ولكنها موطن حيوانات كثيرة لم توجد في موضع آخر من العالم ، وليس ذلك فقط بل ان أحافير الجزيرة تدل على انها كانت في الأزمنة الغابرة موطن حيوانات وطيور وزحافات لا وجود لها إلا في الخرافات ، من ذلك طير (ايورنيس) ولعله أكبر الطيور التي حلقت في جواء الكرة الأرضية وكان يضع بيضا هائل الحجم يبلغ طول محوره ثلاث عشرة بوصة وثخانتها عشر بوصات أي بحجم بطيخة كبيرة مستطيلة وكان هذا الطير أكبر كثيرا من النعامة ويشبه طير (الموا) من طيور نيوزيلندا المنقرضة ويزعم الكثيرون أن طير (ايورنيس) المذكور هو طير الرخ الذي ورد ذكره في روايات « ألف ليلة وليلة » وأن واضع تلك الروايات نقلوا وصف الرخ عما سمعوه من العرب الذين ساحوا في أفريقيا ووصلوا الى (مدغشقر) ورأوا طير (ايورنيس) وفي مدغشقر أيضا طائفة من الزحافات الهائلة من فصيلة الضب أو العظاية وكان فيها قديما عظايات يبلغ طول كل منها ستين أو سبعين قدما وكان ذلك في الزمن الذي كانت فيه الزحافات سيدة جميع المخلوقات على الأرض ، ومن الظواهر البيولوجية الغريبة أنه مع قرب جزيرة مدغشقر من الساحل الأفريقي فان حيواناتها تختلف عن حيوانات أفريقيا كل الاختلاف حالة كونها تشبه حيوانات آسيا مع بعد الشقة بينهما ، وقد حاول بعضهم تعليل ذلك بقوله ﴿ انه كان في الحقب الغابرة قارة في الاوقيانوس الجنوبي تتصل بكلمتا آسيا وأفريقيا وقد أطلقوا عليها اسم (ليموريا) أي بلاد الليمور وفيها نشأ هذا الحيوان ثم انتقل الى مدغشقر وبتأدي الأحقاب غارت (ليموريا) في قاع الاوقيانوس و بقيت فصيلة الليمور في جزيرة مدغشقر ﴾

﴿ قارة اتلنيس وقارة أخرى كانت في الاوقيانوس الباسفيكي ﴾

وعلى ذكر هذه القارة المزعومة نقول إن كثيرين من الكتاب والمؤرخين يعتقدون أن جغرافية العالم القديم كانت تختلف عن جغرافية هذا الزمن وأنه كان ثمة غارات و بلاد ضاعت لأن مياه البحار طغت عليها ، من ذلك قارة (اتلنيس) وقد أشار اليها أفلاطون قديما وكان الأقدمون يقولون بوجودها وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) ويزعمون أنها أكبر من آسيا وأفريقيا معا ولا يزال بعضهم يقول بوجودها قريبا حتى هذا اليوم ، بل إن بعض علماء الجغرافيا يزعمون انه كان في الاوقيانوس الباسفيكي أيضا قارة غارت بطغيان البحر عليها ، وهم يؤيدون زعمهم هذا بهذة براهين من جلتها وجود نقوش على بعض صخور (جزيرة يستر) وهي جزيرة من الاوقيانوس الباسفيكي على بعد ألفين وأربعمائة ميل غربي سواحل أمريكا الجنوبية ، وفي الواقع أن في هذه الجزيرة مئات من النقوش والتماثيل المتقنة الصنع ومعظمها تمثل رؤسا بشرية لاي فوقها في دقة الصنع أجل تماثيل اليونان القدماء ، وفي تلك الجزيرة الصغيرة أيضا دلائل كثيرة على حضارة بائدة وأهالي هذه الجزيرة لا يجاوزون بضع مئات يتناقلون قصة الطوفان أبا عن جد ، ومن المحتمل جدا أن تشير هذه القصة الى طغيان مياه الباسفيك على القارة المذكورة

واذا أنكرنا قصتي (اتلنيس) والقارة الباسفيكية الضائعة كان لابد لنا من الالتجاء الى نظريات أخرى لتعليل بعض الظواهر البيولوجية غير المفهومة ، ومن جملة تلك النظريات ما يزعم بعض العلماء من أن القارات المعروفة في الوقت الحاضر هي عائمة على وجه المياه وأن قارتي أفريقيا وأمريكا الجنوبية كانتا متصلتين معا في العصور الغابرة ، وفي الواقع اننا لو أمكننا زخخة هاتين القارتين ووصلهما معا لكان الاتصال تاما ومتينا من الوجه الطبوغرافي ، ولو أمكننا أيضا زخخة (مدغشقر) والهند وأستراليا ووصلهما معا لكان لنا منها قارة (ليموريا) التي سبقت الإشارة اليها ولحلت هذه النظرية كثيرا من المشاكل التي يصعب اليوم فهمها

وأما ما جاء في التوراة فهذا نصه ﴿ ورأى الرب أن شرّ الانسان قد كثّر في الأرض فحزن انه عمل الانسان في الأرض وتأسف في قلبه وقال « امحو عن وجه الأرض الانسان الذي خلقتة . الانسان والبهائم والدبابات وطيور السماء لأنني حزنت اني عملتهم » وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب فقال الرب لنوح نهاية كل بشر

أماحي لأن الأرض امتلأت ظلما منهم ، اصنعت لنفسك فلسا من خشب مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله فيها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء ، كل مافي الأرض يموت ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك ، من كل حي تدخل الى الفلك اثنين لاستبقائها ، ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض فدخل نوح ومن معه الفلك وانفجرت ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة فكان الفلك يسير على وجه الماء ، وبعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه واستقر الفلك على جبال اراراط ﴿

﴿ القصة البابلية والصينية والهندية ﴾

هذه هي القصة كما وردت في التوراة ، أما جبل اراراط فهو في الشمال الشرقي من أرمينيا فكان أعلى الجبال المعروفة في العالم اليهودي في ذلك العهد ، قصة الطوفان هذه لا يمكن أن تؤخذ بمعناها الحرفي والأرجح أن الطوفان الذي نشير اليه كان طوفانا محليا ، وإذا رجعنا الى علوم الأقدمين نجد عن الطوفان قصصا كثيرة أقربها الى نص التوراة القصة البابلية كما وردت في مجموعة ﴿سجلات جلجميش﴾ فقد جاء فيها أن جلجميش (وهو من الجبابرة) زار أحد أسلافه ليسأله كيف نجا من الموت بالطوفان فأخبره سلفه بقصة بناء الفلك وهي القصة السومرية بعينها ويقال انها أقدم قصة في هذا الموضوع ، وقد اقتبسها البابليون وعندهم أخذها اليهود لما كانوا في الأسر ، ومن أشهر قصص الطوفان أيضا القصة الصينية والقصة الهندية وكلاهما تشير الى طوفان محلي نشأ عن فيضان الأنهر وهطل الأمطار ، ولاشك أن القصة البابلية أيضا نشأت عن فيضان دجلة والفرات وغمرها البلاد المحيطة بهما ، وفي بلاد (اور) شمالي العراق بعثة انجليزية تنقب عن الآثار وتبحث عما يثبت قصة الطوفان ، وقد كانت (اور) منذ أربعة آلاف سنة مركز حضارة راقية ، والأرجح أن مدينة (اور) نفسها (وهي مسقط رأس الخليل) بلغت أوج ثروتها ورخائها في سنة (٣٥٠٠) قبل التاريخ المسيحي وكان أهلها ماهرين في صناعة الادوات المعدنية ولا سيما الفضية والذهبية ، وتقلبت على (اور) أزمنة مختلفة فبعد أن بلغت أوج حضارتها ثار الطمع في قلوب حسادها فغزوها ونهبوا معابدها رهبا كلها وبعد ذلك التهمت النيران ثم أعيد بناؤها ثم أخرجها الغزاة مرة أخرى ثم أعيد بناؤها الى أن طغى عليها نهر الفرات فأغرقها وأهلك أهلها ، ومنذ ذلك الحين أصبحت (اور) قفرا يابا ، ومن المحتمل جدا أن الطوفان الذي أهلكها هو الطوفان الوارد قصته في التوراة . ومما يجدر بالذكر أن بعثة الآثار التي تنقب اليوم في أنحاء المدينة قد استطاعت ازاحة التراب عن جانب كبير من خرائبها فظهر أن بيوتها كانت مبنية على هندسة تكاد تكون حديثة فقد كانت مبنية من الحجر والآجر (الطوب) ومعظمها ذو طبقتين ولكل منها حوش أوفناء ، كذلك كانت هندسة هذه المدينة في أيام ابراهيم الخليل وكانت كما سبق القول مسقط رأسه وفيها نشأ وترعرع

ويظهر أن جميع الأمم التي نشأت في وادي دجلة والفرات كانت تتناقل قصة الطوفان على وجوه شتى ، وليس في ذلك ما يدهش اذا تذكرنا أن أولئك الناس كانوا يعيشون مهتدين دائما بخطر طوفان النهرين العظيمين وقد كانت مخيلتهم تبتكر لهم دائما قصة بطل نجا من الطوفان بأعجوبة إما لفضيلة فيه أو لسبب آخر فجاء جملهم عند البابليين ونوح عند اليهود و(مان) عند الهنود و(ايتان) عند غيرهم وهم جرا . انتهى ملخصا مع تغيير يسير جدا لتسهيل الفهم

أقول ، اعلم أن ماتأني به الكتب السماوية ينزل لكل أمة بحسب مزاجها وعقلها وما جاء في التوراة يقبله اليهود وما جاء في القرآن مقبول عندنا ، أما البحث العام فذلك يعوزه دراسة علوم كثيرة كالتاريخ والجغرافيا وعلم الآثار وعلم طبقات الأرض ، وكما ان الانسان ينظر الطعام ويشمه ويذوقه وقد يسمع حركته كما يفعل الناس اذا أرادوا معرفة البطيخة أهى ناضجة أم لا ، هكذا اذا زاولوا مسألة وجب بحثها من وجوه عدة ، فالنظر

الى مسألة الطوفان كيف تعددت رواياتها ثم انظر الى علم طبقات الأرض اليوم ، ألا ترى انهم وجدوا خفا في
الأقطار القطبية وقد تقدم في هذا التفسير حتى إن بعض المهندسين يريد أن يصنع هناك محطة للطائرات لأجل
امدادها بالفحم من هناك وبسبب الفحم يمكن تكوين السكر بآلة . إن مسألة القطبين وأن فيهما الفحم
هذا أمر مجمع عليه وهل يكون الفحم إلا في أرض حارة . إذن كانت هذه خط استواء ثم تغيرت الحال في
أزمان مجهولة فصارت قطبا ولما صارت قطبا دفنت فيها غاباتها وحيواناتها وطمرت وبقيت الى الآن . ومن
المسلم به أيضا أن الأنهار وهي تجري من اليابسة الى البحار تجرف معها مواد وتقذفها في البحر وهذه المواد
تتراكم جيلا فجيلا ثم يأتي زمن تصير قارة جديدة إذ يحصل هناك انقلاب عام فيصير البر بحرا والبحر برا
بحادث فجائي عظيم لأن الأرض ملتهبة نارا في باطنها . وانظر ما جاء في كتاب ﴿ اخوان الصفا ﴾ تحت عنوان
﴿ الأدوار والأحوال ﴾

إذ ذكر أن البر يصير بحرا والبحر يصير برا في أزمان وعين لها نحو (٣٧) ألف سنة وأن ذلك تبع
تقدم الاعتدالين ولكن أقول إن هذا ظن دليبه ضعيف وإنما المعروف هو ما قدمته لك . إذن هذه الأرض
تتقلب كما يتقلب الليل والنهار وهذه القارات يوما ما تذهب ويحل محلها قارات أخرى تخلق الآن في قاع البحر
وستظهر بزلزلة عظيمة ، فقصصة نوح ونحوها ما هي إلا فتح باب لهذه المفاجآت العظيمة التي أعرب عنها الله
بقوله - وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معدنوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب
مسطورا - ألا ترى رعاك الله أن البراكين اليوم (كما ستقروا في أول سورة فاطر عند قوله تعالى - يعلم ما يلج
في الأرض وما يخرج منها -) تأتي لنا من باطن الأرض بمادة بركانية تكون أصلح للزراعة من جميع التربة
فوق الأرض ، فكم للبراكين والزلازل من منافع فإذا أتمت قارة عملها خسف بها الأرض هي وأهلها وأظهر
قارة أخرى أحسن منها . فالقارات والمدن والأمم أشبه بالأشخاص لكل أجل محدود لمنافع هو يعلمها ولا
يعلمها سواه ، وهلاك قارة أو أمة كهلاك فرد واحد لافرق بين الفرد والأمة والقارة والمدينة اهـ

﴿ قصة ابراهيم عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) اذكر قصة (ابراهيم إذ قال لقومه) أي حين كمل عقله وتم نظره (اعبدوا الله واتقوه
ذلكم خير لكم) مما أتم عليه (إن كنتم تعلمون) الخير والشر وتميزانهما (إنما تعبدون من دون الله آثانا
وتخلقون إفكا) أي تصنعون أصناما بأيديكم تسمونها آلهة (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون
لكم رزقا) فكيف تعبدونهم إذن (فابتهوا عند الله الرزق) فانه المالك (واعبدوه واشكروا له) لأنه المنعم
عليكم بالرزق والشكر يستلزم العلم بما يجب الشكر عليه والذي يشكر عليه كل مافي السموات والأرض مما
خلق الله فيجب النظر فيه ومعرفة كل على مقدار طاقته وذلك هو قوله - أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم
يعيده - الخ فذلك هو مفتاح الشكر الذي سيذكر بعد اتمام هذا المقام وهو قوله (اليه ترجعون) في الآخرة
(وان تكذبوا) أي تكذبوني (فقد كذب أُمم من قبلكم) من قبلي من الرسل فلم يضربهم تكذيبهم
وانما كان ضررهم على أنفسهم (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) الذي يزول معه الشك فأما كونه يصدق
ويتبع فليس عليه ، ثم أخذ يشرح مبادئ الشكر الذي هو اخلاص بالقلب لساكن الناس وثناء باللسان على الله
وصرف كل نعمة فيما خلقت له وذلك المبادئ هي المعرفة والعلم فقال (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) من
مادة ومن غيرها (ثم يعيده) كما بدأه لأن من قدر على البدء فهو قادر على الاعادة (إن ذلك) أي الاعادة
أوما ذكر من الأمرين (على الله يسير) لأنه اذا قال للشيء كن فيكون (قل) يا محمد أو يا ابراهيم (سيروا في
الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) على اختلاف الأجناس والأحوال وسيأتي شرحه (ثم الله ينشئ النشأة
الآخرة) بعد النشأة الأولى التي هي الابداء ومن عرف النشأة الأولى عرف أن الآخرة أهون (إن الله على

كل شئ قدير) والممكنات كلها تتعلق بها قدرته (يعذب من يشاء) تهذيبه (ويرحم من يشاء) رحمته على مقتضى درجته التي استحقها ، ولا معنى للعدل إلا وضع كل شئ في موضعه (واليه تقلبون) تردون (وما أتم بمجزين) ربكم عن أن يدرككم (في الأرض ولا في السماء) إن فررتم من قضائه بالتواري في الأرض أو التحصن في السماء أو القلاع الذاهبة فيها لأنه خلقكم ليريبكم فيهما ويدبر عليكم دوائر النجس والسعد والعذاب والنعيم . كل ذلك لتمحيصكم وتريبتكم وتخليصكم من المادة ورجوعكم الى عالم الأرواح فتلاقوه إن استحققتم وترددون الى العذاب إن نقصت تربيبتكم فأين تذهبون إذن (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) فلاولى يمنعكم ولا نصير ينصركم من عذابي (والذين كفروا بآيات الله) دلائله الدالة عليه عقلية ونقلية (واقاله) بالبعث (أولئك يؤسوا من رحمتي) أى يؤسوا منها في الدنيا لأنهم ظنوا أن الله خلق هذه الأرواح فأحيائها ثم أماتها بلا فائدة ولا حياة بعد الموت وهذا عمل من لارحة عنده ولا رافة كما قال تعالى - قل لمن مافى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه - فجعل من موجبات الرحمة التي كتبها على نفسه أنه يجمعنا يوم القيامة ويقول هنا إن هؤلاء يؤسوا من رحمة الله فهذه هى الرحمة حقا ، فأما خلق الناس ثم هدم بنيتهم هدمًا تاما واعداد أرواحهم لارجمة لها فهذا لارحة فيه ، ولذلك تجد أكثر الآيات يقرن فيها ذكر الله بذكر اليوم الآخر ، وقوله (وأولئك لهم عذاب أليم) أى بكفرهم (فما كان جواب قومه) قوم ابراهيم له (إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه) أى قال الرؤساء ذلك ورضى به الأتباع فأسند الى كلهم فقدفوه في النار (فأنجاه الله من النار) فصارت بردا وسلاما (إن فى ذلك) أى فى انجائه منها (آيات) كحفظة من أذى النار واجتادها مع عظمها فى زمان يسير وانشاء روض مكانها (لقوم يؤمنون) لأنهم المنتفعون بها (وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى اتخذتم أوثانا سبب مودة بينكم فتكون - مودة بينكم - مفعولا ثانيا بتقدير مضاف (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) فيتناكر الأتباع والمتبوعون ويلعن بعضهم بعضا شأن اللصوص وقطاع الطرق اذا وقفوا فى قبضة القضاء (وما أواكم النار) يعنى العابدين والمعبودين (وما لكم من ناصرين) مانعين من العذاب (فآمن له لوط) وهوابن أخيه وأول من آمن به لما رأى النار لم تحرقه (وقال إني مهاجر الى ربى) من قومي إذ أمرنى بذلك فهاجر من قرية «كوثى» وهى من سواد الكوفة مع لوط وامراته سارة ابنة عمه الى حران ثم منها الى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم . ويقال انه هاجر وهوابن خمس وسبعين سنة (انه هو العزيز) الذى لا يغلب وهو الذى يمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لا يأمرنى إلا بمصلحة لى (ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) يقال انه لم يبعث نبى بعد ابراهيم إلا من نسله (وآتيناه أجره فى الدنيا) وهو الشفاء الحسن فكل أهل الأديان يحبونه ويصاون عليه والنزيرة الطيبة والأنبياء من نسله ، هذا له فى الدنيا (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى فى زمرة من مثل آدم ونوح وادريس

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) أرسلنا (لوطا) إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين لم يفعلها أحد قبلكم وفسرها فقال (أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتعرضون للسبالة بالقتل وأخذ الأموال حتى انقطعت الطرق وكذلك تقطعون سبيل النسل بالاعراض عن مكان الحرث (وتأتون فى ناديك المنكر) وذلك انهم كانوا يحبون فيه وكانوا يستعملون الخذف والسخرية كما فى حديث الترمذى ومعنى الخلق الضرب ومعنى الخذف بالمهجمة رمى الحصاة من طرف الأصبع (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فى استقباح ذلك وفى دعوة النبوة (قال رب انصرنى على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها لمن بعدهم (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) بالبشارة بالولد والنافلة

(قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) قرية سدوم (إن أهلها كانوا ظالمين) بتأديهم في المعاصي وكفرهم بلوط (قال إنا فيها لوطا) فكيف تمهلكونها فيهلك مع الهاالكين (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينهم وأهلهم إلا امرأته كانت من الغابرين) الباقين في العذاب أو القرية (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم) جاءت المساءة وانهم بسببهم مخافة أن يقصدتهم قومه بسوء (وضاق بهم ذرعا) وضاق بشأنهم وتدير أمرهم طاقته كما يقال ضاقت يده في مقابلة ربح ذرعه بكذا إذا كان مطيقا له لأن طويل الذراع ينال ما لا ينال قصير الذراع (وقالوا لا تخف ولا تحزن) علينا (إنا منجوك وأهلك) أي إنا مهلكوهم ومنجوك وأهلك ونصب أهل باضمار فعل (إلا امرأتك كانت من الغابرين) إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء عذابا منها (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم (ولقد تركنا منها آية بيّنة) وهي حكايتها المشهورة وآثار الديار الخربة (لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار . هذا واعلم أن الكلام على قرى قوم لوط وأين مقرها تقدم في المجلد الثالث عشر عند ذكر القصة في القرآن فارجم إليه إن شئت تجد هناك للكشف الحديث مجالا واسعا ﴿ قصة شعيب عليه السلام ﴾

قال تعالى (والى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) افعلوا ما ترجون به نوابه (ولا تعشوا في الأرض مفسدين) فكذبوه فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة وقيل صيحة جبريل (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أي في دورهم باركين على الركب ميتين

﴿ قصة عاد وثمود إذ أرسل لهم هود وصالح عليهما السلام ﴾

قال تعالى (و) أهلكنا (عادا وثمودا) وقد تبين لكم من مساكنهم) يا أهل مكة إذا نظرتم إليها عند مروركم بها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) وهي المعاصي وعبادة غير الله (فصدّهم عن السبيل) السوى (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستبصار ولم يعقلوا

﴿ قصة موسى عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) أهلكنا (قارون وفرعون وهامان) ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين) أي فائتين بل أدركهم أمر الله (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم قوم لوط رموا بالحصباء وهي الحصا الصغار كما كانوا يرمونها بأصابعهم وهم يأتون في ناديمهم المنكر (ومنهم من أخذته الصيحة) يعني ثمود ومدين (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهو قارون (ومنهم من أغرقنا) وهم قوم نوح وفرعون (وما كان الله ليظلمهم) ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إذ تعرضوا للعذاب باستعداد نفوسهم له على مقتضى النظام الذي نظمناه في سرّ الخليفة . انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة

﴿ لطيفة في قوله تعالى - أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة - ﴿

لقد مضى الكلام على هذه الآية في ضمن الكلام على قوله تعالى - إن في خلق السموات والأرض - الخ (سورة البقرة) بطريق الاستطراد فلنفصل الكلام عليها تفصيلا الآن

يقول الله - أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق - الخ ثم يقول - قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق - وهذا أمر صريح يوجب علينا معاشر المسلمين التمشير والجد والطلب الحثيث في معرفة كيف بدأ الله الخلق . أمرنا الله بالسير في الأرض والسير ﴿ قسمان ﴾ سير جسمي وسير عقلي ، فالأول محتم على الجهلاء واللاميد ، والثاني محتم على العلماء والحكماء ولا يكون الثاني عادة إلا بعد الأول ولا معنى للسير الثاني إلا الدراسة فأما مجرد النظر الظاهري كنظر العائمة ونظر البهائم فهذا ليس بنظر وليس بسير

واعلم أيها الذكي اني في مبدأ أمري كنت أقول في نفسي هذا العالم إمامنظم واما مبعثر لا نظام فيه ولا ترتيب فان كان الأول فله إله وان كان الثاني فلا إله له لأنها عبارة عن اجتماع واقتراق بلاضابط ولا رابط ولا نظام ، ولقد ذكرت هذه القصة في كتابي ﴿ التاج المرصع ﴾ وقلت ما معناه « اني توجهت الى مبدع هذا الوجود وطلبت منه أن يوقفني على نظامه واطالما سألته سبحانه في الخلوات ودعوته في الحقول وعلى شطوط الأنهار وبين الأشجار وفي الليالي والأسحار أن يفهمني ذلك حتى يكون اليقين داخل نفسي لا يهتثر خارجي وأصبحت بهذه الفكرة مغرما وعليها معولا وكنت اذا نظرت الطيور في وكسائها وهن يغردن طربات ويطرن فرحات ويربين أولادهن صبرات . أقول اذا كان صانع هذا العالم قد أعد للطير عدته وأبان له محبته أفلا يكون لهذا الانسان سبيل الى مايتغنيه وطريق الى ماله حاجة فيه وكان ذلك مبدأ فكري في هذه الدنيا وكنت اذا عثرت على شاطئ النهر على بعض حشرات ذات خطوط منظمات وذات زوايا مهندسة وأشكال بهجة أقول ياليتني أرى هذه الدنيا كلها على هذا النظم فأقر بإله نظمها وحكيم أبداعها ولكني أرى الجبل والقفر والبر والبحر والشجر والحجر والأرض والسماء لا نظام فيها مقبول ولا عمل فيها محسوب

أليست هذه المرأة تضع حب النرة في الأرض التي شقها المحراث وزوجها واضع يده على قائمة ذلك المحراث يسوق دابتين فأين النظام ؟ بهائم ليست مستقيمت الرأس الى أعلى وانسان رأسه مشرئبا الى العلا وماء يجري في الحقول وحب ينثر في الطين ، أمور غير مضبوطة وأحوال ليس لها قانون ولا نظام مسنون ثم توجهت وتوجهت ودعوت ودعوت وقلت لو أن صانع هذا الكون علمني نظامه لأودعت ذلك بطون الكتب وتركته لمن بعدى من الخائرين وخلفته للأذكاء المفكرين كيلا يشكوا كما شككت ولا يهنوا كما وهنت ولا يضلوا كما ضللت ، ثم صنفت كتباً مختلفة المقاصد والحمد لله إذ وفقني لهذا التفسير . إن هذا غاية مطلبي من هذه الحياة ونهاية مأربي من هذه الدنيا ، فهل تحب أن أريك جلال الوجود والنظام المشهود لتعرف قوله تعالى - قل سيروا في الأرض فانظروا - ، فانظر مأسأضعه بين يديك واعجب من حكم عالية وجواهر غالية ووجوه باسمة وعيون ساحرة وشموس ساطعة وأنوار باهرة فهالك مبادئ الوجود وأوائل العالم المشهود ولنبدأ بالعوالم العلوية ونتبعه بالعوالم السفلية

(١) فترى أولا نظام الكواكب
(٢) ثم نظام العوالم الأربعة الانسان والحيوان والنبات والمعادن
(٣) ثم نظام العناصر
(٤) ثم بيان أن الانسان خاصة دعى الى معرفتها
(٥) وبيان ذلك في أدعية الصلاة نفسها وكيف كان المسلم في صلاته وأدعيته يكرر صباحا ومساء نفس هذه المبادئ ويتلوها وهو غافل عن معانيها وهو بتلك التلاوة وبتلك الأدعية مأمور أن يبحث في هذا العالم وكيف بدأ الله الخلق

(٦) ثم تبيان أن الله ماترك الناس سدى بل أعطى الجهلاء ظلال هذا النظام وألقاه على ألسنتهم وفي أعمالهم بصورة مصغرة

ومتى قرأت هذه الصور اتضح لك العالم ورأيت كقلادة الحسناء أو كنزل نظمه بانيه وأحكم نظامه أو كحديقة غناء ربت أشجارها وانتظمت مزارعها ، أو كمدينة أحكمت طرقها ويوتها أو كبيوت الشطرنج انتظمت طولاً وعرضاً وفيها أمهر اللاعبين وأذكي الحاسبين

(١) ﴿ نظام السموات ﴾
سأتلو عليك من نبأ السموات ما يناسب المقام ولأوضحه على قدر الامكان لتعرف كيف وضعت الكواكب

وضعا محكما بحيث كان بينها مسافات منتظمة وكان يكفيني أن أحيلك على ما كتبت لك في (سورة البقرة) وغيرها مثل (الأنعام) واسكن سأعيد هنا ما فيه الكفاية

إن في علم الحساب متواليات هندسية ومتواليات عددية ، فالأولى مثل قولك (١ - ٢ - ٤ - ٨ - ١٦) وهكذا (٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ الخ) والثانية مثل (٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ١٠ الخ) فانظر كيف وضع الله الكواكب وجعل نظامها بالنسبة للشمس على الطريقة الأولى بحيث اذا فرضنا بعد الزهرة (٣) يكون بعد الأرض (٦) والمريخ (١٢) وكوكب مهشم بقيت آثاره تجرى كما كان يجرى وقد كشفه العلماء (٣٤) والمشتري (٤٨) وزحل (٩٦) وأورانوس (١٩٢) ونبتون (٣٨٤)

هذا هو القانون الذي استخرجه العلماء في العصر الحاضر لأبعاد الكواكب السيارة عن الشمس بحيث يكون بعد كل كوكب ضعف بعد الكوكب الذي قبله ، فكأن هذه الكواكب مصاييح وضعها صاحب البيت على أوضاع لا خلل فيها ناطقة بلسان الحال - وما كنا عن الخلق غافلين - إنا كل شئ خلقناه بقدر - وكل شئ عنده بمقدار - وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم - إن الله سريع الحساب - أليس من السار اللذيذ أني حييت في هذه الدنيا حتى كتبت هذا ، اللهم أني أجدك على نعمة العلم والحكمة أيها الذكي ، أنا لا أريد في هذا المقام كثرة العلم لأن المقام يقتضي الأمثلة السهلة المقبولة فكفي ما ذكرته في الفلك وأما تحقيق تلك الأعداد فارجع اليه في نفس هذا التفسير في سورة البقرة والأنعام فان ما ذكرته أجال وهناك تفصيل ومساحة بالآلاف الآلاف من الأميال

(٢) نظام الانسان والحيوان والنبات والمعادن

هأنذا رأيت نظام الكواكب من حيث وضعها ، فهل نظام هذه المواليد على الأرض كنظام الكواكب في الأبعاد . كلا . وإنما نظامها بحال مخالفة لتلك ، إن هذه المواليد سلسلة واحدة متصل أعلاها بأدناها

- (١) التراب
- (٢) الجص . الزجاج . الشب . أدنى المعادن
- (٣) الذهب . الياقوت . والجواهر النفيسة كلها أعلى المعادن
- (٤) خضراء الدمن والكمأة وهي أدنى النبات
- (٥) النخل والكشوثي وهما من أعلى النبات
- (٦) أنبوبة تنبت على الصخور في سواحل البحار فيها دودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة الحلزونية . هذا أدنى الحيوان
- (٧) القرد . الحصان . الفيل . هذه متصلة بعالم الانسان
- (٨) أدنى الانسان سكان أطراف المعمورة لا معرفة لهم ولا علم
- (٩) أعلاه الأنبياء فالحكماء
- (١٠) الملائكة
- (١١) الله فوق الجميع

هذه هي السلسلة التي شرحها القدماء ولقد شرحتها مرارا في هذا التفسير بطرق شتى ، فترى الجص والشب والزجاج معادن أقرب الى التراب ليست شريفة كالذهب ولا الياقوت ولا تزال المعادن في ارتقاء حتى تصل الى الفضة التي هي أرقى من النحاس ثم الذهب ، فهذا الأعلى من المعادن يابيه أدنى النبات وهو اللاصق بالأرض ينبت صباحا ويذبل نحيى يراه الناس كل يوم في الغدوات أيام الربيع ثم ينتهي نحيى وهكذا كل يوم ويرتقى النبات

الى أن يصل الى النخل والكشوثى ، أما النخل فقد امتاز الذكرفيه عن الأنثى كأنه حيوان ، وأما الكشوثى فهو نبات يعيش على غيره من النباتات ويمتص منه فكأنه حيوان ، فالنخل قارب الحيوان فى انفصال الذكر عن الأنثى والكشوثى فى استقلاله وعيشه عيشة حيوانية على النبات لاعلى التراب والماء والعناصر الأرضية ثم يلى ذلك دودة الحلزون التى تكون على شاطئ النهر والبحر إذ لها حاسة اللمس وليس لها حاسة غيرها فهى قريبة من النبات . انه يحس بالضوء فيميل اليه باحساس ضعيف جدا ويرفع غصنه الى أعلى ويمتد فروعه فى الأرض نحو المواضع النسيبة ويتجافى عن المواضع اليابسة ، فإذن بين النبات وبين أدنى الحيوان مناسبة والحيوان يرتقى من الأدنى الى الأعلى وهو الانسان وهو درجات من أدنى الى أعلى وأعلاه الأنبياء ومن نالوا حكمة وعلماء و بعد هؤلاء عالم الملائكة وفوق ذلك الله فهو منزّه عن هذه المادّة والمخلوقات . فهنا إذن نسبة كاملة والعالم سلسلة منتظمة

(٣) النظر فى المعادن

إن المعادن كثيرة منها الاسفيداج والاسرب والاسفندرى والتسكار والجص والتوتيا والذر والذهب والرصاص والرماد والزاج والزنجار والزئبق والزرنيخ والزربرد والزنجفر والزمرد والشب والعقيق والعنبر والفضة والفيروزج والقيروالكبريت والسكحل وملح الطعام والمرجان والمغنطيس والموميا والنورة والنوشادر والنحاس والنفط والياقوت * قال العلماء * إن من المعادن الألماس وهو لا يحتك بجسم من الأحجار المعدنية إلا هشمه إلا جنسا من الاسرب فانه يؤثر فيه ويكسره ويفتته مع رخاوته ولينه وتتن رائحته * ومماثل تأثير هذا الحجر الضعيف المهيمن فى هذا الجوهر الشريف إلا كمثل (البقة) تسلطت على الفيل القوى فآذته ، فالألماس قام فى المعادن مقام الحديد فى الخشب والياقوت مسلط على أكثر المعادن . ثم إن الماس يتكوّن فى معدن الياقوت وتخرجه الرياح والسيول من معدنه وهو ضربان أبيض كالبلور ويسمى البلورى وأبيض يخالط بياضه صفرة ومن خواصه انه يقطع كل حجر يمرّ عليه واذا وضع على الحديد ودق بالمطرقة لم ينكسر وغاص فى وجه السندان والمطرقة . والياقوت لا تعمل فيه المبرد لشدة صلابته إلا الألماس والسنبازج بالحك فى الماء . والمغنطيس يجذب الحديد . فانظر كيف كان الياقوت يعمل فى أكثر المعادن وهو مسلط عليها والألماس مسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن والاسرب الذى هو جنس من الرصاص ولكنه غير ناضج مسلط على الألماس المسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن . ثم إن هذه المعادن تجمع من أقطار المسكونة فى أماكن مختلفة ومع ذلك نراها متحدة الوجهة بحيث تتحد على المنافع العامة ولها نظام فمنها الجاذب ومنها المجذوب ومنها الحاكم على الجميع ومنها ما هو ماتحته . وهذا الحاكم وهو الألماس له مؤدب من رعيته وهو الاسرب وكأنه قاض يحكم على الملك واذا رأينا العلماء والحكام فى الناس على مقدار الحاجة هكذا نرى المعادن لا يحكم فيها بالقطع إلا قليل على قدر الحاجة ونرى ما كان منها نافعا فى أكثر الأحوال يكثر كالجص والنوشادر وما كان متوسط النفع يكون متوسط الوجود كالنحاس والرصاص وما كان للزينة أو للتعامل كان وجوده أقل كالذهب وما كان لمجرد الزينة والجمال ندر وجوده كالألماس والياقوت . فهذا نظام يشبه نظام الكواكب فيما تقدم فتلك نظمت أوضاعها وكالواليد الثلاثة فانها متسق نظامها متقارب وضعها . وهذه أيضا رتبّت على مقدار الحاجة اليها وهى وان دخلت فيما قبلها أردت أن أفصل الكلام فيها تفصيلا توطئة لما سيأتى فى القسم الرابع وهى

(٤) العناصر عند علماء العصر الحاضر

إنى أجد الله إذ وصلت الى هذا المقام فأريد أن أطلعك على نظام بديع فى العناصر التى عرفها علماء العصر الحاضر وهو فوق السبعين عدا . قد كان القدماء يقولون إن العناصر (٤) وهى الماء والتراب والنار والهواء ولكن علماء العصر حللوا هذه فأصبحت فوق السبعين وسأوضح بعضها ولكن ليس المقام مقام علم العناصر

ولامقام تحليلها وانما المقام مقام نظام وحساب . إن هذا الأمر أعجب ما رأيت في العلم ولكني لا أقدر أن أشرحه كما يجب . إن معرفة الدقة في الحساب والنظام بين العناصر والنسب بينها لا يعرفها إلا أكابر العلماء في هذا الفن وهم لم يعرفوها إلا بعد ما عرفوا الخواص الطبيعية والكيميائية وبعد تلك الخواص يعرفون النسبة والجمال فكيف يمكن أن نفهم ذلك ونحن في تفسير القرآن ونخرج عن جمال موضوعنا الى مجاهل مقفرة وطرق يضل فيها السارون . أقول إن الله يضرب الأمثال للناس فلا أقدم لك ضرب مثل يشرح صدرك وتعرف به هذا المقام الجليل ، تصور رجلا مريا عنده نحو ثمانين رجلا يزرعون في حقوله فأقبل عليه علماء بلاده ضيوفا فأحب أن يريهم عجيبه فقال إن هؤلاء الرجال اذا أنا أوقفهم صفوفًا في أماكن معينة من هذه الأرض بحيث يتكوّن منهم صفوف طولية و صفوف عرضية فان كل رجل أرتبه مع ما بعده بحسب الوزن فكل رجل يزيد عما قبله وقيتين في الصف الأول الأفقي وهكذا الصف الثاني والثالث الى الصف الرابع عشر وذلك من اليمين الى الشمال بحيث يكون آخر واحد أكثر من أول واحد بعدد الرجال مرتين من الوقيتين ، وهنا يكون العجب العجيب تجد كل واحد من كل صف أفقي أعني من اليمين الى اليسار أكثر مما قبله وقيتين وأقل مما بعده وقيتين كما قدّمنا اجالا وأيضا يكون هو نفسه بالنسبة لمن هو فوقه أقل (١٦) وقية وبالنسبة لمن تحته أكبر (١٦) وقية في الخط الرأسى ومع هذا كله تجد كل صف أفقي قد اتحدت أفراده في ثمانية أشياء كالعرض والطول وطول الشعر بحسب الطبيعة ومقدار ما يأكلون بالوزن ومقدار ما يشربون كذلك والمرض يكون في وقت واحد والنوم في وقت واحد والفرح والحزن كذلك لا يختلفون البتة .

هذا من جهة الصف الأفقي . أما من جهة الصف الرأسى فان الرجل مع من خلفه ومن أمامه يتفقون في الصفات الباطنة فيعرف الصف الواحد علوما متفقة فتى عرف واحد منهم علم النحو والصرف والفقه والتفسير والشعر والعروض والأدب وعلم الموسيقى تجد الصف كله يعرف تلك العلوم . إذن السكل واحد خصال يشترك فيها مع الصف الأفقي وخصال يشترك فيها مع الصف الرأسى ، واذا مات واحد من هؤلاء فان صفاته معلومة لأن صفاته الجسمية بالنسبة للخط الأفقي وصفاته العقلية بالنسبة للخط الرأسى مفهومة معلومة فيمكننا أن نعرف صفاته ونوقن بأننا نجد في قريننا أطفالا يولدون بهذه الصفات فلو مات ثلاثة من صفوف مختلفة فانا نوقن أنه سيولد أطفال يحلون محل الذين ماتوا بشرط أن كل طفل يخلق متصفا بتلك الصفات المعروفة عندنا ويحل محل من مات بصفاته التي لا تخل فيها . ولقد مات عشرون رجلا وصفاتهم معروفة وهانحن أولاء نرتقب المولودين حديثا ونضع كل مولود في مرتبته ومتى كبر رأيناه بهذه الصفات في الأماكن الخالية . هذا هو المثل الذي أردت ضربه ليقرب لنا موضوع النظام في العناصر فصاحب الضيعة جعل رقعة من أرضها وقسمها مربعات وجعل المربعات صفوفًا منتظمة وأوقف كل رجل في مكان مرتبين بترتيب الوزن من اليمين الى اليسار وهذا الترتيب بعده تظهر خواص عجيبة حتى ان كل رجل يشارك صفه الأفقي في صفات نحو ثمانية وهكذا هو مع من أمامه ومن خلفه تكون له صفات اخرى خلقية وكلما مات واحد يولد آخر ويكون له نفس تلك الصفات واذا مات منهم عدد جاء بدله ويمكنهم أن يصفوا كل من يخلق قبيل وجوده . فاذا رأينا وجودا على هذا النمط كان في غاية النظام . واذا تصوّرنا أن هنا موجودات على هذه النسبة كما ستراه الآن في العناصر فان العقل يدعش لذلك أشدّ الدهش وتصبح هذه العناصر في أوزانها وأوصافها أشبه بالجدول الآتى في الصفحة التالية

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

فاذا صعب عليك التمثيل بالرجال في الضيقة فما قدمناه فانظر هذا الجدول فهو يقرب لك المقام . فكل صف من صفوفه الرأسية و صفوفه الأفقية وهكذا القطران عدد (٦٥) فاجمع أى صف تجده على هذا النمط وهذه الأعداد من (١) الى (٢٥) وضعت على هذا النظام فكان هذا الاتحاد فى الجمع . اذا عرفت هذا فقس عليه نظام العناصر الآتى ولكن هذا تقريبي إذ نظام العناصر الآتى يكون نسبة كل عنصر الى صفه الأفقى غير نسبته الى صفه الرأسى كما رأيت وأيضا الصفات هناك كثيرة ولكنها هنا فى الجدول ليست متعددة ، ولقد أطلت ليسهل عليك ما سأذكره (انظر الجدول الآتى فى الصفحة التالية)

أست أيها الذكي تتعجب من هذا النظام البديع ، كيف رتبت العناصر اثنين اثنين عند وزنها بمعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقاس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد (٢-٢-٢) الى آخرها ثم وجد بينها تناسب في الخطوط الرأسية ، إذن هي تفاوتت باثنين أفقياً وتفاوتت رأسياً بمضاعف اثنين وهو (١٦) وهو العدد المسمى بزواج الزوج الذي هو عدد الشطرنج المعروف وكأن هذه رقعة شطرنج والله وضع العناصر فيها ورتبها ليرينا كيف بدأ الخلق بنظام ، وهل كان يدور بخلدك قبل هذا أن هذا العالم الذي خلقنا فيه قد جعلت أصوله التي يحل اليها الانسان والحيوان والنبات بينها تناسب في أوزانها كتنااسب مسألة الشطرنج إذ أن الملك الهندي لما اخترع الفيلسوف الشطرنج طلب منه أن يتمنى شيئاً ليكون كالمكافاة فقال اعطني قمحاً بحيث لو جعل في البيت الأول من الأربعة والستين بيتاً من الشطرنج حبة يكون في الثاني (٢) وفي الثالث (٤) وفي الرابع (٨) الى آخره فلما حسبوه لم يكفه القمح الذي في الدنيا مئات السنين وقد كتبها في كتابي ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وتقدم في سورة مريم . هذا نظام العناصر حسابياً

﴿ نظام العناصر الطبيعي والكيميائي ﴾

انك ترى أن كل صف رأسى تشترك أفراده في الخواص الطبيعية (١) كاللون (٢) والطعم (٣) والرائحة (٤) والذوبان (٥) والانصهار (٦) والغليان (٧) والحرارة النوعية (٨) والكثافة فأما الصفوف الأفقية كالهليوم مع الليثيوم فانها تشترك في الصفات الكيميائية مثل (١) الاستراق وكونه فلزاً أو غير فلز (٢) وهل يتفاعل مع الاودروجين (٣) والوزن الذرى (٤) والوزن المكافئ بالنسبة للأودروجين ومعنى ذلك أن يقال هذا العنصر اذا حل محل الاودروجين في التفاعل مع الاكسوجين مثلاً فكم درهما تقوم مقام الايدروجين فتطرد الايدروجين وتحل محله (٦) ثم مع أى عنصر يركب (٧) وخواص المركبات وتركيبها (٨) وتأثيره في الأجاض ﴿ مثال ذلك ﴾ الالومنيوم تأمل تجد أن له نسبة عديدة الى ما قبله وما بعده ونسبة هندسية الى ما فوقه وماتحته فهنا اجتمعت النسبة العددية والنسبة الهندسية وهذا هو عين الموسيقى والنغمات والشعر ، فهذا العالم كله موسيقى وشعر ونظم وتجده يشترك في خواصه الطبيعية المذكورة مع ما فوقه وهو البورون وماتحته وهو انكليديوم وخواصه الكيميائية يشترك فيها مع ما قبله في الخط الأفقى وهو المغنيسيوم وما بعده فيه وهو السليكون فاذن تكون الصفات (١٨) صفة منها اثنتان هديتان و (١٦) طبيعية وكيميائية ﴿ معجزات العلم في هذا الجدول وعجائب القرآن وفهم قوله تعالى - وكل شئ عنده بمقدار - وقوله - إن الله سريع الحساب - وهو كله معنى قوله - قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق - ﴾

إذن يسهل عليك أيها الذكي أن تفهم كيف أخبر (مندلييف الروسى) سنة ١٨٦٩ مخترع هذا الجدول بما سيحدث وهو أن الطبيعة تحتوى على معدن جاليوم وجرمانيوم ومعدن آخر وهين في هذا الجدول محلها الذي رأيتوه ذكر الخواص الطبيعية والكيميائية ونسبها الحسابية التي هي من الصفات الكيميائية أيضاً ثم جاء العلماء بعده فكشفوا هذه المعادن الثلاثة على وزان ما قرره هو فتأمل وتعجب ، وعليه سيكشف الناس كل عنصر وضع في مربعه شرطه سوداء أو نقط في هذا الجدول وقد عينوا مواضعها وخواصها كما فعل (مندلييف) سنة ١٨٦٩ فهنا أحد وعشرون عنصراً قد عينها الناس متربعين كشفها في الزمان المستقبل والعناصر التي كشفت الى الآن (٨٦) والباقي المنتظر (٣٤) تقرىبا فتكون العناصر كلها (١٢٠)

ولعمري أى فرق إذن بين نظام الكواكب ونظام العناصر ، فهنا (مندلييف الروسى) أخبر بعناصر قبل وجودها وأبان أوصافها فكانت كما ذكرنا وكذلك في علم الفلك فانهم كشفوا أيضاً ان بعد كل كوكب سيار مضاعف لبعده ما قبله عن الشمس وبهذه الطريقة قالوا إن بين المريخ والمشتري فراغاً كان يجب أن يكون فيه سيار في المسافة (٢٤) لئلا تختل النسبة المحفوظة ، فانظر الجدول في (سورة البقرة) وقد ذكرنا في هذا

للقال اجالا قريبا ، وقد كشف العلماء كواكب كثيرة في نفس ذلك المكان الذي عينه العلماء وهي عبارة عن قطع صغيرة من ذلك الكوكب الذي كان في ذلك البعد ثم جاء أجله وقامت قيامته فصار هشيما وهاهي الكواكب الصغيرة التي اشتقت منه تدور حول الشمس ولكن لا يعرفها إلا علماء الرصد ومن أجزائه سيريس

﴿ الكلام على الروديوم وعلى الذهب وأمثالها ﴾

لقد عرفت كيف كانت العناصر منظمة تنظيما بديعا بهيجا وهذا النظم فيها أبدع وأبهج من نظام الجدول الخمس الذي رأيته آنفا وإنني أجد الله عز وجل إذ كنت أيام التعلم أبحث في هذا العالم عن نظامه وقد اطلعت على أوافق كذلك الوفاق الخمس فكنت أقول ياليت شعري إن الله كان يقدر أن يجعل العالم منظما كنظام هذا الجدول ، إذن يكون هذا العالم بديعا ويستدل الانسان به على ربه ، أما الآن فاني أقول إن هذا الترتيب أعجب وأبدع من ذلك الجدول الذي يعجب منه المبتدئون ، ما كان ليخطر ببالي أن يكون هذا العالم على هذا النظام ، وما كان يخطر لي أنه حق كما رأيته الآن ، يا عجب كل العجب ، كواكب منظمة أبعادها حيوانات ونباتات ومعادن مسلسلة صفاتها منظمة متتالية عناصر مرمومة مرصوفة محسوبة منظومة ، هذا هو الشعر ، هذا هو النظم ، هذه هي القصائد ، هذه هي الأغاني ، لا ، بل هذه هي السعادة والنعمة وبهجة جنان الخلد ، إن أهل الجنة إذا لم يتعلموا يودون لو يعرفون هذا معرفة أجل من معرفتنا ، جل الله ، ما أبدع هذه الجواهر وأقرها للنواظر وأسرها للخواطر وأشرحها لصدور الأكابر

﴿ نظام النفوس الانسانية والملائكة ﴾

إن في هذه الجواهر عجائب أخرى . ألا ترى إلى الذهب والحديد والرصاص وأمثالها كيف نظمت كما قدّمناه في وجودها بحيث تكثر النافعة للعموم وتقل غيرها كما شرحناه في الكلام على المعادن . ألم يقل الذهب لأن فائدته يجب أن يكون هو على مقتضاها . ألم يكن الروديوم الذي قد كشف حديثا قد قل وجوده جدا جدا بحيث أن الذي كشف منه لا يصل إلا إلى دراهم معدودة . ألم تر أن هذه القلة تناسبه حتما ، لماذا ؟ لأنه هو الحاكم على المعادن . انظر كيف كان الألماس فيما قدّمنا يحكم على المعادن ويسلط عليها ويكسرها أما هو فلا يحكم عليه إلا الأسرب كما علمت فأما هنا فإن الروديوم تسلط أشعته على بعض المعادن فيحيلها إلى البعض الآخر حتى أصبح الناس يرون أن العناصر من أصل واحد بسبب هذا التأثير . أليست ترى أن هذه الأشعة قد أثرت في العلم تأثيرا كبيرا . أليست ترى أن قلة هذا المعدن لا بد منها ولو كثرت لأحدث تغيرا في عالمنا الأرضي . أليست ترى أن الذهب كالحكماء والنحاس والحديد والاكسوجين والادروجين وغيرها كبقية الناس . أليست ترى أن هذا المقام هو الذي شرحه أفلاطون في جمهوريته إذ جعل الناس قسما كالذهب وقسما كالفضة وقسما كبقية المعادن وهم الحكام والجيوش وبقية الأمة . أليست ترى معي أن الأنبياء أشبه بالروديوم . أليست ترى أن هذا هو قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ﴾ أليست ترى معي أن هذا النظام في العناصر يخيل للانسان أن هناك نظاما أدق منه في عالم الأرواح الانسانية وانهار بما كان بينها نظام كهذا النظام أو أدق بحيث لو بحث الناس في عقولهم المختلفة لوجدوا هناك نظاما تتفق وتختلف بنظام بحيث تقوم تلك القوى الكامنة بحاجة البشر . أليست ترى أن الناس يجهلون نظام عقولهم وانهم لا يزالون أشقياء حتى يعرفوا نظام عقولهم . أليست ترى أن نظام عقولهم يكون أدق من حيث نسبه من نظام الذرات لأن الأرواح أرقى من المادة والأرقى تكون فيه النسب أدق . أليست ترى أن الناس سيبحثون عن هذه الغرائز في طبائعهم ولكن لا أدري هل ينالونها في المستقبل على هذه الأرض أم ذلك مؤجل ليعرفوه بعد موتهم في العوالم التي سيمرون بها في عوالم البرزخ وهناك يدرسون أنفسهم دراسة أدق من دراسة هذا الجدول . أليست ترى أن هذا يناسب قوله تعالى - وما منّا إلا له مقام معلوم - وإذا كان المقام معلوم بالنسبة

للذرات عجيبا فبالك بالمقام المعلوم للملائكة . أوليس هذا كله يناسب نظام الشمس والكواكب في شروقها وغروبها لأن لها جداول لا خلل فيها . يا الله عجبت من صنعك وابداعك وفهمنا على قدر طاقتنا قولك - أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يهيده إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق - . هذا هو بدء الخلق وهو عجيب جدا عجيب

﴿ اللطيفة الخامسة في أن حاجة الناس دفعتهم الى هذه العلوم ﴾

أيها الذكي ها أنت ذا اطلعت على نظام هذه العوالم وعلى بدء الخلق ورأيت كيف حضت عليها القرآن أفلا تنظر معي كيف اتفق الشرع والحاجة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ انظر كيف أمر الله بأن نعرف كيف بدأ الخلق ولم يكتف بذلك بل أحوج الانسان وحكم عليه أن يبحث في ذلك كله لأجل أموره المعاشية . انظر كيف ترى العالم الروسي يبحث عن نسبة العناصر وهو لم يبحث عنها إلا وهو محمّد في طلب علوم الدنيا لأجل الحياة الحاضرة والله يقول لنا أيضا انظروا ، ايه ، ما أجهل الانسان ، ما أجهل أمة الاسلام ، أبعد هذا يا أمة محمد ﷺ تنامون ، أمركم ربكم ودعت الحاجة الى معرفة حقائق الدنيا وأتمت نامون ، أستم أتم الذين وعدتم وأمركم أن تكونوا خير أمة أخرجت للناس وأن تكونوا رحمة للعالمين وتخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، أتم ورثة السلف الصالح . كلا . كلا . والله أتم ورثتهم ولكن في تحمل الشريعة وستصبرون ورثتهم في هداية الأمم بعد ظهور هذه الحقائق في هذا التفسير وغيره وستقودون نوع الانسان بعد الآن . افاتكم أن هذه الحقائق والدقائق والنظم البديهة استخرجها الناس لأجل حياتهم الدنيا ولم يفعل الله ذلك معهم إلا لأن طباع أهل الأرض لا تتحرك إلا بمحرك قاسر قاهر وهو الامور الحيوية ليدافعوا عن أنفسهم الأعداء ويجلبوا لأنفسهم الغذاء ولعمري لم يجعل الله هذا فيهم إلا ليكمل نفوسهم بقدر الامكان فان علاج الصناعات وممارسة الزراعات والتجارات ونظم السياسات وما أشبه ذلك وكذلك أعمال الحرب كلها مما تدعو لرق العقول والاطلاع على العجائب ، وأهل الأرض لولا ما ابتلاهم الله به من ذلك ما طلعوا فهم مقهورون مأمورون بالاطلاع والمسلمون قد دعاهم دينهم للاطلاع فناموا لأنهم لم يعلموا أنهم مأمورون بالتدقيق لهذا الحد فعلمهم من الآن أن يبحثوا ويقرأوا العلوم التي عرفها الناس ثم يسيطروا على سائر العلوم

﴿ ذكر البارود والعناصر التي ركب منها الأمم ﴾

قلنا إن الله حكم على الأمم بالحرب وغيره لتعرف دقائق العلوم وقلنا إن المسلمين جهلوا فمحقبوا بأن الفرنجة دخلوا بلادهم وأذلّوهم والأسلحة والغازات الخائفة ، وأقول الآن إن النوع الانساني الذي خلقه الله على هذه الأرض ركب تركيبا مناسبا وليس يتحرك للمعارف غالبا إلا بمؤثرات بليغة والمؤثرات كما قدمنا ﴿ قسمان ﴾ دينية ودنيوية ، والدنيوية إما جلب رزق كالزراعة والتجارة والصناعة ومنها الطب ولا جرم أن العناصر وتحليلها ومعرفة ذراتها ومهيأها لابد منها للأدوية الطبية والزراعة والتجارة وهذا أمر معلوم ، فهنا جعل جلب المنفعة ماعدا العقاقير الطبيعية فاسها لدفع مضرة المرض . واما لدفع ضرر وذلك أن علم صناعة الحرب تقدم تقدما عظيما ومعرفة العناصر ومقاديرها أمر واجب لذلك

انظر الى صنع البارود فهو مخلو من ملح البارود والكبريت والفحم ، فن الأول (٧٥) ومن الثاني (١٢٥٠) ومن الثالث (١٢٥٠) وهذا عند الفرنسيين (٧٤) و(١٠) و(١٦) على هذا الترتيب عند الألمانين و(٧٦) و(١٠) و(١٤) عند الانجليز على الترتيب ومن أراد تلوين السواريج بالبياض فليأت بنحو (١٦) من ملح البارود و(٤) من الكبريت و(٣) من البارود الناعم

(نيران زرقاء) كلورات بوتاسيوم (٢٦) كبريت (١) أو كوسى كلورور النحاس (١٤) وهناك مقادير

للنار الحمراء والبنفسجية

وللنيران الخضراء كلورات بوتاسيوم (٢٨) أزوتات باريوم (٣٥) أوكسى كلورور النحاس (١) صمغ لك (١٠) كلورور الرصاص

للون الصفرة (٥) كلورات بوتاسيوم (١) صمغ لك (٢) أوكسالات صوديوم
هذه نبذة من التركيب وفوائده وكيف كان وزن العناصر أصبح ضروريا لنوع الانسان حتى في دفاعه عن نفسه وكيف استطاع أن يركب من الكبريت والفحم وملح البارود أنواعا ثم كيف قدر على التأوين بالخضرة والصفرة والحمرة وغيرها ، ذلك كله بوزن وحساب كما صنع الله عز وجل في نباته وحيوانه إذ استخرج من أجزاء معلومة ما لا يتناهى من أشكال بديعة وصور عجيبة وبدائع وغرائب . إن الانسان خليفة الله في الأرض فتراه يسير على سنان حكمته وإن لم يعلم . سلط الله الناس بعضهم على بعض بالقتال والحرب فاضطروا لمعرفة المادة وتحليلها وحسابها كما اضطروا لذلك في أمور معاشهم فهم مضطرون للعلم والتحليل وللتركيب في الخالين حال جلب المنفعة وحال دفع المضرة . فهذه العلوم تقوى أجسامهم وترقى نفوسهم ويسيرون في الأرض ويركبون السفن الحربية ويحاربون في الجوّ ويمزقون الأجسام فتنشط الأمم وتقوى الهمم وتدفن الرمم ويبقى الأحياء مجدين . إن الله بالحرب والضرب يريح أرواحا من هذه الأرض فتخرج منها الى عالم البرزخ والأرواح الباقية تستفيد عبرة واختبارا . أيها الذكي لا تظن أني أبيع الحرب . كلا . وإنما كلامي في الحكم الكونية التي فهمتها من عمل الله في الأرض . انه سلط بعضهم على بعض لأن هذه الأرض ليست محل إقامة بل هي دار صناعة وتعليم وتنشيط . جهلت هذه الأرواح الأرضية التي تمر بأرضنا علوما ومعارف فأنزلهما في الأرض وسلط عليها هذه الأخلاق وأرسل لها أنبياء وحكماء ثم قال افعالوا فكل ميسر لما خلق له ففتطاعوا وتضاربوا وتقاتلوا كل ذلك ليستيقظوا للنتيجة وهي أن تعرف نفوسهم نظام هذا العالم وتصل الى الجبال فإذا وصلوا الى الجبال وعرفوا الحقائق يدخلون في دار أخرى تكون العلوم فيها بالشوق لا بالحرب والضرب والفقر ومبادئ العلوم هناك ماتوا هنا من الجبال . ولعلك تقول أى جبال هنا

﴿ الجبال في هذا العالم ﴾

اعلم أن نهاية هذا العالم الجبال ولا يمكن ادراكه إلا بالحكمة والناس يفهمون الجبال العادى في الوجوه وجبال الوجوه في ﴿ أربعة أشياء ﴾ الخدين والعينين والأنف والفم . هذه الأربعة متى كانت منتظمة سائرة على النسب الصادقة فانها تكون جميلة ومتى تنافرت قبحت وظهرت مكروهة الطلعة . وليس في الأرض انسان إلا وهو يدرك هذا الجبال اجالا ولكنه لا يدرك سببه والسبب هو النسب التي قررها العلماء لأعضاء الانسان وليس هذا مقام بيانها ، ومرجع الجبال في الزهر والنبات والحيوان هو النسب العددية والهندسية ، وليس في الأرض ولا في السماء جمال إلا بهذه النسب ، وترى الناس يطربون للشعر والموسيقى وليس ذلك إلا للنسبة العددية والموسيقية والشعر والموسيقى من واد واحد فان السبب والوتد والفاصلة المشروحة في ذينك العلمين ترجع كلها الى حركة وسكون في علم الموسيقى وحرف ساكن وحرف متحرك في علم الشعر ، فالشعر والموسيقى يرجعان الى هذين ، فترى الأبحر الستة عشر التي جعل لها الخليل دوائر حسابية منتظمة لم تخرج عن النسبة الحسابية والهندسية وهكذا جميع الأغاني وضروب الموسيقى على هذا النمط كما ترى في الماخورى من علم الموسيقى مثل بحر البسيط من علم الشعر وكلاهما (٤٨) ما بين ساكن ومتحرك ففي كل منهما (١٢) سببا و (٨) أوتادا ومعلوم أن السبب متحرك وساكن والوتد متحرك وساكن فتكون الأسباب (٣٤) حرفا والأوتاد (٣٤) وهناك تظهر النسب الهندسية والنسب العددية كما هو واضح في ذينك العلمين . إذن ظهر لك أن الناس لا يفرحون بالجبال المحسوس إلا للحساب والنسبة وإن كانوا لا يعلمون ذلك وكلما كان التناسب أتم كان السرور أعظم ،

هكذا في الجبال العقلي الذي لامعني له إلا تلك النسبة ، ومن وازن ما ذكرناه في الجبال الظاهري وفي الشعر بما أبناه هناك في الجدول الذي اخترعه العالم الروسي يرى فرقاً عظيماً ، يرى التناسب هناك أبداع ، إذ يرى الخواص الطبيعية والخواص السماوية مضافة إلى الأوزان الذرية ، فالشعر والموسيقى والجبال الظاهري لم يدخل فيها شيء سوى الحساب ، أما في أوزان الذرات فهناك (١٦) صفة تزيد على النسبة المذكورة ولذلك نرى لذة العلماء والحكماء أضعاف أضعاف لذة الجاهلاء لأن الجاهل لا يعرف إلا ما أحس به والعالم ترقى وأدرك ما لا يفهمه الجاهلون - لمثل هذا فليعمل العاملون -

أقول وكأن هذا الجبال الذي يظهر في هذه الذرات وأمثالها هو مبدأ لنظام أجل تدركه النفوس إذا خرجت من هذا العالم والشوق هنا يؤهلها للرقى هناك ، لذلك تجدد النفوس الانسانية مجددة على الأرض في طلب العلم للجلب والدفع * والدليل على ذلك ما تراه في تعريف حكماء الشرق للتربية قديماً وحديثاً (١) قال ابن المقفع ﴿ ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا ﴾

(٢) قال أفلاطون ﴿ الفرض من التربية هو امداد كل من الجسم والعقل بما يمكن من الكمال والجبال ومن رآه أن يربي قليل من أبناء الخاصة لأجل نظام الحكومة ﴾

(٣) وقال مالتون ﴿ التربية الصحيحة الكاملة هي ما تؤهل المرء للقيام بأي عمل خاصاً كان أو عاماً بمهارة وإخلاص تام أثناء السلم والحرب ﴾ وهذا التعريف يقرب مما قررناه

(٤) وقال جيمس مل ﴿ التربية تؤهل المرء لأن يكون عاملاً من عوامل السعادة لنفسه أولاً وللسائر مخلوقات الله ثانياً ﴾

(٥) وقال جون استوارت مل ﴿ التربية تشمل كل ما يفعله المرء أو يفعله غيره له لفرض تقر به من درجة الكمال ﴾

(٦) وقال هربرت سبنسر ﴿ مهمة التربية هي اعدادنا لحياة كاملة ﴾

(٧) وقال بعض علماء بروسيا ﴿ التربية إنماء جميع القوى الانسانية إنماء تتعادل فيه جميع القوى ولكن ميول البشر واستعدادهم مختلفات فقد يكون من الحكمة الاهتمام ببعض القوى في انسان أكثر منه في آخر ﴾ ولهذا زاد بعضهم على التعريف المتقدم فقال بطريقة مبنية على طبيعة العقل ﴿ فشكل قوى العقل يجب أن تفحص ثم تقوى وتتمى على حسب طبيعتها ﴾

(٨) « القرآن » ألت ترى أن هذه التعاريف كلها جاءت في هذه الآية ، وهل ترى اني الآن أنقلها لغير فائدة التفسير ، اني نقلتها لأنها في نفس الآية ، فقوله تعالى - قل سيروا في الأرض - والسير حركة وهي ترجع للقوة الجسمية ، وقوله - فانظروا - راجع للقوة العقلية فكأن الله بهذه الآية يأمرنا بنظام الجسم وبنظام العقل وبهذا دخلت التعاريف السابقة كلها في الآية والآية شماتها ، فالحركة للتجارة وللحج وللقتال واطلب العلم والسياسة كلها سير في الأرض وكل حركة للتمرين وللأعمال الهامة تقرب من السير لأنها حركة على وجه العموم ، وكل صناعة فبدؤها بالعلم ونهايتها بالعمل فهي مشتركة بين الجسم والعقل ، فصناعة البارود مثلاً مبدؤها العقل في المعامل والمدارس ونهايتها السير في الأرض واطلاق النار ، فأولها عقل وآخرها عمل وجميع القوى العقلية تنمو بالنظر . إن الآية قرنت بين التمرين الجسمي والتمرين العقلي فهي تعطى الجسم حظه والعقل حظه وهذه كانت صفة نبينا ﷺ فانه كان في أثناء الجهاد يوحى اليه ويهبط الناس ويعلمهم . فحركة العقل وحركة الجسم متقارنتان . ومتى تذكرت ما جاء في (سورة التوبة) من أن كثيراً من آياتها أوحى بها في سفره إلى غزوة تبوك عرفت تفسير قوله تعالى - قل سيروا في الأرض فانظروا - الخ وكذلك غزوة أحد

وغزوة بدر . فكان الجسم والعقل مشتركين في تنمية العقول . إن الاسلام لم يقف عند هذا الحد في تربية النفوس بل ان أدعية الصلاة مؤيدة لذلك

﴿ اللطيفة السادسة . مقاصد الصلاة في الاسلام السالم والحكم وارتقاء العقول بها ﴾

ذكرت لك أن ديننا يأمر بالعلوم وأن الفطر الانسانية والحاجة الدافعة اضطرت الناس الى العلوم وأذكر هنا أن الصلاة تبعث على العلوم ، فكما أن القرآن كله حث على النظر في هذه الدنيا نجد المؤمن في أقطار الأرض يقرأ كلمات تحثه على العلوم وأكثر الناس لا يعلمون ، انظر الى الفاتحة فهي مبدوءة بالحمد ثم الدعاء بالهداية الى الصراط المستقيم وتقدم هذا . وانظر الى الأدعية في الركوع والسجود والجلوس بين السجدين والشهد وأنواع المحامد والثناء ، إن المحامد عند الرفع من الركوع تحث على معرفة العوالم العلوية والسفلية عامة والمحامد في الركوع والسجود تحث على علوم الطبيعة بأجمعها ، انظر الى هذه المحامد في العبادات ، انظر الى دين جاء لأمر أرقى من الأمم الحاضرة . يا الله إنك أمرت المسلم أن يقول عند رفع رأسه من الركوع « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » وهل للحمد اللفظي معنى إلا بالعلم بالمحمود عليه وما المحمود عليه إلا هذه العوالم التي ذكرناها ودخلت في قوله تعالى هنا - فانظروا كيف بدأ الخلق - أي معنى للحمد بدون علم . إن المسلم يصلي ولا يعلم أن الصلاة تدعوه للعلوم . إن المسلم اذا صلى وقلبه غافل لاصلاة له واذا صلى وقلبه حاضر وعرف المعنى فلما أن يقف عند الألفاظ وهو متوجه لله فيشتاق اليه ثم يموت فيرجع اليه وهو عابد في درجة خاصة ولكنه لا يرتقي الى درجات رفيعة ، فأما اذا فهم المقصود من الصلاة فانه يتغلغل في العلوم إذ يعلم أن الصلاة تحث على الجد في معاني هذه الكلمات ومعانيها هي جميع العلوم . يرفع المسلم رأسه قائلاً « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ » فكأنه يشير الى علم الفلك وما تحا نحوه وبقية العلوم اجالا ، أما في الركوع فانه أولاً ينزه الله أن يكون كالمخلوق فيقول « سبحان ربى العظيم » فكأنه قبيل أن يخاطبه ينزهه أن يكون كمن يخاطبهم ثم يقول « اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسألت » وهذا اقرار بالايان وهي أول مرتبة ولكن الوقوف عندها جهالة وكسل ثم يقول « خشع لك سمعى وبصرى ونحى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » وهذا عبارة عن علم التشريح وأن المسلم عليه أن يعرف شيئاً من التشريح حتى يدرك السمع والبصر والمخ الخ وقد تقدم بعض ذلك في هذا التفسير وكذا السمع والبصر في (سورة آل عمران) والمؤمنين ويقول في السجود بعد التسبيح « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسألت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » ففي السجود ذكر الايمان والتسليم كما في الركوع ولكن المصلى يتوغل هنا فيقول « سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » فالتعبير بالخلق والتصوير وشق السمع والبصر يقتضى زيادة العلم بالتصوير وبجائبات طبقات العين وعجائب الأذن وغرائب المخ وذلك يدعو الى علم التشريح ويقرب منه معرفة أنواع الحيوان والنبات والعناصر التي خلقت هذه منها . ولست أقول ان المصلى اذا لم يدرس تكون صلاته باطلة ولا أخالف مانص عليه الفقهاء - لا يكاف الله نفساً إلا وسعها - ولكن المقام مقام مزايا الاسلام في الترية ، فانظر كيف دعانا الى معرفة العوالم العلوية عند رفع رؤسنا الى أعلى ودعانا لمعرفة أجسامنا وبقاس عليها ما هو نظيرها في التقذى والتركيب وهو الحيوان والنبات وهكذا العناصر المركبة هي منها . ولما كان العبد وهو ساجد أقرب الى ربه كما في الحديث وكفى الآية كما قال تعالى - واسجد واقرب - رأينا الدعاء في السجود يوضح تشريح الجسم ويشير الى الجدة في مسائل الجسم الانسانى . واذا ضمنا ذلك الى ذكر الحمد على جميع النعم في الصلاة ومبادئ النعم كلها ما ذكرناه في تفسير هذه الآية وكذلك قول المسلم في قنوت الصبح فانه يدعو بطلب الهداية ويحمد الله ويشكره في آخر الدعاء . ولا معنى للحمد ولا للشكر إلا هذه العلوم وكذلك

التشهد فان المسلم يقول « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله » وهذا في معنى الجود ويختتم ذلك بقوله « إنك جيد مجيد » والجود لا معنى له كما قلنا إلا بمعرفة العلوم المتقدمة والا كان جودا ناقصا . أقول اذا ضممتنا ذلك كله الى ما ذكرناه ظهر أن الصلاة في جميع أحوالها عبارة عن درس لهذه العلوم وبحث عليها وبجود أدعية الصلاة كاملة كافية لشوق المسلم الى هذه العلوم وان لم يسمع من القرآن حرفا ، وسيأتي في هذه الأمة من يعرف الناس مقاصد الصلاة ويعرف الناس مقاصد القرآن ويعرف الناس حكمة الله في خلق الناس على الأرض ويعرف الناس أن الله لم يدع وسيلة لتنمية العقول إلا وضعها في هذا العالم الأرضي وأن المسلمين لما جهلوا جماله ونظامه ولم يعرفوا ما في القرآن وأن الرسول ﷺ شكوا من طائفة فقال - يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا - ولم يعرفوا ما ترمى اليه الصلاة أرسل سبحانه الفرنجة ليكون هذا آخر سهم يرمى به المسلمين حتى يرجعوا الى رشدهم ويتعلموا وعسى أن يقوم فيهم من يفهمهم أن الاسلام أرقى مما أتم عليه وأن هذه هي العلوم التي يرضاها الله فهي خير من ضياع الوقت في فروع فقهية ينقض الدهر ولا يسأل عنها أحد . اللهم إني نصحت وأفرغت جهدي في النصيح ، وإني أسألك أن تلهم هذه الأمة الرشد وتسعد بالها وتلهم الأذكاء منها أن يرفعوا من شأنها ويسعوا لاصلاحها ويهدوها الصراط المستقيم

سيعلم الدعاة والمصلحون في الاسلام أن ما ذكرناه في هذا المقام ترمز اليه الصلاة على الترتيب الذي سطرناه . فالثناء في الرفع والاعتدال وفي الفاتحة والدعاء بالهداية فيها وفي القنوت وفي الجلوس بين السجدين موجه لعموم العلوم فإذن يبتدىء المتعلم بقراءة العلوم كما في المدارس الابتدائية والثانوية في الأمم الراقية ثم يأخذ في علوم التخصص حتى يتقن فنا خاصا كما قررناه مرارا . فالثناء في حال الرفع والاعتدال ومأمعه غير ما يذكر في الركوع وفي السجود من ذكر نوع خاص كالسمع والبصر والمخ والعصب فهذا خاص والمذكور في الاعتدال عام . فالصلاة نسخة من صفحات العلوم أوحى الله بها الى نبيه ليقرأها الناس صباحا ومساء وقد اهتدى بهذه الصحيفة البيضاء قوم وسيهتدى به أكثر المسلمين في مستقبل الزمان

﴿ اللطيفة السابعة ﴾

اعلم أن الله عز وجل كما حث المسلمين في صلاتهم وفي دينهم وفي جميع أحوالهم على العلوم ثم سلط علينا الفرنجة لما سبق في عامه اننا جامدون حث الأمم الأخرى التي سبقتنا على ذلك فيما كانوا يتعبدون به لأنه رحيم عام الجود . ولأذكر لك ما كان يصنعه قدماء المصريين للتقرب الى الكواكب التي كانت معظمة عندهم كما ذكره أستاذنا العلامة علي باشا مبارك في كتابه ﴿ خواص الأعداد ﴾ قال ماملخصه

« كان المصريون يعتنون بالارفاق وأخذ عنهم فيثاغورس وجسامته وسميت بالارفاق لأنهم نسبوها الى الكواكب السبعة فانهم كانوا يجعلون الجداول المذكورة في صور مختلفة وكانوا ينقشونها على صفائح من المعدن الموافق للكوكب الذي يريدونه وكانوا يجعلون جدول الوفق المذكور على شكل كثير الأضلاع منتظم مرسوم داخل دائرة عدد أضلاعه بقدر ما يشتمل عليه ضلع المربع ومكتوب عليه أسماء الملائكة الموكلين بالكوكب المطلوب ومرسوم عليه أيضا فيما بين أضلاع الشكل ومحيط الدائرة اشارات منطقة فلك البروج وكانوا يزعمون أنه ينفع من يحمله معه . وكيفية انتساب تلك الجداول الى الكواكب هو انهم كانوا يجعلون لرحل المربع المنقسم الى تسع خانات جذر عددها (٣) ومجموع أعداد صفه (١٥) والى المشتري المربع المكون من (١٦) خانة جذرها (٤) ومجموع أعداد صفه (٣٤) والى المريخ المربع المركب من (٢٥) خانة وضلعه (٥) ومجموع أرقام صفه (٦٥) وقد تقدم قريبا والى الشمس المربع المكون من (٣٦) خانة وضلعه (٦) ومجموع أعداد صفه (١١١) والى الزهرة المربع المشتمل على (٤٩) خانة وضلعه (٧) ومجموع أعداد صفه (١٧٥) والى عطارد المربع المشتمل على (٦٤) خانة وضلعه (٨) ومجموع أعداد صفه (٢٦٠) والى القمر المربع المشتمل على (٨١) خانة

وضاعه (٩) ومجموع أعداده (٣٦٩) وكانوا يجعلون للمادة الأولى المربع المشتمل على (٤) خانات وضاعه (٢) والله الواحد الأحد المربع المسكون من خانة واحدة وضاعه (١) بحيث انه لو ضرب في نفسه لا يتغير أبدا . وقد تقدم الوفاق الخمس . ولأرك شكلا واحدا آخر وهو المسبع ثم أذكر الحكمة في وجود هذا في العالم الانساني (المسبع)

٢٢	٤٧	١٦	٤١	١٠	٣٥	٤
٥	٢٣	٤٨	١٧	٤٢	١١	٢٩
٣٠	٦	٢٤	٤٩	١٨	٣٦	١٢
١٣	٣١	٧	٢٥	٤٣	١٩	٣٧
٣٨	١٤	٣٢	١	٢٦	٤٤	٣٠
٢١	٣٩	٨	٣٣	٢	٢٧	٤٥
٤٦	١٥	٤٠	٩	٣٤	٣	٢٨

ولأكتف بهذا المسبع وبالمخمس الذي ذكرته سابقا وأشرح موضوع هذه الأوقات . إن هذه الأوقات كانوا يعتنون بها ويدعون أدعية للكوكب وكان ذلك على مقتضى ما عندهم من العلم . ولا جرم أن دين قدماء المصريين كان دخله التحريف فصاروا يتقربون بهذه الأوقات . والسر في التقرب بها أن أعدادها منتظمة تحير فكر الذي يتلو العزيمة إذ يجد أعدادا منتظمة تحير العقل وتدهش اللب وتدخل في عقل الناظر للأعداد نوعا من الحيرة وحب الاتقان فأصل وضعها كان لارشاد الشعب الى حب الجبال وهو النظام وذلك يدعو للبحث في السموات والأرض على ذلك النظام في عالم السموات والأرض وربما كان ذلك من رجال الدين ثم تمادى الناس فيه فجعلوه لطلب قضاء الحاجات من الأصنام التي كانوا يزعمون أنها ملائمة للكوكب التي تحفظها الملائكة لأن دين القدماء هكذا ﷻ الله خلق العالم . الملك موكل بالكوكب . الصنم سبيل للكوكب الأوقات تقرب العابد من الكوكب الذي هو يمثل الملك المقرب من الله ﷻ فهذه سلسلة طويلة أملاها عليهم رجال الدين تحصل عند طول الأمد بعد نزول الأديان فيحصل الانقطاع الى الامور المادية ويترك الأصل الذي قصده الأولون فعكف الناس على الاستغناء والاستعانة بهذه الأوقات ونسوا ما لأجله وضعت الأوقات عند الكهنة ورجال الدين وان كانوا هم أيضا غير موقنين بتطاول الزمن عليهم فتطاول الزمن على رجال الدين وعلى العامة جعل تلك الأوقات أدعية للرزق والجاه والشهوات كما أن كثيرا من جهلة الأمة الاسلامية وبعض الخواص يجعلون القرآن في أكثر الاوقات لطلب أمور الدنيا لغرض الدنيا وهذا انتكاس على الرأس . والمقصود الأول من ديننا ارتقاء النفوس بالعمل والعلم فاتجه كثير من الناس الى جعل الدين مفتاحا لباب الشهوات . وأصل الاوقات عند قدماء المصريين تذكير النفوس بالعالم والحكمة وجمال الله لجعلها المتأخرون منهم باب مرتزق وتبعهم على ذلك جهلة المساميين الى الآن ، فانظركيف جعل الله في القدماء قبلنا من وجهوا الهمم الى معرفة حسن النظام في العالم بطريق الدين ثم نسيه أهله فذهبت دواتهم فأصبحوا خاسرين ، ذلك أن الله عز وجل لم ينس عباده ولم يترك أحدا من خلقه بل هو عليهم مهيم يذكركهم كل حين ولا ينال العز إلا من سبق له الحسنى . وما ينبغي ذكره في هذا المقام أن (فيثاغورس) كان مغرما بعلم العدد ويقول إن العالم مركب من العدد وهذا لشدة ولوعه بالله تعالى لأن هذه الاوقات التي نقلها عن المصريين قد قرأها وعرف أسرارها وراءها لانعامها نحن ففنى في الخالق واشترأت نفسه الى ذلك الجمال الأسنى . وأن الى ربك المنتهى -

ويقرب من ذلك جدول العناصر المتقدم بل هو مدهش ومدهش لأنه يعرف جمال الله في صنعه بأبلغ

حجة وأقطع برهان . واعلم أن قدماء المصريين لما جهلوا المقصود من دينهم نسخوه الله هكذا المسلمون لما نسوا مقصود القرآن سلط الله علينا الفرنجة وسيجمل الله بعد عصر يسرا ويرتقى الاسلام - وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب - انتهى الكلام على القسم الأول من السورة

(الْقِسْمُ الثَّانِي)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِثَتْ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * أَتُلُّ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ * وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ يَدِينِي وَيَدِينُكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَشَّةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَفْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *

وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ
مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ
يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ
نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ * وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ
يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا
حَرَمًا مَأْمُومًا وَنُخَاطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ
* وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أى الأصنام يتسكعون عليها فى نصرهم (كمثل
العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) أى مثل المشرك الذى يعبد الوثن
بالقياس الى المؤمن الذى يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتاً بالاضافة الى رجل يبنى بيتاً باجر وجص أو ينسجه
من صخر وكما ان أوهن البيوت اذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت كذلك أضغف الأديان اذا استقريتها
ديناً ديناً عبادة الأوثان - لو كانوا يعلمون - أى لو كانوا يرجعون الى علم لعلموا أن هذا مثلهم (إن الله يعلم
ما يدعون من دونه من شئ) هذا توكيد للثبوت أى ان الله يعلم أن الأصنام التى يدعونها ليست شيئاً فنانة ومن
زائدة وشئ المجرور عن الزائدة مفعول تدعون (وهو العزيز) الغالب الذى لا شريك له (الحكيم) فكيف
يعبد الناس ما ليس شيئاً ويذرون عبادة العزيز الحكيم (وتلك الأمثال) الأمثال بدل (نضربها) نبينها خبر
(للناس) وان ضحك من هذا المثل سفهاء قریش وقالوا محمد يضرب المثل بالنباب والعنكبوت (وما يعقلها إلا
العالمون) ورد « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » (خلق الله السموات والأرض
بالحق) محققاً غير قاصد به باطلاً فان المقصود بالذات من خلقهما افاضة الخير وايجاد كل ممكن تعلق به العلم (إن
فى ذلك لآية للمؤمنين) لأنهم يستدلون بالآثار على مؤثرها (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) تهبدا وحفظا
وفهما لمعانيه واستكشافا لغوامض مافيه (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وذلك لأنها
حال الاشتغال بها تشغل المصلى عن الاشتغال بغيرها ، وأيضاً تورث النفس خشية من الله * روى أن فتى من
الأنصار كان يصلى مع رسول الله ﷺ ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبته فوصف له فقال إن صلاته ستهناه
فلم يلبث أن تاب (ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته أو بالصلاة
أكبر من غيرها من الطاعات وسميت ذكراً لأنها مشتملة على ذكره تعالى وهو العمدة فى كونها مفضلة على
الحسنات (والله يعلم ما تصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولا تجادلوا أهل الكتاب
إلا بالتي هى أحسن) بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالسكظم والمشغبة بالنصح (إلا

الذين ظلموا منهم) بالافراطى العناد كأن يتبنوا الولد أو يقولوا يد الله مغاولة أو يذبذبا العهد ، وإذا استعمل السيف فى بعض الأحوال فذلك انه كالسكى آخر الدواء فالمدار فى نشر الدين أصالة على إقامة الحجّة لاسيما فى هذا الزمان ، ثم أبان طرفا من تلك المجادلة فقال (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) مطيعون له خاصة وفيه تعريض بأنهم اتخذوا آحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله * وروى عن النبي ﷺ أنه قال ﴿ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قلوا حقاً لم تكذبوهم ﴾ وقوله (وكذلك أنزلنا اليك الكتاب) أى وكما أنزلنا الكتب الى من قبلك أنزلنا اليك الكتاب (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) كعبد الله بن سلام وأخزابه (ومن هؤلاء) ومن العرب وأهل مكة ومن فى عهد النبي ﷺ من أهل الكتاب (من يؤمن به) بالقرآن (وما يجحد بآياتنا) مع ظهورها وقبام الحجّة عليها (إلا الكافرون) أى المتوغلون فى الكفر كاليهود عرفوه ﷺ وكفروا به وكفروهم هو عين الجحود إذ الجحود بعد المعرفة (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) فان ظهور كتاب جامع لهذه المزايا يستحيل أن يأتى به أمة فإذن هى معجزة (إذا لارتاب المبطلون) أى لو كنت تكتب أو تقرأ قبل الوحي اليك لارتاب أهل مكة واليهود فقال الأولون إنه يقرأ من كتب الأولين وقال الآخرون إن صفته فى التوراة انه لا يقرأ (بل هو آيات بينات) أى القرآن (فى صدور الذين أوتوا العلم) يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) المتوغلون فى الظلم المكابرون (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل العصا وناقة صالح (قل إنما الآيات عند الله) ينزلها كما يشاء لست مالكها (وانما أنا نذير مبين) ليس من شأنى إلا الانذار (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فهو معجزة دائمة على مدى الزمان وليست كالعصا لأنها لا تدوم ، وقد جاء فى ﴿سورة طه﴾ أن أمثال هذه الآيات الحسية تلتبس ولذلك كفر بنو اسرائيل لما رأوا عجل السامرى وقد تقدّم ايضاح هذا هناك (إن فى ذلك) الكتاب الذى هو حجة دائمة (لرحمة) لنعمة (وذكرى) وتذكرة (لقوم يؤمنون) دون المتعنتين (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) يشهد لى أنى رسول الله ويشهد عليكم بالكذب وشهادة الله اثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه (يعلم ما فى السموات والأرض) فلا تخفى عليه حالى وحالككم (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله (وكفروا بالله) منكم (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم لأنهم اشتروا الكفر بالايمان (ويستجاولونك بالعذاب) كالنضر بن الحرث لما قال فامطر علينا حجارة من السماء (ولولا أجل مسمى) وهو ما وعدتك انى لا أعذب قومك ولا أستأصلهم (لجاءهم العذاب وليأتينهم) العذاب (بفتة وهم لا يشعرون) باتياناه (يستجاولونك بالعذاب) أعيدت الجملة تأكيداً (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) ستحيط بهم وتجمعهم جميعاً (يوم يفشاهم العذاب) يصيبهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاءه (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) أى اذا لم تسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتمش فيه أمر دينكم فلتهاجروا عنه الى بلد تكونون فيه أصح ديناً وأكثر عبادة * وعن سهل « اذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض فاخرجوا منها الى أرض المطيعين » ويقال أيضاً « إن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها » (كل نفس ذائقة الموت) يريد بذلك تهوين الهجرة من بلد المعاصى ويقول اذا كانت النفوس تجد مرارة الموت وكرهه فكيف يهملها المهاجرة من الوطن (ثم إلينا ترجعون) بعد الموت للثواب والعقاب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لنزلنهم (من الجنة غرفاً) عللى (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) أى أجرهم (الذين صبروا) على أذية المشركين والهجرة للدين والحق (وعلى ربهم يتوكلون) فلا يتوكلون إلا على الله (وكأن من دابة لا تحمل رزقها) لا تطيق حملها أضعفها أولاً تدخره فتصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها وإياكم) فأنتم مع قوتكم وهى مع

ضعفها سواء في أن الله يرزقكم جميعا فهو المسبب لها فلا تخافوا على رزقكم من الهجرة إذ قال بعضهم كيف تقدم على بلديس لنا فيها مرتزق (وهو السميع) لقولكم (العليم) بنياتكم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر) أي ولئن سألت أهل مكة ذلك (ليقولن الله) لأن العوالم منتهية إليه (فأني يؤفكون) فكيف يصرفون عن توحيدهم بعد إقرارهم بذلك (الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أي لمن يشاء أي يوسع ويضيق لواحد في وقتين مختلفين ويوسع لزيد ويضيق لعمرو (إن الله بكل شيء عليم) يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم * وروى « إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك » (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) أي هم مقررون بذلك (قل الحمد لله) على عصمتك من مثل هذه الضلالات وعلى تصديقك وإظهار حجتك (بل أكثرهم لا يعقلون) فيتناقضون فانهم يقولون إنه خالق كل شيء ثم يشركون به سواء (وما هذه الحياة الدنيا) الإشارة للتحقير (إلا هلو) اشتغال بما لا يعنى وتمتع باللذات وفرح (ولعب) عبث وباطل لا يبقى (وإن الدار الآخرة هي الحيوان) أي الحياة أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة ، وأصل حيوان حيوان من حي على وزن غليان فقلبت الياء الثانية واوا (لو كانوا يعلمون) حقيقة الدارين ما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي ثم قال إن هؤلاء دائبون على ما وصفوا به من الشرك (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) فهم والحالة هذه لا فرق بينهم وبين المؤمنين في صورة الاخلاص لله لعلمهم أنه لا يدفع الشدائد سواء (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) أي فاجؤا المعادة إلى الشرك والمؤمنون ثابتون على إيمانهم (ليكفروا بما آتيناهم) أي يشركون حتى يكفروا بما آتيناهم من النعمة (وليتمتعوا) أي سيتمتعون بهذه العاجلة ولا نصيب لهم في الآخرة (فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم وهذا تهديد ويصح أن تكون اللام للأمر في ليكفروا وليتمتعوا (أولم يروا) أي أهل مكة (أنا جعلنا حرما آمنا) أي جعلنا بلدهم ممنوعا مصونا يأمن داخله (ويتخطف الناس من حوهم) يستلبون قتلا وسبيا (أفبالباطل يؤمنون) أي أبالشيطان والأصنام يؤمنون (وبنعمة الله) المذكورة الواضحة (يكفرون) * ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بأن زعم أن له شريكا (أو كذب بالحق لما جاءه) يعني الرسول أو الكتاب وفي التعبير بما إيذان بسفاهتهم إذ سارعوا إلى التكذيب بلاتروا لمجرد السماع (أليس في جهنم مثوى للكافرين) أي أما لهذا الكافر المكذب مأوى في جهنم ، ولما كان أول هذه السورة مسوقا للجهاد العام بجهاد النفس والجهاد مع الوالدين والجهاد مع الأعداء ومع الأصحاب ختم السورة كما ابتدأها وبشرا المجاهدين بالهداية فقال (والذين جاهدوا فينا) أي في حقنا سواء أكان جهاد الأعداء الظاهرة أم الباطنة فيشمل سائر المعاصي حتى جهاد الكبر والحسد والحرص وكل مرض قلبي (لنهديهم سبلنا) لأننا خلقنا السموات والأرض بالحق (وإن الله مع المحسنين) بالنصرة والاعانة . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

(اللطيفة الأولى في قوله تعالى - وإن أوهم البيوت لبيت العنكبوت -)

لأذكر لك ما كتبت في كتابي ﴿ جلال العالم ﴾ من عجائب العنكبوت تحت العنوان الآتي ونصه

﴿ العنكبوت ﴾

خلق العنكبوت ذا ثمانية أرجل وعلمه الله بالإلهام من الصغر في إبان حياته حتى أنه ينسج بحيث تتساوى كبارها وصغارها والأمهات وأولادها في الغزل والنسج ، فلا عنكبوت إلا وقد أوتى هذه الصنعة بلا تعلم

ولا تعليم ولا مدرسة كأتمهاتها ولا تخرج ولا درس ولا تنقيب كما فطرت صفار البط على العوم في الماء عقب كسر بيضها وهكذا جميع الطيور والحشرات ، ولما كان هذا التعليم غريزيا إلهيا لم يدخله الغلط ولا السهو بخلاف النوع الانساني ولذلك احتجنا الى قول نبينا ﷺ « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان » فلا يقع من العنكبوت في نسيجه ولا غزله غلط بل تراه يحكمها باتقان مع التأنى والتثبت ، فترى خيوطا متينة وشبكاتها محكمة الوضع هندسية الشكل ، وقد قال علماء العصر الحاضر ﴿ لو اجتمع كل نساج وغزال في الدنيا وقوبلت صناعاتهم بصناعات العنكبوت لفاق الثاني الأولين والآخرين وغلب الحيوان الأعجم هذا الانسان - ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير -

﴿ العنكبوت البناء ﴾

كل عنكبوت في الدنيا غزال ونساج وبعض الأنواع بناء يبنى منازل يشاهدها الناس في أماكن كثيرة في حجم (الكستبان) يقفلها من الداخل بقفل لم يقف أحد من علماء الحشرات على كنهه حتى يأمن من دخول عدو مهاجم أو سارق فتأمل كيف أعطى قوة وحكمة عجز عنهما الانسان في البناء كما أوتي النحل في بناء مسكنه فوق الأرض وأحكم المنافذ للنور وأقفلها عند الرطوبة أو البرد ، كل هذا يدلنا على أن هذا العالم يشمله تدبير عجيب من أدنى ذرة الى أكبر كوكب ، وما ألد النظر في هذه العوالم والعلوم ، وما أجل الحكمة وأبهجها - إن ربك هو الخلاق العليم - ألا فليبتهج بهذا العالمون وليفرح الحكماء المدققون

﴿ عنكبوت البساتين ﴾

وهناك نوع يسكن البساتين وماشبهها ، تراه مضطرا الى الانتقال من شجرة الى شجرة ومن غصن الى غصن ، فإذا يصنع ياترى ؟ ألهمه الله أن يبنى قنطرة بين الشجرتين أو ممشى بين الغصنين كما يصنع نوع من القروذ في أمريكا قنطرة كما تقدم ، ولكن طريقة العنكبوت في قنطرتها أعجب ، فلك بالأجسام وهذه بنحيط واحد يخرج من فمه مخلوقا من لاهبه اذا لامس الهواء جمد فيمتد فيه بعد تثبيت أحد طرفيه ولا يزال الطرف الآخر يغدو ويحى حتى يمسك بورقة أو غصن فتمر عليه العنكبوت ، وبهذه الطريقة نجا عنكبوت من الموت في حكاية واليك بيانها

حكى أنه وضع حيوان العنكبوت عنكبوت على عود في ماء قريب من شاطئ جزيرة فنزل من أعلى العود الى أسفله فوجد الماء محيطا به فرجع الى أعلى ثم أخذ يفسر في حيلة اهتدى بها الى أن غزل خيطا وأثبت أحد طرفيه في رأس العود ولازال الطرف يغدو ويروح حتى أمسك بغصن من الشاطئ الآخر فسار عليه حتى نجا سالما ، وهذا النوع البستاني ينسج على الأغصان والأوراق شبكة عجيبة يقتنص بها الذباب وغيره فيتخذ بها مركزا يقيم فيه ويمد خيوطه الى جميع الجوانب ، فشكل أطرافها محيط ذلك على الأوراق والأغصان وتلك الخيوط أقطارها والعنكبوت رسامها وغازلها وناسجها ومهندسها والصائد بها ، وما أشبه تلك الخيوط بأعمدة المجلة (البسكليت) فاذا أحكمت تلك الأعمدة بنحيطها المجدولة أخذت العنكبوت تجدل خيوطا أخرى فأدارتها على هذه وربطها ربطا وثيقا محكما عليها مع التناسب في الوضع والاحكام والهندسة بحيث ترى بين كل خيطين من تلك الأعمدة وآخرين من الملف عليها مسافات متساويات هندسية ومنها تكون شبكة للصيد عجيبة الصنع جميلة الوضع - فتبارك الله أحسن الخالقين - وفي الأرض آيات للموقنين - وهذه الشبكة قلدها الانسان في صيد السمك للقوت وفي صنع زينة منسوجة من الحرير منقوشة بالذهب مرصعة بالحلى اهتدى لها الانسان المتعبد بعد الآلاف من الدهور والعصور والسنين فتفخر به الفتيات الافرنجيات في اتقان الصنعة وحسنها فانظر كيف كانت نهاية الانسان بداية الحيوان . اعلم يهولك غرائب العنكبوت اذا عاينت أثرها وانها تنسج ما تنسج بمؤخر أرجلها فلا تحتاج الى النظر بعينها ، فاذا قطعت خيطانها قبل الغروب ثم نظرت لها عند شروق

الشمس في اليوم الثاني رأيت شبكتها انسجبت كما كانت مع صبره وتؤدته وتثبته وانه يأتي بقطع صغيرة من الحجارة والخشب يضعها على نسجه ليثبتته حافظا له من التكسر واطاعة الرياح الهابّة والأعاصير والزعازع وانه يبحث عن صمغ وغراء من أماكنها في أشجارها ويلطخ بها خيطانه وشبكته ليكسبها الزوجة فلا تمزق اذا فاجأتها الرياح وهاجت عليها الأعاصير واذا مرّت بها الذباب التقطته بمادتها الازجة ولم يؤثر على الشبكة حركته ، فتأمل كيف صلحت بالغراء ﴿لأمرين﴾ إمساك الذباب والتمدد بالزوجة لئلا تنقطع ، ومتى أمسكت الذبابة بالشبكة التي صنعت لهذه الغاية أسرع العنكبوت في الحال اليها فعضها وجرى السم فيها فماتت فأكلها ، ومنه نوع يقرب من اليمام في الحجم يصطاد الطيور كما يصطاد الصغير من الذباب والحشرات وقد تمر النحل بشبكته فيرجو أكلها ويخاف لسعها فيصبر عليها حتى تتعب ثم يأخذ في أن يديرها بخيط يلفه عليها ويدور سريعا سريعا حتى لا يبقى بها حراك ثم يقتلها بسمه ويأكلها

فهذه عجائب العنكبوت غفل عنها أكثر الناس وهم لا يشعرون . انتهى ماجاء في كتابي ﴿جمال العالم﴾
ولأذكر لك ماجاء في كتابي ﴿القرآن والعلوم العصرية﴾

(العنكبوت أيضا)

ومن الحشرات العنكبوت ذات النسيج الجليل والغزل الرقيق والريق الذى اذا تعرض للهواء انقلب الى مادة أشبه بالقطن أو الحرير فيغزلها خيطا دقيقا وينسج تلك الخيوط نسيجاً محكما متقنا حتى قال علماء الحشرات ﴿ إن هندستها التي رسمتها في نسيجها ونظامها البديع الذى توخته في عملها أدق ما صنعه المهندسون وأبرع ما نظمه البارعون حتى انها لم تخطئ يوما في نظمها ولم تغلط يوما في نسجها وان أبرع المهندسين وأعظم المحنكين الذين درسوا في المدارس العالية وتخرجوا على أعلم علماء الهندسة يخطئون في تقديرهم ويشذون في عملهم ويحيدون عن سواء السبيل ﴾ وهذه الحشرات لا تخطئ في نظمها ولا تضل في هندستها ولا تخيب في احكامها ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين ومعلم العنكبوت خالق المهندسين ، فتأميد الله لن يخطئ وتأميد المخلوق قد يضل مع الضالين ، ولقد شاهد الناس صغارها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها محكمة لعملها كأمهاتها بلا تعليم ولا تدريب ولا تهذيب ولا تدريس ولا مدارس ولا معلمين بل القريزة الإلهية والحكمة الصمدانية التي أبدعت المخلوقات ونظمت الكائنات - فتبارك الله أحسن الخالقين -

ولقد ذكر الله العنكبوت فقال - وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون - فإذا كان أوهن البيوت على نظام أتمّ وحكمة أبهج فإياك بأمتها بناء وأحسنها نظاما - وما كنا عن الخلق غافلين -

(لطيفة)

إن العلماء بحثوا في تجزئة المادة حتى وصلوا الى ما يدعش العقول ويحير الأفكار فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطا رقيقة جدا فانها تنسج بيتها من خيوط كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه ، وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت ، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفا من (٤) في (١٠٠٠) يساوي (٤٠٠٠) ومن عجب أن بعض علماء الالمان قال انه اذا ضم أربعة بلايين خيط (٤٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) الى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيتته . ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط ، فكل خيط إذن من هذه الخيوط الدقيقة يساوي غلظه $\frac{1}{16,000,000,000}$ واحدا من ستة عشر ترليوناً ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط ، أليس ذلك من العجب ، أليس من أعجب الحكم أن العنكبوت في هذا تمثل نظام العالم الجليل يخرج الخيط الدقيق من ثقبه

فيخيل للرائي انه خرج بالاحكامه فاذا انضمت الخيوط الى بعضها كوّنت خيطا والخيوط الأربعة أنتجت خيطا أكبر واجتماع الخيوط أنشأت بيتا وكان مسكنا ومحل صيد للعنكبوت ومع ذلك تسمع القرآن يقول - وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون - وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ثم أردفه بقوله - لو كانوا يعلمون - فانظر كيف ذكر العلم المقرون بلو بعد مسألة العنكبوت ، أفليس هذا الوهن قد ظهر في التحليل والتجزئة فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد المعروف في الدقة وتناهت في التجزئة ، فذكر الوهن هنا اشارة الى قبول التجزئة قبولاً مطرداً بحيث لا يمتنع عنها وهو متماسك ، ذلك هو السر في قوله - لو كانوا يعلمون - فليس يدرك الناس تلك التجزئة التي أشار لها الوهن مجرد اشارة إلا بعلم الطبيعة ، ولا يدري المسلمون ما السر في تسمية سورة باسم العنكبوت إلا بالتفرغ لدراسة الحشرات واذن يعرفون لماذا سميت سورة في القرآن باسم العنكبوت وأخرى باسم النمل وأخرى باسم النحل وهي حشرات وسورة باسم البقرة وسورة باسم الأنعام وهذه من ذوات الأربع ، والذي أراه أن الجيل الحاضر ومن كانوا قبله من المسلمين في الأعصر المتأخرة انما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة حتى يتفكر فيهما الأجيال المقبلة التي سيوقظها أمثال هذا التفسير ويخرج جيل اسلامي لم تحلم به العصور ولم تلده سوائف الدهور وهم خلفاء الله والنبي ﷺ وهذا سيكون وأنا به من المؤمنين

وممثل العنكبوت في ذلك النظام البديع إلا كمثل النحل إذ نظم بيوتا مستدسات ذات أضلاع متساوية متقنة ، ومن العجيب أن الأشكال المستدسة كل ضلع يساوي القطر المارّ ما بين ضلعين من أضلاعها كما قرره علماء الهندسة ، ولقد أبنا الحكمة في اختيار المستدس دون باقي الأشكال ولم يكن دائرة فيما كتبناه في كتبنا السابقة وأوضحنا عجائب هذه الحشرات وغيرها إيضاحاً ثم وبيانا أكمل في كتابنا ﴿ جلال العالم ﴾ وكذا ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وغيرها وهذا التفسير انما جعلناه تذكرة عامة للأمة الاسلامية ليستيقظوا من غفلتهم وليفيقوا من سباتهم وليعلموا أن الله عز وجل ما وصف هذه الحشرات ولا ذكر هذه الآيات ولا أخذ يصف الأنهار والجبال والكواكب والشمس والقمر والنجوم إلا ليسوقنا اليها وليحثنا عليها فانظر مسألة النمل الذي تقدّم الكلام عليها فانها فضلاً عما فيها من بدائع الصنعة الالهية والحكمة الصمدانية دلالة على حكمة الخالق واتقانه ونظامه وعجيب صنعه فان لها أثراً عظيماً في الزراعة . إن تربية النحل في البساتين النضرة موجب للثروة بالعسل الكثير الذي يربو اذا كانت الخلايا في وسط الأزهار ويقل بل يموت النحل اذا كانت الأرض المحيطة به مقفرة ، ولها فوق ذلك شروط وأحوال خاصة يعرفها الدارسون لمستقراتها ومستودعها من علماء الزراعة الساهرين على مصالح الأمم الناظرين فيما جادت به يد الخالق من العجائب والبدائع

ولما كانت هذه الحشرات الضعيفة ربما غفل الناس عن أمرها وصغروا من شأنها وجهلوا صنعها سمي الله عز وجل سوراً من القرآن باسمها فسمى النمل والنحل والعنكبوت . أفليس ذلك نهراً ساهمت به المسلمون فيرقون صناعاتهم ويننون مجدهم ويدرسون كل مادب وكل ماطر وكل حيوان ونبات - إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار - كما قرّرناه . انتهى ما جاء في كتابي ﴿ القرآن والعلوم العصرية ﴾ والحمد لله رب العالمين هذا ما أردته عند تأليف هذا التفسير ثم إنني وجدت بعد ذلك أثناء تقديمه للطبع في الكتب الفرنجية عجائب وبدائع في العنكبوت والذباب ونحوه فآثرت ذكرها هنا تبصرة وذكرى للمسلمين

مامن امرئ إلا رأى نسج العنكبوت . إن العنكبوت ليست من الحشرات وان كان ظاهرها يوهم أنها منها . إن نوع العنكبوت ونوع الحشرات يتفقان في أن كلا منهما له آلتان في مقدمه يستعملهما كما يستعمل نحن أصابعنا وهو بهما يتفاهم كما يتفاهم الأصم الأبكم من الناس بحاسة البصر ولكن العنكبوت لها ثمانية أرجل والحشرات جميعها لها ستة أرجل . إن الحشرات والعنكبوت كلاهما تضع بيضاً وانما الفرق بينهما أن

الحشرات يتحوّل بيضها الى دودة والدودة تنقلب الى (فيلجة) أى شرنقة والشرنقة تنقلب حشرة تامة كما في مسألة دودة القز ففيها هذه الصفات والنحل والنمل وأشباهها وقد تقدّم في سورة النمل ، ومن الحشرات ما تعتنى بنسلها كالنمل والنحل ومنها ما لا تعرفه كحشرة أبي دقيق إذ تموت ولا ترى أولادها وهكذا الجراد ولكن هذا النوع يعتنى بوضع البيض في مكان صالح بنسله . أما العنكبوت فثله كمثل السجّاج فان بيضتها متى فقسست خرج ولدها صورة طبق الأم كما في السمك والضفادع

﴿ كيف تعيش العنكبوت ﴾

إن العناكب تعيش على الحشرات ، إنها نافعة جدا ومفيدة للفلاح ولصاحب البستان لأنها تقتل الآلاف من الحشرات اللاتي تفتك بالزراع في الأرض

﴿ نسج العنكبوت ﴾

إن العنكبوت تغزل خيوطا دقيقة حريرية آتية من (مقر الغزل) في جسمها الذي فيه مسام دقيقة جدا وهذه المسام الدقيقة تخرج منها خيوط تجتمع وتكون خيطا والخيوط تجعلها العنكبوت نسيجاً . إن هذه الخيوط لزجة وأى ذبابة وصلت اليها تلتصق بها

﴿ أنواع المصنوعات العنكبوتية ﴾

إن العنكبوت لا تقتصر على جعل خيوطها أشبه بالخيمة : كلا . بل انها تجعلها قنطرة تمرّ عليها من مكان الى مكان وتارة تجعلها عشا تضع فيه بيضها ومسكنا نظيفا لها يسر الساكنين . إن من العنكبوت نوعا تغزل الخيوط الحريرية المذكورة وتجعلها أشبه بسحاب وتطير عليه في الهواء . ويرى الناس مئات من هذا النوع طائرات في الهواء على هذه الطريقة في يوم ثائر الهواء . وهناك نوع من العناكب يجري على سطح الماء ، وكيف ذلك ؟ انه يؤلف بعض الأوراق الجافة مع خيوط حريرية من جسمه ويجعلها (قاربا) يعوم فيه على وجه الماء ويسبح به وهو قري العين وهذا القارب جعله للصيدين لاحت له ذبابة أسرع بقاربه اليها وأخذها الى فيه فأكلها

ولما وصلت الى هذا المقام جاء صاحبي العالم الذي حدثني في (سورة النمل) فاطلع على ما كتبت هنا فقال ، لقد قرأت كتبك كلها فسلني كما تشاء في ﴿ نظام العالم والآنم ﴾ وفي ﴿ النظام والاسلام ﴾ وفي ﴿ جواهر العلوم ﴾ وفي ﴿ ميزان الجواهر ﴾ وفي ﴿ جمال العالم ﴾ قرأتها وفهمتها وقرأت هذا التفسير الى هذه السورة فاسمح لي أن أسأل هنا ما عنّي لي في قولك نخير لك أن أحادرك من أن أدع هذا لقرائك والمطالعين على هذا التفسير . فقلت ذلك بسرّي . فقال أوضح الفرق بين الحشرات والعنكبوت ، ولماذا أراك تشرح هذه الحيوانات هنا حتى جعلتني أسألك المزيد ؟ وهل هذا يوافق مساق الآية ومساق الآية لا يقتضي هذا الشرح فقلت أما الفرق بين العنكبوت والحشرات فقد ذكرت بعضه الآن وهو تعداد الأرجل وطريقته نحو الذرية وأزيد عليه أن جسم العنكبوت مركب من ﴿ قسمين ﴾ . وأجسام الحشرات مركبة من ﴿ ثلاثة أجزاء ﴾ كما تقدم في (سورة النمل) وأيضا لغالب الحشرات أجنحة والعنكبوت لا أجنحة لها ، ثم ان القسم الأعلى من العنكبوت فيه العيون والفكان وهذان في الرأس وفيه الأرجل الثمانية وهي في الصدر ، أما القسم الأسفل ففيه البطن والمؤخر ، وأما أقسام جسم الحشرات فاقراها في (سورة النمل) كما قلت لك . فقال النمل من الحشرات وهل لها أجنحة ؟ فقلت تخلق لها أجنحة ولكن عند ما تكبر وتزاوّل الأعمال تكسرهما لتتفرغ للأعمال . قال فما تقول في عدد العيون . فقلت عيون العنكبوت تختلف من زوج واحد الى ستة أزواج موضوعة مثنى في مقدم الرأس وبتحركان من اليمين الى اليسار وبها يفترس الذباب ، أما الحشرات فانها لها أعين تقدم شرحها في سورة النمل وأن بعضها قد بلغت العين الواحدة فيه (٢٧) ألف عين أي ان العين

الواحدة مكوّنة من عيون مستقلة تبلغ هذا المقدار ولو تلفت واحدة منها لم تتلف البقية كما شرحه علماء النمسا وألمانيا في هذا القرن فاقراء هناك وانظر كيف ذكرت لك هناك أن أصدقائي أهل العلم في مدارسنا المصرية عارضوني في ذلك وفيهم من كانوا في أوروبا بل بعض الأطباء أنكره في أول الأمر ، ولما ألفت الرسالة التي تقدّمت في (سورة النمل) أقرّوا وصدقوا ، والسبب في ذلك أن أمتنا المصرية قد كانت تعرف هذه العلوم قبل هذه الأيام في القرن التاسع عشر ثم لما دخل الفرنجة بلادنا حذفوا تلك العلوم الطبيعية من بلادنا فصار المتعلمون يكرهونها وكثير من ذهبوا إلى أوروبا لا يقرّونها ، أما الآن وأنا أكتب هذا التفسير فإن هذه العلوم أخذت ترجع تدريجاً وصار الأطفال اليوم يقرّون ما كان يجهله آباؤهم منذ خمس سنين وهذا يدلّك أن العلوم الطبيعية مرقية للأمم ولولا ذلك ما حذفها الفرنج قبل استقلالنا الظاهري بمصر ، هذا ثم إن النملة كما قدّمت العين الواحدة من عينيها مركبة من مائتي عين والذباب عينا الواحدة مركبة من أربعة آلاف عين ، فقال صاحبي أربعة آلاف . قلت نعم . قال أنكر ذلك . قلت له هذا يدرس في جميع مدارس العالم ، وهل تريد أن تفعل معي ما فعله المدرسون منذ سنين كما أخبرتك ؟ قال لا ، قلت فدعني أتمّ لك الحديث ، فقال يا عجبا كل العجب ، أتكون الذبابة أكثر عيوناً ويصطادها العنكبوت مع أن عيونه محدودة ، فقلت له لا تعجب وكيف تعجب من آية الله في الأرض ، فقال وأي آية ، قلت إن كثرة الآلات والقوى لا تمنع من الهلاك ، ألا ترى إلى قيصر الروس وغيره من ملوك الأرض فإنهم مع كثرة جيوشهم وعددهم وآلاتهم قد سلب الله عليهم من طردوهم من ملكهم بل قتلوا بعضهم ، وهو قيصر الروس الذي أثار الحرب الكبرى في زماننا واتحد مع انكلترا وفرنسا ، قام للحرب بعد أن دبر المكائد فإذا جرى ؟ كانت هذه الحرب شؤماً عليه ويتبعه نحو (١١٠) مليون من الناس ومن هؤلاء (٢٠) مليوناً يعملون في حقوله ، فهذا كان من ضحايا الحرب فعزل ثم قتل . إذن كثرة العدد والآلات لا تدل على البقاء ، فهذا الذباب كثرت عيونه التي تعدّ بالآلاف ولكن نوع العنكبوت الذي لا تزيد عيونه على ستة أزواج قام فافترس الذباب على كثرة عيونه

إن الله حكيم في صنعه ، ألا ترى أن هذا الذباب (وإن كان ينظف جوّنا بابتلاعه الرطوبات التي فيها أنواع الحيوانات الذرية الصغيرة الفاتكة بأنواع الحيات والوباء) يرجع هو نفسه مهلكاً لنا فينقل الأمراض ويأتي بالوباء ، فهو نفسه لما تغذى من المواد الضارّة بنا ليصلح جوّنا أصبح هو ضرراً لنا ، نفق الله العنكبوت لتصطاده وتصطاد غيره من الحشرات الفاتكات بنا وبزرعنا ، فالذباب باحداث العدوى وغير الذباب بأكل الزرع ، فجعل الله هذه العناكب مساعدة لنا فمن جهل بعض المسامين أنهم لا يعلمون أن هذا مساعدهم ونافع لزراعهم وحافظ لهم ولقوتهم

يعيش المسلم ويموت وهو لا يعلم أن الله أنعم عليه بالعنكبوت ، يعيش المسلم ويموت وهو لا يعلم أن الطيور من القنابر والعصافير والغربان وأبي قردان والبوم تساعد في أكل السود والحشرات الفاتكات بزعره وقد أوضحت أكثر هذا في هذا التفسير فراجع بعضه في (سورة المائدة)

انه ليحزنني والله أن تكون أمتنا أجهل الأمم بهذه العلوم التي تمتعت بها أوروبا ونحن عنها غافلون ، أذكر أنني وأنا مدرس بدار العلوم كنت أرقب نسج العنكبوت في حديقة المدرسة وأنظر له كل يوم فلمحظ ذلك وكيل المدرسة وهو من المعلمين فقال ما هذا الذي تحافظ عليه قلت إن هذا النسج فيه عجائب فهو نسج محكم يدل على حكمة بالغة أبدعها صانع هذا العالم فتبسم ضاحكاً وقال لقيمة له وهذا لأن المعلمين لا يشوّقون التلاميذ إلى الجبال وهذه أكبر مصيبة في الاسلام وقد ابتدأت تزول وهذا التفسير من دلائل النهضة ومن أوائلها

فقال صاحبي كم عدد الحشرات على وجه الأرض ، فقلت إن الحشرات التي من بعضها غذاء العنكبوت قد بلغت في تعداد أنواعها أكثر مما بلغته سائر الحيوانات ، وإذا كانت الخنافس وحدها تبلغ (٨٠٠٠٠)

نوع فبالك بغيرها من الحشرات وأنواع الحشرات المعروفة (٢٠٠٠٠٠) ويتوقعون انها تبلغ ألف ألف فقال هذا مدهش ، إني قرأت في كلام أسلافنا أن في البحر (٤٠٠٠) أمة وفي البر كذلك . فقلت له الأمر فوق ما قالوا والله يقول - ويخلق ما لا تعلمون - ويقول - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - وآيات الله في الآفاق وفي الأنفس ابتداء ظهورها الآن وهذا التفسير من المنبهات لها وأن المسلمين بعدنا لا ينصبون ولا يتعبون في تحصيل العلم وسيقوم فيهم هداة ومصلحون ينشرون هذه العلوم بين الناس فلا يكون فيهم من يقاسى ما قاسيت مما ذكرت في كتابي ﴿ التاج المصع ﴾ فاني ذكرت هناك اني كنت أقرأ في كلام (الامام الغزالي) أن عجائب الله تعالى في نسيج العنكبوت وأعمال النمل لا تتناهي . فأما عجائب النمل فقد كانت واضحة لي وأما العنكبوت فقد كنت أود أن أرى شكلا منظما في الكتب لأرى حسن النسق والنظام فيه فلم أوفق لذلك حتى قرأت الكتب الانجليزية فوجدت الرسم فيها فهجبت كل العجب من أمة نائمة لا تعرف نعمة الله ولا تسير على خطوات علمائها ، فلا جال الله أدركوا ولا آراء علمائهم اتبعوا

﴿ هل يجوز رسم الحيوان في التفسير ﴾

فقال لي صاحبي ، ههنا قامت عليك الحجة ، فقلت وأي حجة ، فقال أذكرك بأنك في سورة النمل وعدت أن ترسم أشكال الحيوان الذي يحتاج للايضاح ، فلم لا ترسم لنا العنكبوت حتى نطلع على الوصف الذي وصفته ولم لم ترسم لنا النملة التي وصفتها هناك ولم ترسمها ، ألم تقل ان رسم ذلك ليس مباحا فقط بل هو واجب لأن التعليم واجب ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذا التأليف واجب عليك وجوبا عينيا ويجب قراءة هذا على من احتاج اليه وهو قادر إما شكر الله وأما لزيادة التوحيد ، وقد يجب وجوبا كفايا كما أوضحته أنت في سورة المائدة عند مسألة الغراب وفي غيرها . فقلت له سأرسم شكل نسيج العنكبوت . فقال لا يكفي لابد من رسم نفس العنكبوت ونفس النملة والا عد هذا منك خوفا من صغار العلماء . فقلت لا أقدر أن أرسم ذلك إلا بعد شرح المقام في السنة حتى يوقن كل مطلع على التفسير أن النبي ﷺ يحجز ذلك . فقال يا عجباً . إن التصوير الشمسي لم يرد تحريمه في كتاب ولا في سنة وما ورد في التصوير من تحريم أو تحليل راجع لفعل الانسان إما مجسما وإما غير مجسم بالرسم المعروف . قلت هذا حق . قال وإذا كان حقا فلماذا تريد أن تطيل المقام أو تراوغ فلا ترسم هذه الأشكال ، وإني أذكرك بأنك في كتاب ﴿ جال العالم ﴾ قلت مامعناه ان العنكبوت لها ستة أرجل كسائر الحشرات مع ان العنكبوت غير الحشرات ولها ثمانية أرجل ، فإذا رسمت الصورة لم يحصل هذا اللبس . فقلت فلنورد الأحاديث حتى لا يقع لبس في المقام وتنقطع المعاذير وهالك بيانها

(١) روى قتادة قال كنا عند ابن عباس رضي الله عنه وهم يسألونه ولم يذكر النبي ﷺ حتى سئل فقال سمعت محمدا ﷺ يقول « من صور صورة في الدنيا كف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » اهـ

(٢) روى الأعمش عن مسلم قال كنا مع مسروق في دار يسار بن نعيم فرأى في صفته (بتشديد الفاء) تمثيل قال سمعت عبد الله قال سمعت النبي ﷺ يقول « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » (٣) روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم » هذه الأحاديث ونحوها وردت في فعل التصوير بمعنى إيجاد الصورة ، أما ما كانت رقعا في ثوب أو ورق فهناك ما ورد فيها

(١) روى زيد بن خالد رضي الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبي ﷺ قال « لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة » قال بسر فرض زيد بن خالد فعندنا فإذا نحن في بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبد الله الخولاني ألم يحدثنا في التصاوير فقال انه قال إلا رقعا في ثوب ألا سمعته قال لا قال بلى فذكره اهـ

(٢) روى الترمذى بسنده عن عتبة انه دخل على أبي طلحة الأنصاري يعودده فوجد عنده سهل بن حنيف قال فدعا أبوطلحة انسانا ينزع غمطا تحته فقال له سهل لم تنزعه قال لأن فيه تصاوير وقال النبي ﷺ ما قد علمت قال سهل أولم يقل « إلا ما كان رقما في ثوب » فقال بلى واسكنه أطييب نفسي ، وقال الترمذى

حسن صحيح

(٣) روى أنس رضى الله عنه « كان قرام لعائشة رضى الله عنها سترت به جانب بيتها فقال ﷺ أميطى عنى فإنه لا تزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى » اهـ

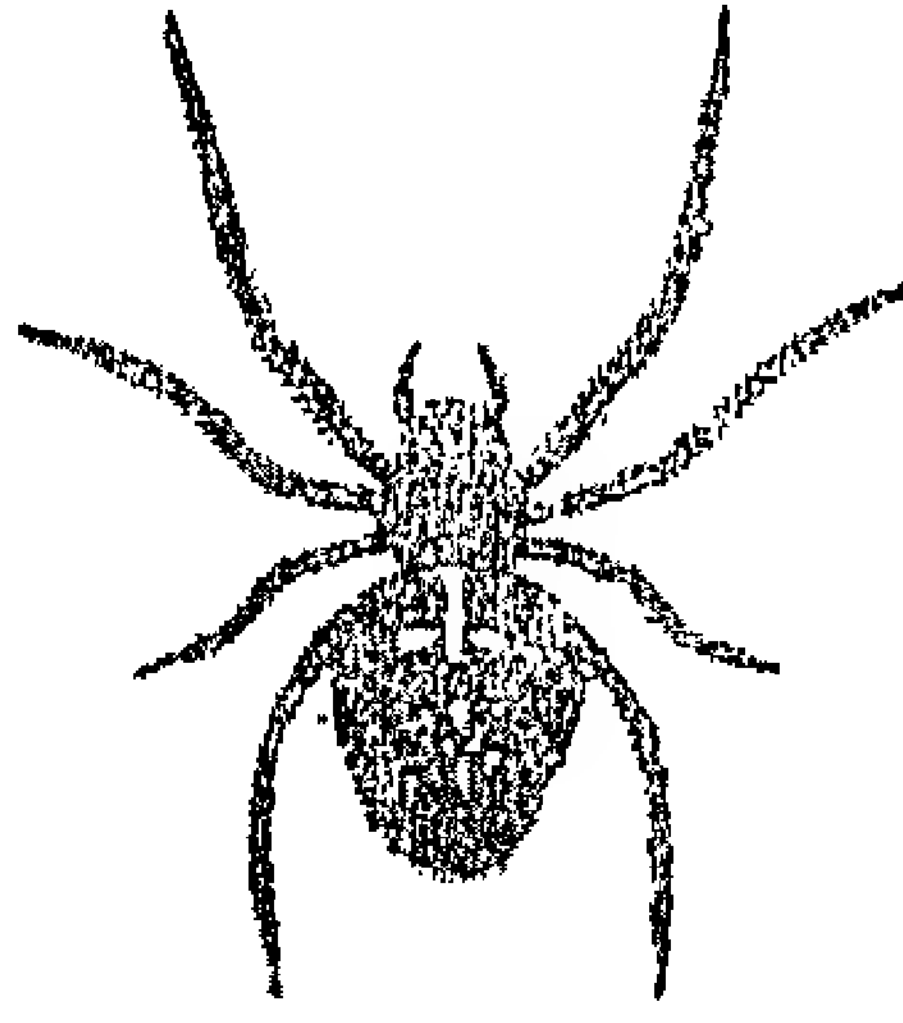
هذه الأحاديث تدل على إباحة الرقم ، فأما الفوتوغراف فشيء آخر وانما هو صور جاءت من ضوء الشمس وضوء الشمس ماهو إلا تصوير الله ومن ذا يقدر أن يحرم تصوير الله * وقال الخطابى ﴿ إن المصور الذى يصور شكل الحيوان فأنى أرجو ألا يدخل فى هذا الوعيد لأنه ليس إلا رقما ﴾

فتبين بهذا أن رسم الصور بيد الانسان ليس محرما بنفس نص الحديث الحسن الصحيح وكلامنا أيضا ليس فيه بل إن الصور الشمسية كلها من تصوير الله ، فاذا رأيت صورة فى هذا التفسير فانها كصور الشمس والقمر والكواكب والحيوان والنبات

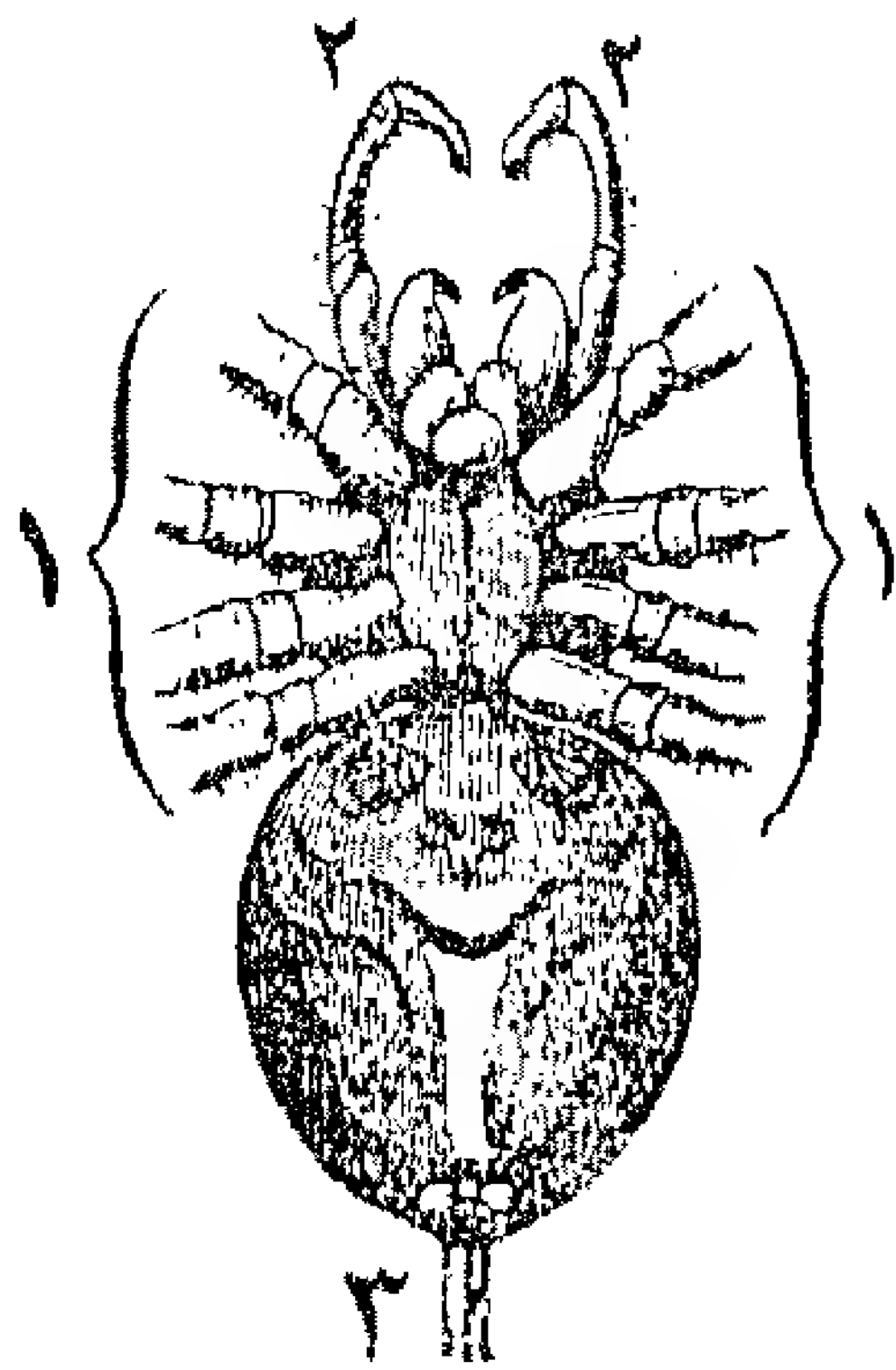
فلمما سمع ذلك صاحبي قال هذا حسن جدا وواضح لجميع المسلمين وانما سقط المسلمون فى مثل هذا للجهل الذى غشى على العقول فبدل أن يسيروا فى رقى الأمة رجعوا القهقري وفتحوا باب الكفر والنوم والجهل وأقفلوا أبواب جلال الله تعالى ومعرفة عجائبه التى لانهاية لها جهلوا علوم الكائنات ولما أردتم إيضا حقاختم من الجهلاء فأوردتم الأحاديث خيفة أن يقفلوا أبواب العلم فى وجوه القارئین

﴿ تذكرة ﴾

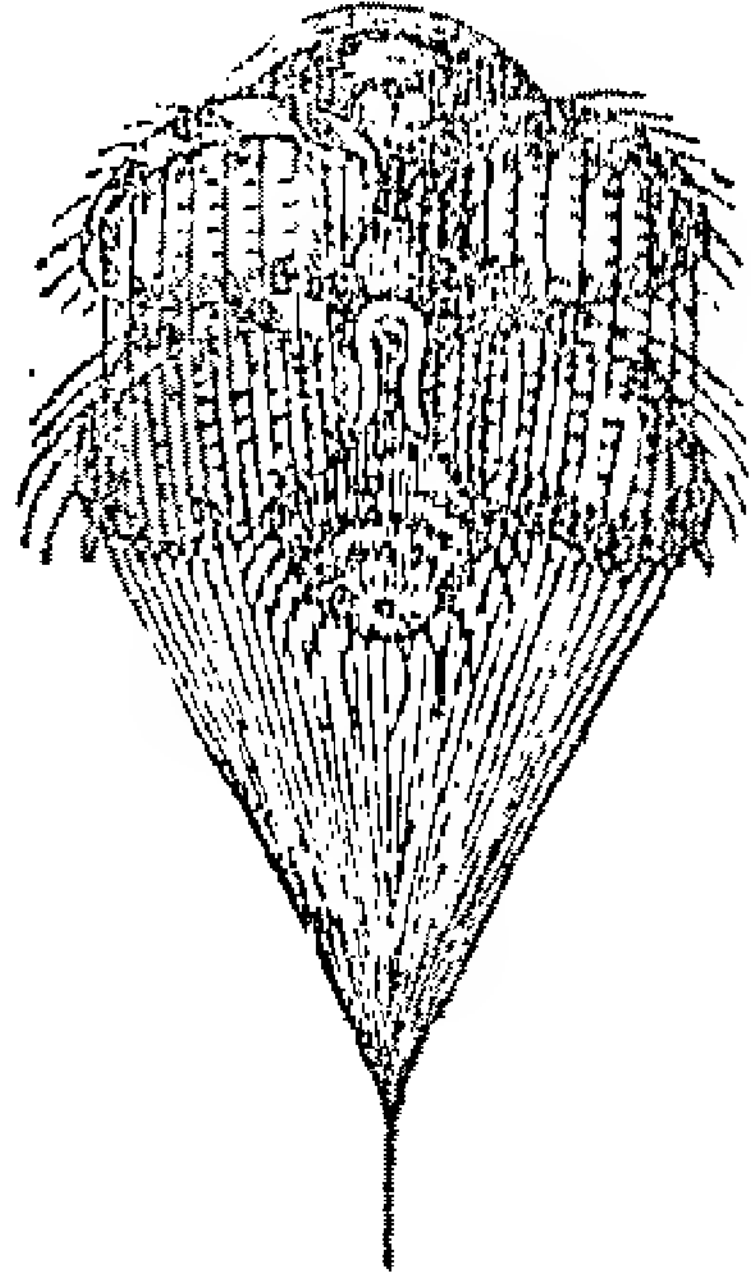
ثم إن هذا الموضوع قد كتبتة أثناء التأليف ولكن أثناء الطبع كتبت ما هو أجل هناك من هذا فى (سورة يونس) فاقرأه (انظر الأشكال الآتية)



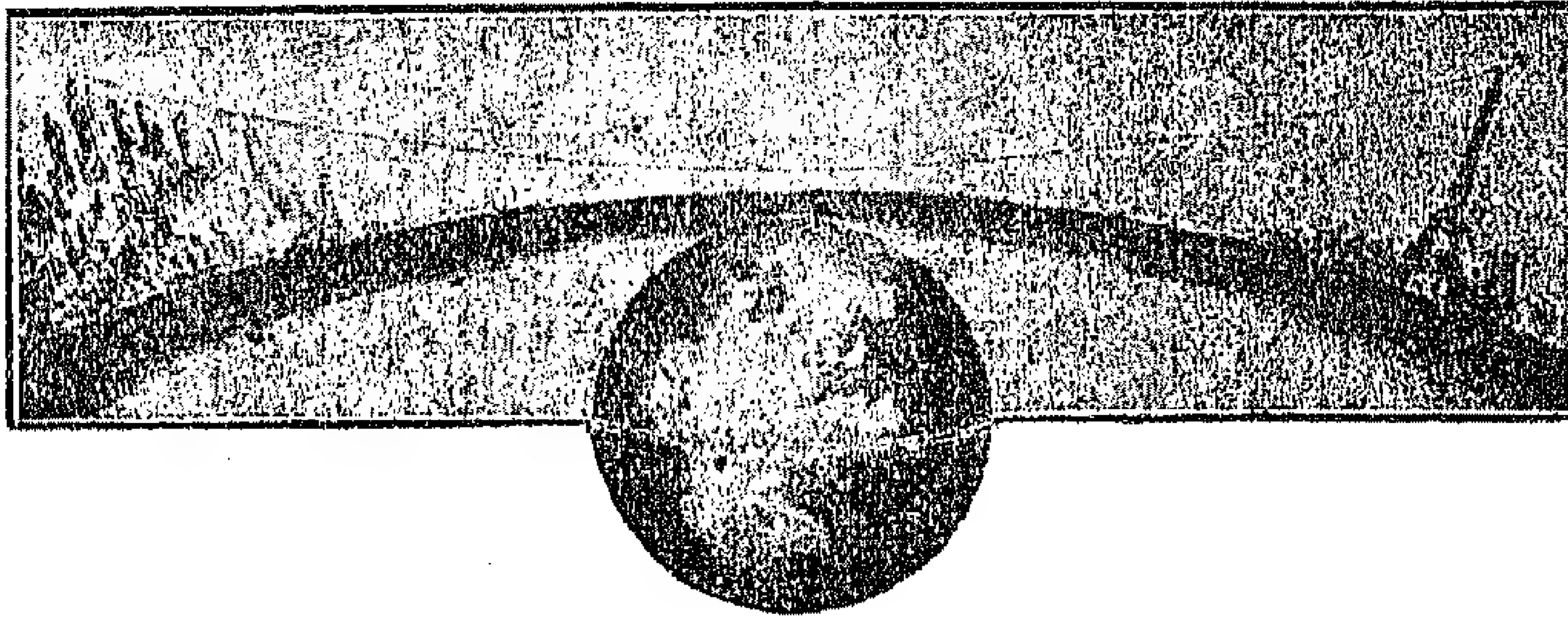
(شكل ٦ - صورة العنكبوت واضحة)



(شكل ٧ - صورة أصول الأرجل والفكين ومخرج النسيج)

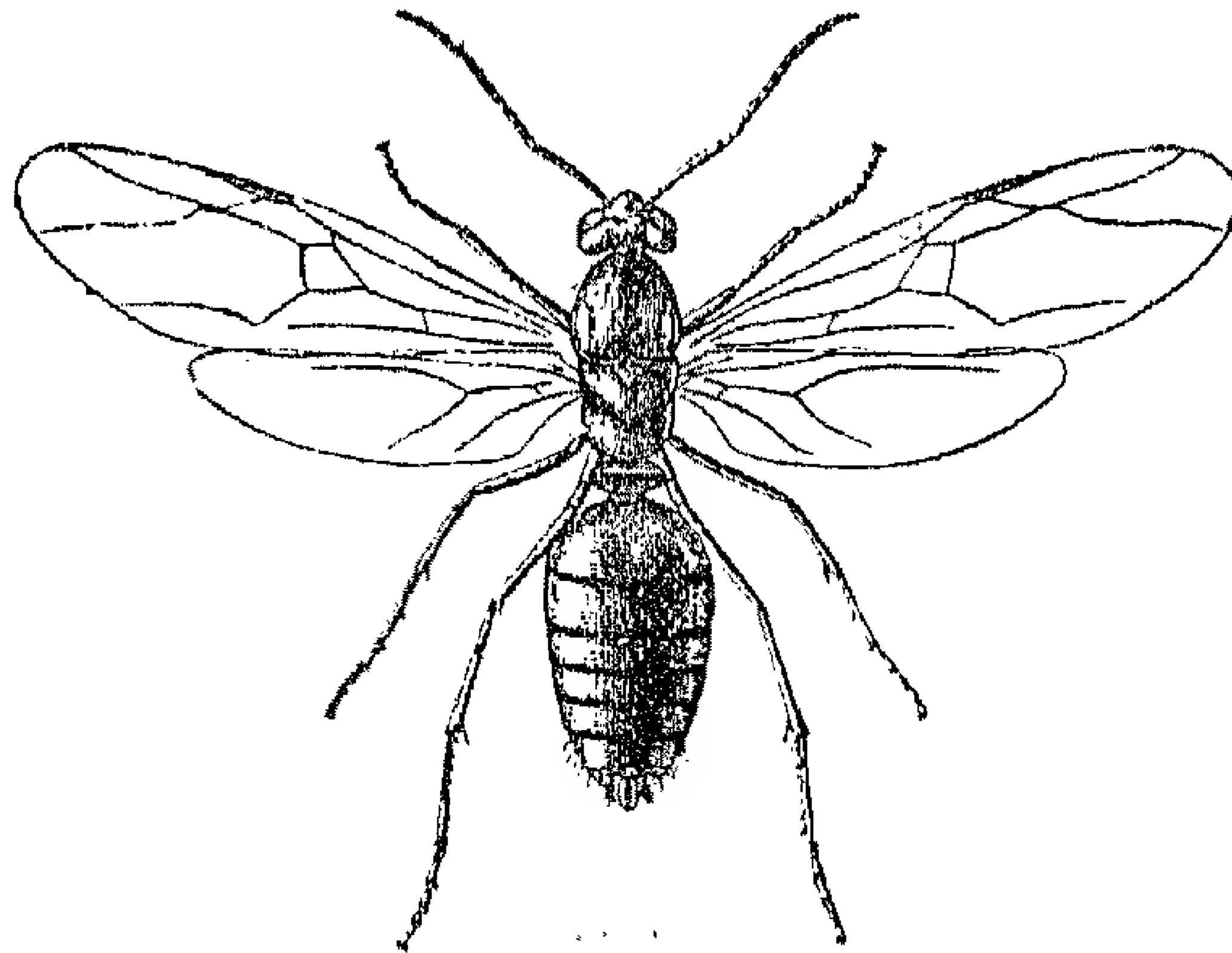


(شكل ٨ - صورة جهاز الغزل)

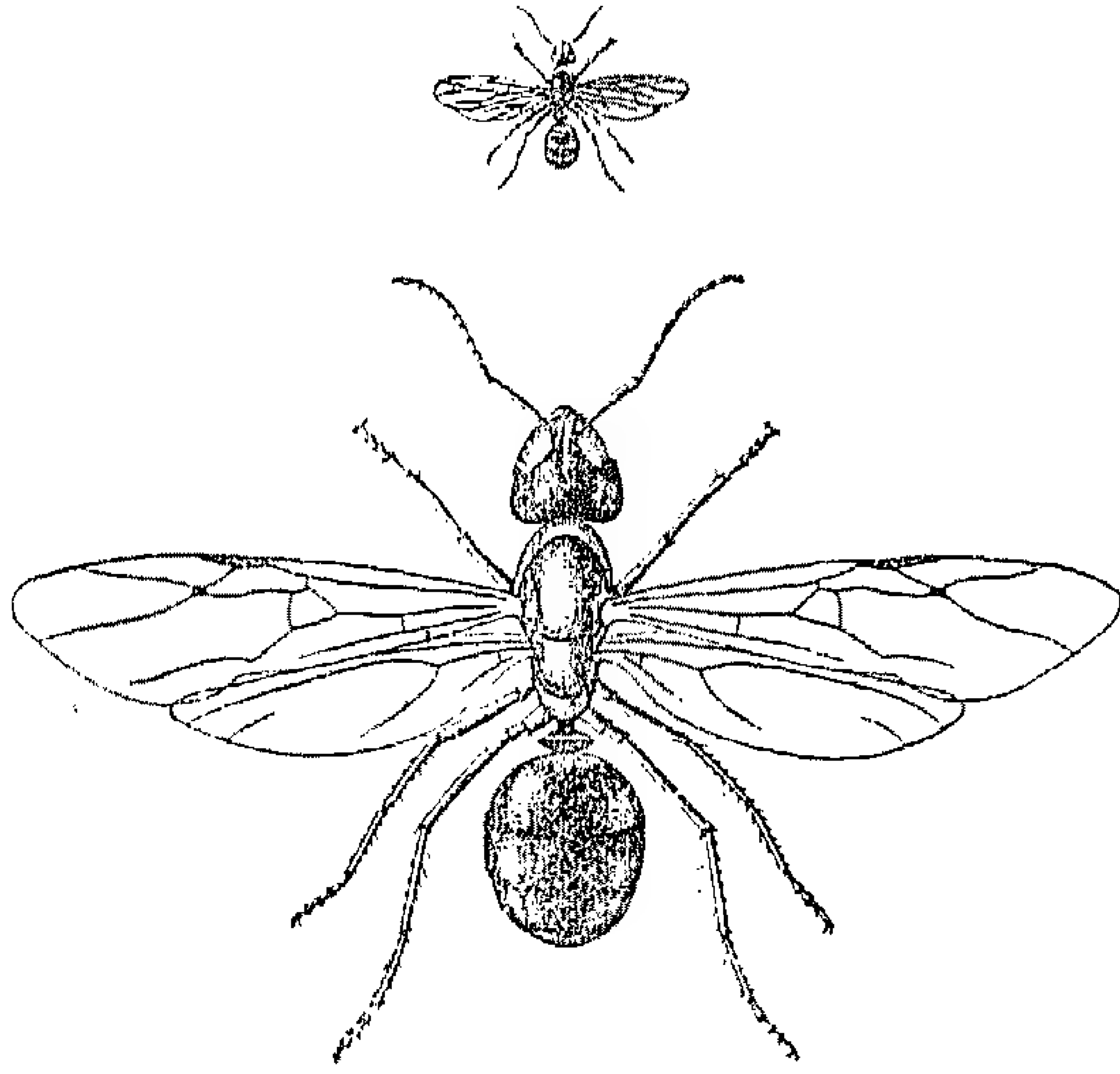


(شكل ٩ - صورة نسيج العنكبوت مع بيان حسن لها)

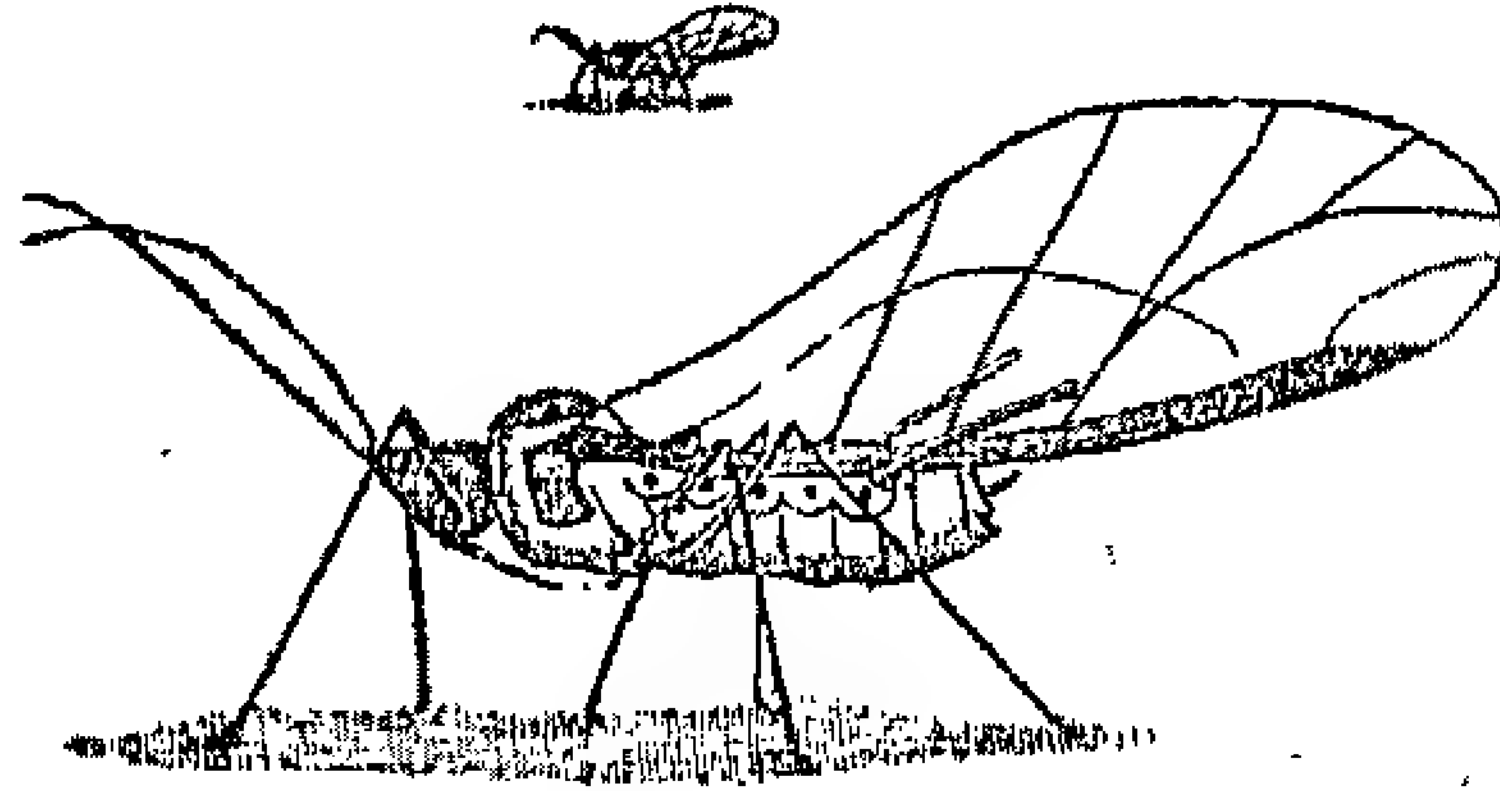
(يفرز العنكبوت مادة سائلة تجف بمجرد ظهورها في الهواء وتكون على شكل خيوط رفيعة ويستعملها العنكبوت كخيالة لاقتناص فريسته من الذباب أو غيره من الحشرات الصغيرة ولينزل بواسطتها من المحال المرتفعة كي لا يسقط فيتأثر بالسقوط ، ومادة هذه الخيوط خفيفة للغاية من حيث الوزن حتى ان ما يبلغ وزنه أوقية واحدة من هذه الخيوط يمكن أن يصل بين نيويورك في أمريكا وباريس في أوروبا أى بين عمارة ولورث في الأولى وبرج ايفل في الثانية ، واذا أخذ من خيوط العنكبوت ما يزن رطلاً أمكن أن تطوق به الكرة الأرضية مرتين)



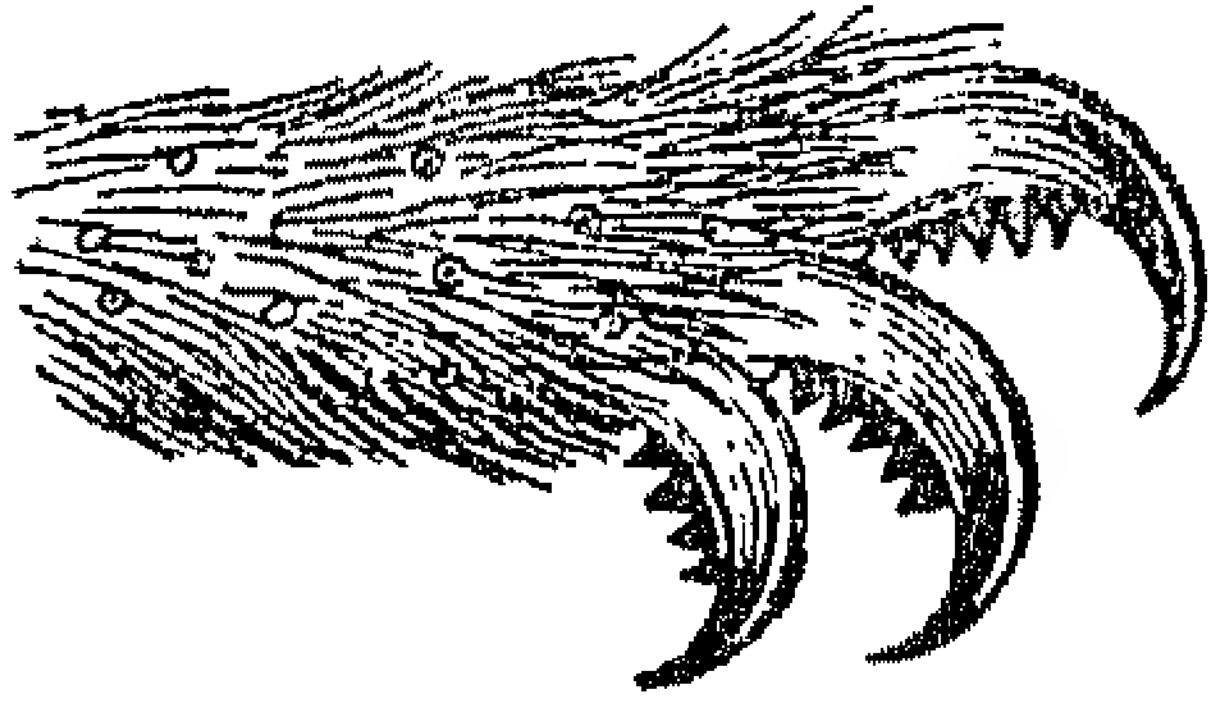
(شكل ١٠ - صورة ذكر النمل الحقيقي . صورته مكبرة جداً لموازنتها بصورة العنكبوت)



(شكل ١١ - صورة أنثى النحل . صورة الأنثى على حقيقتها . صورتها مكبرة)



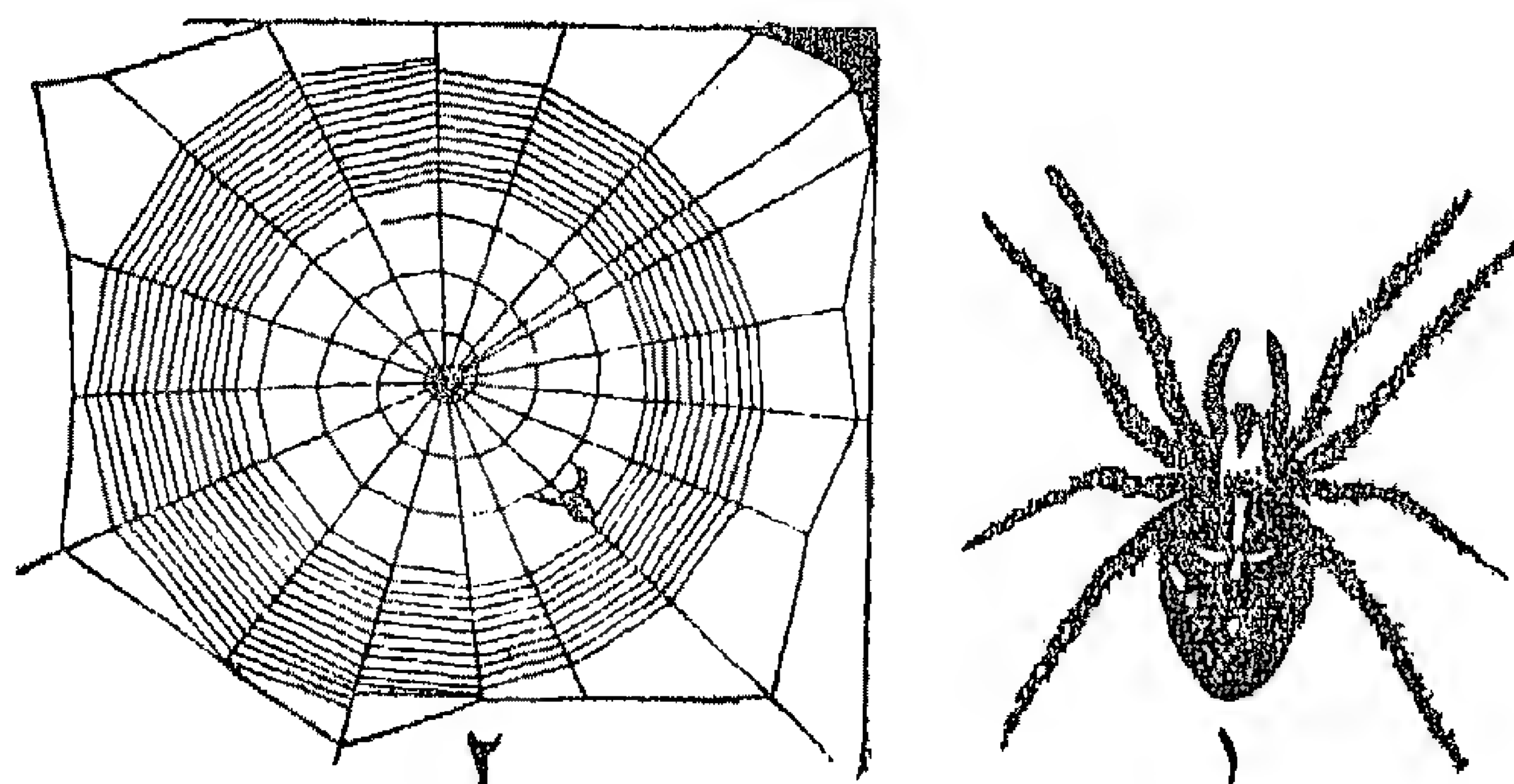
(شكل ١٢ - صورة بقر النحل المسمى « افيز »)



(شكل ١٣ - صورة مخلب العنكبوت)



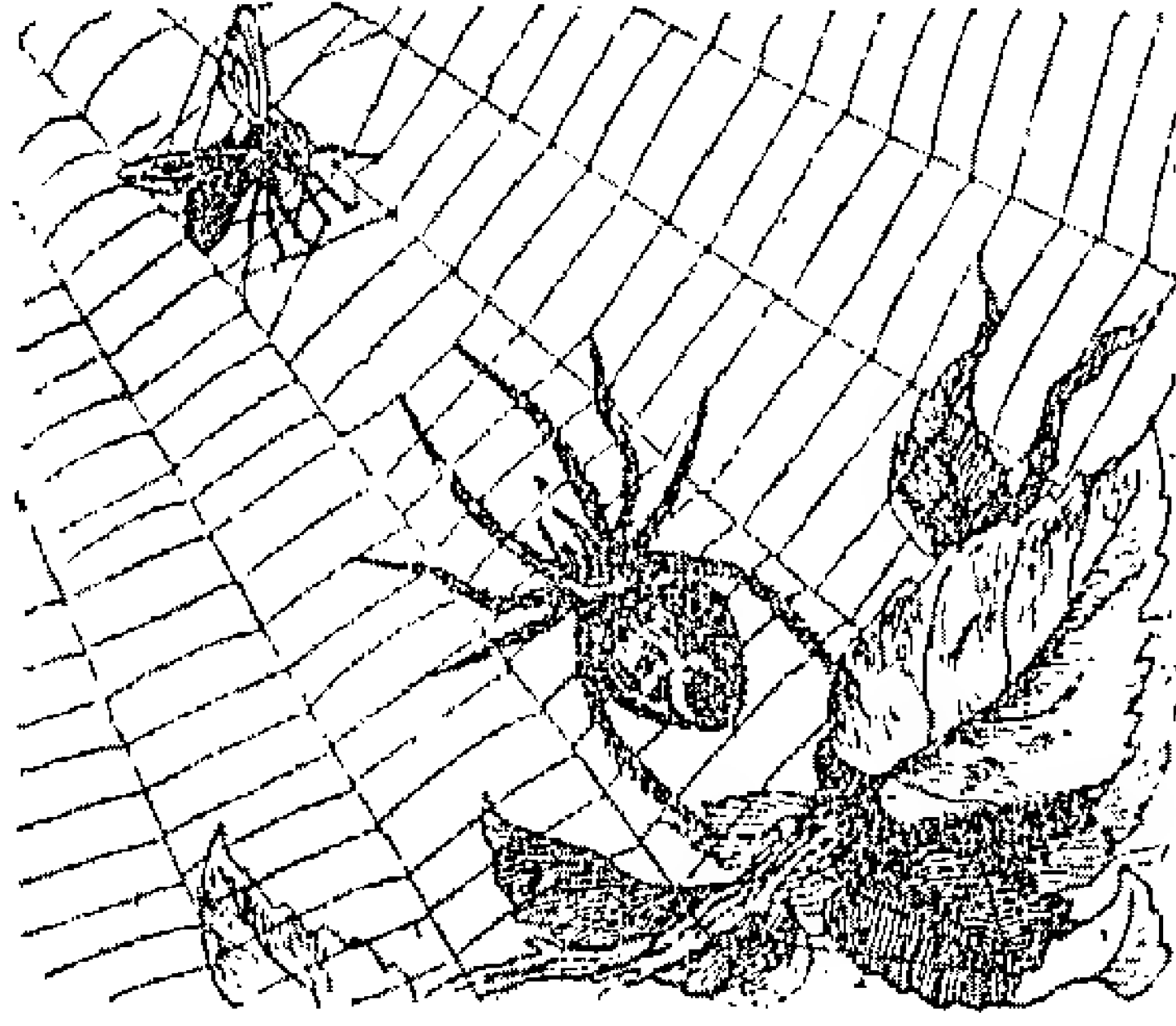
(شكل ١٤ - صورة اجتماع الخيط)



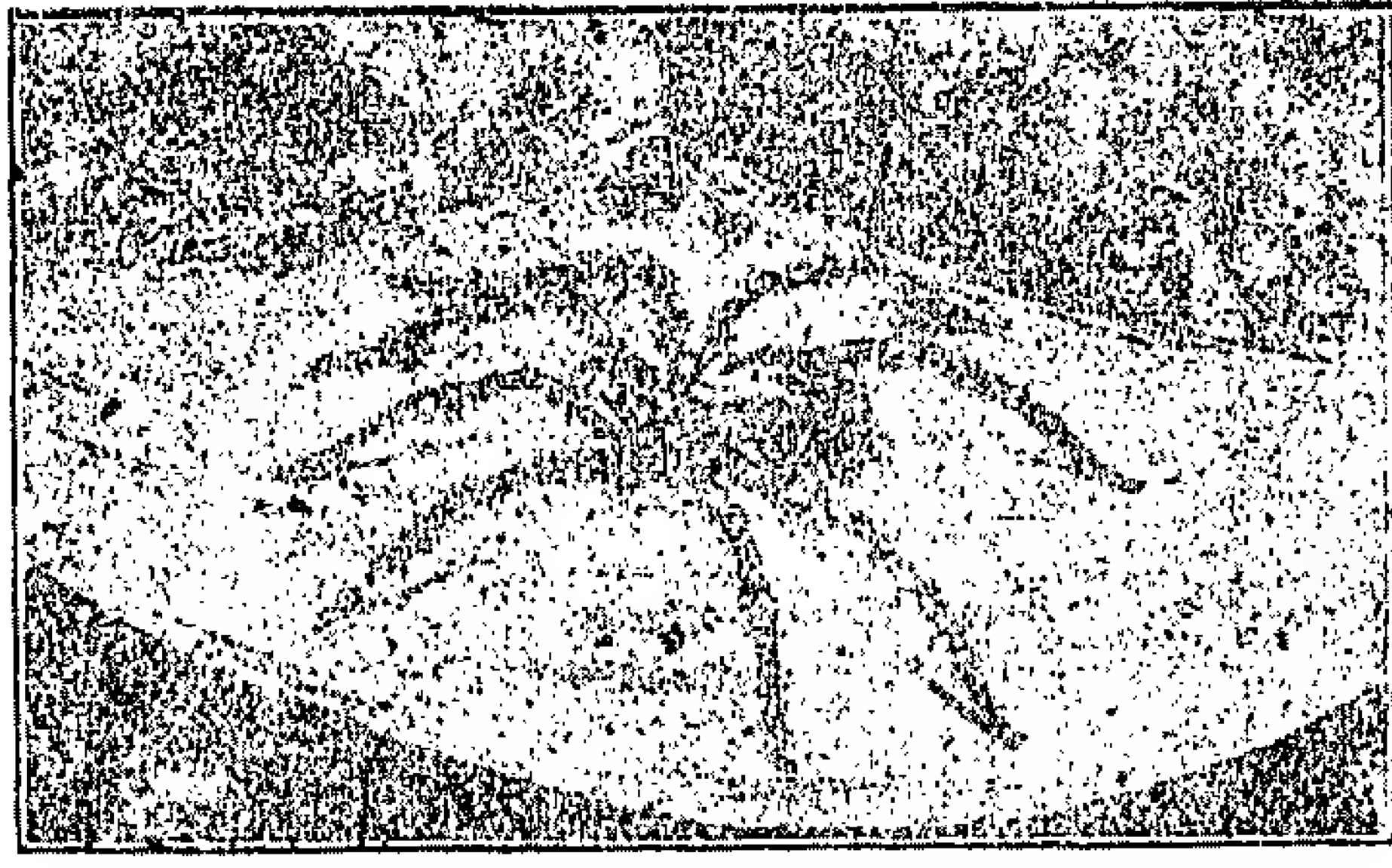
(شكل ١٥ - صورة عنكبوت الحديقة وبيتها)



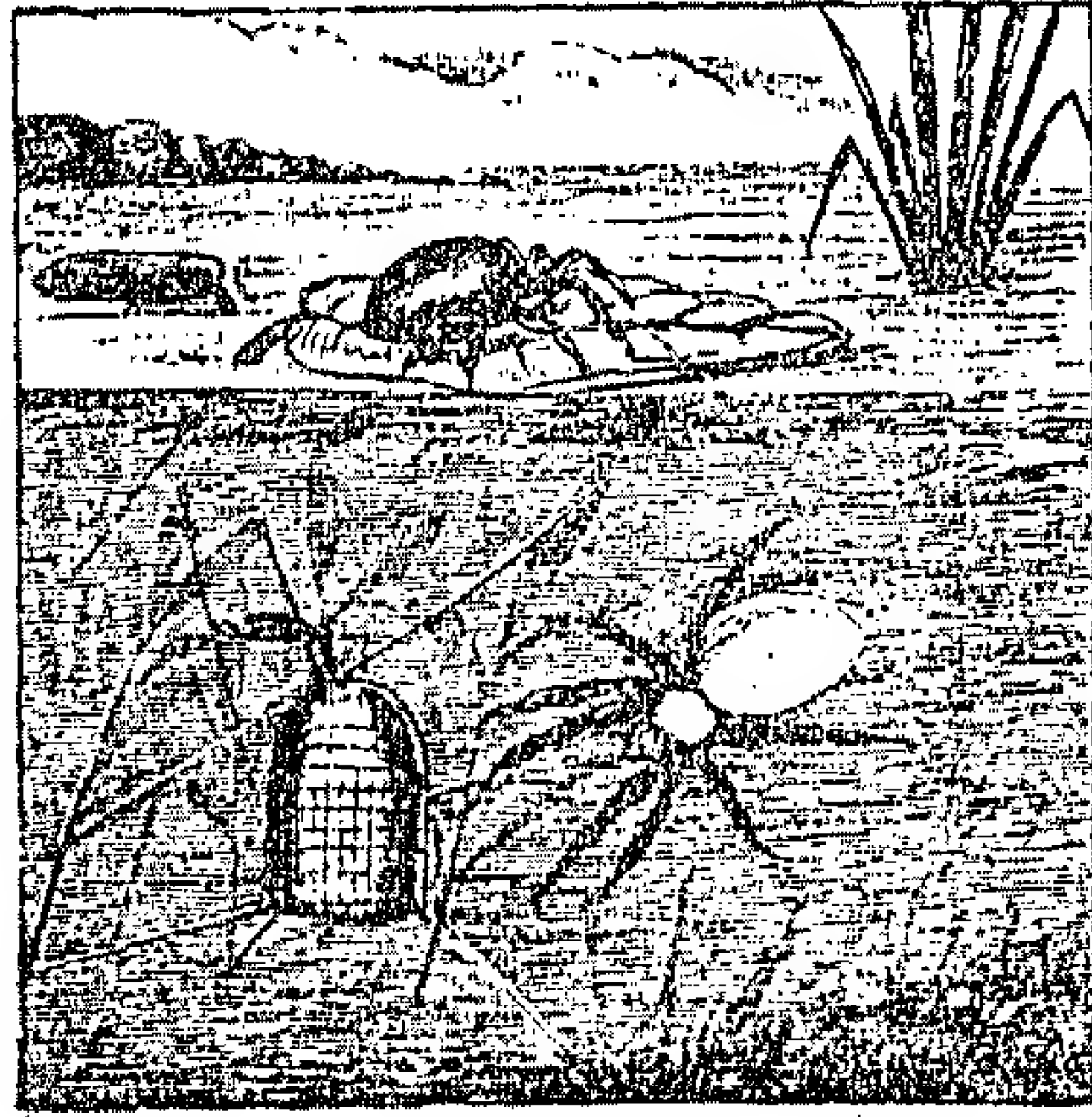
(شكل ١٦ - صورة أكبر بيت للعنكبوت)



(شكل ١٧ - صورة عنكبوت الحديقة صائدة)



(شكل ١٨ - صورة عنكبوت المنازل)



(شكل ١٩ - صورة العنكبوت المائي)

فلما اطلع صاحبي على هذه الأشكال سرّ غاية السرور وانشرح صدره وقال لقد قت بما وجب عليك وهذا أصلح ما وقع في كتبك من الخطأ فانك ذكرت عن المتقدمين أن ريق العنكبوت اذا لامس الهواء صار خيطا فظهر الآن أن الكشف الحديث أبان أن هناك غدة ظهرت في الشكل أخرجت لنا هذا النسيج الذي صارتارة طيارة كطيارات الناس في هذا العصر وتارة سفينة في بحر لجي وتارة تكون عشا ومنزلا وشبكة صيد فهذه القوة المرسومة أمامنا منبع عجيب جدا للسفن العنكبوتية ومنازلها ومهد أولادها وشبكات صيدها وسفنها وطياراتها وقناطرها التي تعبر عليها واذا كانت هذه حال العنكبوت التي يبنيها أضعف البيوت فكيف

استحالت حال المسلمين اليوم من القوة الى الضعف فجهاوا كل شئ ونسوا نعمة ربهم في صغيرات الامور وكبارها
﴿ لطيفة ﴾

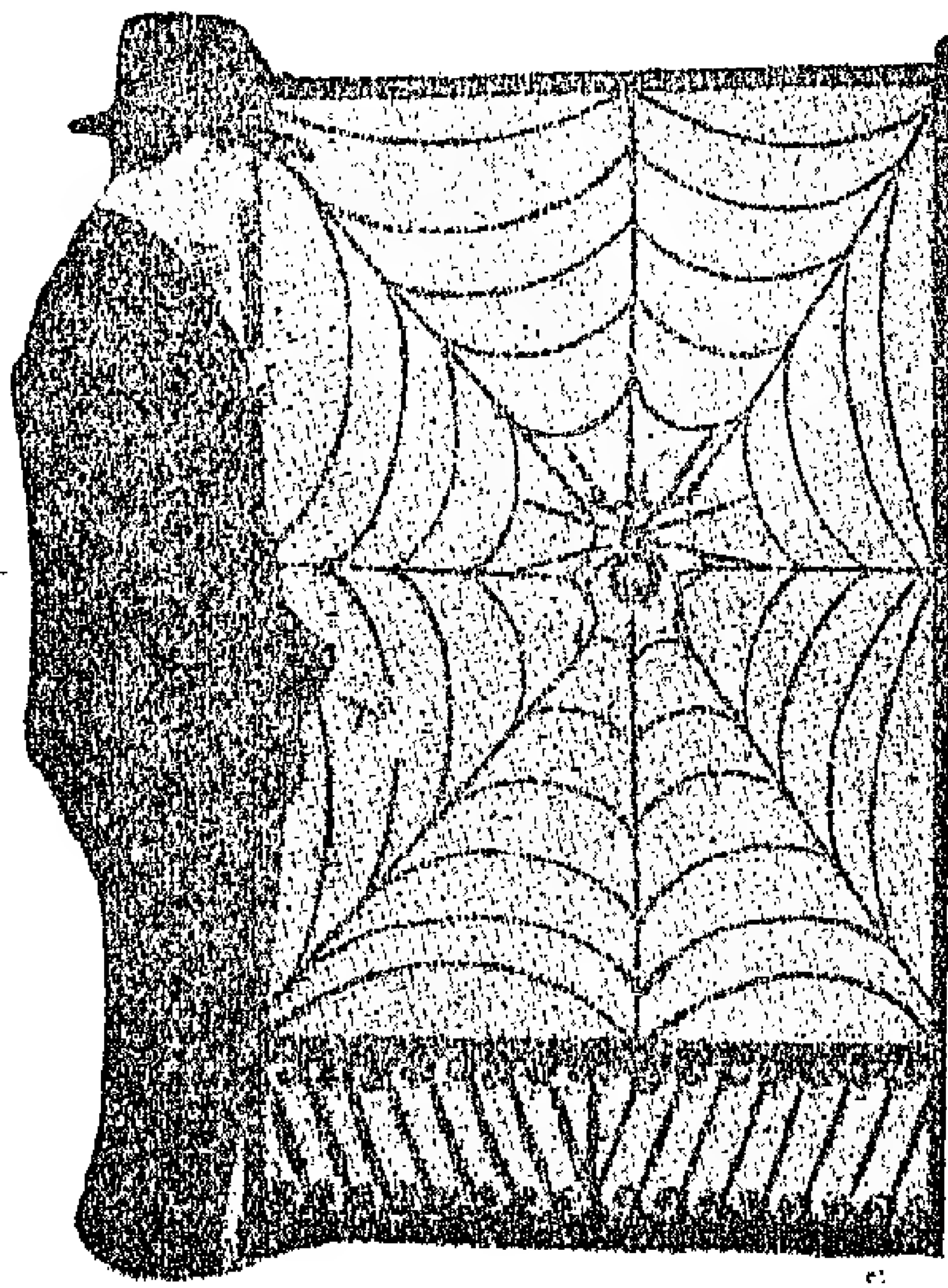
لما اطلع على هذا أحد الفضلاء قال . لقد مرّ على الأمم الاسلامية قرون وقرون ولم يظفروا في تعاليمهم
بأمثال هذه الصور ولكن هذا الزمان هو الذي ظهرت فيه العلوم وتقدّمت الفنون فساعدت على ظهور هذا
التفسير بهيئة جديدة ولكن ليس معنى هذه الصور انها تصدنا عن المباحث العامة . فقلت سل ما بدا لك .
فقال إن الله ضرب العنكبوت مثلاً لما يهد الكافرون من الأصنام وقرّر أن أوهن البيوت بيت العنكبوت
فكيف يكون بيت العنكبوت أوهن البيوت وقد رأينا من الاتقان فيه والابداع ملاحظ له ؟ فهذا عجب كيف
اجتمع نهاية الابداع مع نهاية الوهن ، إن الوهن لا يجتمع الاتقان . فقلت اذا كان بيت العنكبوت أوهن
البيوت مع انه عجيب الصنع بديع الاتقان فان هذا هو المعروف في هذا العالم ، فأنت ترى فيما تقدّم في آخر سورة
النمل في تفسير قوله تعالى - - - وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها - - - أن مقدار الماء الذي يملأ ملعقة الشاي
يحتوي على مقدار من الهيدروجين وهذا المقدار فيه كهرباء لو استخرجها العلماء في المستقبل لأصبح عندنا
منه مائة ألف كيلو من السكر بائنة وقوتها تساوي (١٣٣) ألف حصان وما هذا كله إلا من الهيدروجين الذي
في ملعقة الشاي ، ما هو الهيدروجين في تلك الملعقة ؟ إن هو إلا جزء من (٩) من الماء وذلك أن الماء مركب
من الأكسوجين والودروجين في الوزن لا يساوي أكثر من واحد من (٩) من الأكسوجين
إذن تسع ملاعقة الشاي هو الذي يعطينا قوّة (١٣٣) ألف حصان ، فهذا الماء في الملعقة شئ لا يؤبه له فضلاً
عن جزء من تسعة من هذا المقدار . إذن الله أتقن القليل وأدهشنا من اتقانه ، واذا كان هذا عمله في القليل
فما بالك بالكثير؟ وهذا قوله تعالى - - - الذي أحسن كل شئ خلقه - - - فالقلة لا تمنع الاتقان لأن القدرة والعلم
لا حدّ لهما وهذا على حد قول الشاعر

له همسم لا منتهى لكبارها * وهمته الصغرى أجل من الدهر

فما قاله الشاعر في مدح حبه يقال هنا إن جميع البيوت في العالم سواء أكانت انسانية كبيوتنا أم كانت
للحيوان والطيروا متن وأقوى من بيت العنكبوت ، ألا ترى منازل الناس وأحجار الضب والغزال والذئب وأضرابها
ثم الى أعشاش الطيور التي تبنيها في الأشجار ، فهذه كلها أقوى من بيت العنكبوت ، فهكذا الأصنام وإن
كانت مائلة أمام الناس يرونها بأعينهم - - - لا قوّة ولا عمل لها ونسبة الأصنام من حيث عبادتها الى خالق العالم
الحكيم كنسبة بيت العنكبوت الى بيوت الانسان ونحوه ، فبيت العنكبوت اذا نسبناه الى بيوتنا وبيوت
حيواننا كان أوهن البيوت هكذا عبادة الأصنام يتوهم الناس أنها تنفعهم وما هي بنافعة وإنما يتخيل عبادها
بوههم نفعها لهم ، فهذا التخيل الذي لا يرى أشبه ببيت العنكبوت من حيث ضعفه لامن حيث حسن اتقانه
فهذا مقام وذاك مقام آخر بل اذا تمادينا في الفهم ونظرنا بعين الحقيقة رأينا هذه الدنيا كلها أشبه بالأصنام
بل المعبود حقيقة عند كثير من الناس إنما هو الهوى ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ الناس يحبون الدنيا كاللذات والولد
حباً جاً وهذا الحب هو العبادة الحقيقية ، واذا كانت الدنيا لا ثبات لها بل هي زائلة بل ظهر كما تقدّم في سورة
النور عند قوله تعالى - - - الله نور السموات والأرض - - - أن قطرة الماء فيها جواهر صغيرة تكاد تصل في العدد
نجوم السماء التي عرفت في الكشف الحديث ، ومع هذا كله نرى هذا العدد لا يملأ من فراغ تلك القطرة إلا
جزءاً واحداً من مئات آلاف آلاف و بناء عليه أصبح هذا العالم عند العلماء عالماً أجوف والمادة فيه تكاد
تكون متوهمة . إذن هذا العالم عالم الوهم فليس الحكم على المادّة بأنها كبيت العنكبوت خاصاً بالأصنام
بل هذا الحكم يعم المادّة كلها والحياة فيها وهذا هو قوله تعالى - - - وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو - - - وقوله تعالى
وان الدار الآخرة هي الحيوان - - - وقوله - - - كل شئ هالك إلا وجهه - - -

وأهم ما تقدم أن يت العنكبوت من حيث اتقانه له حكم غيره من حيث ضعفه فضرب المثل به جاء من حيث ضعفه لا من حيث اتقانه وهذا الضعف له نظير في المادة كلها وفي الأصنام فالمادة أشبه بالوهم والخيال كما وضع في قطرة الماء في (سورة النور) ولا جرم أن هذا الايضاح ليس يعقله جميع الناس بل يعوزه علم وحكمة لهذا قال تعالى - لو كانوا يعلمون - وقال - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - فالجاهل يظن أن ضرب المثل بالعنكبوت أمر سهل لأنه مفهوم والعالم يدرسه دراسة تامة ويفهم ما كتبه ففقال لقد أجبت بما شفى صدرى ولكنى أريد أن أسألك سؤالا آخر ، هل قلد الناس نسيج العنكبوت لجلاله وابداعه واتقانه وهندسته . فقلت نعم فقد جاء في مجلة « كل شئ » مانصه (شكل ٢٠)

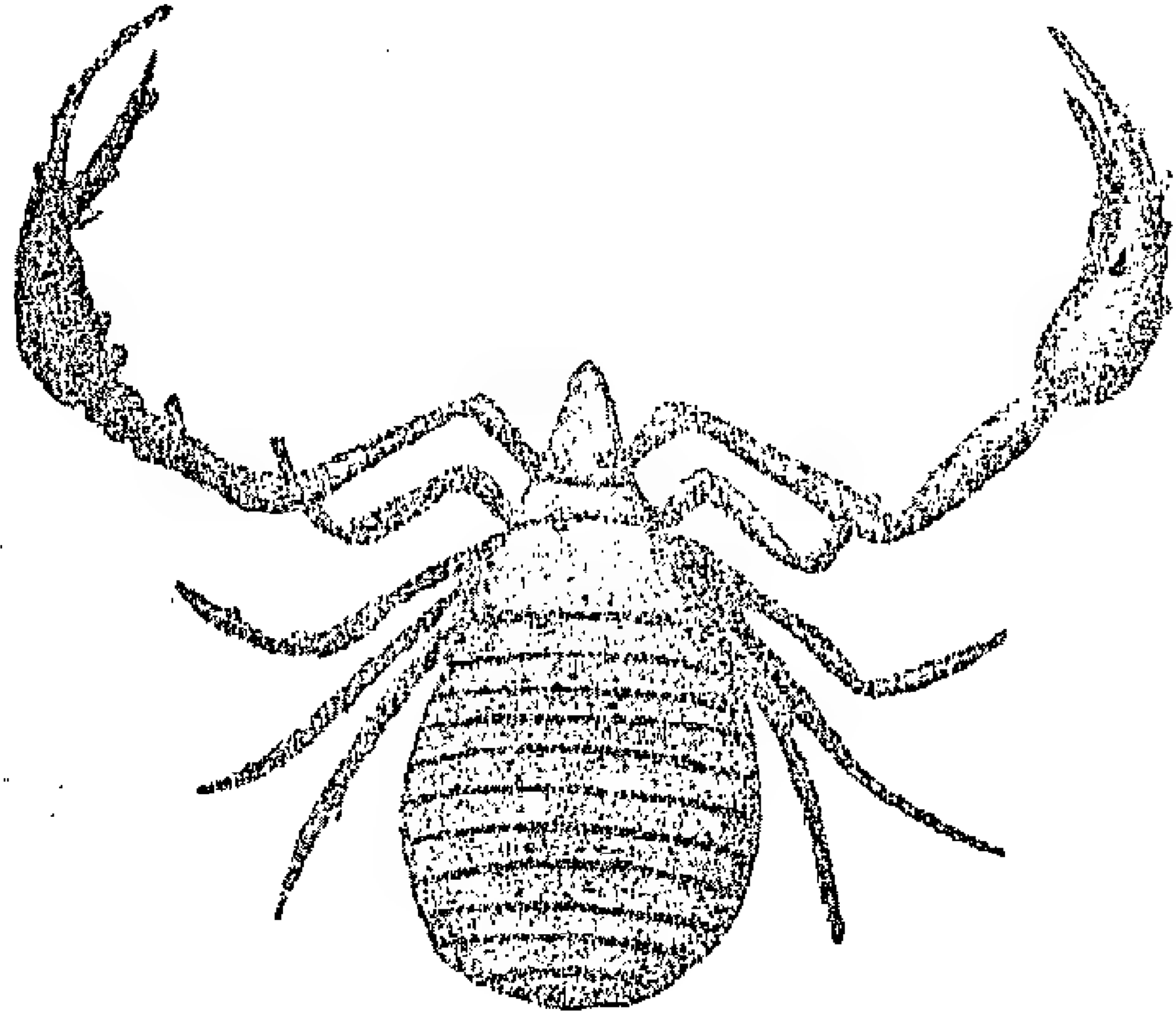
﴿ محاكاة الطبيعة ﴾



(شكل ٢٠ - باب من حديد مصنوع بهيئة نسيج العنكبوت)
« كل منا يعرف نسيج العنكبوت ويحب به كما أننا نضرب المثل به في الضعف والوهن ولكن أحد الصناع الانجليز رأى أن يقلده فصنع بابا من الحديد بهيئة نسيج العنكبوت وعرضه حديثا في لندن فقال اعجاب كل من رآه »

﴿ لطيفة ﴾

لقد تقدم في (سورة الفرقان) عند قوله تعالى - وخلق كل شئ فقدره تقديرا - أن العنكبوت تأكل الذباب وبهذا يخلو الجو للإنسان والحيوان . إذن العنكبوت نافع للزراعة لأنه آكل الحشرات ذبابا وغيره فاقرا هذا الموضوع هناك ، وانى أريد المقام حكمة بما رأيته اليوم من أن العقارب التى شاركت العنكبوت فى أرجلها الثمانية وفى الهيئة شاركتها أيضا فى قتل الحشرات فانظر (شكل ٢١ فى الصفحة التالية)



(شكل ٢١ - صورة عقرب تأكل العث والسوس)

« هذه عقرب صغيرة تعيش بين الأوراق والكتب والأخشاب في البيوت القديمة وتقتات بالعث والسوس وسائر الحشرات التي تأكل الثياب والأقشة والأوراق لها ثمانية أرجل مثل سائر العقارب ولها كلابتان اذا قبضت بهما على الحشرة أزهدتها ، وهي تبيض نحو (٢٠) بيضة تحملها في طية من طيات بطنها حتى ينقف البيض وتخرج الصغار - إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم - »

والى هنا انتهى القول في السؤال الأول وما ترتب عليه من الشروح في الحشرات والعنكبوت فقد اكتفيت أما جوابي لك أيها الأخ عن السؤال الثاني وهو لماذا أراك تشرح هذه الحيوانات هنا وهل هذا يوافق مساق الآية ؟ فاني أقول لك ما الذي دعاك الى هذا السؤال ؟ فقال غيرتي عليك لأنني رأيت أن هذه العلوم أنت مغرم بها ومساق الآية لا يعطى ذلك ، انما مساقها لدم عباد الأصنام وأن عقولهم وقفت عند أمر ضعيف كضعف نسج العنكبوت ، ومما شك في هذا إلا كما جاء في ﴿ الاتقان في علوم القرآن ﴾ للعلامة السيوطي أن العلامة الرازي غلب عليه أقوال الفلاسفة فأكثر منها وقال أبو حيان في ﴿ البحر ﴾ جمع الرازي كل شئ إلا التفسير وهكذا أبو حيان نفسه وقع فيما وقع فيه الرازي فقد غلب عليه قواعد النحو ومسائله فأكثر من ذلك كالواحدى في البسيط والزجاج ، ثم إن الثعلبي غلبت عليه الأخبار ، والفقيه يكاد يجعل القرآن كله للفقه كالقرطبي ، فاني أخاف أن تفسيرك يكون بحسب ما غلب عليك واشتهر عنك في كتبك . فقلت له أما من ذكرت من الشيوخ فهم أساتذتنا ولولا هم ما علمت شيئاً . وأما قولك ان تفسيرى خارج عن مساق الآية فهذا هو الذى أجيبك عنه وستعلم أن هذا زمان ظهور الحقائق القرآنية ، فاعلم أيديك الله أن مساق الآية كما ذكرت أنت انما هو تشبيه هؤلاء الكفار من حيث انهم اتخذوا غير الله إلهاً بالعنكبوت اتخذت بيتاً ، ولا جرم أن بيت العنكبوت بالنسبة لبيوتنا كمعدوم لا وجود له ، ومماثل العنكبوت بالنسبة للنازل في القرى والمدن أوللاهرام بمصر الذى يقارع الأجيال وهو باق على كرا الدهور إلا كنسبة العدم للوجود ، واذا كان نور الشمس لما وزناه في سورة الأنعام بنور أضعف الكواكب بلغ مئات ألوف ألوف الألوف فهكذا هنا نسبة الهرم الى بيت العنكبوت أبعد وأبعد جداً ، إذن عقول هؤلاء الكافرين بعبادتهم الأصنام أصبحت نسبتها الى من يعرف الله ويدرك مصنوعاته كنسبة بيوت العنكبوت الى اهرام الجيزة بمصر ﴿ وبعبارة أوضح ﴾ ان عقول الكفار لما وقفت عند المحسوسات وانحصرت فيها وعبدت الأجسام وانحصرت وانحسرت في صور محدودة وهياكل معدودة كانت نسبتها الى عقول الأنبياء والحكماء والأولياء كنسبة بيوت العنكبوت الى أقوى الأبنية أو كنسبة أضعف كوكب الى ضوء الشمس الذى شبه به الرسول ﷺ فقليل في القرآن - وسراجاً منيراً - فإذن تكون المسألة راجعة الى قوله تعالى في سورة أخرى - أتعبدون ما تعبدون والله خلقكم وما تعملون - فأول الآية يمثل انحصار العقول وغفلتها بالوقوف على ما منحته الناس وآخرها يمثل انطلاق العقول الى باحات الجمال واشراقها بادرارك سر هذا

الوجود بقدر الطاقة البشرية . إذن أصبح هذا التمثيل داعيا الى انطلاق العقول وعدم حبسها في أشياء خاصة بل يراد بذلك درس هذه الموجودات لمعرفة مبدعها وارتقاء العقول في هذه الدنيا ونظام المدن ، فاذن هذا المثل حوى ﴿ أمرين ﴾ - صنع الله الذي أتقن كل شيء - وصنع المخلوق الضعيف ، فصنع الله هو الذي يجب البحث فيه ووقوف العقل عند حد مخصوص هو الذي ينم ، فالنفوس التي وقفت عند عبادة الأصنام نفوس ضعيفة فأروها أشبه بيت العنكبوت بالنسبة لأقوى الأبنية فهي لا محالة واهية زاهية * والدليل على ذلك أن كفر مكة لما جاء الاسلام خضعوا له طوعا لقيليلهم وكرها لأكثرهم فهم اتخذوا ما يشبه بيت العنكبوت فلم يحفظهم بل غلبهم المسلمون في الحرب وهكذا يوم القيامة يعذبون ، وهكذا ترى المسلمين في العصر المتأخرة ناموا وعكفوا وجهوا كل شيء في الدين فغلبهم الفرنجة في السياسة وفي الحروب

والحاصل أن كل من وقفت عقولهم وجدوا فانهم لا محالة مقهورون فالمدار على العلم في كل موطن في الدين والدنيا ، فاذا رأينا العلوم في هذا الزمان قد جلت الناس وألبستهم وأطعمتهم فن ترك ذلك فهو كالعنكبوت اتخذت بيتا ، واذا رأينا المسلم يقرأ في علم التوحيد كلمات جدلية ويقتصر على الفقه ويترك مواهبه وعقله وتفكيره ونعمة ربه في سمواته وأرضه وحيوانه وحشراته وعنكبوته وهوائه ومائه وهو يرى الأمم تحيط به وتعلم هذا كله ثم هو لا يفكر قلنا إن مثله كمثل العنكبوت وهو أعم لأنه ترك ما يجب عليه إما وجوبا عينيا أو وجوبا كفائيا إن هذا المثل عجيب جدا وكيف لا يكون عجيبا وهو قد ذكر بيت العنكبوت والعنكبوت فبيت العنكبوت شبه به الأصنام المعبودة والعنكبوت نفسها من صنع الله وصنع الله يطلب النظر فيه شكرا لله وتوحيدا له ، ومن أعجب وأبدع ما صنع الله خلق العنكبوت ، فانظر فها أنت ذا رأيت عجائبها ، رأيت مراكبها وطياراتها ومساكنها وقناطرها فكيف كان هذا الحيوان الضعيف قد أتم الله خلقه وأكمل صنعه وجعله آية للعالمين وكيف كان أمجوبة الدهر ومثال الجمال والكمال وكيف اخترق الآفاق في الهواء بصناعاته وأبدع منسوجا خيوطه خارجات من جسمه بلا إرشاد مرشدين ولا تعليم معلمين فساح في الهواء وجرى على الماء وبنى القناطر وربى الذرية وطارد الجيوش الجرارة من الحشرات فاقتنصها وأراح منها زرعنا اللهم اشهد

إني أسجل على المسلمين جهاهم بهذه المصنوعات التي صنعتها والعجائب التي أبدعتها والطرق التي لنا أهديتها . اللهم إنك أنت الجليل الذي أبدعت الجمال وأظهرته في هذه الحشرة التي أتقنت الصنعة وأحكمتها والمسلمون لا يعلمون . اللهم إني أذكر بهذا التفسير كل من اطلع عليه أن يبين للمسلمين حكمة ربهم وصنعه ويفهمهم انه لا معنى لشكر الله ولا حب الله ولا للاهتمام بآيات الله إلا بهذه العلوم ومعرفة

انظر كيف كان المثل مضروبا لسخافة عقول الكافرين المحصورة فجاء فيه الأمران بيت العنكبوت ونفس العنكبوت . ولما كان النظر في أمر العنكبوت نفسها لا يخطر بالبال بل يقول الانسان إنه خارج عن الموضوع أفاد ذلك فقال - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - بكسر اللام ، فهو يقول إن العلماء هم الذين يفهمون هذه الأمثال ، ومعنى هذا أن العلماء بهذه العلوم كالخشرات مع ما ينضم اليها هم الذين يعقلون هذا المثل والافلاما يأتي بهذه الجملة بعدمسألة العنكبوت ، ولماذا يختص هذا المكان بأن هذا لا يعقله إلا العالمون (بكسر اللام)

اللهم إن المثل من حيث انه يراد به أن الأصنام كبيت العنكبوت واضح للصبيان والعجائز لا يحتاج الى علماء ولا حكماء ، ثم زاده إيضا فقال - خلق الله السموات والأرض بالحق - وأتبعه بذكر انه آية للمؤمنين ثم تلاه بأمره بتلاوة القرآن وبالصلاة لماذا يصلى لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والفحشاء والمنكر يمنعان القلب من معرفة جمال هذه المصنوعات الإلهية وأعقبه بقوله - ولذكر الله أكبر - ومعلوم أن التفكير في الصنعة أشرف الذكر وهو الذي رمز له بالعنكبوت ونسجه

هنا تبين الأمر وظهور فسكائه يقول هذه الأصنام المعبودة تشبه بيت العنكبوت لاثبات لها والذي ينفع الناس هو النظر في السموات والأرض ويمثل ذلك كله نفس الحشرة ، فالحشرة العنكبوتية في المثل من أبدع ما خلق الله في السموات والأرض ودقة نسجها وعجائب صيدها وقنصها واتقان الغدالتى في جسمها حتى تخرج خيوطا وغير ذلك دال على جمال الصانع وحكمته ، فالمثل فيه ضعف الصنعة واتقانها ، ضعفها من حيث مقارنتها ببيوت الناس واتقانها وقوتها من حيث نظام الله العام ، ولا جرم أن هذا لا يعقله إلا العلماء والجهلاء يكتفون بظواهر القول

الله أكبر ، الله أكبر ، جلّ العلم الذي أرانا أن هذه الحشرة خلقت لتأكل الحشرات الضارة بزرعنا وهي تكون نموذجا لما يفعله الله في الأمم ، إن الأمم التي تقلّ فائدتها في الوجود وإن كثرت سلاحها وصحت أجسامها لا بد من سقوطها كدولة الرومان وكدولة الأندلس الإسلامية التي غاب عنها عقلها وعلمها وعشقت الشعر وحده وكان الرومان قد شرهوا وقتلهم الترف والبطنة فأخذتهم الأمم وإن كانت عندهم الأسلحة وافرة وهانحن أولاء نرى الأمة العربية كيف فتحت مصر بالآلاف تعدت على الأصابع مع قلة العدد والعدد وقد كان في مصر مائة ألف من الجند الروماني فضلا عن جنود القبط بمصر مع وفرة العدد ، إن الله جعل الأمم التي يقلّ نفعها أشبه بالذباب فهي مهما كثرت جيوشها وعددها مقهورة مصروعة مخذولة بأمر أقلّ منها سلاحا كما ترى في العنكبوت الذي قات عيونه وفي الذباب الذي تعدّ عيونه بالآلاف

فلما سمع صاحبى هذا قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، أما أنا الآن فاني أعتقد أن هذا من أسرار القرآن التي كانت مخبوءة لهذا الزمان ويظهر لى أن هناك ما لا يتناهى وقد حجب عنا لقوم بعدنا ، لقد ذكرنى هذا ما في ﴿ كتاب الاتقان ﴾ للسيوطي الذي حدثتك عنه آنفا فانه جاء فيه ما يأتي في النوع الرابع والستين « إن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي إما حسية وأما عقلية وأكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية لقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لأن هذه الشريعة باقية نختص بالمعجزة العقلية ليراها ذور البصائر كما قال ﷺ ﴿ ما من نبيّ إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا ﴾ أخرجه البخارى * قيل ان معناه أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته واخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه » انتهى من كتاب الاتقان

قل صاحبى بعد أن قصّ ما تقدّم ، فأنا أرى أن ما تذكره أنت في التفسير من الذي لم يظهر إلا في العصر الحاضر ، كيف لا ونحن نرى أن مثل العنكبوت ما كان ليحتمل هذا كله ويدخل في أبواب العلوم والزراعة والسياسة وفوق ذلك . يستبين في هذا التفسير أن المثل مقصود به ذلك بدليل انه قال - وما يعقلها إلا العالمون - بكسر اللام وهذا بلا شك يفيدنا أن ما ذكرته أنت من العلم في تفسير الآية كله مقصود القرآن ، فقلت الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات اهـ

﴿ اللطيفة الثانية في قوله تعالى - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر - ﴾

قد مرّ الكلام عليها في (سورة البقرة) عند قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى - ولكن أذكر هنا جوهره وهي

﴿ جوهره في قوله تعالى - وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر - وفي حكم

خطرت لى في الصلاة صباحا يوم السبت ، ٢ يوليو سنة ١٩٢٩ ﴾

إن هيئة الصلاة في ديننا الاسلامي موافقة أئمة موافقة لهذه الدنيا فاننا نرى ليلا ونهارا وشروقا وغروبا

فاذا كان النهار سعى الناس لمعاشهم وترددوا في مهامهم ، واذا كان الليل استراحت أجسامهم وسكنت حركاتهم فهكذا في الصلاة يقول المصلي - إياك نعبد وإياك نستعين - اهنا الصراط المستقيم - الخ إذن المصلي يعبد ويستقيت بربه في كل شئ فهذا أشبه به أثناء النهار وهكذا يقول ﴿ رب اغفر لي وارحمني الخ ﴾ وذلك بين السجدين فهو في هاتين الحالتين عامل كمثل الناس نهارا وليلتك تسمعه يقول في الرفع والاعتدال ﴿ اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ﴾ ويقول في الركوع ﴿ خشع لك سمعى وبصرى الخ ﴾ وفي السجود ﴿ سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فهو في هاتين الحالتين مابين واصف للنظام الجليل في جسمه وساكن خاشع لاطلب له ولا عمل ، ففي الأحوال الثلاثة للمصلي قد سكن لعمل ربه في سمواته وأرضه وفي أعضاء جسمه ، إذن هو مستغرق في ذلك الجلال فهو يلاحظ الفاعل في فعله فإن رفع رأسه من الركوع تذكر النعم العامة في السموات والأرض فنطق بالحمد عليها وقال ﴿ لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ ﴾ وليس ينطق بهذا إلا بعد أن بهره جاهل فلم يبق بعد ذلك إلا أن يغيب عن شهود نفسه ويشهد صانع هذه العوالم فيقول ﴿ لا مانع لما أعطيت الخ ﴾ ذلك لأننى لما رأيت أن جسمى ماهو إلا ذرة من السموات والأرض ونعمك قد شملتهما سكنت اليك لأنك تربى في الدنيا تربية ألهمت المرأة نظيرها في تربية ولدها والاستاذ كذلك في تعليم تلميذه فبينما المرأة تعلم ولدها الجلوس تارة والقيام أخرى اذا هى تلقمه ثديها تارة وتنيمه في المهد أخرى . وهكذا الاستاذ بينما هو يعطى التلميذ دروسه ويلقنها له من تلقاء نفسه اذا به يقول له فكرفيا لقنتك واكتب عليه موضوعا انشائيا . إن نظام الله واحد نهار وليل وحركات الطفل بتعليم أمه ثم انامته وراحته وعمل التلميذ بنفسه في التعلم ثم إلقاء المعلم له الدرس وراحته عقب الدرس هكذا في الصلاة تسليم لله في الرفع والاعتدال ودهش من نظام السموات والأرض وهكذا تهج من نظام الجسم في الركوع والسجود واستغراق في ذلك الجلال ثم الاجتهاد في العبادة وطلب الهداية وطلب المغفرة والرحمة في حالى القيام وفى الجلوس بين السجدين وملخص هذا كله أن هذه التربية في الصلاة موافقة كل الموافقة لنظام هذا العالم ولنظام التعليم في مدارس العالم قاطبة فترية الانسان في صلاته كالترية المدرسية ، فليجعل المسلمون الدروس منتظمة وقتا للجد ووقتا للراحة كما تفعل الأمم وكما يفعل المصلي إذ يستغرق تارة في جلال الله وتارة يفكر بنفسه ويطلب منه الاعانة ، فاذا وجدنا رجلا ترك العمل وقال انى مستغرق في حب الله وجب تأديبه لأن هذا ينافى التربية ، واذا وجدنا آخر لا يفكر في نظام هذه الدنيا وجمال خالقها بل أصبح مكبا على عمله قلنا له قد أخطأت ان هنا ليل وان هنا نهارا وأنت جعلت حياتك كلها نهارا وقد خالفت نظام الصلاة الذى يجعلك تارة مستغرقا في نظام السموات والأرض ونظام جسمك ، وآونة تستفيق فتطلب المعونة والهداية تارة والمغفرة تارة أخرى ، وهذه نفسها حال رسول الله ﷺ ونظام القرآن ، فكان ﷺ يعمل جميع الأعمال ويكمل نتائج العمل لله ، هكذا فليفكر المسلمون وليجدوا في أعمالهم على شريطة ألا يذروا عاما ولا نظاما ولا كمالا إلا أتقنوه ثم يطمثون لما تجرى به المقادير ، وهذا هو التوكل بعينه عمل تام واطمئنان قلب لسكل ما تأتي به المقادير انتهى والحمد لله رب العالمين

﴿ إيضاح الكلام على الصلاة وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾

اعلم أن العلم الذى ينزله الله على القلوب كالماء الذى ينزل من السماء على الأرض فكما أن الماء لا تظهر أنواع تصرفاته ولا فنون أعاجيبه إلا باختلاطه بأجسام النبات والحيوان ونحوهما ، فهكذا الوحي الحق الذى ينزل على الأنبياء لا تظهر فنون أعاجيبه ولا صنوف حكمه إلا بأن تتناولوه عقول العقلاء وتفكر في معانيه . إذن تظهر أعاجيبه وتتهج بها القلوب . ومسألة الصلاة في الآية وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر يعوزها البحث والتتقيب في آراء حكماء الأمم المختلفة من اليونانيين والاوروبيين وحكماء الهند وحكماء الاسلام . فاذا درسنا

ماقاله هؤلاء في هذا الموضوع استخرجنا منها خلاصة انتفعنا بها في فهم هذه الآية . ومتى تم ذلك لنا أدركنا سرّ نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر لأن القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم . وعليه تكون آراء الفلاسفة في جميع الأمم أشبه بتفسير القرآن لأنه آيات بينات في صدورهم . وعليه يجب على المساهمين أن يفوقوا الأمم في الفلسفة حتى يظهر سرّ هذا الدين الذي لا تظهر ثمرته حتى ظهورها إلا بدراسة علوم الأمم المعبر عنها بالآيات البينات في صدور الذين أوتوا العلم واذن فلنبداً بدراسة حكماء اليونان فنقول . اقرأ ما تقدم في (سورة الشعراء) عند قوله تعالى - وإذا مرضت فهو يشفين - إذ ذكرت هناك عن طماوس الحكيم أمراض البدن وأمراض النفس وأن الثانية تابعة للأولى وأن أمراض النفس ﴿ثلاثة أقسام﴾ فمنها ما يتبع إفراط اللذة وما يتبع إفراط الألم وما يتبع إفراط الأخلاط كالمرارة والبليغ لأنها تعطل سرّ يان النفس في البدن فيكون ذلك سبباً للتهوّر والجبن وجود القريحة والنسيان وهكذا

وملخص كلامه أن الشرّ غير اختياري وله ﴿علتان﴾ فساد المزاج وسوء التأديب ولا سبيل للخروج من هذه المآزق إلا بحفظ النفس والبدن معاً وذلك برضايتها معاً ورياضة البدن بالحركات البدنية ورياضة النفس بالموسيقى . هذا ملخصه فاعرفه هناك

واذ أشرت إلى آراء علماء اليونان فلا تتبعه بآراء علماء أوروبا وهو ما تقدم في (سورة البقرة) عند قوله تعالى - ولا تقر بوهن حتى يظهرن - وهذا نص ما ذكره العلامة (بنّام) الانجليزي في أصول الشرائع ﴿ان هناك علاقة بين نظافة الجسم واعتدال الملكات النفسية وهذا الارتباط لاحظته كثير من المؤلفين فان النظافة تبعد الكسل وتحمل المرء على التحرز في أفعاله والتمسك بالوقار في أطواره والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جداً حتى إن شرائع المساهمين حثت عليها حثاً كلياً وجعلتها من الواجبات الأولية وقد ذكر في نفس كتابه أن هذا من محاسن الدين الاسلامي وقد رتب على هذا ﴿أمرين﴾ وجوب نظافة المسجونين وجوب وضعهم في عمل من الأعمال لأن المذنبين عندهم هم القذرون أجساماً الذين لا عمل لهم ، فتي نظفوا وعملوا قلت جرائمهم . انتهى ما نقلته عن بنّام الانجليزي

وأما ما قاله علماء الهند فذلك اني قرأت في كتاب ﴿راجا يوقا﴾ المترجم من الهندية الى الانجليزية سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ أن الانسان يجب عليه أن تكون له رياضة خيالية بحيث يتذكر في كثير من الأوقات الصور الجميلة التي لا تثير شهوة يريد بذلك الأزهار والكواكب وجمال الابداع والنظام وأن ذلك يقوى النفس ويرقيها . وأما ما قاله علماء الاسلام فهو ما ذكره العلامة ابن سينا في أواخر كتاب الاشارات أن الذي يرقى بالنفس الى معاليها الصوت اللطيف والعشق العفيف والعبادة مع الفكر ، ومعنى العشق العفيف عشق الصفات والكمال والأخلاق لا عشق الصور . هذا ما أردت نقله لأشرحه فأقول

تبين من هذه الأقوال أن هذه النفس مع الجسم لا يتركبان سدى ، ذلك انهما تتجا من عوالم كلها متحركة فالملائكة المحركات للعوالم العلوية لا تفتر لحظة والسموات المرسلات أنوارها لا تنام والعالم كله حركة ونظام ، فهنا نفس وههنا جسم يطلبان كمالهما ، فأولاً لابد من النظافة كما قال (بنّام) وهذه النظافة قد أصبحت ركناً في تربية الأمم وتعليم المسجونين لتدفع عنهم الكسل وسوء الخلق وبها تقل الجرائم والذنوب وهذا السر يظهر في قوله تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - لأن بين التوبة والطهارة علاقة متينة كما تقدم ، ثم إن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم وهذه الأفعال حركات وهذه الأقوال دالة على معان . فهنا رياضتان لطيفتان رياضة جسمية ورياضة عقلية . وإذا وضعت قول ابن سينا مع قول طماوس الحكيم نتج لنا أن رياضة النفس لا تقتصر على الموسيقى كما قاله طماوس بل تشمل الفكر الذي تحويه العبادة كما قاله ابن سينا وتشمل الصور البهجة السماوية كما قاله علماء الهند وعليه تكون الصلاة مبدأ

﴿لأمرين﴾ رياضة البدن ورياضة النفس فكل منهما لا بد له من حركات والصلاة اشتملت على مبادئهما فإذا أتمّ المسلم الصلاة فليتمم رياضة الجسم بكسب المعاش أو فليمش نحو ساعتين كل يوم كما يقول الأطباء في زماننا . فإذا كان الطبيب يأمرنا بالمشي الذي لا تعقل فيه فهذه الصلاة اجتمع فيها حركة الفكر وحركة الجسم وهذا أفضل . ألا ترى إلى ما يقوله علماء الطب وقد تقدم في هذا التفسير أن التمارين الجسمية والألعاب الرياضية التي شاعت في الأمم الآن أدنى مراتب الرياضة البدنية لأنها لا فكر معها . فأما العمل في البساتين والحقول فإنه أعظم الرياضات ويليه المشي وأسفل الجميع تلك الألعاب

إذن ظهر أن الصلاة أعطتنا ﴿درسين﴾ درس رياضة الجسم ودرس رياضة النفس ومتى انتظم هذان الأمران أصبح الإنسان قليل الذنوب قليل الشرور فإن الشرور لا تنجم إلا من قذورات الأجسام والطهارة في الصلاة تمنع ذلك ومن عدم الرياضة البدنية والرياضة النفسية كما قاله طيماوس وهاتان الرياضتان اشتملت عليهما الصلاة بحركات الجسم وحركات النفس إذ يقف المصلي فيفكر في السموات والأرض حين يقرأ - وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - الخ فهنا تحضر في نفسه تلك العوالم الجميلة فتقوى روحه وتشرح صدره وهكذا يفكر في العوالم العلوية والسفلية عند آية - الحمد لله رب العالمين - ويتعجب من الرحمة الواسعة عند قوله - الرحمن الرحيم - وهذه الرحمة لاحد لها في كل حشرة وطيور وأنعام . وهكذا يفكر في خلق جسمه وأعضائه وسمعه وبصره عند الذكر في الركوع والسجود إذ يقول ﴿خشع لك سمعي وبصري الخ﴾ ويقول ﴿سجد وجهي الخ﴾ فإذا أتمّ المسلم صلاته اتجه للأعمال في حياته الدنيوية فتكون على منوال ما في الصلاة وتنصرف نفسه للعمل الجسمي والعمل العقلي وهنالك تنصرف عن الشر إلى الخير

﴿بهجة هذا المقال﴾

اعلم أن أفلاطون في جمهوريته يقول ﴿إن حكام الجمهورية لا يكونون عادلين إلا إذا انفتحت عيون بصائرهم ولا يتم ذلك إلا بعشق العلوم والمعارف لأن النفوس مفرمة بالشهوات البدنية أولاً وبالذات كالمطاعم والملابس والمشارب والشهوات الغضبية كالفتك بالأعداء ، فهاتان القوتان هما المسيطرتان على نفوس الناس فإذا لم يفتح للحكام باب اللذة العقلية بعشق العلوم فانهم لا محالة ينصرفون إلى اللذتين السابقتين فيشاركون المحكومين لهم في أعراضهم وأموالهم ، ولا خروج للحكام من ذلك الظلم إلا بتلك الخلة الشريفة﴾ هذا ملخص كلامه في جمهوريته

وأنا أقول ﴿إن ملخص الصلاة مفتاح لجميع العلوم فاقرأه فيما كتبناه في (سورة آل عمران) فإن المسلم في الرفع والاعتدال يذكر السموات فيقول «مل السموات ومل الأرض ومل ما بينهما الخ» وعند الركوع والسجود يفكر في أمر جسمه وتشريحه . فإذا كان المسلم في كل يوم يتذكر هذه العوالم فليس لهذا معنى إلا حب البحث فيها وهذا هو الذي يخرج نفسه من حبس الشهوتين إلى حب العلم وهو صفة القوة العاقلة كما يقوله أفلاطون الله أكبر . ظهر سر هذه الآية الآن . فالنظافة تمنع الذنوب وأذكار الصلاة تفتح أبواب العلم المانعة من الشهوة والغضب وهكذا ، فظهر إذن قوله تعالى - إن الصلاة تهدي عن الفحشاء والمنكر - أي بنظافتها وحركاتها الجسمية وحركاتها العقلية

﴿تطبيق على ما تقدم﴾

(سبب اسلام الاستاذ عبد الله كويلم الانجليزى)

لقد كان لإسلامه تاريخ وضعه هو في كتاب وقد ذكر لي بعض الأصحاب ملخص ذلك الكتاب . قال «لقد عتراني مرض فعرضت نفسي على الأطباء فقالوا لي لا بد من أنك تسافر إلى أقطار حارة كبلاد الجزائر فتوجه إليها وخالط أهلها فوجدتهم يتوضئون ويصلون فسألهم ما هذا ؟ فقالوا هذا أمر واجب شرعاً فترك العامة

وأخذ يسأل العلماء عما يفعل المسلمون فعلموه قواعد الدين الاسلامي فدهش وقال يا عجبا ، إن هذا الوضوء خمس مرات في اليوم انما هو نصف اغتسال لأنه غسل أطراف الجسم ولم يبق من الانسان الا غسل الا لجذع هنالك أخذ يدرس هذا الدين وقال ان هذه النظافة هي الصحة بعينها وسلامة الجسم بعينه والأطباء يجعلون هذا أول علامة على قوة الأجسام وسلامة العقول ، وما كاد يرجع الى بلاده حتى أخبر زوجته وأفهمها حقيقة الاسلام و بين لها فوائد الاغتسال والوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وقال ان هذا صالح لرقى الانسانية جمعاء فأسلمت معه ، ثم قال لها لنعرض هذا الرأي على فلان وفلانة من أصحابهما فعرضه عليهما فقبلا وهكذا اجتمع له من أصحابه طائفة وأعلنوا اسلامهم ، فلما سمع بهم الجيران سطا عليهم الغوغاء وصاروا يقدفونهم بالحجارة ويعيرونهم بأنهم مسلمون ، ولما كان هو من رجال القانون المشهورين رفع دعوى على الملكة فكتوريا يقول فيها أنت ملكة انكثرتا ، فهل ملكك خاص بالنصارى أم هو شامل لأهل جميع الأديان ؟ فما كادت الدعوى ترفع في المحكمة ويصل الخبر الى الحكومة حتى بادرت الشرطة فحفظوا عليه وعلى أصحابه ومنعوا الغوغاء عنهم »

ثم قال « وبعد ذلك سمع بنا أمم الاسلام فأخذوا يرموننا بالنفاق والرياء وانما أسلمنا لنففس المسلمين باسلامنا فندخلهم تحت حكم دولتنا ، قال فقلنا لهم ، أيها المسلمون . نحن لم ندخلكم تحت حكمنا بنفاقنا بل حكمنا كم بمدافعنا وجيوشنا »

هذا ما عرفته من ملخص سيرة الاستاذ (عبد الله كويلم) الذي يعتبره الناس شيخ الاسلام في بلاد الانجليز وقد كان اسلامه قبل اسلام صديقنا (الورد هيدلي) الذي كان سبب اسلامه انه قرأ الاسلام والديانات فراه خيرا فأسلم ونشر اسلامه في أوروبا ودعاها الى الاسلام . وقد نقلت من كتابه قطعة في سورة مريم قد ذكر فيها أن الألمان كشفوا سنة ١٩٠٣ كتابة في بلاد العراق ملخصها أن الكشف الحديث أثبت أن الصلب وابن الله البكر وأمثال ذلك ماهي إلا خرافات سرت للأمم المسيحية من ديانات كانت في العراق وهكذا فقرأه هناك والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الأحد ٢١ يوليو سنة ١٩٢٩

(الصلاة اليوم في بلاد الاسلام)

لأقص اليوم أيها الذكي عليك قصص ما علمته من الصلاة في بلاد الاسلام وسأجعل ذلك فصولا وهاك بيانها

(١) فأولا أذكر مدار من الحديث بيني وبين التلاميذ بالمدرسة الخديوية

(٢) أذكر ما كتبه كاتب انجليزى أيام النهضة المصرية ومطالبة البلاد المصرية بالدستور أيام الخديوى

السابق عباس حلمي باشا

(٣) وحكاية معلم ولّى عهد البلاد المصرية أيام كانت تحت حكم الخديويين

(٤) وما قصه على أستاذى الشيخ حسن الطويل

(٥) حديث عن أهل سيلان

(٦) وما ذكره (هنرى الفرنسى)

(٧) وصدق العلم في الجامع الأزهر ومخالفة العادات في بلادنا لهذا الدين

(٨) وطريقة الوهابية ببلاد نجد والحجاز

الفصل الأول في ذكر مدار من الحديث عن الصلاة بيني وبين تلاميذ المدرسة الخديوية وأنا مدرّس لهم ﴿

ذلك أنى يوما سمعت أن وزير المعارف جمع المدرسين وأخذ يكلمهم في أمور عامة علمية فتصادف أن

أحد المدرسين قام ليصلى المغرب إذ حان وقت صلاة المغرب فقال ماهذا ؟ أتريد أيها الاستاذ أن تظهر أنك أنت

المتدين ونحن لادين لنا ، ما هذا ؟ ولماذا لا تؤخرها . وقال في مجلس آخر « إن الصالحين في الاسلام يسهرون الليل ليصلوا وهو مخالف للصحة » فلما سمعت هذا القول خطرت لي أن أحداث التلاميذ في هذا الموضوع فقلت « أيها الأبناء اننا اليوم أرقى من قبلنا فالحمد لله الذي رفع عنا الاصر وأزال عنا الضر فأصبحنا بفضل المدينة الحاضرة أعلى كهبا في المدينة وأعز ناصرا وأكثر عددا ومالا وولدا ، كيف لا ونحن نحافظ على صحتنا وننام طول الليل كما يقتضيه علم الصحة ، أما تلك الطائفة القديمة من أمم الاسلام فانهم كانوا لا يحافظون على صحتهم ويسهرون طول الليل تعبدا ويا كانوا ما خشن من الطعام ولا يسعدون سعادتنا التي نلناها على يد الاوروبيين المتدينين أولئك الذين فتحوا لنا المطاعم والمشارب وأنواع اللذات فأكلنا وشربنا وتمتعنا بكل لذة وأصبح النابغون وغير النابغين في بلادنا يكرعون الخرنهارا جهارا وهم في فرح وسرور ولا ينهي أحد أحدا ولا ينجمل الشارب ولا الزاني ولا غيرهما ، كل ذلك للحرية الواسعة النطاق بفضل هذه المدينة المباركة »

كل هذا وهم سكوت كأنما على رؤسهم الطير ، ثم قلت ولكن عندي مسألة واحدة وهي كيف نكون نحن على هذا المقام من العظمة والأبهة ونرى اننا عبيد لكل الأمم فان جميع أوروبا لها امتيازات عندنا ومن قتل منا لاديه له لأن محاكمهم هي التي تحكم ولا راد لحكمها لضعفنا وقوة تلك الأمم ، أما هؤلاء فقد حكموا أكثر تلك الأمم وهابها الجميع . أما أنا الآن فاني متحير في المسألة . أما الرقي فنحن والحمد لله راقون وأما الذل فهو نصيبنا والعز نصيبهم . ههنا يا أبنائي حار فكري . نحن لا نتقيد بقيد من شرع ولادين ثم نذل وهم لا يمتنعون مثلنا ولكنهم أعزاء فما قولكم ؟ فقام شاب فيهم يسمى (بهنساوى) فقال إنك قد فتحت هذا الباب وقد أثرت في نفوسنا تأثيرا عظيما ولكن هل تظن أن مجلسا واحدا كهذا يغير أخلاقا وعادات ورثناها عن الآباء والأمهات والمدرسين ونظار المدارس . نحن تعلمنا في الابتدائي ولا صلاة هناك ثم تعلمنا في التجهيزي الآن وهانحن أولاء معك ولا صلاة أيضا . وكيف نصلي والصلاة عندنا عار . إن التلميذ الذي يصلى يسخر منه اخوانه ألا وان النساء في المنازل يفعلن ما نفعلن تماما . فالمرأة المصلية يعتونها أقلهن كمالا وشرفا لانتسابها للدين هنالك نظر اليه التلاميذ جميعا نظر الشرر وردوا عليه وقالوا اسكت لقد كذبت في قولك . فقال لهم وهل تظنون أن الاستاذ لا يعلم ذلك ؟ ألم يرهو المصلى هنا وقت الظهر لا يصلى فيها عدد الأصابع من التلاميذ والمدرسة فيها مئات ومئات . فقلت دعوه فقد نطق بالواقع وما قاله هو الذي أعرفه في بلادى

هذا ماجرى بينى وبين التلاميذ بالمدرسة الخديوية في حصة يسمونها المحادثة (أو الانشاء الشفهى) الذى يذكر الاستاذ موضوعا يجعله حديثا بينه وبينهم . وبهذا تعرف أيها الذكى حال بلادنا المصرية في هذا الزمان ولقد كان هذا قبل كتابة هذه الأسطر بنحو (١٤) سنة . أما الآن فقد تحوّلت الحال قليلا حتى ان الشبان جعلوا لهم ناديا سموه « جمعية الشبان المسلمين » وانتشرت هذه الفكرة من مصر الى بلاد الاسلام وأنا والحمد لله صليت معهم وقد أصبح رقيبها بمصر من أحد تلاميذى بالمدرسة الخديوية . ومن عجب انه موقن بالاسلام ومحب للصالح ويصلى بالليل والناس نيام وله حكم عجيبة واسمه (يحيى الدردير) وقد مكث في ألمانيا (١٢) سنة يكرع من موارد العلم ورجع مغرما بالاسلام غراما لا حد له . انتهى الفصل الأول

﴿ الفصل الثانى فيما كتبه كاتب انجليزى أيام مطالبة بلادنا المصرية بالدستور ﴾

ذلك أن البلاد من أقصاها الى أقصاها في أول القرن العشرين تحركت لطلب الحرية الداخلية وأخذت الجرائد فى انكاثرا تنقل عن جرائدنا ما يقوله المصريون فكتب كاتب انجليزى يقول « لا يصح للانجليز أن يخرجوا من مصر إلا اذا أصبح الخاصة والسياسيون وأهل الرأى فى البلاد فى الأخلاق والعواطف كالفلاحين اننى جيت هذه البلاد فرأيت طبقة الفلاحين والجهلاء والخدم عندهم عطف على الأرحام والمساكين وذوى الحاجة ويوقنون بالعقيدة ويخافون ربهم ، أما هذه الطبقة المتعلمة بمصر فانها تنذر الدين وتتركه والتلاميذ

دائماً يقلدون أساتذتهم والأساتذة ﴿قسمان﴾ قسم من شيوخ دارالعلوم ، وقسم من متعلمي المدارس الأخرى أما الشيوخ فانهم حين يلقون الدرس الديني لا يلتفت اليهم التلاميذ لأنهم يرون ناظر المدرسة لا يبالي بهذه الامور والعبادات ويضرب بها عرض الحائط وهو لها من السكارهين فكيف نسلم البلاد لأقوام لا خلق لهم ولا كمال « أقول وهذا مغالطة فان هذا التحول عن الفضائل انما جاء لمجاراتهم واتباع نصائحهم وكيف يصلي الوزير أو الأمير أمام حاكم اذا رآه كذلك حقره وأضره له سوء طول الحياة . انتهى الفصل الثاني

﴿ الفصل الثالث في ذكر ما قصه عليّ والد أحد المعلمين لوليّ عهد الخديوي عباس ﴾

قال إن ولدي قد اختاره الخديوي مريباً لوليّ العهد وقد قصّ عليّ حديثاً فقال « كنت يوماً جالساً مع فيلسوف بوذي عند ناظر مدرسة فرنسي فقدم لنا ذلك الفرنسي القهوة فلم أشرب فسأني ناظر المدرسة قائلاً لماذا ؟ فقلت لأنني صائم . فقال وهل أتم لا تزالون خاضعين لهذه الأوهام . أيّ صيام وأيّ صلاة . دعوا هذه الأوهام ليرتقي الشرق والشرقيون وما أضرب أهل الشرق إلا الأديان ومثلك راق مهذب فعليك أن تنصح أهل بلادك بهذه الترهات وانظروا إلى أوروبا تركت الدين فلكت رقاب العالمين . فلما أراد القيام قال له الفيلسوف البوذي قابلني ياسيد أفندي يوم الأحد عند كنيسة كذا . فلما قابله يوم الأحد دخل الكنيسة فرأى قوماً يصلون وبقيا هناك نحو ساعة فلما خرجا معا قال له الفيلسوف البوذي قد لاحظت هنا شيئاً فقال من أيّ وجه قال ألم تر ناظر المدرسة يصلي مع المصلين فقال إيّ وربي إنه لحق فقال أليس هو القائل لك دعوا هذه الخرافات فقال السيد أفندي له نعم فقال أتدري لم قال لك ذلك قال من فك أحلى فقال إن هؤلاء القوم يريدون أن يذمّوا لنا أديان الشرق لنتركها ومتى تركناها انحلت قوانا وذهبت رابطتنا وحينئذ يحتلون بلادنا فهؤلاء القوم عقدوا الخناصر على هذا فهم له أبداً ساعون . انتهى الفصل الثالث

﴿ الفصل الرابع فيما قصه عليّ أستاذي الشيخ حسن الطويل في هذا المقام ﴾

وقبل أن أذكر حديثه رحمه الله تعالى أقدم مقدمة فأقول

إن البلاد المصرية قد حكمها المرحوم محمد علي باشا ولم يكن في البلاد أكثر من ثلاث ملايين وهؤلاء كانوا يصلون ويصومون وكانت المدارس كلها أستاذاً أو تلميذاً قائمين بشعائر الدين في بلادنا وفي أوروبا وأممكنه بهذا العدد القليل أن يملك بلاد الحجاز ونجد وأكثر بلاد العرب وهكذا بلاد السودان وزحف بجيوشه على بلاد الترك لولا توسط أوروبا ، فلما مات المرحوم محمد علي باشا وإبراهيم ابنه ملك البلاد بعده بعض عقبه فغيروا الأوضاع وترك بعضهم الصلاة واتبعوا الشهوات فأنحلت العصبية وكان هذا تمهيداً لاحتلال الانجليز هذه البلاد . فانظروا حديثي به أستاذي الشيخ حسن الطويل

قال رحمه الله تعالى ﴿ لقد كانوا أدخلوني في زمرة الجند وارتقيت إلى جاريش وقد كان أستاذي بالأزهر علمني دعاء أدعوه لتفريج الكرب ، قال فلما كنت بالجيش في الاسكندرية أخذت أقرأ هذا الدعاء وأدعو الله أن يخرجني من زمرة هذا الجيش ، قال وكانت هناك أوامر من الخديوي أن كل من صلى أو أظهر العبادة يعاقب فلما علموا بأنني أدعو الله بهذا الدعاء أنزلوني درجة وعاقبوني بأن أحل سلاحي وعتادي وأرجع من الاسكندرية إلى مصر ثم رفتوني ، قال رحمه الله وقد جهل هؤلاء أن هذا الرفق هو مطلوب الدعاء الذي كنت أدعوه ﴾

أقول هذه حال الجيش وحال المصريين بعد أيام المرحوم محمد علي باشا فكان ذلك توطئة لما نحن فيه الآن وقد كانت هذه الفكرة آتية لهم من أهل فرنسا إذ قالوا لهم إن الديانات تؤخر الأمم - وحق بهم ما كانوا به يستهزئون - انتهى الفصل الرابع

﴿ الفصل الخامس في حديث محمد بك عرابي نجل المرحوم أحمد عرابي باشا عن أهل سيلان ﴾
لما رجع المرحوم أحمد عرابي باشا إلى مصر بعد النفي وقد هرع إليه الناس يسألون عليه قايلاً ابنه ودار
الحديث بيننا على أهل سيلان فقال ﴿ إن صلاة الجماعة أمر حتم على كل مسلم والرئيس الديني هناك يتفقد
كل مسلم في صلاة الجماعة فإذا تأخر شاب عن الصلاة أحضره أكابر البلد وأنذروه أول مرة فإن عاد عادوا
إلى الانذار فإذا كانت الثالثة حكموا عليه بالإعدام . قلت وهل ينفذ . قال نعم . قلت وماذا يفعل الانجليز ؟
قال لو دخل عند (الملسكة فكتوريا) واحتجى بها لأخرجوه وقتلوه ولا يردون أمر الشرع ﴾ فهجبت وكنت
أظن أن بلادنا إذا تركت الصلاة فما هو إلا مجازاة للأوروبيين واذن تمثلت بقول من قال
دواؤك فيك وماتشعر * ودواؤك منك وماتبصر

﴿ الفصل السادس فيما قرأته في كتاب « خواطر وسوانح في الاسلام » للعلامة (هنري
الفرنسي) الذي ترجمه المرحوم الاستاذ فتحى باشا زغلول ﴾

قال كنت ضابطاً على جنود من أهل الجزائر وكنا يوماً مسافرين لأعمال الدولة ، قال فيينا الجندي راكبون
وهم يغنون غناء عربياً ويشيرون نحوي بالمحبة والاحلال في أثناء النغمات اذا أنا بالعصر قد حضرت صلاته
فترجلوا عن خيولهم ونزلوا واستقبلوا القبلة وقالوا بلسان واحد ﴿ الله أكبر ﴾ فسمعت كأن الخيل والجبال
والأودية والأنهار والرمال كلها تقول ﴿ الله أكبر ﴾ واعتزاني الخجل أن أسمع قوما كهؤلاء يعظمون الله
ويقولون في أنفسهم اننى كافر بالله فكذبت أنطق وأقول لهم يا قوم أنا أيضاً أعبد الله . قال وهناك تغيرت حالى
وأخذت أبحث في دين الاسلام وتوجهت الى المساجد فوجدت عليها نورا وبهجة وجمالاً وبسطة تشرح الصدر
فأخذت أدرس هذا الدين فراغنى جماله وبهجته ، ولولا ضيق المقام لقلت منه فصولاً تليق بالمقام ولكن عسى
أن أذكره في مقام آخر . انتهى الفصل السادس

﴿ الفصل السابع والثامن في صدق العلم في الجامع الأزهر ومخالفة العادات لحقائق الدين في
زماننا وفي طريقة الوهابية ببلاد الحجاز وبعض بلاد الاسلام ﴾

اعلم أن ماسمعه الآن عن بلاد (سيلان) له نظير في بلاد (بلوخستان) فلقد قرأت في بعض الجرائد
عن سائح ألماني قال ﴿ لم أجده سعادة أوفى ، ولا عزاً أبهى ، ولا كمالاً أرفع ، ولا راحة أعظم ، مما رأيته في
بلاد (بلوخستان) قال فهؤلاء يعبدون الله على مذهب الامام الشافعي ، فإذا كانت صلاة الصبح حضر الرجال
والنساء والصبيان الصلاة وأخذ الاستاذ يلقي النصائح الدينية ثم اذا طلعت الشمس رجعوا وهم مستبشرون ﴾
قال ﴿ والمرأة هناك مكبة على عملها قائمة بالواجب عليها يتها نظيف وعرضها نظيف وزوجها عفيف ولم نسمع
بالزنا في بلادهم سنين وسنين بخلافنا نحن فقد يجد الرجل منا أن ابنه يشبه جاره ولا يقدر أن ينسب بنت
شقة . وأقول ثم إن الوهابيين بنجد والحجاز اليوم يقيمون الصلاة في أوقاتها وهم بالدين موقنون ، واعلم أن هذه
كلها تدرس في الجامع الأزهر الشريف ، ولكن الطالب الذي يقرأ هذا في درسه يخرج فيجد عادات بلاده
تخالفها في زماننا فلا يقدر على تغيير الأحوال فيصبح على طبع أهل بلاده ﴾

هذا ما أردت ذكره في هذا المقام تبصرة وذكرى لأولى الألباب والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم

الخميس ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٩

(الأحاديث النبوية في فضائل الصلاة)

جاء في كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي مانصه

﴿ فضيلة المكتوبة ﴾

قال الله تعالى - إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً - وقال ﷺ ﴿ خمس صلوات كتبهن

الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة ﴿ وقال ﷺ ﴾ مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لا شيء قال ﷺ ﴿ فان الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن ﴾ وقال ﷺ ﴿ إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ﴾ وقال ﷺ ﴿ بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما ﴾ وقال ﷺ ﴿ من لقي الله وهو مضيق للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته ﴾ وقال ﷺ ﴿ الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين ﴾ وسئل ﷺ أي الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها * وقال ﷺ ﴿ من حافظ على الخمس بكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهاناً يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان ﴾ وقال ﷺ ﴿ مفتاح الجنة الصلاة ﴾ وقال ﴿ ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد ﴾ وقال النبي ﷺ ﴿ من ترك صلاة متعمدا فقد كفر ﴾ أي قارب أن ينخلع عن الإيمان بالخلع عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة أنه بلغها ودخلها * وقال ﷺ ﴿ من ترك صلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد عليه السلام ﴾ وقال أبو هريرة رضي الله عنه « من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا إلى الصلاة فانه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وانه يكتب له بأحدى خطوتيهِ حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة ، فاذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجرا أبعدهم دارا ، قالوا لم يا أبا هريرة قال من أجل كثرة الخطأ » * وروى أن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة فان وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وان وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله * وقال ﷺ يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فان الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحسب * وقال بعض العلماء مثل المصلي مثل التاجر الذي لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال وكذلك المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة * وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول « اذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فاطفئوها »

﴿ فضيلة إتمام الأركان ﴾

قال ﷺ ﴿ مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى ﴾ وقال يزيد الرقاشي « كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة » وقال ﷺ ﴿ إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وان ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض وأشار إلى الخشوع ﴾ وقال ﷺ ﴿ لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده ﴾ وقال ﷺ ﴿ أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار ﴾ وقال ﷺ ﴿ من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني ، ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتني حتى اذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه ﴾ وقال ﷺ ﴿ أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته ﴾ * وقال ابن مسعود رضي الله عنه وسلمان رضي الله عنه « الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ومن طفق فقد علم ما قال الله في المطففين »

﴿ فضيلة الجماعة ﴾

قال ﷺ ﴿ صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ﴾ وروى أبو هريرة أنه ﷺ فقد ناسا في بعض الصلوات فقال لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم * وفي رواية أخرى ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم ثم يحزم

الخطب ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سميئا أو صرمانين لشهدها يعني صلاة العشاء * وقال عثمان رضي الله عنه
 مرفوعا ﴿ من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة ﴾ وقال ﷺ ﴿ من
 صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة ﴾ * وقال سعيد بن المسيب ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا
 وأنا في المسجد * وقال محمد بن واسع ﴿ ما أشتهى من الدنيا إلا ثلاثة ، أذا إن تعوّجت قومي ، وقوتا من
 الرزق عفوا بغير تبعة ، وصلاة في جماعة يرفع عني سهوها ويكتب لي فضلها ﴾ * وروى أن أبا عبيدة بن
 الجراح أمّ قوما صرة فلما انصرف قال مازال الشيطان بي آنفا حتى أريت أن لي فضلا على غيره لأؤم أبدا
 * وقال الحسن ﴿ لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء ﴾ وقال النخعي ﴿ مثل الذي يؤم الناس بغير علم
 مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدري زيادته من نقصانه ﴾ وقال حاتم الأصم « فاتننى الصلاة في الجماعة
 فعزيزني أبو اسحق البخاري وحده ولزمت لي ولد عزاني أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون
 عند الناس من مصيبة الدنيا » وقال ابن عباس رضي الله عنهما « من سمع المنادي فلم يجب لم يرد خيرا ولم
 يرد به خير » وقال أبو هريرة رضي الله عنه « لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خيرا من أن يسمع النداء
 ثم لا يجيب » * وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقبل له إن الناس قد انصرفوا فقال - إنا لله وأنا
 إليه راجعون - لفضل هذه الصلاة أحبّ إلى من ولاية العراق * وقال ﷺ ﴿ من صلى أربعين يوما
 الصلوات في جماعة لا تفوته فيها تكبيرة الاحرام كتب الله له براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار ﴾
 ويقال انه اذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالسكوك الدرّ فيقول لهم الملائكة ما كانت أعمالكم ؟
 فيقولون كنا اذا سمعنا الأذان قنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالآبقار فيقولون
 بعد السؤال كنا نتوضأ قبل الوقت ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون كنا نسمع الأذان في المسجد
 * وروى أن السلف الصالح كانوا يعزّون أنفسهم ثلاثة أيام اذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزّون سبعا اذا
 فاتتهم الجماعة

﴿ فضيلة السجود ﴾

قال رسول الله ﷺ « ما تقرب العبد إلى الله بشئ أفضل من سجود خفي » وقال رسول الله ﷺ
 « ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحطّ عنه بها سيئة » وروى أن رجلا قال لرسول الله
 ﷺ ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة فقال ﷺ أعني بكثرة السجود
 * وقيل ﴿ أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا ﴾ وهو معنى قوله عز وجل - واسجد
 واقترب - وقال عز وجل - سيماهم في وجوههم من أثر السجود - فقل هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض
 عند السجود * وقيل هو نور الخشوع فانه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح * وقيل هي الفرر التي
 تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء * وقال ﷺ « اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان
 يبكي ويقول يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار » وروى
 عن علي بن عبيد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجادة * وروى
 أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب ، وكان يوسف بن اسباط يقول ﴿ يا معشر
 الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فابق أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين
 ذلك ﴾ * وقال سعيد بن جبيرة ما آسى على شئ من الدنيا إلا على السجود * وقال عتبة بن مسلم ﴿ ما من
 خصلة في العبد أحبّ إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى
 الله عز وجل منه حيث يخرّ ساجدا ﴾ وقال أبو هريرة رضي الله عنه ﴿ أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل
 اذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك ﴾

هذا نص ماجاء في ﴿ الإحياء ﴾ ومعلوم أن في الإحياء أحاديث ضعيفة ولكن أجاز العلماء إيراد الضعيف في فضائل الأعمال اهـ

﴿ الفاتحة وعلوم الحكمة ﴾

(سانحة يوم السبت ٢٧ يوليو سنة ١٩٢٩ هـ)

لم يكن ليخيل الى يوما ما أن تصبح الفاتحة بالنسبة للقرآن وعلوم أهل الأرض أشبه بفن المقولات بالنسبة لعلوم الحكمة ولكن هذا الخاطر فاجأني اليوم مفاجأة بهجوم عقلي أوجب علي أن أشرحه فأقول
إني لأعلم أن النادر من قراء هذا التفسير يعرفون المقولات لأن المقولات انما جاءت في الفلسفة القديمة والفلسفة القديمة مهجورة بل الذين درسوها من المسلمين ينظرون للمقولات المذكورة نظره إلى مستصعب الامور فهي غامضة المعنى ولكني قد شرحتها في كتابي المسمى ﴿ بهجة العلوم ﴾ في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة وهذا الكتاب تحت الطبع الآن ، وليس هذا المقام مقام الأطناب فيها ولكني سأريها لك الآن بطريق سهل ثم أقفي بعدها بمقاصد الفاتحة وهناك يتجلى لك أن الفاتحة لها حظ من اسمها فهي فاتحة القرآن والعلوم وهكذا المقولات فيها ملخص علوم الحكمة باجماع - كما في الشرق والغرب وهي الآن تدرس في جميع أنحاء أوروبا وللخواص هناك بلغاتهم المختلفة . المقولات هي كلمات عشر وتلك الكلمات العشر يرجع اليها كل علم من علوم الرياضة والطبيعة وسائر العلوم وهي الجوهر والكم والكيف والاضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال

(١) فالجوهر يشمل كل ما زاه من المادة كالانسان والحيوان والجماد والكواكب وهكذا
(٢) والكم يشمل علوم المقادير من الحساب والهندسة والجبر والفلك وعلوم المساحة وهكذا كما أن الجوهر يشمل العلوم الطبيعية جميعها ، فعلم المعدن والنبات والحيوان وطبقات الأرض كلها ترجع للجوهر
(٣) والكيف يرجع الى كل ما نحسه بحواسنا الخمس من الألوان والأصوات والمذوقات والمشمومات والمموسات وهكذا كل ما نحس به في نفوسنا من الجوع والشبع والحزن والفرح والعلم والجهل والأخلاق الفاضلة والأخلاق النازلة وهكذا

(٤) والاضافة كل شيئين يلزم أحدهما الآخر كالأبوة والنبوة وهكذا
(٥) و (٦) والمكان والزمان يشملان علوم الجغرافيا وحساب السنين والأشهر والدهور
(٧) والوضع مثل هيئة الانسان في جلوسه ونومه وهيئة الهواء والضوء والماء والأرض وانتساب كل واحد منها الى الآخر بهيئة خاصة

(٨) والملك مثل كل ما يملكه الانسان
(٩ - ١٠) والفعل يشمل كل مؤثر في غيره كاحراق النار وتبريد الثلج الماء وهكذا والانفعال كاحتراق الخشب وبرودة الماء وهكذا

هذه هي المقولات التي شرحت معناها شرحا وجيزا وقد علمت انهم أجعلوا أنه لا علم من العلوم إلا وهو مندرج فيها ويقولون انها أشبه بالرياض الزاهرات ذات الفصوص والأزهار والأثمار
كلمات عشر عبر بها الحكماء عن جميع العلوم حتى ان الصناعات كلها ترجع الى مقولة الفعل والأمراض والفرح والحزن ترجع الى مقولة الانفعال وهكذا ، فهذه المقولات العشر نظيرها سورة الفاتحة ، وأنت خير أن معاني الفاتحة قد تقدمت عند تفسيرها ، وهناك قد دخلت كل علوم الأمم مثل ان (العالمين) يشمل العالم العلوي والسفلي ولفظ (رب) من - رب العالمين - يشمل كل علوم الترتيبية في العالم كله وهكذا فارجع الى تفسيرها هناك فانك تجد الفاتحة تشمل لجميع العلوم من فن المقولات ، وعليه أصبح المسلم يتلو صباحا ومساء كلمات هي

مفاتيح العلوم . المسلم في قراءته الفاتحة تعبداً وهو غافل عن علومها أو بعضها خير ممن يقرأ المقولات العشر ويقول في كل وقت من الأوقات ﴿ جوهر . كم . كيف . الخ ﴾ وهو لا يعقل معناها ، ولو أن رجلاً أخذ يتلو هذه الكلمات العشر صباحاً ومساءً على مسمع من الناس لعدّوه قليل العقل لأنها غير معقولة ولا مفهومة إلا للنادر من الناس . أما الفاتحة فعناها الظاهر يكفي العابد في عبادته بل توجهه لله بها وإن كان لا يدري معناها كاف في العبادة ، والحكماء حين يتلون الفاتحة يحضر لهم أجمال العلوم كما تحضر العلوم كلها في المقولات العشر . إذن وضع الفاتحة أرقى في جمع العلوم من وضع الفلاسفة . الفلاسفة يضعونها في كلمات لا يعقلها إلا الخواص والفاتحة تفيد العامة عبادة والخاصة تذكرة للعلوم كلها والحمد لله رب العالمين

﴿ لطيفة في قوله تعالى - ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن - الخ ﴾

تقدم في (سورة النحل) عند قوله تعالى - ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن - أن الناس ﴿ ثلاثة أصناف ﴾ صنف هم العامة وهؤلاء لا ينبجع فيهم إلا الوعظ وذلك بما يرغب ويرقق القلوب ويفرحها بضرب الأمثال وذكر الحوادث والمشوّقات والخيفات من الجنان والنييران وما في معناها وصنف هم العقلاء وأرباب الفكر وهؤلاء لا تكفيهم المواعظ بل لامندوحة من إعطائهم البراهين القولية والأقوال الحكمية حتى يستقر إيمانهم ويثبت يقينهم ، وصنف هم قوم لا هم مع العامة ولا مع العقلاء والحكماء وهم أهل الجدل كأهل الكتاب فانهم قوم مقلدون لمفكرين لأن كل من نشأ على دين يعسر عليه الإقلاع عنه فهؤلاء لا تنفعهم المواعظ ولا تقام لهم الحجج وإنما يكون القول معهم باستنباط الأدلة من كتابهم لأنهم عليه يعولون وبه يثقون فيقال لهم ان النبي ﷺ مثلاً ورد ذكره في كتابكم جاء فيه كذا وكذا فهذا هو الجدل فهو حجة لاهي يقينية ولاهي وعظمية بل هي اقناعية تستند لما يعتقد الخصب غالباً ، واعلم أن القائمين بأمر الأمم ﴿ أربعة أقسام ﴾ أنبياء ووعاظ وحكماء وأمرء ، ويانه أن الوعاظ هم الذين لاحكم ولاسلطان لهم إلا على قلوب الجهال والعامة كخطباء المساجد والوعاظ وعلماء الدين المعتادين في الأمم ، فهؤلاء جميعاً لا يؤثرون إلا على قلوب العامة لأنهم يقومون بتذكيرهم بآيات الله بحسب ظواهر الكتاب والسنة والخبار بدون كثير بحث ولا تدقيق والعامة هم مصنفون وعلى قولهم معولون

﴿ الأمرء ﴾

وبعكس هؤلاء الوعاظ الأمرء ، فاذا رأينا الواعظ قد خلب قلب العامي وخضع لقوله واتعظ وليس لهذا الواعظ من قوة جسمية تخينه بل قوته روحية فاننا نرى الملوك والأمرء ورجال الإدارات في الحكومات من قاض وحاكم وجندي فكل هؤلاء لاسلطان لهم إلا على أجسام الناس وظواهرهم لا على عقولهم وأحلامهم ألا ترى رعاك الله أن فرنسا تحكم في تونس والجزائر ومراكش وإيطاليا في طرابلس والآنجليز لهم بعض السلطان في مصر ، ومع هذا ترى هذه الأمم لا تتبع هؤلاء الفاتحين إلا من خوف العقاب ، أما القلوب فانها مع هؤلاء الوعاظ . إذن هنا جسم يحكمه الأمرء وعقل يحكمه الوعاظ

﴿ الحكماء ﴾

فأما قسم الحكماء فهؤلاء قوم خصهم الله عز وجل بنور البصائر وازدياد الفهم وقوة الإدراك وسرعة الخاطر فهم لا يصلحون لتعليم العامة والجهلاء ولا سطوة لهم على الناس فيحكمون أجسامهم بل سلطانهم يختص بالعلماء والوعاظ ، فكما خضع العامة للوعاظ بعقولهم وللأمرء بأجسامهم وظواهرهم هكذا يخضع العلماء والوعاظ للحكماء وهم أولئك الذين امتازوا بسمو المدارك فهؤلاء يقودون بواطن العلماء ويذكرونهم بما نقصهم من العلم ، وهذه الطائفة إن لم يخلقهم الله في أمة فذلك عنوان على ضياعها وهلاكها ، ولقد قام في أمنا الإسلامية من هؤلاء كثير وأذكر منهم العلامة الغزالي بالشرق وابن رشد في بلاد الأندلس فاذا هما المسلمون وأحرق

قوم كتب الامام الغزالي و بصق آخرون في وجه ابن رشد وكفروه . فهذان وأمثالهما انما خلقا لارشاد العلماء فلما آذتهما الأمة وقامت في وجههما أذهبا الله وعوقبت قرونا وقرونا ودخل التتار من الشرق غربوا الدولة العباسية وذهب مجد العرب ودخل أهل أسبانيا الأندلس فأذلوا الأمم العربية وأهلكوهم وفرّ منهم من فرّ ومن بقي تنصروا وهم في نظر القوم مرتدون مذنبون ، ذلك مثل المسلمين السابقين

﴿ الأنبياء ﴾

أما الأنبياء فهم يعظون العامة كالوعاظ والخاصة كالحكام ويحكمون على أجسامهم بالحبس والقتل وغيرهما كالملوك والأمراء . ألا ترى أنه ﷺ أمر أن يعظ كالوعاظ وأمر أن يدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة وهذا شأن الحكماء وأمر أن يحكم بين الناس بالعدل وهذا شأن الأمراء والملوك . كتب ليلة الأربعاء ٣١ أغسطس سنة ١٩٢٩ قبيل الفجر

﴿ جوهره في قوله تعالى - وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به -

وفي قوله تعالى - بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم - الخ ﴾

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذي أنزلت القرآن ، وأنت الذي خلقت أمم الشرق والغرب ، وأنت الذي جعلت هذا القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وعدت بأن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به ، اللهم إنك أنت أنزلت بصائر الأمم الحاضرة المعاصرة لنا وأبرزت في أوروبا أناسا برعوا في العلم وحذقوا ودرسوا الديانات وهم من الذين أوتوا الكتاب الذين ذكرتهم وبعد ذلك أيقنوا بأن القرآن حق وصدق كما وعدت في كتابك ، اللهم إن هذا وحده برهان ، اللهم إنك قد تكفلت بحفظ هذا العالم ونظامه وتكفلت بحفظ القرآن وتكفلت باظهار علماء من أمم أهل الكتاب يؤمنون به ، اللهم إن ظهور ذلك في زماننا أتم الكثرة العلم وانتشار الحكمة ، إذن يجب علينا نحن الذين خلقنا في هذا الزمان أن نذكر المسلمين في أمثال هذا التفسير بما دبحه بعض أولئك العلماء من أوروبا بمصادق القرآن ، فمنهم صديقنا (اللورد هيدلي) الانجليزى الذي ذكرته سابقا في هذا التفسير مرارا ، ومنهم (الكونت هنرى ديكاسترى) ومنهم العلامة (توماس كارليل) فلا تقتصر على نقل نبذ من أقوالهم ، فهؤلاء منهم مؤمنون ومنهم علماء أيقنوا بالقرآن لأنه آيات بينات في صدورهم وليكن ذلك في ﴿ ثلاثة فصول ﴾

﴿ الفصل الأول ﴾

في الكلام على صديقنا (اللورد هيدلي) الانجليزى رئيس الجمعية البريطانية الاسلامية في كتابه المسمى (ايقاظ الغرب للاسلام) الذي لقب بحضرة (سيف الرحمن رحمة الله فاروق) وقد ترجمه اسماعيل أفندى حلمى البارودى العضو بالجمعية البريطانية الاسلامية وهذا نصه

﴿ مقدمة ﴾

لكي أقدم الصحائف المقبلة الى القراء لا أجدا خيرا من إعادة نشرى هنا لمقالة صغيرة من قلمى ظهرت في إحدى جرائد (لوندرا) الأسبوعية في نوفمبر سنة ١٩١٣ وهذا نصها

ظهرت في جرائد عديدة قطع تشرح معتقدي الدينى وانه لييهجنى أن أرى أن كل ماوجه الى من الانتقاد لغاية الآن لم يكن إلا بلطف متناه ، انه لا ينتظر أن تخرج خطوة معلومة عن خط سير ماألف دون أن تستلفت النظر . ورد لى في أحد الأيام خطاب من أحد المسيحيين المتدينين يخبرنى فيه بأن الدين الاسلامى انما هو دين لذة وأن النبي ﷺ كانت له زوجات عديدات وأن ذلك قاعدة في الاسلام فما أغرب هذه الفكرة عن الاسلام إلا انها فكرة راسخة في عقول تسعة وتسعين فى المائة من البريطانيين الذين لم يعنوا ببحث الحقائق الواضحة لديانة ماينوف عن مائة مليون من رعاياهم ولودرسوا تلك الديانة لتبين لهم أن نبي بلاد العرب ﷺ

كان مشهورا في كبح النفس عن الهوى وردّها عن الشهوات وكان مخلصا لزوجته الوحيدة (السيدة خديجة) التي هي أكبر منه بخمس عشرة سنة والتي كانت أول من آمن برسالة السماوية و بعد وفاتها تزوج بالسيدة (عائشة) وقد تزوج أيضا ببعض أيامي متبعيه الذين استشهدوا في إعلاء كلمة الله وذلك لبدافع الشهوة بل لكي يعولهنّ ويمنحهنّ مساكن وينزلهنّ منزلة ما كنّ ليحصلن عليها لولاه (يقول مؤلف هذا التفسير وسيوضح لك هذا المقام في سورة الأحزاب)

نحن معشر البريطانيين نحب بأننا نحب العدل والانصاف ، ولكن ماذا أعظم جورا وحيفا من الحكم الذي يصدره كثير منا على الدين الاسلامي دون أن يجتهد أو يحاول أن يعرف ولو مجالا بسيطا من عقائده حتى انهم لا يفقهون معنى كلمة الاسلام

إنه من المحتمل أن يظنّ بعض من أصدقائي أنني قد غلبت على أمرى أو تسيطر على المسلمين إلا إن ذلك ليس بحقيقي لأن اعتقاداتي الحالية ماهي إلا نتيجة بحث سنوات عديدة وإن كانت مناقشاتي الحقيقية مع متعلمي المسلمين في موضوع الديانة لم تبدئ إلا منذ زمن قريب ، واني لمحتاج الى القول بأنه قد غمرني الفرح عندما وجدت أن كل نظرياتي واستنتاجاتي كانت مطابقة مطابقة تامة للاسلام . إن أخى خواجا كمال الدين لم يحاول بتاتا أن يتسلط على فؤادي ولو قليلا فإنه كان شائما مثال الأمانة والصدق إذ قد شرح لي في ترجمة القرآن الكريم الذي ما استطعت أن أفهم معناه من الترجمة المشوهة المنتشرة بين المسيحيين فأنا من هذه الوجهة المحجة الواضحة التي تسير فيها (جمعية التبشير الاسلامية) فاهما احتالت ولا خدعت أحدا قط فاهداية كما جاء في القرآن الشريف يجب أن تكون بمحض الرغبة والاختيار ومن تلقاء النفس ، لذا لم يرتكب خواجا كمال الدين أى صفة من صفات الاحتيال والخديعة ، وقد أراد عيسى نفس تلك الصفة عندما قال لحوارييه « وكل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فاخرجوا من هناك وانفضوا التراب الذي تحت أرجلكم شهادة عليهم »

وقد علمت أمثلة كثيرة جدا من (البروتستانت) المتعصبين الذين ظنوا أن من واجباتهم أن يغشوا بيوت الرومان الكاثوليك فيحتالوا على من يقطنها لنقله الى دينهم ، ومثل هذا العمل المثير الذي لا يليق بكرامة جار هو طبعاً عمل كرهه جدا أدى الى اثاره العواطف وايجاد النزاع الذي جرّ عليهم الازدراء والاحتقار واني لأتألم جدّاً ألّم عند ما يعرض لفكرى أن أولئك المبشرين المسيحيين حاولوا ذلك مع المسلمين أيضا وإن كان لا يوجد هناك باعث يدعوهم الى هداية هؤلاء الذين هم أصحّ منهم مسيحية وأفضل منهم أنفسهم في مسيحييتهم وقد عجزت تماما عن أن أعرف لم فعلوا ذلك ، اننى لم أقل أصحّ منهم مسيحية جزافا بل بعد اعمال العقل والروية لأن المحبة والألفة والتسامح في الدين الاسلامي أقرب جدا لما أنى به المسيح مما عليه رجال المسيحية في الكنائس المتنوعة ، خذ مثلا العقيدة (الانانسيانية) التي تختص بالثالوث بحالة مشوشة لا يقبلها العقل ترأه من الواضح جليا أن هذه العقيدة المهمة عندهم للغاية والتي تعتبر إحدى العقائد الرئيسية للكنيسة تمثل المذهب الكاثوليكي وانا اذا لم نعتقد بها نهلك هلاكاً أبدياً وهكذا نؤمن بوجود اعتقاد الثالوث إن أردنا الخلاص أو بطريقة أخرى نقول إن الله رحيم وقادر على كل شئ وفي الوقت نفسه نهمه بالظلم والقساوة اللذين لا نستطيع ولا نرضى أن ننسبهما الى أنظع سفاكي الدماء من الظلمة الآدميين كأن الله الذي هو أمام الجميع وفوق الجميع يتغلب عليه اعتقاد مخلوق ضعيف فان في الثالوث

هنا مثل آخر يدل على عدم وجود الحسنى لديهم ، وصلى خطابا مناسبة اتجأهي نحو الاسلام أخبرني فيه كاتبه بأننى اذا لم أعتقد ألوهية المسيح لا يمكننى الخلاص . إن مسألة ألوهية المسيح ما ظهرت لي قط انها مهمة ، هل أرسل المسيح رسلا من البشر برسالات إلهية ؟ لو كان عندي الآن أى شك في تلك النقطة الأخيرة لآمنى ذلك جدا إلا اننى أشكر الله سبحانه وتعالى لعدم وجود هذا الشك وأنعمش أن يكون اعتقادى في المسيح وتعاليمه ثابتا

جدا كاعتقاد أى مسلم أو مسيحي حقيقى آخر لآنى سبق لى أن قلت صرارا أن الديانة الاسلاميه والديانة المسيحيه كما علمت بالمسيح نفسه هما أختان ولم يفصلهما عن بعضهما إلا المذاهب والاصطلاحات المسيحيه فقط التى يمكن الاستغناء عنها بكل سهوله وارتياح .

يميل الناس فى هذه الأيام الحاضرة الى الكفر والإلحاد عند ما يطلب منهم أن يعتقدوا هذه المذاهب والعقائد التى لاتفهم وهناك بلاشك رغبه واشتهاء الى ديانة تقبلها العقول والميول ، فمن سمع بمسلم ارتد الى الكفر والإلحاد ؟ ربما كانت هناك حالات من هذه إلا اننى أشك جدا فيها . إننى أعتقد أن هناك آلافا من الرجال والنساء أيضا مسلمين قلبا ولكن يمنعهم خوف الانتقاد والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشئ من التعبير تأمرا على منهم من اظهروا معتقداتهم . اننى خطوت هذه الخطوة ولوانى أعلم علم اليقين أن كثيرا من اخوانى وأقاربى ينظرون الى الآن كروح ضالة ويصلون من أجلى ، إلا انى لست فى الحقيقة فى اعتقادى اليوم إلا كما كنت منذ عشرين سنة تماما ولكن صراحتى فى القول هى التى حرمتنى حسن ظنهم بى

الآن وقد شرحت بعضا من الأسباب التى جعلتنى أتبع الدين الاسلامى وقلت إننى أعتبر نفسى الآن إنى أصبحت باسلامى مسيحيا أفضل مسيحية مما كنت عليه من قبل ، فأمل أن يتبع الآخرون مثالى ويعتقدون أحقية الاسلام الذى أقر بكل شهامة ونفرا أنه أصح الأديان وأنه ستصل السعادة لأى امرئ ينظر الى هذه الخطوة خطوة متقدمة لا خطوة مضادة للمسيحية الحققة بأى وجه

﴿ سلم الاسلام ﴾

ينظر فى هذا العصر للديانة كأنها شئ مزعج والناس إما ملحدون وإما متبعون اتباعا أعمى لصفوف عقائد من الأفكار التى لاتقبلها عقولهم وتقاومها ، إلا انهم يعترفون بها ظاهرا لأنهم يظنون أن ذلك هو خير لهم وأنه يؤدى المطلوب . أكد لى رجل من أحسن الرجال الذين عرفتهم (زوج فاضل ووالد) انه ملحد ولا ينظر لشيئ غير فناء الخليقة ومع ذلك كان سعيدا جدا ولم أجد بوسعى شيئا أستطيع أن أعمله معه ويكون له أقل تأثير فى تغير معتقده الفظيع . وسمعت برجل آخر أخذ الديانة بروح فرحة جدا وكان غنيا للغاية ، ناقشه صديق له يوما من الأيام فى أسلوب حياته المحلول وسأله ألم يفكر قط فى الحالة المستقبلية وفيما ستكون عليه نفسه فى الحياة الثانية فأجاب كلام أعجب نفسى وراء هاتيك الأشياء ؟ اننى أدفع لطبيبى كذا فى السنة ليعتنى بصحتى الطبيعية وأعطى الكاهن نحو ستمائة جنيه فى السنة ليعتنى باحتياجائى الروحية ، فلم إذن أصدع رأسى ، وهذا الرجل كان مسرورا أيضا بطريقته وتوفيق لأن يدفع مبلغا معيننا سنويا لينجوا من التفكير ومن كل ما يشغل رأسه أو يتعبه . اذا كان يمكننا فقط أن نجد فكرا قويا خاليا من العقائد لىكى ينتخب لنا الدين الحق الذى يجب أن نبعه تكون تلك خطوة عظيمة جدا نحو الاتجاه الصواب . اننا اذا ذهبنا الى القسس والرهبان أو غيرهم ممن يقدمون أقوالا توافق مشاربهم لانجد لديهم أى مساعدة لأن العقائد أو المذاهب المتعددة تناقض بعضها على خط مستقيم . خذ مثلا الكنيسة المسيحية فقط تجد بها أن الارشادات السماوية التى تدهش وتحير العقول تختلف عن كنيسة انكلترا وكنيسة روما وهما مختلفتان أيضا حتى اننا نخرج من ذلك بلا فائدة أصلا . إذن فكل ما نرغبه هو مساعدة بعض المتفرجين خارجا عن هؤلاء وهؤلاء ومن الغير متمهين الذين عندهم فرص وقدرة على التأمل والتفكير الذين ليس لهم أى صالح أرباح من وراء إبداء رأيهم بصراحة وشرف . كل ما نريده فى الواقع هو دين يعرف ويؤيد قوانين المملكة لأنه فى هذه الأيام أصبحت القوانين مما يحجب السخرية والضحك وهناك فى الخارج شعور وبيل مبك من كل أشكال المظالم والجرائم تقريبا . ضعوا هناك عدلا تاما فى الديانة لأن سلسلة المملكة الفقيرة لانت من وضعها فى هذا التظاهر بالشفقة والحنو الذى لاهو انسانى بأى حال ولا هو خليق بأن يرقى أخلاق الأمة . ما لرجة إلا سفك دماء عند ما تكون سببا فى العفو عن القتل ، يطبق ذلك على هذا الميل

لارتكاب الآثام ، واننا وان كنا نشعر بحزن عميق من أجل الجرم الذي جعلته تربته والبيئة الحظيرة التي نشأ فيها يسبب لنا التعب والشغب إلا انه يجب علينا أن نعاقبه لنمنع الآخرين ولنمنعه من العودة . انه لمن أقطع الأعمال أن ندير له الخلد الآخر ، نعم إن ذلك لمريع جدا لأنه يشجع الشريرين على السير في تيار جرائمهم بينما يتألم باقي أعضاء المجتمع من سوء استعمالنا للرحمة ، اذا لم ألك محظوظا فالعدل اللين الممزوج بالماء (المغشوش) الذي يوزع في هذه الأيام في هذه المملكة مسؤول عن نصف الشرور التي نشكو منها بمرارة زائدة وانه لخير لنا أن نرجع الى (قانون الثارات) القديم عن أن نسير فيما نفعله الآن

لا يمكننا بتاتا أن ننظر للمسيح كمشرع أو واضع قانون فانه لم يستن للعالم إلا سننا ونواميس ودبعة ظريفة حالة أن ابليس الذي يتمشى اليوم لا يمكن قعه بأجوبة ناعمة وإدارة الخلد الآخر له فيجب إذن أن نتخذ أشد الاجراآت مع كل رسل الشر

كان موسى مشرعا وواضع قانون ، وكان محمد مشرعا وواضع قانون ونحن الآن في احتياج شديد الى بعض من العدل المطلق الثابت للنبي المقدس (محمد) . انه أى القانون والتشريع الاسلامي شديد إلا انه خال جميعه من توحش انتقام العهد القديم

تعاقب الحكومات الحزبية التي عملت لازدياد القوة لالصالح الأمة أوقعنا في هذا المأزق الذي لا يمكننا فيه ولوأن نعتنى ونحفظ نظام نسائنا ، حتما انها لحالة مفجعة لنسل سادة البحار ووطني أعظم امبراطورية رؤيت في العالم . قوانيننا حسنة إن هي نفذت وعمل بها . الخضوع الى الرذيلة يقود الى أكبر منها . لا نريد الرجوع الى طرق التعذيب من أى صنف أو القضاة ، ولا نريد أن نريق نقطة واحدة من السماء لنسكركه الناس على قبول آرائنا في الدين أو السياسة بل نرغب أن نرى القوانين مطاعة والعدل مكيلا للجميع

اننى لأعتقد اعتقادا راسخا بأنه لو اتبعت الشريعة المحمدية التي أتت في القرآن بعناية تامة ودقة لأصبح من السهل جدا حكم الشعب ولا يكون ذلك غريبا ما دام أكثر من نصف رعايا جلالته في ملكه الشاسع هم من المسلمين . مرة العصر الذي كان يمكن أن يجتهد فيه لاقامة أى دين بقوة الأسلحة . إننى لمتأكد من أن المسلمين أولئك القوم المتشبعون بالاخلاص والوفاء محاولوا قط أن يقيموا الدين الاسلامي بالطرق الغنيقة . الفتنة والتروء يحترمهما القرآن ولا إكراه في الدين في إحدى مبادئ الدين الاسلامي

لفت الأذهان واصغاء الآذان هو كل ما يرغبه المسلمون وانى لمتأكد من أنه اذا فهم رجال انكثرا تماما المعنى الحقيقي للاسلام (العقل والتمييز والاتجاه الى النهى والشعور) لسعوا في أن يخفوا سوء فهمهم المخجل السائد في الوقت الحاضر

ينظر الاورو بيون دائما الى الاسلام كأنه وحشية وهمجية فلو علموا كل ما فعله محمد ﷺ لازالة التوحش والهمجية التي لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالا . انهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعا في تحريف الديانة الاسلامية وان هذا لأعظم الكذب الذي يخزيهم وان كانوا ليظنون أن ما يفعلونه حسن ، فما أعظم الفرق بين الطمس التعمدى للحقيقة وبين الحالة التي يسير عليها المبشر المسلم في عمله كثيرا ما أزعجت الهيئات الحاكمة في هذه المملكة لقبول طلبات الهيئات الدينية ، فكنييسة إنجلترا وكنييسة الرومان الكاثوليك وحزب المعارضين وكثير غيرهم معتبرون جدا لأنهم ذوو نفوذ عظيم ولازال السكل يقولون هل من مزيد ، ولكن ليست هناك (بأقصى ما يمكن للانسان أن ينظر) أى فصيلة دينية من الفصائل المحمدية تطلب أى سلطة دينية إذ عظمة الاسلام أرفع من أن تتسيطر عليها مثل هذه الاعتبارات الدينية ، وكل متبع اتباعا حقيقيا للنبي العظيم يتطلع الى جزاء أرقى بكثير من الغنى والفوائد الدنيوية كرقى ضوء الشمس عن ضوء الفوسفور . ليس هناك باباوات ولا أساقف ولا رهبان ولا قسس يطلبون هبات أو أرباحا لأن الله نفسه هو رأس

هاتيك الفصائل الروحية . أنبأ التاريخ أن الكنائس المسيحية تطالب دائما بشدة أن يكون لها سلطة دنيوية ويمكننا هنا أن نشير الى بيع المظفرة وتوزيع المعاشات الدسمة بدون جور أو حيف كي نبين فظاعة الأحوال المريعة التي كان يجب أن تكون أفضل ما تطمح اليه النفس ، وكيف اختلطت باعتبارات المكاسب دنيوية محضة سافلة . إننا لانذهب بعيدا اذا قلنا بأن القسط الأوفر من هؤلاء الذين يزعمون بأنهم مسيحيون يعتبرون أن الديانة هي محض نظام أيام آحاد محترمة وحسنة لأنها تقدم لهم فرصا استثنائية لعرض أحسن ملابسهم وأزيائهم والتسكك عن جيرانهم ، وهذا الدين العجيب ينوى أخذهم الى بعض من الجنة ، ويتوقف مركزهم في هذه الجنة على المبلغ المدفوع على نظام دخول الناس دور التمثيل تماما ، يجلسون بأجرة معينة في الألوام والطابق الأول وبأجرة أخرى في الصالات والكراسي الخ

معظم ديانة الغرب ماهي في الواقع إلا نتيجة خرافات القرون الوسطى وبقايا العصور المظلمة ولا تتفق مع تعاليم موسى أو المسيح ، ففي تلك الأوقات المظلمة المكفهرّة بين القرن الثالث والقرن الخامس وبعد ذلك عند ما كانت أوروبا ميدانا شاسعا للصراعات يتبارى فيه الرجال المتوحشون ومن طبعوا على حب القتال مع بعضهم ونشروا الرعب والدمار في كل الجوانب وكان الحكام العظام للمالك كبارونات ولوردات انكثرا رجالا مشهورين بالمهارة في استعمال السيف وبلطة الحرب واحكام الدفاع عن أملاكهم وعقارهم وبيوتهم أكثر من شهرتهم في التعاليم والتهذيب وكانوا لأجل أن يحفظوا ادارة ونظام شؤونهم الداخلية يستخدمون الكتبة والا كايروس الذين كانوا بتعليمهم العالي قادرين على أن يجعلوا لهم نوعا من الوكالة على هذه الممتلكات وأن يحفظوا سجلات الحوادث الجارية الخ

أصبح هؤلاء الا كايروس بعد مضي مدة من اللوازم الضرورية التي لا يمكن لهذه الممتلكات الشاسعة أن تستغنى عنها وأصبح لهم سلطة عظيمة وسلطان قوى وسنحت لهم في ذلك الوقت فرص زادت سلطانهم باستعمالهم أسرار المجهول لدى البارونات أو اللوردات كتركز عتلة وضعوا عليه عتلات طويلة وتلك العتلات هي الرعب من جهنم والخوف من العقاب المستقبل ، نقل تلك المربعات بينهم بمهارة فائقة أحدث في عقول السذج شعورا لا يمكن ازالته من الهلع الذي كان مع ذلك يلفظ ويخفف بالتأكيدات من أنه باعتناق شكل معين من الدين وابتلاع بعض عقائد وضعت بكم زائد ينال الخلاص ولكنه اخترع بوجهه ما أن الطمأنينة التامة بخصوص النجاة والمركز العالي في الآخرة لا ينال إلا بالعطايا الفاخرة جدا للكنيسة وهذه العطايا أخذت شكل منح واسعة من الأراضي والقصور والابرشيات وهبات عظيمة ، ومن هنا ترى أن ولادة وابتداء الكهنوتية والقسوسية وطالب السلطة الدنيوية المقصودة قد عرف من ذلك الوقت ، فنجى محمد بهذا المسيح بستمائة سنة تقريبا كشف عن عدم صحة مثل هذه الأفكار كالتفكير والتوسط الكهنوتي والتوسل الى القديسين وكل هذه الطرق الملبكة المحتوى عليها التقرب من المولى جلّ وعلا

مهما كانت عظمة الشرائع الموسوية ، ومهما كانت ظرافة ورقة تلك المبادئ الصفوحة التي آتى بها نبيّ الناصرة (عيسى عليه السلام) يجب أن يعرف أن الشريعة المحمدية التي احتوت على الرسالة السامية تغلب بتذليلها كل العقبات التي تقف في طريق السالك الى الله

هناك آيات في القرآن لا تترك شكاً في معناها وتطبق على جميع هؤلاء الذين يدخلون في دائرة السيادة الكهنوتية ويتخذون مخلوقات بشرية لارشادهم - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون - وقال - يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله -
ديانة المسيح ليست تماماً ، ديانة (سانت بولس) الذي أضاف إليها وغيرها تغييراً فاحشاً وقد ترجت هيئات

مختلفة هاتيك التعاليم وغيرت فيها من وقت لآخر ، وليس هناك في الحقيقة تناسق في تلك المسيحية المزعومة ولكننا نجد في الاسلام ما يكفي رغبات المخلوقات من الاتصال بالخالق مباشرة ، الله الموجود أبدا القادر على كل شئ والحافظ لجميع المخلوقات ، ليس هناك في الاسلام إلا إله واحد نعبد ونقبحه ، إنه أمام الجميع وفوق الجميع وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، انه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من العبادة فيسهلون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ورؤية أبيهم القهار المتصل دوما بكل مخلوقاته سواء كانوا عاديين أو أولياء مقدسين ، مفتاح السماء موجود دائما في مكانه ويمكن إدارته بأذن وأقل المخلوقات دون أى مساعدة من نبي أو كاهن أو ملك ، انه كالهواء الذي نستنشقه مجانا لكل خلق الله ، أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك مادعاهم الى هذا العمل إلا حب الفائدة كالرواتب ومعاشات القسس أو بعض فوائد دنيوية أخرى ، ليس غرضي الرئيسي أن أهاجم أى فرع معين من فروع الديانة المسيحية لأبين جلال وسلاسة الديانة الاسلامية التي هي خالية في نظر الكاتب الضعيف من العوائق الظاهرة جليا في كثير من الديانات الأخرى

إن الدين مسئول عن كثير من الآلام والفظائع وسفك الدماء وتلك حقا حقيقة مبكية ، أيمن إن أن يوجد دين يمكن العالم الانساني من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقي الذي هو فوق الجميع وامام الجميع بطريقة سهلة خالية من الحشو والتبليغ ؟

فكر لحظة وذلك التفكير لازم اكمال البشر في الحقيقة ، انه اذا أصبح كل فرد في الامبراطورية الانكليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه أصبحت ادارة الأحكام أسهل من ذلك لأن الناس سيقادون بدين حقيقي ولن تبقى هناك جماعات كنائسية ولا منشقون كي يوفق بينهم ولا ضرائب ثقيلة تدفع للمرور في الطريق الموصل الى الفردوس . إن الديانة كما جاء بها موسى والمسيح ومحمد سهلة جدا إلا أن الخلط الذي أتاها من الآخرين الذين سعوا في أن يحسنوا الوحي الإلهي جعلها معقدة يرتبك ويأس منها من يستعمل عقله في السعي وراء الحقيقة بجهد ونشاط . استفز صنف من أصناف هذا الدين الحروب الصليبية التي ضحى فيها أسلافنا عشرات الآلاف من الأرواح البشرية ، فلم ذلك ؟ معركة معيبة نشبت من أجل ضريح يعتقد أن المسيح وضع فيه مدة وجيزة ، هل كان يستحق ذلك أى اهتمام ؟ وصنف آخر من أصناف هذا الدين علمنا أن نعذب كل من يخالفنا ولو على أقل نقطة من نقط هذا الدين وأن نحرقهم أحياء ، هل يستحق ذلك أى اهتمام ؟

وهناك صنف آخر من أصناف هذا الدين وهو شائع ومعلوم للجميع ، ذلك بأن هؤلاء المتعصبين الشديدي التعصب (القسس) يتكلمون على تابعيهم بالهلاك الأبدى اذا لم يتبعوا آراء مذهبية معينة ، فهل يستحق ذلك أى اهتمام ؟ أتريدون أن تتصفوا بضد الاحسان الذي هو أبغض شئ عند الله رب الرحمة والذي يلعبه كل من المسيح ومحمد الى حد ليس له نهاية * قال الجنرال غوردون * لم أر طبقة الفريسيين بين المسلمين الذين لا يتخذون كل ما يتخيلونه أو يسمونه بياهم كما يفعل فريسيونا من الحكم على زيد أو عمرو بأن نصيبه النار ، إنك لا ترى منهم أبدا عدم الأنس والبشر الذين تراهما من فريسيينا *

إن (غوردون) عاش طويلا في الشرق ولم يفلت جلال الشريعة الاسلامية من ملاحظته الدقيقة ، ولا شك في أنه عند ما كتب ماتقدم كان يشعر حقيقة بأن هناك إحسانا مسيحيا حقيقيا عند المسلمين أكثر مما هو عند المسيحيين أنفسهم في بلادهم ، وكتب (غوردون) أيضا بنفس هذه الروح ما يلي

« ليست هناك سلاوى في العالم أوراحة تعادل تلك التي يملكها من لا يعرف غير الله مدة بقائه ولا يؤمن بالأقوال بل يؤمن بالحقائق وأن كل الأشياء دبرت لتحدث ولا بد من حدوثها ووقوعها ولكن كل هؤلاء الذين كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد قد ماتوا وتخاصوا من هذه الحياة المتعبة »

واجابة على ما تقدم يمكن أن يقال بأن الأفكار الشرقية لا تتحدد مع الآراء الغربية ، ولا يمكن أن يقال أن بينهم أى امتزاج وأن محاولة حكم الشعوب الشرقية للشعوب الغربية حينما اعترف بديانة شرقية وتسيطر هذه الديانة على عقول الرجال وأفعالهم لم تكن لا ثقة وكانت خارجة عن المقصود ، والمؤلف يريد أن يشير الى أنه مضى ألفا سنة تقريبا وكل مملكة في أوروبا محكومة بديانة الشرق أى اليهودية والنصرانية . روح الاسلام تخلق فوق أشياء أرقى وأرفع من تلك الأطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية في الشرق والغرب ، وإذا كانت المسيحية الشرقية التي علمت بنبي الناصرة العظيم قد سارت سيرا حثيثا في إضاءة طريق العالم الانساني ، فلماذا لا يستمر الدين الاسلامي الأوسع والأسهل (كما أتى به النبي العربي الكريم) في أعماله الحسنة مادام ليس هناك سبب جوهري يمنع ذلك

هناك شبه عظيم بين أخلاق الأنبياء كما يتضح لسكل باحث في حياة محمد كما ان دراسة دقيقة للقرآن تظهر أنه حقا ليس في الاسلام شئ يتعارض مع الديانات السابقة وارشادات وشرائع محمد كما جاءت في الكتاب تقوى وتعزز تعاليم الانجيل تعزيزا تاما وتوسعها حتى تلائم حاجات الزمن الحاضر . إنه لمن الجور أن تحكم على رجل لا تعرف عنه شئ كما انه من الظلم أن تفعل ما يفعله تسعة وتسعون من المائة من المسيحيين الذين يحكمون على الدين المحمدي دون أن يبحثوا حتى ولو عن معنى كلمة (اسلام) فقاعدة ترك الامور تأخذ مجراها هي شعار هؤلاء الذين لا يريدون أن تنار عقولهم لأن إنارة عقولهم معناها عندهم تعب وازعاج فيفضاون أن يظلوا يتخبطون في ديجور العمى والظلام عن أن يمدوا أيديهم ليفتحوا الباب الموصل الى النور . ما حصلت عليه فيه الكفاية لي لا أريد أن أنظر لشيء آخر . ذلك ما يقولونه رافضين أن يبذلوا أى مسعى ليتقدموا حتى ولو في معرفة الله ورسالاته للجنس البشري

من عدة سنين خلت كان أحد أفكاري الرئيسية هو « كيف يمكن الاسلام أن يتغرب (يصبح غربيا) حتى يمارس بالأمم الأوروبية ؟ » أو (بعبارة أخرى) كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعد أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الاسلام الحقيقي ؟ ثم تلا ذلك فكر آخر وهو « كيف اتنا لم نشك من جنسية المسيح الذي نعتقد انه كان أسيويا محضا ؟ كانت أمه العذراء مريم أسيوية وكان موسى وكل الأنبياء الموحى اليهم شرقيين وكان النبي الكريم محمد ﷺ شرقيا مثل الآخرين وأنزلت عليه الشريعة من الله ، فالقرآن هو من كلام الله عز وجل كما كان الانجيل وباقي الكتب المنزلة الأخرى وهو القرآن يثبت ويحق الكتب المقدسة الأخرى والوحى السابق . القرآن يضيف تعاليم أخرى تؤكد أهمية تلك التعاليم الماضية وفوق ذلك فهو يحرم كل أنواع العبادة الوثنية وروح الوحى هي أن لا يقرن اسم الله القوى العليم الرحيم بأى اسم آخر

روح الشكر هي خلاصة الدين الاسلامي والابتهاال أصل في طلب القيادة والارشاد من الله . انه وان كان شكري لله على كرمه وعنايته كان متأصلا في من صغرى وأيام حداثي إلا أنني لأستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التي قرع فيها الدين الاسلامي لى حقا وتملك رشدى صدقا وأقننى نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة في عقلى وفؤادى إذ التقيت بسعادة وطماأينة مارأيتهما قط من قبل ونجوت من العقائد الغربية المتعلقة بسائر فروع الكنيسة المسيحية المختلفة واستنشقت تلك النجاة كما أستنشق هواء البحر الخالص النقي وبتحقيق من سلاسة وضياء وعظمة الاسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم الى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار

عند ماقررت نهائيا أنه لا يمكن الحصول على أى راحة من التعليمات السكهنوتية أتنى الفكرة بأنه من المؤكد أن الله يلاحظ ويدبر كل ارادة وكل حركة وعمل . انه يفعل ذلك حقا إلا أن التعليمات المجموعة من صحائف القرآن مكنتني من أن أفقه معنى تلك الفكرة المريحة راحة عجيبة بطريقة كانت تستحيل على سابقا

إذا كانت كل حركة في الحياة لا تحركها إلا القوة الإلهية تكون هناك راحة حقيقية لا هؤلاء ، المتألمين والمعاقين عن السير في هذه الحياة فقط بل وهؤلاء الذين ذهبوا أنفسهم حسرات على أعمالهم العديدة الشيطانية والجنونية . كل هؤلاء الذين أتوا أعمالاً سيئة يجب أن يؤملوا في أن الله بحكمته غير المحدودة وجلاله سيجعلهم مثلاً للآخرين كي يريهم ما يجب أن يفعلوا عنه . إنه لفكر مخيف إلا أن المؤمن الحقيقي يواجه كل محنة وخزي وانحطاط في الدرجة في سبيل المولى عز وجل

روح الاسلام تشير الى خلاص البائسين والتعساء والشريرين إن تبنا وأطعنا وتركنا الشرور والآثام وسعينا في مساعدة المخلوقات بكل ما في وسعنا حتى بين الآلام العظيمة يجب علينا أن نكون مسرورين جداً بأن جعلنا الله واسطة للارشادات السماوية

دعنا التعصب الديني الأعمى الكنائس المسيحية في تنافسها إلا أن ذلك لا يمكن أن يقال عن الاسلام الذي هو كتلة متحدة ، فما أحسن ذلك إذا كنا نحن معشر الغربيين نهجر في هذا الوقت تلك الأصناف الدينية الملبكة وتتخذ الدين الاسلامي

منذ سنين مضت وجد عند حكام إحدى الأمم المتنورة جداً في الشرق الأقصى شك كبير فيما إذا كانت طريقة الدين التي يتبعونها صحيحة أم لا ، لذا عينوا رجالاً عقلاء مخصوصين ليدرسوا كل الديانات الرئيسية في العالم ويضعوا تقريراً عنها ، فكرر الرجال الحكماء وتشاوروا وفعلوا كل ما يلزم ثم وضعوا النتيجة بأن ديانتهم هي حسنة كباقي الديانات الأخرى ، لذا ليس لديهم أي ميل لينصحوا بتغييرها

انني لأعتقد اعتقاداً راسخاً أنه إذا اتبع هذا الرأي وكلف أحسن الأذهان وأنبه العقول الأوروبية بالبحث عن دين مبني على الاعتبارات الدنيوية والعقلية ولا يخرج عن الوحي السماوي الذي أتى به الأنبياء ما وجدوا باجماع الآراء غير الاسلام ديناً فسهولته وعظمته مما لا يختلف فيه اثنان

أليست هذه من أعظم النعم أن تسنح لك الفرص بأن تهتق ديناً يتفق والحجج ويرضى القواد والضمير ورغبات المرء الداخلية كما أنه خال في نفس الوقت من القسوسية والكهنوتية وباقي التليكات الأخرى ؟

لازال يعيش على ظهر هذه البسيطة في كلا الشرق والغرب هؤلاء الذين اتضح لهم الوحي المؤسس لحقيقة الدين الاسلامي وتعاليمه بأوضح وأجلى معانيه ، وربما كان الوقت الذي يريد الله أن يتضح الوحي فيه وينجلي لكل عباده الموجودين في هذا العالم ليس بعيداً إلا أن ذلك يختص بهداية المولى سبحانه وتعالى لأنه لا يوجد من يعرف الميعاد . الكنائس المسيحية الكثيرة تناقض إحداها الأخرى مناقضة عظيمة ومعاملها هونها (كهنيتها) وضعوا عقدة التعاليم المسيحية التي لا تحل ووضعوا تلك العقائد التي تدهش العقول دهشة عظيمة حتى أن العقول السليمة الصافية والقلوب المبصرة تتوق الى دين مفهوم مقنع وسهل غير معقد

مذاهب الكنيسة المسيحية سواء كانت رومية كاثوليكية أو بروتستانتية طردتني منذ طفولتي وانني لأعرف إذا ما كانت عدم ثقتي وأنا غلام صغير بهذه العقيدة كما وضعت بسانت اثناسيوس أقل قوة من ازدرائي واحتقاري اليوم لهذا الرجل الذي يضع القوانين من أعلى منصة الخطابة ويحكم على الملايين من الرجال بالهلاك الأبدي لأنهم لا يوافقونه ، وقد ظهر لي دواما أنه من المهم جداً أن السادة الأشراف المتعلمين إذا أرادوا أن يدخلوا الكنيسة يجب عليهم أن يشتركوا بسرور وابتهاج في التسع والثلاثين مقالة الخيفة وهم يعلمون في قلوبهم أنهم لا يستطيعون أن يصدقوا نصف ما يضعون أسماءهم تحته

فكرت وصليت أربعين سنة كي أصل الى حل صحيح والرأي السائد عندي هو أن كل تراكيب هذا الدين المزعوم هي من عمل الانسان لا من عمل الله ويجب على أن أعترف أيضاً أن زيارتي للشرق ملأتني احتراماً عظيماً للدين المحمدي السلس الذي يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لاني أيام الآحاد فقط

الاسلام دين السهولة العظيمة ، انه يرضى أشرف رغبات النفس ولا يناقض بأى حال من الأحوال تعاليم موسى أو المسيح عليهما السلام . انتهى الكلام على الفصل الأول

﴿ الفصل الثاني فيما ذكره العلامة الكونت هنرى دى كاسترى ﴾

(مقدمة)

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى فى ولاية (حوران) بين زرقوم وسجيرة وخلفى ثلاثون فارسا كريما من أولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات لأن حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها وتجعل بعضها اذا مسه التالى يصهل صهيل الفيظ ثم يلفت وجهه الى الوراء ويضرب بأرجله فى الهواء وعماقليل تسكن ثورته وتعود الجياد الى خطاها مطمئنة يسير أمام السكل حاد على فرس عظيمة بيضاء لا يهدأ لمرآها ساكن الجياد وهو يترنم بما ينعش الجلع من كلام أغلبه مديح فى كاتب هذه السطور فكنت فيهم كساطان يتسابق كل واحد من حاشيته الى ارضائه باستعمال ما حفظ الشرق من أسرار الانحطاط النفسى فى مثل تلك المعاملات وكنت أصغى الى أشعارهم ساعات متتابة بغير ملل وقد وعيت البعض منها وكلها أراجيز محبوكة الأطراف غير تامة المعنى بذاتها فلا تميز بين المادح والممدوح والمخاطب والمتكلم بحيث يصعب علينا معشر الغربيين إدراك مراميها ، وكنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر والفصل فصل الشتاء ويومنا يوم جميل تنشط الأبدان حرارته ويبلغ ضوءه حد البهاء وروائحه تنعش السالكين وتجعل المستنشق شاعرا بتمام الحياة يخالجنى مع ذلك إحساس آخر هو شغفى بتلك الممدوحة التى كان اسمها يروح ويفقد فى أقوال أولئك الشجعان ، وبينما نحن سائرون على هذه الحالة إذ سكت الشاعر والتفت قائلا بصوت خشن « سيدى الآن وقت العصر » هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة وصلاة الجماعة مفضلة عند الله فى اعتقاد المسلمين كما هى كذلك عند المسيحيين ، أما أنا فقد ابتعدت عنهم وكنت أودّ لو انشقت الأرض فابتلعتنى ، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تشنى وتنفرج بحركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع ﴿ الله أكبر . الله أكبر ﴾ فكان هذا الاسم الإلهى يأخذ من ذهنى مأخذا لم يوجد فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين ، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظا يعبر عنه سببه الحياء والانفعال ، أحسّ بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامى قبل هذه اللحظة يشعرون فى صلاتهم بأنهم أرفع منى مقاما وأعزّ نفسا ، ولوانى أطعت نفسى لصحت فيهم « أنا أيضا أعتقد بالله وأعرف الصلاة وكيف أعبد » فأجل منظر أولئك القوم فى نظامهم اصلاحتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم أرسالها على الأرض وهى هادئة كأنها خاشعة للعلة ، تلك هى الخيل التى كان يحبها النبي ﷺ حبا ذهب به الى انه كان يسمح خياشيمها بطرف إزاره عملا بوصية جبريل عليه السلام ، وكنت أرى نفسى وحيدا فى عرض هذه الصحراء على ما أنا به من اللباس العسكرى الضيق الذى يرم فيه الجسم الإنسانى بغير احتشام تلوح على سمات عدم الإيمان فى مكان هو مستقر رأس الديانات كأنتى من الحجر أو من الكلاب أمام أولئك القوم الذين يكررون الى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقا وإيمانا ، وبينما أنا كذلك إذ جال بخاطرى ماورد فى التوراة من أن الله يسكن خيمة سام ويكثر من أولاد يافث ، وقد كان الفريقان مجتمعين فى ذلك المكان أولئك المصاؤون الذين هم من ولد سام معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب آبائهم ، الله الذى دخل خيمة ابراهيم وأنا ابن يافث الذى يمتدّ ذكره بالحرب والفتوح ، ولما انتهى بنا الطريق ورجعت الى مكان راحتي جعلت أكتب ما علق بذهنى من الأفكار فأحسست اننى منجذب بحلاوة الاسلام كأنها أول مرة شاهدت فى الصحراء قوما يعبدون خالق الأكوان وذكرى خيام النصارى حيث لامتعبد فيها غير النساء وأخذنى الغضب من كفر أبناء العرب وقلة إيمانهم كنت فى سنّ يستسهل العقل فيه حل المشكلات ويأخذ الأشياء من ظواهرها ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب ويعتقد المرء فى الامور بغير قيد وهوسنّ لو أنصف أهله لما كتبوا وألفوا وكنت أرى أن جبال الدين

أصدق شاهد على أنه الدين الحق وصرت أكتب في الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد
ولواني اتبعت مجرد الفواهر وقضيت على الامور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابي مذموما ورماني المستشرقون
بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفي الجزائر من الاوروابوين ، ذلك ان المشتغلين بالاسلام في هذه
الأيام ﴿ فريقان ﴾ المستشرقون الذين هم من أفاضل العلماء ومستمر بوالجزائر من الافرنج أيضا ، وبمبالغة
فيه أن القسم الأول قد أفاد العلم أكثر من القسم الثاني فان أعمالهم أنتجت كثيرا من العناصر والمواد التي
يسهل بها اليوم وضع تاريخ للاسلام لأن ذلك التاريخ لا يزال مع ما تقدم في عالم الغيب وبعدهم يأتي مستعربو
الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادة في العلم وسلامة النظري الموجودات وهم يعيشون مع المسلمين
ويفقهون غور أفكارهم ويعلمون حقيقة معيشتهم وكنه دياتهم مهرفة لا تحصل لأحد في غير تلك البلاد ،
وبهذا يرون أن لهم الحق في أن يكتبوا عن الاسلام كالمستشرقين ، نعم انهم لم يقفوا على جميع مآلفه المسلمون
في الحكمة وعلم الكلام ولكني لا أرى ذلك نقصا كبيرا إذ معرفة حقيقة الاسلام في هذا العصر لا تحتاج الى
سعة اطلاع ديني ، على أن مطالعة جميع الكتب التي وضعت في مبدأ ظهور هذا الدين انما تجب على المؤرخ
أكثر من غيره لأن علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثاني عشر حيث أصبح الدين الاسلامي
قويا متينا لا تؤثر فيه مناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين كما أودت باصول الديانات الأخرى فن ذلك الحين صار
كل مسلم من عالم وجاهل ومن أمير وحقير مؤمنا إيمانا لا احتياج لتحكيم العقل في تحصيله بل هو إيمان
وجداني بسيط قوى في النفس متمكن من القلوب وذلك لا يشاهد في الأمم المسيحية إلا عند الفحاميين

ولقد رأيت من الواجب أن أبين الصفات التي تخولني حق الكتابة عن الاسلام قبل أن أنشر كتابي هذا ،
أنا عاشرت العرب أزمانا طويلا واشتغلت كثيرا بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين ومذهبي مذهب مستعرب الجزائر
ولذلك أسأل المستشرقين ذوي الاعتبار عفوا ولينا وأطلب منهم قبل كل شيء أن لا يجمعوا بيني وبين أولئك
الذين يميلون الى العرب فيكتبون عن الاسلام ما ناقفوه أثناء سياحة قصيرة بجاء قولهم قولا شريفا حتى إن
الموسيو (لوازون) لم ينبج من هذه السقطة بل طاش قلمه وجذبه التخيلات فكان ممن يرى كل شيء في الشرق
جيلا وجاء رأيه في الاسلام رأى قوال لا رأى باحث حكيم ، وعليه فليست أقصد بكتابي هذا أن أجدد الاسلام
ولكني لما رأيت انه صار من المسائل الكبرى التي اشتغلت بها أذهان الباحثين في العصر الحاضر وأسست
من أجله مجلة علمية في باريس نال بها المسلمون نجاحا أدى الى أن المسيحيين ومنهم أولاد الصليبيين يساعدونهم
بالمال على إقامة مسجد يعبدون الله فيه انتهزت فرصة هذا الميل وأردت التنبيه الى بعض أغلاط علق بالآفكار
عندنا من حيث النبي العربي ودينه الاسلامي وهو عمل شاق وموقف حرج إذ من المعلوم كما قيل انه لا يرسخ
في الاعتقاد أكثر من خطأ الاعتقاد كذلك أرى انه لا يكفي لأمة مسيحية متمدينة أن تحترم دين المسلمين
من رعاياها بل يجب عليها أن تسعى الى معرفة ذلك الدين كما ينبغي فنحن نضحك اشفاقا من سماع الأقاصيص
التي نقرأها عن بغض المسلمين للمسيحيين ونقول أولئك قوم جهلة متعصبون وانهم في بغضهم لنا مخطئون
إلا ان المسيحيين هم كذلك في بغضهم للمسلمين لا يعدلون وأشد الأوهام رسوخا عندنا بالنظر الى الديانة الاسلامية
ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولا في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقة الأدبية
عني أجد في هذا البحث دليلا جديدا على صدقه وأمانته المتفق تقر بها عليها بين جميع مؤرخي الديانات
وأكبر المتشيعين للدين المسيحي

﴿ صدق سيدنا محمد ﷺ — محمد والأغاني المعروفة بأغاني الاشارات — محمد والتاريخ — أصل الاعتقاد ﴾
(الوحي بالقرآن — ليس محمد مبتدعا — هل كان على الدوام صديقا — وفاته)
كنت كلما بحثت في الديانات مع صاحب لي من طلبة العلم في (تلمسان) وأراد الهرب من الجدال يجيبني

« هم يقولون إن لله ولدا وإن محمدا ابن الساحرين » إجابة لما وء بالاحتقار كما يجيب المعتقدا اعتقادا وثنيا يريد أن يشفق عليه وذلك مع مبالغة في احتراي وحسن الصلات بيننا ، وكان يرى أن التثليث خرافة فادحة كسحر محمد وأن المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين قوم لا ينبغي الجدل معهم ولست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوال من المسيحيين جميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب في الحرب الصليبية وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل السكلى بديانتهم وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان ولا يزال بعضها راسخا الى هذه الأيام فكل ناشد كان يمد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبداء أوثنان مارقين ، وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم (ماهوم) ويقال ماهوم وبافوميد وماهوميده وهو محمد ﷺ ثم (أبلين) ثم (ترفاجان) وذهبوا الى أن محمدا وضع دينه بادعائه الألوهية ومن المستغربات قولهم أن محمدا الذي هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلو قنجيون) وأن المسلمين لما غلبهم الأفرنج وصبروهم الى أسوار (سرقسطه) عادوا الى أصنامهم فطموها كما طمظن به أحد منشدي ذلك العصر حيث قال ﴿ وكان أبلين إلههم في مغارة هناك فتراموا عليه وأوسعوه شتما وسبا وصلبوه من يديه في أحد العمدان وجعلوا يدوسونه بأقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه ، وأما (ماهوم) فقد رموه في حفرة وتركوا السكلاب والخناز يرتشونه وتمشي عليه وتلك اهانة لم تصب إلهة قبله ﴾ ويظهر أن المسلمين لم يلبثوا أن تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلّفوه منها ولذلك أمر الإمبراطور (كارلوس) بآبادتها لما دخل (سرقسطه) كما جاء في قول ذلك الشاعر وقد أمر الإمبراطور الفرنسيون فطافوا جميع أنحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها (ماهوميده) وجميع الأوثان والأصنام ، وكذلك يقول (ريشار) في أناشيده وهي جيلة ﴿ لاشئ من الخراف فيها إلا انها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين أولئك الذين يعبدون بصورة ماهوم ﴾ ثم جعل يحرض الأشراف على الحرب المقدسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين ﴿ قوموا ونكسوا صنم ماهوميده وترفاجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم ﴾ وذهبوا الى أن صورة (ماهوم) كانت تصنع من أنفاس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق اتقان . ومن قرأ وصفه في أناشيد رولان كاد يحلف أن ذلك الشاعر إنما يصف عن خبر وعيان . يقول وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لأيقنت بأنه لا يمكن للعقل أن يتصور أجمل منها ، عظيمة الشكل ، لطيفة الصنع ، تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان (ماهوم) من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالأبصار وقد وضع فوق فيل على جلسة من أجل المصنوعات خاويا من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعا بنفائس الأحجار المضيئة ، يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير ، ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدائد وانهمزم المسلمون في إحدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب ربه ، قال الرايون فجاء الإله محمد في موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضربا يسمع له دوى قاصف وبعضهم يغني بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والسكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم وأقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الديني في انتظاره فلما رآه قام يعبد به بخشوع وخشوع ثم أخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف وأن لاشئ في باطنه إلا ويرى من الخارج فقال ﴿ وقد وضهوا في جوفه عفر يتا استحضره السحرة وصار ينطوي ويربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون ﴾ واقط زاد بعضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامي كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحي ، فروى (بودوان) في نشيده على الكونتيسة (بونتيو) لما أرادت أن تعتق الاسلام أمام صلاح الدين انها قالت ﴿ أريد أن أعبد محمدا فأتوني به فلما صار بين يديها خرت ساجدة

اليه ﴿ ويأخذ القارئ من نشيد آخر يظهر أنه وضع تمّة لأناشيد (بودوان) وجود إلهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم وهما (بارتوان) و (جوبين) إلا أن الثلاثة الأولين هم الرؤساء ، ولما ردّ أحد قوّاد المسيحيين جيش المسلمين الذي خرج من مكة أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين فقال ﴿ وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويموجون بينهم ويهرجون وينادون بأعلى أصواتهم ياترفاجان ياما هوم ومع ذلك يوجد نشيد من أناشيد القرون الوسطى لا يرى فيه القارئ رمزا الى محمد بالصنم وهول القسيس (اسكندر وديون) ألفه سنة ١٢٥٨ ميلادية أخذنا عن مسلم تنصر من ذوي الاعتبار وعدّ الناس تلك القصة تاريخا صحيحا عن ذلك النبي وقد جاء فيها ﴿ انه من المعلوم أن محمدا كان عالما بطرق المكر والخيانة والخداع ﴿ ثم شبهه بأحد الأمراء المحاط بأتباعه ينشر دينه على أبسط حال حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا جبر روية

ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل لأن تاريخ اسكندر المذكور لم يزلها لأنها تركت أثرا في الأذهان وصل الى أهل هذه الأيام وتشبعت به أفكارهم في النبي وكتابه

ولو سأل سائل هل كان أولئك المنشدون يعتقدون صحة ما يقولون لأجبناه جواب أهل (نومندة) لا ونعم إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين الحمدي على حقيقته ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم فاحتاجوا في ذلك الى وصف المسلمين ودينهم بالأوصاف التي تؤثر في نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم وأمياهم وإذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى الى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين الباحثين في علم التوحيد الذين يظهر على كتبهم في ذلك الزمن مبالون الى الاعتدال وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الأقاصيص الخرافية مملوءة بالطعن والشتائم في نبي المسلمين وكان المصلحون (هم البروتستان أيام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحي) أشدّ تعصبا ضده من غيرهم فقد اعتنى (بيلياندر) بتشبيه محمد بالشیطان وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه ولنا نقيم برهانا على ما نقول غير توجيه نظر القارئ الى مطالعة ما جاء في مقدمة كتاب (ريلان) الذي ألفه سنة ١٧٢١ تحت عنوان ﴿ ما هو السبب في أن الناس عامّة لا يعرفون من الديانة الحمديّة إلا شيئا يسيرا ؟ ﴾ حيث يقول ﴿ لو أراد الباحثون أن يصموا مذهبا أو طريقة بوصمة الخزي والعار نسبوها الى محمد فقالوا مذهب محمدي أو طريقة محمدي وهكذا ﴾

وألف القس (دون مارتينو الفرنسي قيقالسو) كتابا سماه ﴿ سراج الكنيسة المقدسة الذهبية ﴾ جاء فيه أن كتاب محمد لا تلزم قراءته بل يجب أن يسخر به وأن يحتقر ويرى في النار أنى وجد ، ولا يليق أن يحفظه الناس لأنه عمل بهيمى ، وبعضهم كان لا يقول بحرقه ولكنه يرى من العبث أن يجهد الانسان نفسه ويزيد ايلامها بحفظ هزئيات وأمور تافهة منشؤها خيالات شخص اختل عقله واضطربت قواه

وأما المسلمون فمن أسمائهم في تلك الكتب البلدة والكسالى والحير والجير الوحشية والممقوتون الذين يملؤون المنزل بالنساء في الليل ويطلقونهن في النهار ، ولو أردت الاطلاع على جعبية الشتائم والسباب فعليك بكتاب ألفه أحد اليسوعيين وهو (بروشار) وسماه مرشد السياحة وقدمه الى الأمير (فيليب روقالو) سنة ١٣٣٢ وذكر فيه الأسباب التي تحمله على الدعوى الى حرب صليبية فقال ﴿ من ذا الذي لا يذرف عبرات الدمع عند ما يعلم أى الرجال هم القابضون اليوم على تلك البقاع التي هي ميراثنا ، أولئك قوم لارب لهم ولادين يهدبهم ولا شرع يرجعون اليه ولا عهد ولا حنان ، أولئك قوم أخساء أدنياء وهم أعداء لكل حقيقة في الوجود وكل صفاء وكل خير وكل عدل أولئك هم أعداء الصليب الكافرون بالله المضطهدون للمسيحيين المفرطون في نسايتهم ، الفاسقون بالأطفال ، الظالمون للحجج الحيوانات ، المخالفون لطباع البشر ، القتالون للفضائل ، المميتون للأخلاق . العارقون في القبايح والخطايا . أولئك هم أولياء الشيطان . وأنصار الدنيا . ذوو حقد وبغض .

ذروا أفكار سافلة . وأعمال سخيقة . وعيشة دنيئة . وأقوال بذئية . وعشرة سوء معدية . لا تنصرف أراذلهم ولا تتبعهم همهم إلا إلى اللذائذ البهيمة والمعيشة الهمجية ، أولئك هم القوم الذين أبعدونا عن تلك البقاع وآذونا في هذه البقعة الصغيرة التي نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بديننا أولئك هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التي هي مهبط شرعنا ولوثوا أركانها المقدسة المطهرة

ولم يزل هذا الروح سائدا عند المسيحيين حتى أن المستشرق (بريدو) الانكليزي ألف سنة ١٧٣٣ كتابا في سيرة النبي ﷺ عنوانه ﴿ حياة ذي البدر محمد ﴾ وترجمه بعضهم إلى لغتنا وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال ﴿ إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحي الحكيم بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد ﴾ أولئك كتاب ما قصدوا التاريخ ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحي الحكيم كما يقولون وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشبهوا خصمهم سبا وشتما وأن يحرفوا في النقل مهما استطاعوا وأراد (داماسين) أن يخالفهم في التأليف لكونه تربى في دمشق الشام وكان مقربا عند الخلفاء فجعل يرد مذهب الاسلام من غير تعصب لذلك عده بدعة في الديانة المسيحية تقرب من بدعة (أريوس) ومع ذلك فلم تؤثر عبارته في رأى الغربيين بل ظالوا يعتقدون الخرافات في النبي وقرآنه وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائما في تأييدها وتمكينها من الأذهان وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزؤون بالدين الاسلامي وأغنت الباباوات عن حربه حربا صحيحا فقد كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن مشغولة بأمور أخرى لأن الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين ، ضارين هما أحزاب النفس الواحدة في جسدين وأحزاب النفس في جسم واحد . ولم يبدأ في البحث عن الاسلام بغير تعصب ولا تشيع إلا في زمننا هذا ، ففي القرن التاسع عشر أخذ الباحثون ينظرون إلى المسألة نظر الناقد البصير وكان من وراء ذلك أن افترق الناس في القرآن إلى معجب به وطاعن فيه ومع ذلك لا يزال نرى في لسان هذا القسم الأخير ما تشم منه رائحة تأثيرهم بالأفكار الماضية * قال المسيو (دروختي) في سياحته في بلاد العرب التي نشرها سنة ١٨٧٨ عن النبي (انه عربي خاشن دنيء) وقد نسي أن هذه الألفاظ التي يشتمز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى . وأول مدار البحث فيه مسألة صدق النبي في رسالته وقد قلنا ان ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب ، ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة وبين كون القرآن كتابا منزلا ، ولسنا نحتاج في إثبات صدق النبي إلى أكثر من اثبات انه كان مقتنعا بصحة رسالته وحقيقة نبوته ، أما الغرض من تلك الرسالة في الأصل فهو إقامة إله واحد مقام عبادة الأوثان التي كانت عليها قبيلته مدة ظهوره . وبيان ذلك أن اسماعيل لما حنقت عليه (سارة) وطرد من عائلة أبيه توجه إلى بلاد العرب ونقل إليها ديانة أبيه ابراهيم إلا انه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شئ قليل يشبه الخيال إذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بأن رب ابراهيم هو رب عزيز لا يقبل له شريكا كما حصل ذلك لبني اسرائيل ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيئا فشيئا وتحل محله عبادة الآلهة التي كانت معروفة في أمم أخرى حتى تنوسى دين اسماعيل تماما ثم دخلت اليهودية في بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تعلق في تلك البقاع حتى ان (نيث) قس البصرة اعترف في القرن الرابع بأن معيشة العرب الرحالة تنم عن انتشار تلك الديانة في بحيث جزيرة العرب إلى أن قال ثبت إذن مما تقدم أن محمدا ﷺ لم يقرأ كتابا مقدسا ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه خلافا لما ذهب إليه (اسكندرديون) حيث يقول ﴿ انه كان يعرف في دين اليسوع قراءة وكتابة ﴾ نعم إن البحث عن معرفة المصادر التي عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح أو الديانة اليهودية أو ديانة عباد الكواكب قد يكون مفيدا لمعرفة الموافقات التي جاءت بين القرآن وبين التوراة إلا أنه بحث ثانوي إذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضا من الكتب المقدسة الأخرى لبقى الأمر مشكلا كما كان عليه في معرفة حقيقة ما يحتاج

بروحه الديني وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحداية الله حتى استولى عليه روحا وجسما واقد نفلم انه مرر بمشاكل كثيرة وقاسى آلاما نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالاته فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين ، ومن أجل ذلك احتاج الى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكنا من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بآبرة في جسمه ﷺ ولكي يفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله تعالى اعتكف في جبل حراء وأرخى العنان لفكره يحول في بحار التأملات عابدا متهجدا ومضت عليه بهذه الحالة ليال من ليالى هاتيك البقاع التي تملأ النفس انشراحا حتى جاء عنها في لسان العامة أن الملائكة تسأل ربها لوأذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الأرض اعجابا بجمال الليل فيها وشوقا الى صفاته وجلاله

ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريهان الذكاء ، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل وقوة الادراك لوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها ما كان إلا أن يقول صارا وبهيد تكرارا هذه الكلمات ﴿ الله أحد . الله أحد ﴾ كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مفزاها لبعدها عن فكرة التوحيد ولم يزل عقله مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة جاءت في القرآن - لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - وكانت مترادفات للغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامي الذي دل عليه ومن تلك الأفكار وتلك العبادة تولدت كلمة الاسلام ﴿ لا إله إلا الله ﴾

ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزّه عن النقائص يكاد العقل يتصوره وهو اعتقاد قوى يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب ، أولئك حقاً هم المؤمنون كما يسمون أنفسهم بألسنتهم ، ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبي ﷺ من مطالعته التوراة والانجيل إذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهر هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالاته وأمانته في نبوّته

وأما مسألة الوحي بالقرآن فهي أكثر اشكالا وأكثر تعقيدا لأن الباحثين لم يهتدوا الى حلها حل مرضيا والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الانسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى ، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار في جاهلها وكفى رفيع عباراتها لاقتناع عمر ابن الخطاب فأمن برب قائلها ، وفاضت أعين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب (سورة آل عمران) وما جاء في ولادة يحيى وصاح القسوس ﴿ إن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى ﴾ قال ناقل هذه الرواية (كوزان دي يرسوفال) فلما كان اليوم الثاني طلب النجاشي جعفرا وأشار اليه بتلاوة ما في القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه نزل في أمه مريم ثم تناول قضيبا دقيقا كان أمامه وقال لجعفر ﴿ إن الفرق بين ما سمعناه منك الآن عن عيسى وبين ما نقوله ديانا عنه لا يزيد عن سمك هذا القضيب وقد قوى ذلك القضيب فنع الحبشة من الاسلام وجعلها مسيحية الى الآن لكن نحن معشر الغر بين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفتة لأفكارنا ومغاييرته لما ربيت عليه الأمم عندنا غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سببا في معارضة تأثيره في عقول العرب ﴾ ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول ﴿ من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولوانه سمع محمدا ﷺ عليه عليه الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المقتنع المشبع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب والتفت الى انه كلما بدت أحكامه أيدها بقوة البيان وما أوتيته من بلاغة اللسان تحرّ ساجدا على الأرض وناداه أبها

النبي رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والخطر فنحن من أجاك نود الموت أو الانتصار * قال (بولا تقيلير) (إني لأعترف بأنه من الصعب أن يفلح الإنسان ولا يتحير في أمره أن قوة الفصاحة الانسانية تؤثر ذلك التأثير خصوصا انها تصدر عالياً بغير ضعف أبداً وتتجدد رفيعة معجزة إذ تقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء * وقد أشار المؤلف في كتابه الى الآية الآتية - أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو -

إذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين كتابهم وليس هو بنبي سلاب كما يقول المسيو (سايوس) نعم قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع إلا أن سببه ليس هو المعرفة ، ذلك أن محمداً كان يلصق ديانة الاسلام بالديانتين المسيحية واليهودية فالبعث مباح فيما إذا كان مذهبه صحيحاً أو موضوعاً اتخذ ليويد به الحقيقة الدينية من حيث هي ولكن لانسلم انكار هذه الحقيقة وحينئذ لا عجب اذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع خصوصاً اذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها كما ان النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث فنقول (إن دين الأنبياء كان كله واحداً فهم متحدون في المذهب منذ آدم الى محمد وقد نزلت (ثلاث كتب) سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن والقرآن بالنسبة الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور أو ان محمداً بالنظر الى عيسى كعيسى بالنظر الى موسى ولكن الأمر الذي تهتم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد ﷺ ولن تجد بعده كلمات الله تبديلاً ، اذا تقرّر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة فمحمد كعيسى قال انه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله وكان يسمع صوتاً من السماء يقول له - إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والأنبياء من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكماً - وقال تعالى - وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون - على أن بعض المشابهات لا تحتاج الى مثل هذا التفسير إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني اسرائيل وكان يعبد الله الذي عبده فلاحجب إن تشابهت ألفاظ التضرعات وتجانست أنواع الدعاء - إذن لا يمكن أن ننكر على محمد ﷺ في الدور الأول من حياته كمال إيمانه واخلاص صدقه ، فأما الإيمان فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني وماؤتيه من النصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محل لازيادة فيه ولم يكن فيه عيب بل ان ما نسبوه اليه من هذا القبيل لا يؤثر بشئ على سيرته الطاهرة فما كان يميل الى الزخارف ولم يكن شحيحاً بل كان كما قال أبو الفداء يستدرّ اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة مرتقة وكان قنوعاً خرج من هذا الباب كما رواه أبو هريرة ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته

هذا هو النبي الذي قال عنه المنشدون من النصارى (إنه كان منهما يأتي المقيبات في الحانات) تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب ولكنه لم ينجح الى الاستبداد فيها فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً وقد حاز الرفعة والمعالى وبلغ من السلطان منتهاه

ومهما اجتهدنا في ادراك كل معنى من معانيه فانا به جاهلون فلقد وعد ملوك بني اسرائيل أن يرسل المسيح من أصلابهم ورأينا أن عيسى ولد على غير ما عهدوا . على أن محمدا ﷺ كان يقول عن نفسه انه يخشى العذاب ويسأل الله الغفران ، وكلم من مرة شوهدت على وجهه علائم الهلع ومابه من هول رسالته عندما كان يتلو على الناس آيات الفزع الأكبر

هذا ما كان من صدقه وأمانته في السنين الأولى من بعثته حتى ساء معاصروه بالأمين . وأما حاله في بقية مدته بعد أن صار رئيسا سياسيا فالاستدلال عليه أدق وأدعى الى طول البحث والتنقيب * قال رينارد دوزي * يكاد أن يكون من المستحيل الجزم بأن محمدا كان في آخر حياته يعتقد بصدق رسالته . أما في الدور الأول فاعتقاده وصدقه لاشك فيهما والأدلة كثيرة من الجانبين ووضع المسألة على هذه السكيفية هو الذي فرق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأى وحجة تبع أمياله وما يشتهي إلا ان الناقد المنصف لا يصح له عليه أن يرجح قولاً على آخر بدون ملاحظة القرائن التي تتبع الاثنين ، ولكن الناس كما وصفهم المسيو (مونور) محتاجون الى الايقان والاعتقاد وهم في احتياجهم هذا يميلون الى من يلقى عليهم المسائل كلها كأنها حقيقة ثابتة ويمقتون من ينهاتهم عن الاعتقاد بشئ أو نفيه مطلقا بغير ثبوت ولادليل ولست ممن يدعى الترفع عن هذا التقرير غير انني أقول انه بفرض صحة المذهبين وان صدق النبي في آخر حياته وعدمه سيمان في الوضوح والدليل فلا يزال عندنا سبيل آخر للوصول الى الحقيقة أو القرب منها ألا وهو علم النفس وحركاتها وهذا العلم وان لم يبلغ بعد الدرجة التي تزيل كل شبهة علققت بالأفكار اسكنه مع ذلك يوصلنا الى الايقان بأن من الأنبياء من لا يتيسر للباحثين أن يجزموا بشئ في أمرهم كأن يؤكّدوا أنهم صادقون أو أنهم جروا في أعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون كما يفعل السياسيون ، ومامن كاتب ولا باحث يستطيع أن يجزم بأن الأمبراطور (كونستنتان) الذي رفعه القسس مكانا عليا في المعابد واختصوه بالمواهب الإلهية كان صادقا بعد انتصاره في قنطرة (ميلفيوس) ولكن محمدا قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الأحد كما فعل الملك الروماني وإيمانه كان حقا ثابتا على الدوام ، لذلك لم تتغير حجته ولم تفرغ عزيمته فقد انتهى كما بدأ ولوانه جال بفكره ساعة من زمانه شك في صدق رسالته لكفى بنصره الدائم منيلا لهذه الغمة ومؤيدا له في صحة صبوته وصدق رسالته

وفي الصدق درجات فليتينها الباحثون وليفتقروها قبل أن يحكموا بالبدع وهم مخطئون ، ولقد عانى محمد ﷺ كثيرا مع بني قومه إذ كانوا منكرين ولم يأخذهم على غرة منهم بعد أن صاروا مؤمنين ، نحن لانصدق بما يقولون بل نرى أن قومه كانوا في استعمال أمانته من المتطرفين ، ولئن أعجم لهم القول حيناً في مخاطبتهم فذلك لأنه يعزّ وجود من يحب الحق ولا يلجئ الحوادث الى الاعجاب طلبا لتقريره في ذهن قوم جامدين . إن الذين ينسكرون بصدق محمد في آخر حياته لا يستطيعون أن ينسكروا عليه انه بقي الى آخر لحظة منها نبيا رسولا شديد التمسك بمذهبه وانه فارق الدنيا موقنا بأداء رسالته فلقد اتفق مؤرخو العرب طرا على الحوادث التي تخللت أيامه الأخيرة وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لا يتغير مما يبرهن على صدق حديثهم وأمانتهم في نقلهم ، ولولا زيف المنشدين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا * إن محمدا قد مات تهشمة الخنازير إذ وجدوه نشوان وليس عنده معين ولا نصير * تلك جريمة لا تغتفر ، ومما يستغرب له المطالع أن يجد حكاية هذا الموت الفاضح في تاريخ الحرب الصليبية الأولى مؤلفه (جيبيردي نوجان) وهو محدود من المؤرخين الذين لا يميلون الى التخريف غير انه أتى بهذه الأكذوبة وزاد عليها أن المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ فلنسدل ثوب النسيان على هذه الأقايص المخرقة ولنقرأ كيفية وفاة النبي في كتب المؤرخين الصادقين

لما قربت المنية خارت قواه وخرج الى الحج بمكة في شهر مارس سنة (٦٣٢) ميلادية وهي حجة الوداع

وخطب في الناس على منبر المسجد المقدس فقال ﴿ رب انى أديت رسالتى وبلغت أمانتى اليوم قال الله تعالى - اليوم يؤس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً - ثم رجع الى المدينة وأقام بيت عائشة زوجته المصطفاة برضا من زوجاته ، ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء فانه لم يرغب طول حياته فى المال بل كان كلما جمع اليه شيئاً منه أنفقه فى الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة مقداراً يسيراً لتحفظه فلما حضره المرض أمر بانفاقه على المعوزين لساعته وغاب فى سنة ولما أفاق سألها عما اذا كانت أنفدت أمره أم لا فأجابته . كلاًه فأمر بالنقود وأشار الى العائلات المعوزات فوزع عليهم وقال الآن استراح قلبى فانى كنت أخشى أن ألقى ربى وأنا أملك هذا المال ، وكان فى مرضه يخرج كل يوم ليصلى الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيه هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضل بن العباس وعلى بن أبى طالب وقصد منبر الخطابة الذى كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحده الله وأثنى عليه ثم خطب فى المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال « أيها الذين تسمعون قولى إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدوننه ظهري فليضربه ، وإن كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتى ، وإن كنت سلبت أحداً ماله فاليه مالى فليقتص منه وهو فى حل من غضبى فان الغل بعيد عن قلبى » ثم نزل من المنبر وصلى بالجماعة ، ولما أراد الانصراف أمسك بـ رجل من إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم ديناً له فأدأها على الفور قائلاً « لخزى الدنيا أهون من خزى الآخرة » ثم دعا لمن حارب معه فى (أحد) وسأل الله لهم الرحمة والغفران ، وكان مشهد النبى بين المؤمنين فى ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذى شربه من يد يهودية خبير وقلوبهم منفطرة من الوجد عليه ، ذلك انه لما كان فى واقعة خيبر قدمت اليه يهودية اسمها (زينب) شاة مشوية أضافت اليها سمها فأخذ منه النبى ﷺ قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة فألقاها ، ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول « مازالت تعاودنى أكلة خيبر » وكان أبو بكر نفسه يبكى ويقول للرسول « هلا افتدينا روحك بارواحنا » ثم أوصله الصحابة الى بيت عائشة واضطجع تعباً مهزولاً وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل له قد جاء وقت الظهر فأشار الى أبى بكر ليصلى بالناس فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبى بكر بعد النبى ﷺ وأخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت كانت رأس رسول الله ﷺ مسندة الى صدرى وبقربه قدس ماء وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ويقول « رب أعنى على تحمل سكرات الموت أدن منى يا جبريل ، رب اغفر لى واجمع بينى وبين أصدقائى فى السماء » ثم ثقلت رأسه ومال ثانية الى صدرى

أما خلفاته فبيت بناه بيده وبضع نياق آلت الى بيت المال لأنه عليه الصلاة والسلام قال « نحن معاشر الأنبياء لانورث » والى هنا نقص القول عن ذات النبى فما أردنا أن نطيل فيها إلا لنعرف حقيقة تلك النفس المتشبهة بالدين إذ الدين يدعو الى الدين وكان من الواجب دقة البحث عن اعتقاده ﷺ قبل أن نتبع دينه كيف انتشر ولا يزال ينتشر فى الوجود

﴿ الاسلام فى زمن الفتح ومدة حكم العرب ﴾

قال القديس (بولص) يطلب اليهود معجزات ليصدقوا واليونان أدلة ليؤمنوا ، وأما العرب فإهم آمنوا بغير معجزات ولا أدلة إذ النبى كان يقول جلسائه على الدوام انه آدمى مثلهم وانه مرسل اليهم وانه مجرد عن كل سلطان فى المعجزات - قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد - قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون - وأما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية كالأمة التى بعث فيها الا اننا رأينا الاسلام

في واقعة بدر سنة ٦٢٤ ميلادية وليس له من الأنصار إلا ثلثائة وأربعة عشر نفرا فلم يمض عليه قرن واحد حتى اجتاز جبال (اللب) وتوسط البلاد الفرنسية ، وقد أسلمت الشام والحجاز ومصر وبلاد الغرب من مراكش إلى الجزائر إلى تونس إلى طرابلس ، نعم قد سبق هذا الانتشار العظيم عناء شديد واضطراب في العمل كثير واضطهاد للناس كبير شأن كل ديانة عامة في مبدأ ظهورها ولكن الاسلام لم يلبث أن تغلب على أكبر العثرات فهدى الصعاب حتى صار لا يعرف حاجزا ولا مانعا

وما أشبه الدين في انتشاره بامتداد السوائل الطبيعية فهو نتيجة « مؤثرين » مؤثر داخلي يسمى المقاوم ومؤثر خارجي وهو المحرك والأول خفي لا يظهر أثره وان كان هو الذي يلتقط جميع الحرارة الواصلة إلى الجسم فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر فإذا انحلت جاء المؤثر الخارجي فنشأ عنه مع اختلاف سير تمدد الجسم العظيم الذي يسمى تبخرا وقد احتاج الاسلام في الانتشار إلى التغلب على قوة العوائد والتقاليد التي وجدها وهو مانع يصادف كل دين جديد إلا أنه كان قويا للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم وعجائبهم برسوم قبائلهم العربية القديمة وكان من الصعب جدا أن يهتفقوا ديناً يرى آباءهم غير مطهرين ، ومن الموانع التي قوت العرب في استعصائهم على الاسلام ما اشتمل عليه من مبدأ قهر النفوس وتذليلها للواحد المعبود ، فالقول بالمساواة بين الناس طرا أمامه كان ثقيلاً على آذان العرب مخالفاً لتقاليدهم الأولية حتى يدينوا إليه بغير عناء ولذلك فإن الاسلام سنة ٦٢٣ ميلادية أيام وفاة النبي لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب إلا أنه كان بين المسلمين الأولين رجال من العظماء اعترف بفضلهم الأب (بروغلي) حيث قال « إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قوماً صادقين ذوي دراية وذكاء منهم أبو بكر وعمر ورجلان توليا زمام مملكة فسيحة الأرجاء فأحسننا سياستها وكنا ذوي ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدة عزيمة وكنا أرفع قدرا وأبعد صرمي من القياصرة والحكام الذين حاربوهما » ومن الغريب أن الدين الاسلامي لم يلق في طريقه من المقاومات إلا ما قابل به العرب الوثنيون فانهم كما قدمنا كانوا مدفوعين إلى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائيرهم القديمة وحبهم لحريتهم واستقلالهم فكان جميع تلك القبائل المنشورة وهم رحل في الوديان غيرون على اطلاقهم في الفلوات ، لا يعرفون من الحكم إلا سواق الماشية على المرعى ومحاربة بعضهم في كل آن وتكوين أمة واحدة منهم أكبر عقبة قامت في وجه النبي ﷺ ولولا قوة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمناً طويلاً إلا أنها لم تدم إلا وقتاً وعادت بعد ذلك إلى التفرق والانقسام ، غير أن القبائل بعد تفرق وحدتها لا تزال متمسكة بدينها الجديد وصار الاسم العربي ذا المقام الأول بين الأسماء في جميع أطراف المسكونة وصار كل ينتسب إلى عائلة من عائلات الجزيرة خصوصاً عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع ، وهذا هو السبب في اطلاق اسم العرب في التاريخ على أمور كثيرة فقالوا عائلة كذا عربية وأمة كذا عربية وتمتد كذا عربي مع أنه لا جامعة بينها وبين بلاد العرب سوى الاسلام . انتهى الكلام على الفصل الثاني

﴿ الفصل الثالث فيما ذكره العلامة توماس كارليل ﴾

لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصل إلى ما يظن من أن دين الاسلام كذب وأن محمداً خداع مزور وأننا نحن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التي أذاها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتنة الحصر والاحصاء كذوبة وخدعة ؟ أمأنا فلا نستطيع أن نرى هذا الرأي أبداً وإذا كان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضاللة كان الأولى بها أن لا تخلق

فوا أسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالراء والمرجة (و بعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات أن لا يصدق شيئا البتة من أقوال أولئك السفهاء فانها نتائج جيل كفر وعصر تجرود والحاد وهي دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح في حياة الأبدان . ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا والأم ، وهل رأيتم قط معشرا لاخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد ديناً وينشره ، عجبا والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب ، فهو اذا لم يكن علما بخصائص الجير والجص والتراب وما شا كل ذلك فما ذلك الذي يبنيه بيت وإنما هو تل من الأتقاض وكثيب من أخلاط المواد ، نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائه اثني عشر قرنا يسكنه مائة مليون من الأنفس ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن ، وإنى لأعلم انه على المرء أن يسير في جميع أهره طبق قوانين الطبيعة والا أثبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته ، كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وان زخرفوه حتى خياوه حقا وزور وباطل وان زينوه حتى أوهموه صدقا ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأممًا بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتتود بهاتيك الأباطيل وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتمل لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحقق مصابها بالغير لا به ، وأي مصاب وأيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسية وأشبابها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة »

أما الرجل الكبير خاصة فاني أقول عنه يقينا انه من المحال أن يكون كاذبا فاني أرى الصدق أساسه وأساس كل مابه من فضل ومجدة ، وعندى أنه مامن رجل كبير (ميرابو) أو (نابليون) أو (بارنز) أو (كرويل) كفء للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول أغنى انه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء بل أقول إن الاخلاص (الاخلاص الحرا العميق الكبير) هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد اخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر للناس باخلاصه . كلا . فان هذا حقير جدا وأيم الله ، هذا اخلاص سطحي وقبح وهو في الغالب غرور وفتنة إنما اخلاص الرجل الكبير هو ما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه . كلا . ولا يشعر به بل لأحسب انه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص إذ أين ذاك الذي يستطيع أن يلزم منهج الحق يوما واحدا ؟ نعم إن الرجل الكبير لا يفخر باخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه أهى مخلصه (أو بعارة أخرى) أقول ان اخلاصه غير متوقف على ارادته فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول ، هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقه ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته ، هو يرى الكون مدهشا ومخيفا وحقا كالموت وحقا كالحياة وهذه الحقيقة لا تفارقه أبدا وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخطوا في غياهب الضلال والعماية بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبه ونصب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من الذهب لاشك فيها ولا ريب هاهي هاهي

فاعرفوا هذا كم الله أن هذه هي أول صفات العظيم وهذا حدته الجوهرى وتعريفه وقد توجد هذه في الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد في نفس كل انسان خلقه الله ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها

مثل هذا الرجل هو مانسميه رجلا أصليا دافى الجوهر كريم العنصر فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة اليينا ، ثم قال بعد ذلك بكلام هذا نصه بالحرف الواحد كالذى قبله نحن نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء ، نعم هو يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الأوهام والآراء ، وكيف وان الحقيقة تسطع لعينه حتى يكاد يغشى لنورها ، ثم اذا نظرت الى كلمات العظيم شاعرا كان أوفيلسوفاً أو نبيا أو فارساً أو ملكا ، ألتراها ضربا

من الوحي والرجل العظيم في نظري مخاوف من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دلّ الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا أن نصني إليه قبل كل شيء . وعلى ذلك فلسنا نعدّ محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية أو يطمح الى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقاير والصفاير وما الرسالة التي أداها إلا حقا صراحا ، وما كلمته إلا صوتا صادقا صادرا من العالم المجهول . كلامه ما محمد بالكاذب ولا الملفق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفرغ عنها قلب الطبيعة فاذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكانت شبه قريش بين وعمورة جبالها وعمورة أخلاقهم وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدمائة كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء وكان الاعرابي صامتا لا ينسكك إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلي جرة النهار طوله ويكافح بحر وجهه نفحات القمر ليله

رأت رجلا ما اذا الشمس عارضت * فيضحي واما بالعشي فيخصر

ولأحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي النظر واذا صح أن الفرس هم فرنسويو المشرق فالعرب لاشك طليانه ، والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة خرمهم وقوة ادارتهم أحسن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ ، وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحرله فاذا أزمع الرحيل خلع عليه وحله وشيعه ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به اليه الفرص ، وكان العربي أغلب وقته صامتا فاذا قال أفصح ، ويزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة أنهم شاركوا اليهود في مرارة الجذو وخالفوهم في حلوة الشمائل ورقة الظرف وفي ألمعية القريحة وأريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد عليه السلام منافسات في الشعر يجرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فاذا انتهت الأسواق تنشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها أي لذة فيتهافتون على المنشد كالفراس ويتها الكون

وأرى هؤلاء العرب صفة من صفات الاسرائيليين واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحمد بحذاقها ألوهي الدين فانهم مذ كانوا مبرحوا شديدي التمسك بدينهم كيفما كان وكانوا يعبدون الكواكب وكثيرا من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته . فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه فان مصنوعات الله مبرحت بوجه ما رموزا له ودلائل عليه . ألسنا كما قدّمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو أسرار الجمال الشعري كما اصطلاح الناس على تسميته . وقد كان هؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه . ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أي حكمة بليغة ورأي مستد . وأي تقوى وإخلاص قد كان هؤلاء البدو المفكرين . وقد اتفق النقاد أن (سفر أيوب) أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب في بلاد العرب ورأى في هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه انه من أشرف ما سطر يراع ودوّنت يد كاتب . ولا يكاد المرء يصدق انه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها عمومية تخالف التعصب والتحيز وكان بين هؤلاء العرب التي تلك حالهم أن ولد النبي محمد عليه السلام عام (٥٨٠) ميلادية وكان من أسرة

هاشم من قبيلة قر يش وقدمات أبوه عقب مولده . ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل فقام عليه جدّه شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحا باراً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه فأبصرت عينه اهرمة في محمد صورة عبد الله فأحبّ اليقيم الصغير بل قلبه ، وكان يقول ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجليل الذي قدفاق سائر الأسرّة والقبيلة حسنا وفضلا ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به الى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده فرباه عمه (وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل) على أحسن نظام عربيّ

ولما شبّ محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبهه ، وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارسا مقاتلا يتبع عمه في الحروب ، غير أن أهمّ أسفاره ربما كان ذلك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين (رحلة الى مشارف الشام إذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدا في نظره) أعنى الديانة المسيحية . واني لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي بزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه في دار ، ولماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما فان محمدا لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره إلا خليطا مشوشا من أشياء ينكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عيناان ثاقبتان ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون فأقامت في ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كرم الغداة وصر العشيّ وتحلها له يد الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . فاعل هذه الرجل الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة

ثم لا ننسى شيئا آخر وهوانه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ماتعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ماوفق الى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية . وعجيب وأيم الله أمة محمد . نعم انه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب ولم يضربه ولم يزربه انه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ولم يقتبس محمد من نور أي انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء (أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادئة في ظلمات الدهور) من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وانما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره

ولوحظ عليه منذ فتائه انه كان شابا مفكرا وقد سماه رفاقؤه (الأميين) رجل الصدق والوفاء . الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره . وقد لاحظوا انه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة . واني لأعرف عنه انه كان كثير الصمت . يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة . لا يتناول غرضا فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستنارد فينته وهكذا يكون الكلام والا فلا . وقد رأينا طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريمة برار وفاقا تقيما فاضلا حرا . رجلا شديد الجدة مخلصا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الاليناس بل ربما مازح وداعب . وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله . هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه وضىّ الطلعة حسن القامة زاهي اللون له عيناان سوداوان تتلاّآن . واني لأحبّ في جبينه ذلك العرق الذي كان ينتفخ ويسود في حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد في قصة القفازة الجراء لوالترسكوت) وكان هذا العرق خصيصة في بني هاشم ولكنه كان أبيين في محمد وأظهر . نعم لقد كان هذا النبي حاد الطبع ناري المزاج ولكنه كان عادلا

عادلا صادق النية ، كان ذكيّ القلب شهيم الفؤاد

لو ذعيا كأنما بين جنبي* مصاييح كل ليل بهيم

تمثلنا نارا ونورا ، رجلا عظيما بفطرته لم تثقه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنيّ عن ذلك كالشوكة استفتت
عن التنقيح فأدّى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء

الى أن قال **ويزعم المتعصبون من النصارى والملاحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية**
ومفاخر الجاه والسلطان . كلا . وأيم الله لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير (ابن القفار والفوات المتوقد
المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبراً وحكمة وحجى وإربة ونهى) أفكار غير الطمع الدنيوى
ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ، وكيف وتلك نفس صامئة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا
مخلصين جادّين ، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيطرون طبق الاعتبار الباطلة إذ ترى
محمدا لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق
الامور والكائنات ، لقد كان سرّ الوجود يسطع اعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه ورواقه ومباهره لم يك هنالك
من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السراهلائل يناجيه « هاأنذا » فثل هذا الاخلاص
لا يخلو من معنى إلهى مقدّس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فاذا تكلم
فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ماعدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الأعوام
الطوال منذ أيام رحله وأسفاره يحول بخاطره آلاف من الأفكار ، ماذا أنا ؟ وما ذلك الشئ العديم النهاية الذى
أعيش فيه والذى يسميه الناس كونا ؟ وماهى الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ فهل اجابته
عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريح طود الطور أو تلك القفار والفوات . كلا . ولا قبة الفلك الدوّار واختلاف
الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة لم يجبه لاهذا ولاذاك وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل
والا ما أودع الله فيه من سره ، وهذا ما ينبغى لكل انسان أن يسأل عنه نفسه فقد أحسّ ذلك الرجل القفرى
أن هذه هى كبرى المسائل وأهم الامور وكل شئ عديم الأهمية فى جانبها ، وكان اذا بحث عن الجواب فى فرق
اليونان الجدلية أوفى روايات اليهود المهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده . وقد قلت إن أهم خصائص
البطل وأول صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال الظواهر الى البواطن . فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات
والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة وكان يقول فى نفسه « هذه الأوثان التى يعبدها القوم لابد من
أن يكون وراءها ودونها شئ ماهى إلا رمز له وإشارة اليه والافهى باطل وزور وقطع من الخشب لا تضر ولا
تنفع » وما لهذا الرجل والأصنام وأنى تؤثر فى مثله أوثان ولورصعت بالنجوم لا بالذهب ولوعبدها بالحجاج
من عدنان والأقيال من حير . أى خير له فى هذه ولوعبدها الناس كافة ؟ انه فى واد وهم فى واد . هم يعمهون
فى ضلالهم وهو مائل بين يدي الطبيعة قد سطعت اعينيه الحقيقة الهائلة فإما أن يجيبها والا فقد حبط سعيه
وكان من الخاسرين . فلتجيبها يا محمد . أجب لابد من أن توجد الجواب . أيزعم السكاذبون انه الطمع وحسب
الدنيا هو الذى أقام محمدا وأثاره . حق وأيم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد
العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالمجة وأين تصير الممالك والتيجان
والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أوفى ملك كسرى وتاج ذهبي
الذّوابة منجاة للبرء ومظفرة . كلا . إذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل ان محمدا كاذب ونعت
موافقهم عارا وسبة وسخافة وحقا فلنربأ بنفوسنا عنه ولنرفع . وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر
رمضان فينقطع الى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ونعمت العادة ما أجلّ وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد
لقد كان يخلو الى نفسه فيناجى ضميره صامتا بين الجبال الصامئة متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية .

أجل حبذا تلك عادة ونعمت . فلما كان في الأر بعين من عمره وقد خلا الى نفسه في غار بجبل (حراء) قرب مكة شهر رمضان ليفكر في تلك المسائل الكبرى اذا هو قد خرج الى (خديجة) ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريبا من مكان خلوته فقال لها انه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر وانه قد أنارت الشبهة وانجلي الشك وبرز الخفاء وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما سواه باطل، خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له وستار يحجب النور الأبدى والرواق السرمدي ، الله أكبر والله الحمد ثم الاسلام وهو أن نسل الأمر لله ونذعن له ونسكن اليه وتوكل عليه وأن القوة كل القوة هي في الاستئانة لحكمه والخضوع لحكمته والرضا بقسمته ، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلننتلقه بوجهه باسم ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لاخير إلا هو ، ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جايتي) « اذا كان ذلك هو الاسلام فكنا إذن مسلمون ، نعم كل من كان فضلا شريف الخلق فهو مسلم » وقدماقيل « إن منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الازعان للضرورة (فان الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرها) بل في اليقين بأن الضرورة الألفية المروءة هي خير ما يقع للانسان وأفضل ما يناله وأن لله في ذلك حكمة تلتف عن الأفهام وتدفق عن الأذهان ، وانه من الافن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله بل عليه أن يعتقد أن الكون قانونا عادلا وان غاب عن ادراكه وأن الخير هو أساس الكون والصالح روح الوجود والنفع لباب الحياة ، نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى »

الى أن قال « وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف إلا جودا وسخرية حتى انه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبؤس التشجيع ولكنه المنتظر في مثل هذه الحال وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأر بعين من قرابته ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته وانه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء الكون وانها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأبهم يمد اليه يده ويأخذ بناصره وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على وكان غلاما في السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح في أحد لهجة انه ذاك النصير والظهير . ولايحتمل أن القوم كانوا منابذين محمدا ومعادينه وكلهم قرابته وفيهم أبوطالب عم محمد وأبو علي ولكن رؤية رجل كهل أمي يعينه غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمع كانت مما يدعو الى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية في الجد والخطر أما على فلايسعنا إلا أن نحبه ونعشقه فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ويتلظى فؤاده نجدة وحجاسة وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى وقد قتل بالكوفة غيلة وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله وقال قبل موته حينما أوصى في قاتله « إن أعش فالأمر الى وان أمت فالأمر لكم فان آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وان تغفوا أقرب لتقوى »

الى أن قال « فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعا وكانوا أر بعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه وألغى المقام بمكة مستحيلا هاجر الى (يثرب) حيث التفت به الأنصار والبلدة تسمى الآن (المدينة) أي مدينة النبي ﷺ وهي من مكة على (٢٠٠) ميل تقوم وسط صحور وقفار ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ في المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق (٦٢٢) ميلادية وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد فترون انه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا كبيرا وكان أصحابه يموتون واحدا بعد ويخولون أمامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر

بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يصدق به من عواسب الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات وهكذا شأن كل انسان في مثل هذه الأحوال وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحه له حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربي ولسان حاله يقول « واما وقد أبت قریش إلا الحرب فلينظروا أي فتيات هي جاء نحن » وحقا رأى فان أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وأبوا إلا تماديا في ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التي حرّم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والناة فأبوا إلا اعتوا وطهنا ، فليجعل الأمر إذن الى الحسام المهندد والوشيج المقوم والى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء وكذلك قضى محمد بقية عمره وهي عشرين سنين أخرى في حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدرّ فواق وكانت النتيجة ما تعلمون ﴿

﴿ ولقد قيل كثيرا في شأن نشر محمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا فهم يقولون « ما كان الدين لينتشر لولا السيف » ولكن ماهو الذي أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق والرأى الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد ، فالذى يعتقد هوفرد ، فرد ضد العالم أجمع ، فاذا تناول هذا الفرد سيفا وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبا تقتضيه الحال ، أولم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا وحسبكم ما فعل (شارلمان) بقباثل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى فلندع الحقائق ننشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار ، لنندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم وليس في طاقتها قط أن تفنى ماهو خير منها بل ماهو أخط وأدنى فانها حرب لاحكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ونعم الحسك ما أعدل وما أقسط وما كان أعظم جذرا في الحق وأذهب اعراقا في الطبيعة فذلك هو الذي ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده ﴿

الى أن قال ﴿ نحن سميننا الاسلام ضربا من النصرانية ولونظرنا الى ما كان من سرعته الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق لأيقنا انه كان خيرا من تلك النصرانية التي كانت إذذاك في الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ، تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفرا ميتا ، على انه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جدا وبفضله فقط آمن الناس بها وحقا انها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعي بين الاصلاء ولكنها ضرب حتى على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة ، ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم ، نظرا بن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية الى لباب الأمر وصميمه فقال في نفسه « الوثنية باطل وهذه الأصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لا تنفع ولا تنفع وهي منكر وفظيع وكفر لوتعلمون ، انما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلقنا وبيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم وما أصابكم من شئ فهو خير لكم لو كنتم تفقهون »

وأن دينا آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقا وجدير أن يصدق به وان ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشئ الوحيد الذي للانسان أن يؤمن به وهذا الشئ هو روح جميع الأديان ، روح تلبس أثوابا مختلفة وأثوابا متعددة وهي في الحقيقة شئ واحد ، وباتباع هذه الروح يصبح الانسان إماما كبيرا لهذا المعبد الأكبر (الكون) جاريا على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا محاولا عبثا أن يقاومها ويدافعها ولم أعرف قط تعريفا للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب في السير على منهاج

الدنيا فان الفلاح في ذلك (إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخاطب بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر . أما انه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن انتاجها وانما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل مالم يكن بحق فانها حطب ميت أكلته نازا الاسلام فذهب والنار لم تذهب

أما القرآن فان فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب بأكثر رجال الصنعة وحسن الصياغة ولذلك لا عجب اذا قلت ان الأوروبي يجد قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاتها قفارا من القول الملل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلام السكى يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة . أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورواقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل مالم يعطه أتقى النصارى لانجيلهم ، وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضيء سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستئانة به في غياهب الحياة وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوتته في آذان الالوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرناً في كل آن ولحظة * ويقال ان من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة . اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل الى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم (براديه) وأمثاله انه طائفة من الأخاديع والتزاوي لفقها محمد لتكون أعذارا له عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مظامعه وغاياته ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فاني لأمقت كل من يرمى محمداً بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق يرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل ، والقرآن لو تبصرون ماهو لإجرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم في صدره حتى لا تكاد تجد مخرجاً وقل مناطق به في جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية

هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يحمله عن روية القول وتميق الكلام ، ويألها من خطوب كانت تطيح به وتطير فقد كان في هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن ، حروب مع قريش والكفار ومخاصمات بين أصحابه وهياج نفسه وثورانها ، كل ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهي تتامل طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدور بها دوامات الفكر حتى اذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء وكل عزم مقدس يهيم به ينحاله جبريل ووحيه (كذا) . يزعم الأفاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال . كلا . ثم كلا . ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر ينفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته في نظره حقاً وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة . والاخلص المحض الصراح يظهر لي انه فضيلة القرآن التي حببته الى العربي المتوحش وهي أول فضائل الكتاب أيها كان وآخرها وهي منشأ فضائل غيرها بل لاشئ غيرها يمكنه أن يعث للكتاب فضائل أخرى . ومن العجب أن نرى في القرآن عرقاً من الشعر (١) يجري فيه من بدايته الى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات . نظرات نبيّ وحكيم .

أجل لقد كان لمحمد في شؤون الحياة عين بصيرة ثم له قدرة عظيمة على أن يوقع في أذهاننا كل ما أبصره ذهنه . أنا لا أحفل كثيرا بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتبجيل لأنني أرى لها في الانجيل شبيها ولكني شديد الإعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار الأمور فهذا أعظم ما يلذني ويهيجني وهو ما أجده في القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتیه من يشاء

وكان محمد ﷺ إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال « حسبكم بالكون معجزة » انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ، هذه الأرض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدري من أين جاء وهو مسخر في السماء كل سحابة كإرد أسود ثم يسبح بمائه ويهضب ليحيي أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تتحَوَّلُ الكَلأُ لبنا وهي غفر لكم ، والسفن (وكثيرا ما يذكر السفن) كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحترف في سواء اليم لها حد من الريح ، وبيننا تسير إذا هي قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح ، معجزات والله كل هذه ، وأي معجزات بعدها تريدون . أستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ثم لكم جمال وقوة وعقل ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين ثم وهبكم الرحمة ، لقد أدهشتني جدا هذه الجلة فان الله ربما كان خلق الناس بالارحة فماذا كان يكون أمرهم ؟ » هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة ، وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال وأبين فيه عقلا راجحا عظيما وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا ، لو شاء لكان شاعرا فخلا أو فارسا بطلا أو ملكا جليلا أو أي صنف من أصناف البطل . نعم لقد كان العالم في نظره معجزة أي معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كانت يراه أعظم المفكرين حتى أُمّ الشمال المتوحشة وهو أن هذا الكون الصلب المادّي إنما هو في الحقيقة لاشئ . إنما هو آية على وجود الله ، منظورة مأموسة . وهو ظلّ علقه الله على صدر الفضاء لا غير . وكان يقول « هذه الجبال الشاخات ستحل وتذوب مثل السحاب وتفتي » وكان يقول « الجبال أوتاد الأرض وانها ستفتي كذلك يوم القيامة وأن الأرض في ذلك اليوم العظيم تصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء منثورا فتندهم وكان لا يزال واضحاً لعينه سلطان الله على كل شئ وامتلأ كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة » وهذا ما يسميه علماء العصر (القوى والمادة) ولا يرونه شئاً مقدساً بل لا يرونه شئاً واحداً وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالثقال وتستعمل في تسير السفن البخارية فسرعان ما ننسينا السكماويات والحسابيات ما يكمن في الكائنات من سرّ الله وما أخفى ذلك النسيان عارا وأكبر هذه الغفلة إنما ؟ وإذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر . إذن فعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية بقلة ذابلة . نعم وما أحسب العلوم لولا ذلك إلا خشبا يابساً ميتاً وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة السكيفة الملتفة التي لا تبرح تمّك بالخشب أثر الخشب فيما تمّك وتعطيك . ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولاً إلى العبادة أعني أنه لا علم إلا لمن عبد والا فإلّا العلم إلا شقشقة كاذبة وكما قلت ذابلة

إلى أن قال ﷺ وما كان محمد أخا شهوات برغم ما أنهم به ظلموا وعدوانا . وشد ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلا شهويا لا همّ له إلا قضاء ما ربه من الملاذ . كلا . فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ آية كانت . لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله . وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وانهم ليذكرون وأنهم ما يذكرون أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل دُنيا في نشر دين الله غير طامع إلى ما بطمّح إليه أصاغر الرجال من رتبة أودولة أو سلطان غير متطلع

الى ذكر أوشهرة كيفما كانت . رجل عظيم ور بكم والا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توفيرا واحتراما
واكبارا واعظاما وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به
يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة وكانوا حجة
الانوف ، أبة الضيم ، وعرا المقادة ، صعب الشكيمة ، فن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له
واستقادوا فذلهم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا ،
وكيف وقد كانوا أطوع له من بنائه ، وظنى انه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه
لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ماله محمد في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون
الأبطال ، وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة ، صوت فؤاد يهيم بين الرجاء والخوف أن يصعد الى ربه ولا تحسب
أن شدة تدينه أزرت بفضله . كلا . بل زادته فضلا . وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزى
غلامه « العين تدمع . والقلب يوجع . ولانقول ما يسخط الرب » ولما استشهد مولاه زيد (ابن حارثة) في
في غزوة (مؤتة) قال محمد « لقد جاهد زيد في الله حق جهاده وقد اتى الله اليوم فلا بأس عليه » ولكن ابنة
زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها . وجدت الرجل السكهل الذي دب في رأسه المشيب يذوب قلبه
دمعا فقالت ماذا أرى ؟ قال صديقا يبكي صديقه

مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا الانسانية الرحيم . أخانا جميعا الرؤف الشفيق وابن أمنا
الأولى وأميننا الأول . وانى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل
الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ماليس فيه ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا فهو قائم في ثوبه
المرقع كما أوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم الى ما يجب
عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع
الأعراب من مشاهد قسوة واسكنها لم تخل كذلك من دلائل رجة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من
الأولى ولا يفتخر بالثانية إذ كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره
بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم الى غد . وطالما كان يذكر (يوم تبوك) إذ أبى رجاله
السير الى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر فقال لهم الحصيد انه لا يلبث إلا يوما فاذا تزودون
للآخرة والحر ؟ نعم انه حر ولكن جهنم أشد حرا (ور بما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية) إذ يقول للكفار
ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب وهو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح
ومسألة فناء وبقاء ولم يك منه إزاءها إلا الاخلاص الشديد والجد المر . فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية
والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندي أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين
عن الحق وعيشة المرء في مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستكر من مثل هذا الانسان هو أن جميع أقواله وأعماله
أ كاذب بل انه هو نفسه أ كذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف (شعاع الله) متضائلا في مثل ذلك الرجل
مضطربا بين عوامل الحياة والموت فهو رجل كاذب لا أنكر انه مصقول اللسان مهذب حواشي الكلام محترم
في بعض الأزمان والأمكنة . لا تؤذيك بادرته لين المس رفيق الملمس كحمض السكر بون تراه على لطفه سما
تقيا وموتا ذريعا . وفي الاسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهي التسوية بين الناس وهذا يدل على
أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض والناس في الاسلام سواء والاسلام
لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم وقاعدة من قواعد الاسلام ثم يقدرها
بالنسبة الى ثروة الرجل فتكون جزأ من أر بعين من الثروة تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جيل والله

كل هذا وما هو إلا صوت الانسانية . صوت الرحمة والإحسان والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل (ابن القفار والصحره) . وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره فأقول « إيت الهيب في ذلك على الشراح والمفسرين لاعلى ماجاء في الكتاب فان القرآن قد أقلّ جدا من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن إيماء وتلميح وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا وألما جثمانيا حتى أسندوه الى النار ، ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قال - وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين - فالسلام والامن هما في نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة والشئ الذي عبثا يتلمسه الانسان في الحياة الدنيا . وقال أيضا - ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين - وأى رذيلة أخبت من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ، وأى شئ أهنأ من التآلف والتصافي ، وأى دليل أشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقذع عن ما ربهها . وهذا هو منتهى العقل والحزم فان مباشرة الذات ليس بالمنكر وانما المنكر هو أن تذلل النفس لجبار الشهوات وتقناده لحادى الأوطار والرغبات ، ولعلّ أجمد الخصال وأشرف المسكرات هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان وأن لا يجعل من لذاته سلاسل وأغلالا تعييه وتعتاص عليه اذاهم أن يصدعها بل حليا وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعتها ولا أسهل من نزعها وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينا أو كان وحى الفريزة وإلهامها فطريا فهو والله نعم الأمر . ويمكننا القول على كل حال أن الجنة والنار هاتين هما من الحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثل ما صادفت في القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها - يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى - ماذا ترون كل هذه الإطلا تمثل في خيال ذلك النبي الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق أعنى الواجب وجسامة أمره ، لقد كان هذا النبي يرى الحياة أمرا جسيما ويرى لسكل عمل انساني مهما حقر خطارة كبرى فما كان من سىء فله من السوء نتيجة أبدية وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية وأن المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ويهبط بموبقاته الى أسفل سافلين وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب في روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمت بأحرف النار . وكل ذلك قد حاول في أشد اخلاص وأحد جد أن يخرج للناس ويصوره لهم فأخرجه وصوره في صورة تلسم النار والجنة . وأى ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في أى أسلوب وأى صورة . وعلى كل حال فهذا الدين فيه للبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه . ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم ومازال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم . ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد . وسينادى الحارس الليلة في شوارع القاهرة أحد المارة (من السائر؟) فيجيبه السائر (لا إله إلا الله) وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكشيقة وأن الفقهاء ذوى الفيرة فى الله والتفانى فى حبه لياتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي فيهدمون أضراليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ونعم ما يفعلون . ولقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور وأحيا به من العرب أمة هامة وأرضاهمدة وهل كانت إلا فئة من جؤالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكامة من لدنه ورسالة من قبله فاذا الخول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعفة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا . وسع نوره الأنحاء وعم ضوءه الأرجاء وعقد شعاعه الشمال بالجنوب

والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس وأشرقت دولة الاسلام حقباً عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونى الحق والهدى على نصف المعمورة ، وكذلك الايمان عظيم وهو مبث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقى في درج الفضل وتعرج الى ذرى المجد مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان ، أستم ترون في حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التي كان لا يهصر بها فضل ولا يرجى فيها خير فاذا هي بارود سريع الانفجار وما هي برمل ميت واذا هي قد تأججت واشتعلت واثقلت نارها بين غرناطة ودلهي . ولطالما قلت ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس في انتظاره كالخطب فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا . والى هنا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين

(من هو توماس كارليل)

(من كتاب السيد عبد الرحمن البرقوقي مترجم هذا الفصل)

ولد (توماس كارليل) في قرية (اكفكان) باقليم (اناندال) بجنوبي (اسكوتلانده) لأربع خلون من شهر تشرين سنة ١٧٩٥ وذلك قبل نهضة (نابليون) لغزو العالم بأربعة أشهر وقبل وفاة (روبرت بارنز) شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر ولوأنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لكان رجلاً انكليزياً وكان أبوه بناء وبنيته بنى البيت الذي ولد فيه ابنه . دليل على متانة أخلاق الرجل واستبداد ذهنه واستقلال رأيه واستغنائاه عن الغير بقوة نفسه . وكان قليل الكلام كثير العمل جلد الحصة صليب العود ولكنه ليس بفظ ولا غليظ فكان قلبه بهر السلسل الزلال حولها من الحجر الأصم سور وحجاب وأبت أخلاقه أن تجاور

* خلائق اصغار من المجد خيب *

﴿ جوهرتان ﴾

﴿ الجوهرة الأولى ﴾ في ايضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات التي نحن بصدد

﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في ثناء المؤلف على الله وحجده له على نعمة العلم

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

إن الآيات التي نحن بصدد ما هي قوله تعالى - وكذلك أنزلنا إليك الكتاب - الى قوله - أولئك هم الخاسرون - فقوله تعالى - وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون - قد ظهرت آثارها في هؤلاء المؤمنين من المسيحيين وهم (اللورد هيدلي) و (الكونت هنري دي كاستري) و (توماس كارليل)

وأما قوله تعالى - وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون - فهذا قد ظهر ظهوراً واضحاً في كلام العلامة (الكونت هنري) إذ قال ﴿ إن محمداً ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مراراً « نبياً أمياً » وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه . ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى رجل واحد ذكره (جانسين دي تاسي) في كتابه الذي طبعه سنة ١٨٧٤ م ﴿ الى أن قال ﴿ ثبت إذن مما تقدم أن محمداً ﷺ لم يقرأ كتاباً مقدساً ﴾ وانظر الى مقاله (توماس كارليل) قال ﴿ ثم لاننسى شيئاً آخر وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ﴾ الى آخر ما تقدم وقوله تعالى - بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون * وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً

يعلم ما في السموات والأرض - الخ فان هذا ظاهر في كلام هؤلاء المؤمنين من علماء النصارى . ألا ترى الى ما ذكره (توماس كارليل) فيما تقدم قال ﴿ وكان محمد اذا سئل أن يأتي بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ، هذه الأرض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون في منابها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدرى من أين جاء وهو مسخر في السماء كل سحابة ككارد أسود ثم يسبح بمائه ليحيي أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعشابا ، أليس ذلك آية والأنعام خلقها لكم تحوّل السكّاء لبنا وهي خفر لكم ، والسفن (وكثيرا ما يذكر السفن) كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحترف في سواء اليم لها حاد من الريح و بينا تسير اذا هي قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح ، معجزات والله كل هذه ، وأي معجزات بعدها تريدون ، أليس أستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم انكم جبال وقوة وعقل ، ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات ، وتهرمون ويأتيكم الشيب وتضعفون وتموتون فتصبحون غير موجودين . ثم وهبكم الرحمة . لقد أدهشتني جدا هذه الجلة فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا يكون أمرهم . هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة ﴾ اهـ

أليس هذا بعينه هو قوله تعالى - قل انما الآيات عند الله - وقوله - أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم - الخ ﴿ يامعشر المسلمين ﴾

أليس هذا هو الذي قلته لكم في هذا التفسير . هذا التفسير ميزته الخاصة أنه يوجه هممكم الى معرفة هذه الدنيا ومخلوقات الله تعالى فانظر فأجد هذا العالم الفرنجى يقول إن معجزة محمد هو هذا الكون والنظر فيه . إن هذا العالم لم يقيد عقله كما قيدت عقول آبائنا المتأخرين في الاسلام الذين تركوا الكون ظهريا وراءهم واكتفوا بعلم الفقه . أليس هذا هو الذي أنادىكم به في هذا التفسير . امتاز هؤلاء العلماء بأنهم ينظرون للقرآن نظرا مجردا فحكموا بأن معجزة النبي ﷺ هو الكون أما نحن في القرون المتأخرة فقد أغمضنا أعيننا ولم ننظر للكون واكتفينا بكلمات جدلية في علم التوحيد والحمد لله قد آن لنا أن نرجع الى القرآن كما قدمت وقد بينت في هذا التفسير أن في القرآن (٧٥٠) آية في وصف الكون وهذا كله هو المعجزة الحقيقية لا الاكتفاء بما جاء في كتاب الشفاء للقاضى عياض وغيره . فنظر المسلمين في الكون هو الذي يجب العناية به

ياسبحان الله . هل نبينا ﷺ يحتاج في أداء رسالته الى جميع تلك الخوارق وان كان حصل بعضها بل معجزاته باقية هي القرآن والكون

ومن أعجب العجب انك ترى صديقنا (اللورد هيدلى) يشكو من الشكوى من القسيسين ويقول هم يأكلون أموال الناس بالباطل ويقرأ - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم - فهذا هو العجب أن نرى حقيقة أن دين الاسلام قد جاء لاصلاح الأمم جميعها بشهادة هؤلاء الأفاضل الذين عرفوا حقائق لم تكن لتخطر بالبال . هذه هي المعجزات التي لانفى بل تتجدد بتجدد الزمان اهـ اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة وأشهد انك أجبت دعائى وأعطينى أجل ما أتمنى في الحياة . فهل كان يدور بخلدى وأنا شاب أطوف على شواطئ الأنهار وفي الخلوات وفي الحقول وأبحث في هذه الدنيا الجميلة . دنياك البديعة . دنياك المملوءة زينة وبهجة وجمالا . أقول هل كان يدور بخلدى أن السؤاليين اللذين كنت أسألكهما قد أجبتهما لإجابة تامة وهما هل العالم منظم حتى أعرف أن له صانعا وماذا يقول أهل أوروبا في وجودك . هل هم يقولون إنك موجود لأنى رأيت لهم تفوقا على المسلمين . فهل هؤلاء الذين فاقوا الشرقيين يعرفون أن للكون صانعا . هذان هما السؤالان اللذان كنت في شبابه أثناء انقطاعى من الجامع الأزهر في شغل بهما كما ذكرته مرارا في هذا التفسير . وهناك سؤال ثالث وهو لماذا تأخرت أم الاسلام . هذه هي

الأسئلة الثلاثة التي كانت ترد على خاطري وذهبت بلي وأقضت مضجعي وحرمتني النوم في أكثر الأوقات والآن أقول وأصرح بأعلى صوتي اني عرفت أن العالم منظم وله صانع وهذا التفسير هو الذي جع أجمل ما اطلعت عليه ووثقت به ، وما أسعد حظي إذ كتبت فيه ماسمعه الآن أيها الذكي من آراء علماءهم وكيف أدركوا أن الديانات التي تقدمت الاسلام مرتبكة ضائعة ، أفلا أكون الآن سعيدا إذ كتبت في هذه الآيات ما أبان أن المسيحيين يعتقدون الاسلام وبأي سبب أسلموا ، وكيف أدركوا حقائق الاسلام ، وكيف يقول اللورد هيدلي انه الآن سعيد لأن الله معه في كل حركاته وسكناته ، وكيف يبرهن الاستاذ (توماس كارليل) ومثله (هنري) الفرنسي أن دين الاسلام هو الحق وهو يهاو ولا يعلى عليه ، وكيف نرى أن المسيحيين في زماننا قوم لا يفكرون مطلقا في حقائق الديانات ويسرون تبع القسيسين بالانفكير . إني أعلن اليوم أني قد نلت ما كنت أطلبه من الله وهو الوقوف على حقائق نظام الدنيا بقدر طاقتي البشرية واطلاعي على آراء الأمم المحيطة بنا في الديانات وما الحق منها ثم ادراجي في هذا التفسير بذور الإصلاح والاسعاد لأمم الاسلام وأنا موقن أن الذي نصرني في أدوار حياتي وأنا لنأني ما أتمنى من تلك الآمال الثلاثة هو الذي سينصر أُمم الاسلام بعد قراءتهم أمثال هذا التفسير وستغير خريطة الأرض ذلا وعزا وسعادة وشقاء ، ثم أقول من ذا الذي كان يظن أن أوروبا التي ملأت الآفاق بمدارسها وعلومها تكون عقول رجالها نائمة الى هذا الحد ، فانظر ما يقوله (اللورد هيدلي) فيما يلي

﴿ التحريف العمدي ﴾

كنت أطلع من وقت لآخر على كتابات (الارسلات المسيحية) التي يطبعونها بشكل كراسات صغيرة ويدعون فيها انهم يعطون معلومات حقيقية عن الدين الاسلامي ، واني لفي شدة الأسف لأن أعترف بأنني أشعر بذلة عظيمة وخجل كبير عند ما أجد أن أحد رجال وطني ينحني للرياء والتمويه والتحريف لكي يعزز آراءه نحو الدين . إن الدين الذي يمكن أن يدعى انه دين يجب أن يعلم العدل الدقيق والحب للحق وانه لينهل جدا الى أي مدى تسير (التعصبات الدينية المسيحية)

انظر الى وجه الصورة الآخر ، ألا تدهشك رؤية مظاهر روح الحسنى التي يقررها القرآن وملاحظة الهدوء الذي يلاقى به المجتمع الاسلامي الشاسع الجلات عديمة القيمة التي تحمل عابهم وعلى دياتهم باسم عيسى الكريم أحد أنبيائهم . اننا لانجد كما أعلم أي جور أو تحريف في أعمال محمد لأنه حتى وان كانت هناك كلمات شديدة من جهة المسلمين (يعذرون من أجلها) إلا أنهم لم يلجؤوا الى مثل هذه التهم المكذوبة كي يكونوا منها أهم أسلحتهم التي يهاجون بها خصومهم . انني وان لم أئين أسماء هذه الكراسات المشار اليها آنفا إلا أنه يمكن الحصول عليها بسهولة من الناشرين الذين أخذوا على عاتقهم طبع مثل هذا النوع من الأدبيات

اني سأذكر الآن بعض قطع من كراسات وضعت خصيصا لتشويه أخلاق النبي الكريم وسوف يرى كل شخص ذوعقل مستقيم أن سفالة الحق وطلب الانتقام هو السلاح الذي استعمل وليس في تلك الكراسات حجج ولا اشارات الى حقائق تاريخية بل ولا شيء أكثر من تقارير مثيرة متوالية يعرف المؤلف لها بأنها ليست ولا يمكن عدها تقارير جوهرية أو مبينة على أي أساس ، وسيرى القارئ منها هنا بعض أمثلة مقيمة إلا انني أعترف اليه لذكرى مثل هذا الهذيان الغير الصحي وعذري في ذلك أنه يجب أن يعرف العالم مقدار تعصب وغرابة شكل الهجمات التي توجد ضد المسلمين المتألمين من زمن بعيد والذين لا تسمح لهم حسناتهم وصبرهم وطول اناتهم وحسن ذوقهم بأن يقابلوهم بنفس هذه السفالة والأعمال المبتذلة ، وهاهي تلك القطع التي ظهرت في جريدة (نور آفشو) وهي جريدة مسيحية أسبوعية تطبع في (لوديانا)

(١) الوحي الذي نزل على محمد أني من عند الشيطان

- (٢) المحمديون في الواقع جرو أعمالهم كأعمال الجحوش
- (٣) محمد كان غليما يحب بجمال النساء وحبيبا
- (٤) المسلمون صربوطون بجمال الشيطان من رقابهم
- (٥) كل نساء بلاد العرب المتزوجات زانيات
- (٦) إن إله القرآن والحديث ، هو الذي خلق رجالا مملوئين بالخطيئة والذي ليس فقط لا يدهم على الطريق سوى بل يضلهم دائما
- (٧) خلاص المسلمين مبنى على ارتكاب الخطايا وجعلت الأعمال الطيبة عندهم كوسيلة للحرمان . أما الخطيئة فقد نظمت كفرض وحيد لحياتهم الطبيعية
- (٨) أسس محمد أمة جعلت ارتكاب الخطايا ديدنها وعلامتهم أن قوادهم يتعمدون الكذب ويسفكون الدماء ويرتكبون السرقة وقطع الطرق ويظنون أن الزنا من البشائر المفرحة وكل منهم مصحوب بالشيطان ومصيرهم الى جهنم جميعا
- والآتي أيضا قد جمع من مصادر مختلفة وظهر في المجلة الاسلامية تحت العنوان التالي
- ﴿ اثباتي كفارته - بقلم ت . هويل راعي الكنيسة الانكليزية بلاهور ﴾
- (٩) قال الكاتب مخاطبا المسلمين بتعمير وتوبيق « ذلك لأن قوادكم مجرمون شريرون وعقولهم ضعيفة » (صحيفة نمرة ٣)
- (١٠) بذور الجريمة التي تدعى نصيب الشيطان نبتت في كل وقت وآن من عقل محمد (صحيفة نمرة ١٠)
- (١١) من محض رغبته أوغوايته الشيطانية شكر محمد الأصنام وسجد لها (صحيفة نمرة ٢٠)
- (١٢) انه (أى محمدا) ظل خاضعا دائما للشيطان والسحر (صحيفة نمرة ٢٠)
- ﴿ حضرة محمد - بقلم القس . ج . ه . ه . راؤس - دكتور في الكهنوت ﴾
- (١٣) هناك أشياء كثيرة تبرهن على أنه (محمد) مجرم أثيم (صحيفة نمرة ٦)
- (١٤) الطمع والغضب كانا من الشرور القوية الغريزية في محمد (صحيفة نمرة ١٠)
- (١٥) كان مجرما (صحيفة نمرة ١٤)
- (١٦) انه نفسه (محمد) مفتقر الى الخلاص (صحيفة نمرة ١٤)
- (١٧) انه (محمد) لا يستطيع أن يتخلص من جهنم بأى طريقة (صحيفة نمرة ١٧)
- (١٨) كان مجرما وسيلقى في جهنم كباقي الخاطئين الآخرين (صحيفة نمرة ١٤)
- ﴿ حرا شفيق كون هاى - بقلم القس . ه . راؤس . دكتور كهنوتى ﴾
- (١٩) كان محمد مجرما ورغب في أن يمدح بعدم الخطيئة (صحيفة نمرة ٥)
- (٢٠) سيحتاج محمد الى شفيع ومخلص كباقي الخاطئين العاديين (صحيفة نمرة ٦)
- ﴿ دفع البهتان - بقلم القس روكلين ﴾
- (٢١) لانستطيع أن ندعو محمدا إلا نفس الرجل الغنى . يقصد الرجل الغنى الذى كان (كقول سانت توما) من نسل ابراهيم وعاش عيشة فاخرة ولما مات ألقى في جهنم (صحيفة نمرة ٦٩)
- (٢٢) أصحاب محمد (الصحابه الكرام رضى الله عنهم) يوصفون بأنهم سفاكو دماء وظلمة متوحشون وزناة وغشاشون واضوص وقطاع طرق وفاعاوكل أصناف الآثام وهلم جرا (صحيفة نمرة ٨٧)
- (٢٣) كان (محمد) رجلا دنيوا بمتبعه لشهواته ومثل هؤلاء الرجال عادة يغرقون في مثل هذه الأشياء ، الويل لكل أمثال هؤلاء الرجال لأن لهم مثل تلك الخاتمة وسيلقون جميعا في غضب الله أعنى في بحيرة النار

والكبريت (صحيفة نمرة ١٥٤)

﴿ صراط المسيح والمحمد - بقلم القس (ثاكر داس) المبشر الأميركي ﴾

(٢٤) كان محمد في شخصه مخطئا بل كان مخطئا حقيقيا (صحيفة نمرة ٦)

(٢٥) شكل محمد الحقيقي كما صورته العرب كان أعظم الفارقين في الشهوة البهيمية وحب النساء (صحيفة

نمرة ١٤)

(٢٦) كان محمد رجلا ضالا جهنميا (صحيفة نمرة ٣١)

(٢٧) يظهر انه (محمد) اصطيده الشيطان (صحيفة نمرة ٣١)

(٢٨) حضرات القراء انبهوا لثلاث توخذوا بنفس محمد (صحيفة نمرة ٣٥)

﴿ انجيل أندرونا ﴾

(٢٩) حامل علامة المسيح الدجال هو نفس الثعبان الذميمة الا أنه عند ما يفتح فيه يظهره فسكاه شخصا

في البابا ونبي بلاد العرب (صحيفة نمرة ٧٠)

(٣٠) دين محمد ودين البابا هما فكا ثعبان واحد (صحيفة نمرة ٧٤)

﴿ محمدى تواريخ اجمال - بقلم القس وليم من ريواري وطبعت بمطبعة الارسالية المسيحية ﴾

(٣١) محمد هو زعيم اللصوص والنشالين والسفاكين والغشاشين (صحيفة نمرة ١)

(٣٢) كان محمد من أعظم الخطاه (صحيفة نمرة ٨)

(٣٣) ولو أن جبريل اجتهد في أن يزيل ظلمة قلب محمد الذي كان يحتوى على بذور الجريمة أو السائل

المنوى أو قسم من الشيطان بالفسيل المتكرر إلا أنه لم يزل أبدا منه ، فمحمد قد سود فؤاده بالانهماك في

ارتكاب الجرائم المتعددة دون أن يرجعه عقله (صحيفة نمرة ٢٥)

(٣٤) قد سجن محمد في داخل بخارجهم إلا أن كل ذلك حصل له لارتكابه الجرائم التي ظل يمارسها

الى أن مات (صحيفة ٢٧)

(٣٥) علماء المسلمين ارتكبوا جرائم من الزنا والسرقه ومثل هاتيك الأشياء وقد أتوا هذه الخطايا

والتعديت اطاعة لرغبات محمد تحت ستار مبدئه « لا إله إلا الله » (صحيفة نمرة ٣١)

(٣٦) لم تخلق الشرائع المحمدية الزانيات المحمديات بكثرة زائدة فقط بل حتى الجنة لامتلائها بالخور

والعلمان قد أصبحت (كرخانة) منظمة (صحيفة نمرة ٣١)

(٣٧) ليست فقط الكلمة المحمدية هي التي تشجع المجرم على ارتكاب جريمة بحسرة فائقة بل تخدمه

أيضا كجة (بالبوعة) للهضم بهضم بها جرائمه ويشد بها عزمه لينكب على عيشة الجرائم المتناهية وبركات

الكلمة المحمدية تعم وتغمر الكرخانات (صحيفة نمرة ٤٩)

(٣٨) حالة إله القرآن كحالة البلد التي دمرت والراجا الأعمى تماما (صحيفة نمرة ٥٥)

(٣٩) ملعون من لم يعتقد في كفارة المسيح (صحيفة نمرة ٢٩)

(٤٠) القرآن مجموع من الحكايات التوراتية والانجيلية واليهودية والمسيحية والقرشية الغير موثوق بها

وقرائص الجهل وتقليدات غير معتمدة (صحيفة نمرة ٣٩) وهكذا دواليك

ليس في وسع الانسان في الحقيقة إلا أن يعتقد أن مدبجني وناسجني هذه الافتراآت لم يتعاملوا حتى ولا

أول مبادئ دينهم والاما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروفة لديهم أنها محض كذب

واختلاق . إن تعاليم القرآن الكريم قد نفذت ومورست في حياة محمد الذي (سواء في أيام تحمله الألم

والاضطهاد أو في زمن انتصاره ونجاحه) أظهر أشرف الصفات الخلقية التي لا يتسنى لمخلوق آخر اظهارها ، فكل

صفات الصبر والثبات في مقصده كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التي تأملها في مجاهداته الأولى بمكة ولم يشمر في كل زمن هذا الجهاد بأى ترعزع في ثقته بالله وأتم كل واجباته بشمم وحية

كان عليه السلام مشابرا ولا يخشى أعداءه لأنه كان يعلم بأنه مكاف بهذه المأمورية من قبل الله ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه وقد أثارت تلك الشجاعة التي لا تعرف الجفول (تلك الشجاعة التي كانت حقا إحدى مميزات وأوصافه العظيمة) إعجاب واحترام الكافرين وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله ومع ذلك فقد انتبهت مشاعرنا وزاد إعجابنا به بعد ذلك في حياته الأخيرة أيام انتصاره بالمدينة عند ما كانت له القوة والقدرة على الانتقام واستطاعته الأخذ بالثأر ولم يفعل بل عفا عن كل أعدائه

العفو والاحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك المسكارم كانت ترى منه في كل تلك المدة حتى ان عددا هظيا من الكافرين اهتموا الى الاسلام عند رؤية ذلك

عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعدّوه . آوى اليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة وأغنى فقراءهم وعفا عن ألد أعدائه عند ما كانت حياتهم في قبضة يده وتحت رحمة ، تلك الأخلاق اللاهوتية التي أظهرها النبي الكريم أقنعت العرب بأن حازها يجب أن لا يكون إلا من عند الله وأن يكون رجلا على الصراط المستقيم حقا وكرامتهم المتأصلة في نفوسهم حواتها تلك الأخلاق الشريفة الى محبة وصداقة متينة

فككل المحاولات عديدة القيمة في تحقير عظمة شريعة النبي العظيم بالبذاءة وسوء الاستعمال والحجج الموهومة المتضمنة كثيرا من طمس الحقائق والآثار المسكونة تقدمت كثيرا بتعمد القصد في إضلال الناس وإبعادهم عن الحقائق ، وهؤلاء الذين اتخذوا مثل هذه الأساليب يجب أن يتذكروا (اذا كانوا قد نصرنا مسيحيين) بأنه يجب عليهم على الأقل أن يقلدوا المسيح في عدم الكذب الذي كان أكره شيء في نظر أعظم معلمي الناصره (عيسى) . هناك أصناف عديدة من الكذب . الكذب الأبيض وهو غير مهم حيث انه لا يضر وغالبا ما يقال لحماية سمعة جار أو مساعدة صديق . وهناك الكذب الخبيث الضار الذي يهلك صديقا أو جارا ، الا أن ألغنها ما يقال باسم الدين لانه يحمل على تقليل أهمية المولى عز وجل وهي جريمة لا يوجد أعظم منها

في حلقة التوقيعات المستمرة سعى في اظهار أن الدين الاسلامي هو المسؤول عن الآثام والسلب والنهب الذي أتته القبائل المتجولة التي صدف أن كانت مسالمة اسما فقط . انه من العدل أن يلام المسيح مثل ذلك تماما على التعذيب واحراق الأساقف والآخرين أحياء في بلادنا هذه السعيدة وليس ذلك من سنين بعيدة . حقا إن الديانة المسيحية الصحيحة مصادقت قط على شرور (محاكم التفتيش) الخبيثة المريعة أو الفظائع التي لا يمكن عدّها التي فعلها المسيحيون في بعضهم وفي اليهود والمسلمين الآخرين الذين كانت لهم أفسكار دينية تخالفهم . اننى لأظنّ أبدا أنه يمكن اظهار أن المسلمين اجتهدوا قط أن يحشروا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حايق الناس بالقوة والفظاعة والتعذيب . واذا كان هناك مثل هذه الحالات فينبغذ يمكننا فقط أن نقول ان مرتكبي هذه الآثام ليسوا بمسلمين حقيقة لأننا لانستطيع أن نشير الى أن القرآن الشريف يصادق على أفعالهم . إن محمدا كان قانونيا ومحاربا وعند ما امتشق الحسام هو وتابعوه لم يكن ذلك إلا للدفاع عن أنفسهم فقط ولم يعتدوا قط إذ كان النبي نفسه وديار حيا بأعدائه المقهورين . لكي نستطيع أن نكون الرأي الصواب عن صفات شخص يجب علينا أن ننظر اليه أيام شدته وأيام رخائه فاذا كانت حالته دائما حالة شدة وظلّ دوما بين أيدي مضطهديه تكون الظروف حينئذ لم تسمح له بأن يفعل شيئا نحو أصدقائه أو أعدائه وهنا يستحيل أن يعرف تماما ما كان يمكن أن يفعله كما ان أرقى الصفات لا يمكن أن تدل عليها الوداعة والخضوع فقط بل يجب علينا أن نرى أيضا ضبط النفس وعفو الرجل الذي يتغلب على حواس الانتقام ويصل رفقه الى أقصى منتهاه . حقيقة ان العفو لم يتسع دائما ليشمل أعداء الاسلام الذين جعلوا قصارى جهدهم محاربة واجساد

الدين الاسلامي وأعملوا السيف في رقاب المسلمين ثورة وعصيانا لأن الرحمة من هذا النوع لا تدل إلا على مد
الفضاعة وازهاق الأرواح

قوة أخلاق الرجل تظهرها المحن والتجارب وصفاته النبيلة الكريمة يستدل على أنها في أتم كمالها عند
ما يظهر رحمة وعفوا في يوم مسرته بالنجاح والقوة وليس القلب الرقيق فقط هو الذي يحتاج اليه رجل الله إذ
لا يستطيع أن يزعم أي كان بأنه يمكنه الوقوف ليكون مثالا أو نموذجاً للجنس البشري وهو لم يختبر تصارييف
الدهر وتقلبات الحياة من فاقة وعز وتعاسة وسعادة وضعف وقوة . لا يمكنك أن تكون معلما حقيقيا للصبر ما لم
يمر عليك الغضب أو الألم أو النصب الذي يحتاج الى ممارسة الصبر . الضيق نقط هو الذي يظهر أعظم المواهب
العالية في الرجل الذي يحب الله من كل قلبه ومثل هذا المخلوق المحزون ينظر لكل نازلة أو مصيبة تقطع الفؤاد
كأنها تأديب من إله الرحمة وكلما عظمت المصيبة والباوى ازداد احترام وتذلل وندامة ذى الاعتقاد الصحيح
الذي يعرف أن ربه القادر الحفيظ يقوده بذلك الى الصراط المستقيم ، انه يؤمن بالحكمة غير المحدودة والحب
غير المحدود والرأفة غير المحدودة التي لها فيه الوحيد في هذا العالم ، انه يعلم أن خالقه عالم بأنه يبغض الشيطان
وحيله الشريرة وهذا الاعتقاد فيه الكفاية لشد عزائمه في أية معركة مع الشيطان مهما كانت شديدة لأنه يعتمد
على معونة مولاه في كل شئ ، فالرجوع الى الله (القدير ذى الجلال والاكرام الرحمن الرحيم الذي لم يقترن
اسمه بأى اسم آخر تنزهه عن مثيل أو شبيهه) يمد المؤمنين بثقة تفوق ادراك البشر

كل الأنبياء المقترنين في كل الأزمان والأوقات الذين كفوا بتبليغ الرسالات للبشر قاموا بتبليغها بكل
صدق وأمانة إلا انه لم يكن في كل هؤلاء الرسل من هو أرفع مركزاً من محمد صلى الله عليه وسلم

انه يفهم ويعرف جيداً أنه لا يمكن من العفو إلا من أصبح قاهراً وله القوة التي تمكنه من أن يصب
جام غضبه وانتقامه على أعدائه الذين كان بين أيديهم ضعيفا حتى يقدر الظروف التي كان فيها تحت رحمة
الآخرين ، لا يمكن لأحد أن يدعي الرحمة وهو لم يقع تحت طائل رحمة أى انسان قط ، وليس هناك في التاريخ
من يمكن أن تنسب له تلك الخاصية كمحمد النبي الكريم الذي رأى أعظم الازلال وابتدأ حياته يتما وان كانت
عين الله ترعاه وصرت عليه كل أطوار الحياة المختلفة وهو مستسلم الاستسلام الكلى لمولاه ، ولم تتلوث أخلاقه
العذبة أبداً بأى عمل دنى أو خسيس ، ولم يرتكب الظلم قط

نحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم هو أخلاق متينة وشخصية حقيقية وزنت واختبرت في كل خطوة
من خطى حياته ولم ير فيها أقل نقص أبداً ، وبما أننا في احتياج الى نموذج كامل يبنى بحاجتنا في خطوات
الحياة حياة النبي المقدس تسد تلك الحاجة

حياة محمد كرامة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقى والسخاء والكرم والشجاعة والاقدام والصبر والحلم
والوداعة والعفو وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكون الإنسانية ونرى ذلك فيها بألوان وضاعة . خذ أى وجه
من وجوه الآداب وأنت تتأكد بأنك تجده موضعاً في إحدى حوادث حياته ، ومحمد وصل الى أعظم قوة
وأتى اليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة لا تجارى وكان ذلك سبباً في هدايتهم ونقايتهم في الحياة

إن الغيرة الشديدة التي لا تعرف السكال التي كان يبذلها مؤسس الاسلام لاجتاد عبادة الأصنام قد أثارت
معارضة صريحة ضده فلم تكن هناك قبيلة من قبائل العرب بدون معبود صنمى ، وقد أشعلت كل قبيلة لظى
الحرب كي تؤيد وتحمى أصنامها ، حصل ذلك عندما كان النبي بالمدينة وفي الواقع قد قضى هناك أياماً أصعب
من أيام مكة ، ولما كان أعداؤه يشنون عليه الغارة دائماً من جميع الجهات أخذ في كل وقت وآن في مقاتلتهم
أو إرسال رجاله لمقابلة التعديات فكانوا طوراً ينتصرون وتارة يهزمون ، وكانت كل حادثة تخلق فرصة مناسبة
للنبي الكريم ليظهر وجوه أخلاقه العظيمة المختلفة التي لوجعها الانسان ونسقها لوجد العالم فيها قوانين وأحكاماً

للحرب أكثر انسانية وملاءمة مما يمكن لمروجي مؤتمرهاى أن يتصوّروا
 ما أشهر السلاح محمد قطب إلا عند الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية وربما ادّعى بأن الاسلام يستعمل
 السيف في نشر الدين ولكن ألد أعداء الاسلام القادحين فيه عجزوا عن أن يأتوا ولو بأقل دليل أو مثل من
 الأمثلة التي أثريتها الحرب على هداية أى قبيلة أو شخص الى الاسلام
 إن هذه الوقائع ما أفادت بلاشك إلا فى اظهار كرم أخلاق محمد الذى امتلاك كل قلوب مواطنيه وكانت أشد
 تأثيرا فى الهداية من أى شكل من أشكال الاكراه ، وقد أظهرت تلك المعاملة النبيلة التى كان يعاملها النبي
 للنهزمين عجائب وغرائب فما أثناء ملتمس إلا ونال أكثر مما كان يؤمل أو يشتهي انتهى

﴿ تذكرة ﴾

ظهر الحق واستبان السبيل . أيها المسلمون - الآن حصص الحق - وقبل جاء الحق وزهق الباطل إن
 الباطل كان زهوقا - ها أنا ذا الآن أقول بأعلى صوتي وأجهر بأن أهل الشرق وأهل الغرب الذين نحن معهم
 على هذه الأرض جميعا يعوزهم قول الحق والصراحة واظهار الحقيقة فلنجهر لهم جميعا ولنخاطب أولا المسلمين
 فنقول لهم ها هو ذا كلام العظماء من أوروبا فى ديننا الاسلامي ، فأى شهادة هذه وأى عظمة لدينا ولدينا
 ﷺ وأى حكمة أبدعت فى القرآن . هؤلاء نظارهم فى الاسلام نظار عال سام شريف لم يطأطأ رؤسهم عند
 دراسة الدين ويدرسوا القشور ويدعوا اللب ، لم يتوجهوا لمباحث المعتزلة وأهل السنة والصوفية والثلث والسبعين
 فرقة الاسلامية ولا الخلاف فى البيوع والرهن والحج والصلاة والصوم والزكاة وما أشبهها ، بل هؤلاء درسوا
 نفس الدين ونفس الروح المحمدية فشهدوا بما علموا ورأوا أن هذا الدين يعالو الى سماء المجد والشرف ويبحث
 فى الأفلاك والكواكب والطبيعة ومركز العلم . أليس هذا بعينه هو الذى حواه هذا التفسير . سبحانك اللهم
 وبحمدك . نحن قوم محصورون فى جدليات وعالوم جزئية وخلافات مذهبية وآراء سوفسطائية فنقول حنفية
 أو شافعية أو مالكية أو حنبلية أو شيعة أو وهابية ونسكع فى هذه الجزئيات ونذر الكليات أو يقول المتعلمون
 تعليما ظاهريا فى المدارس المصرية والفرنجية ، هل ديننا يوافق العلم ، إن العلم شئ والدين شئ آخر وقد جهل
 هؤلاء هذه الحقيقة التى قالها (توماس كارليل) و (هنرى) وغيرهما وقالها الامام الغزالي وابن رشد قبلهما
 وهى أن معجزات الاسلام هى نفس العلوم لا انه ضدها إذن الاسلام غير الديانات الأخرى فالاسلام خاصته
 العلوم وهى برهانه وهل برهان الشئ ضده ولولا هذه الحجب التى أسدات على العقول الاسلامية ما أعوزنا أن
 نقول فى (سورة طه) ان عبادة بنى اسرائيل لجل السامرى بعد ما رأوا معجزة العصا برهان على أن خوارق
 العادات لا تكفى فى الايمان فلا بد من العلوم العقلية وقد وجدنا الامام الغزالي أوضحها وهامهم أولاء علماء الفرنجة
 يقولونها ويقولون إن معجزة نبينا هو الكون ، فهذه حالنا التى كان من نتائجها أن المرحوم العلامة (ادوارد
 براون) الانجليزى الذى ذكرته سابقا فى هذا التفسير قال لى ﴿ لقد ذهبت الى تركيا والى بلاد الفرس بأمر
 حكومتنا الانجليزية لأعرف هل تتحد هاتان المملكتان فوجدت أن أهل ايران مشغولون بقتل الحسين
 والروس إذ ذاك يجوسون خلال ديارهم ويحاولون احتلالها ذلك أيام حكم القياصرة قبل اليوم بنحو ٢٥ سنة ﴾
 ويقول طالب من الطلاب الفارسيين ﴿ لقد حاربت مع الروس ضد الترك الكلاب الكفار لأنهم من أهل السنة
 الذين قتلوا الحسين ، فقال لى لقد ضحكت من عقول هذه الأمم وقلت الحسين مضى له ١٣ قرنا ولكن الروس
 يدخلون عليهم الآن ، فها هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ، قال وحكمت بأن هذه الأمم لا تتحد ﴾

أقول وقد تغيرت الحال الآن وتعاهد الفرس مع مصطفى كمال باشا بعد أن زالت تلك العقول الصغيرة .
 هذه حال المسلمين وأنا وأنت أيها الذكي منهم ، فنحن حصرنا فى إبان الصغر وزمن الجهل فى الجزئيات فلم يتضح
 لنا جلال الله فى سمواته وأرضه ولم نعرف جلال النبوة ولا بهجة الكمال المحمدى بطريقه مشوقة مثل الذى يقوله

أمثال (هنري) وأمثال (توماس كارليل) وأغمننا أعيننا عن كل ماحولنا من جمال وكمال ، وما نحن إلا قوم أشبه بمن حبسوا في سجن ضيق مظلم فيه قنديل ضئيل النور وفي خارجه أنوار الشمس البهجة الجميلة فهؤلاء الاوروبيون الذين نظروا في ديننا ، نظروا وهم خارج هذا السجن فعقاوه وأحبوه وأحبوا نبينا ﷺ وبينوا ظاهره على مقدار طاقتهم ، أما نحن الذين حبسنا في سجن التقليد والكتب الفقهية والجدلية وأمثالها فان كل من تخلص منا من ذلك السجن الذي لم يستضيء إلا بالضوء الضئيل الخارج من ذلك المصباح الضعيف عتده القوم خارجا عن زميرتهم ورموه بالجهالة ومن هؤلاء العلامتان ابن رشد والفرازي ، هنالك بقي المسلمون في سجونهم وانحصروا في جلودهم حتى جاءت هذه النهضة المباركة فخرج من السجن جماعة في أقطار الاسلام ومن هؤلاء قراء هذا التفسير فهم والحمد لله اليوم تقابلوا مع من خرجوا من ذلك السجن ورأوا ما رآه الخارجون عنه وعرفوا ربههم وجمال نبينهم ﷺ ومرتبة كتابهم وهم لا يأبهون بسفاسف العقول الصغيرة المحبوسة الجاهلة النائمة من أمم الاسلام ، هذا كلامي مع أمم الاسلام ، أما أمم الفرنجة فاني أقول ولي الحق ان أقول انهم الى الآن عباد التقاليد ، فلئن حبس المسلمون في ظلمات التقاليد واكتفوا بالعلوم الدينية الجزئية وهم الآن يريدون الخروج ، فهامهم أولاء الفرنجة محبوسون في دين قديم قدا كل الدهر عليه وشرب وقدر عرف عقلاؤهم الحقيقة ولا يقدر ان يجهروا بها فهم والمسلمون سواء في المخافة ، المسلم محبوس في ظواهر الدين والفرنجي محبوس في دين قد نسجت عليه عناكب النسيان وذلك كله بشهادة هؤلاء العلماء الأوروبيين فيما تقدم ، أليس هذا هو قوله تعالى - وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون -

أليس هذا أيضا هو قوله تعالى - واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولوكان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون - وآيات كثيرة في هذا المعنى ، فأهل الأرض إذن في الشرق والغرب قوم مقلدون فأين العقل إذن . الاوروبيون يعرف بعضهم حقيقة الاسلام فيخاف من أهله وذويه والمسلم يتبع مذهبا ويخاف مخالفة أسرته وأهل بلده ولكن الاوروبي فتح له باب العلم ، فيارب أنت خالق الشرق وخالق الغرب وخالق كل شيء وأنت عالم بهم ومقدر هذا عليهم ، ولقد وضعت كلا في درجته التي لا يستحق سواها ولقد قضت حكمتك اليوم أن تفتح البصائر وتلهم بهذا التفسير الذي سيقروه قوم في أنحاء هذه الكرة الأرضية ويكون هو وأمثاله بذورا لرقى العقول في الأمم ويصبح الناس في مسرة وجبور وحكمة ونور . هذا من جهة الدين . أما السياسة فان أهل الغرب وأهل الشرق لم يصلوا حتى كتابة هذه الأسطر الى سياسة تسعدهم وهذه أوروبا لها جمعيات كجمعية الأمم ، ويظهر لي أن أهل الشرق الآن يريدون أن يكونوا جمعية أخرى ويظهر أن الأمم ستتلاقى في السياسة ولا أدري متى يكون ذلك . واذا قرأت كتابي ﴿ أين الانسان ﴾ عرفت ماهي سياسة الأمم الحالية والتي قبلها ، فسياسات الأمم تقليدية لاعقلية وديانتهم كذلك بالتقليد لا بالعقل . ومن درس هذا التفسير ودرس كتابي ﴿ أين الانسان ﴾ وقف على حقائق الديانات وحقائق السياسات ونفع الأمم الشرقية والغربية في أديانهم وسياساتهم ، فلتكن أيها الذكي منهم ولما وفقك الله لقراءة هذا الكتاب كان ذلك علامة على انك من المصلحين النافعين للأمم الشرقية والغربية والله عز وجل يحب المصلحين - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين - اه

﴿ الجوهرة الثالثة في قوله تعالى - وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم - الخ ﴾ قد مررت عجائب كثيرة في هذا المعنى كالذي في (سورة البقرة) عند قوله تعالى - إن في خلق السموات والأرض - وكالذي في (سورة آل عمران) عند قوله تعالى أيضا - وترزق من تشاء بغير حساب - وكالذي في (المائدة) و (الأنعام) و (الحجر) وغيرها من السور ، ولكن لا بد من ذكر عجائب هنا لم تقدم هناك لئلا يتبرج بها

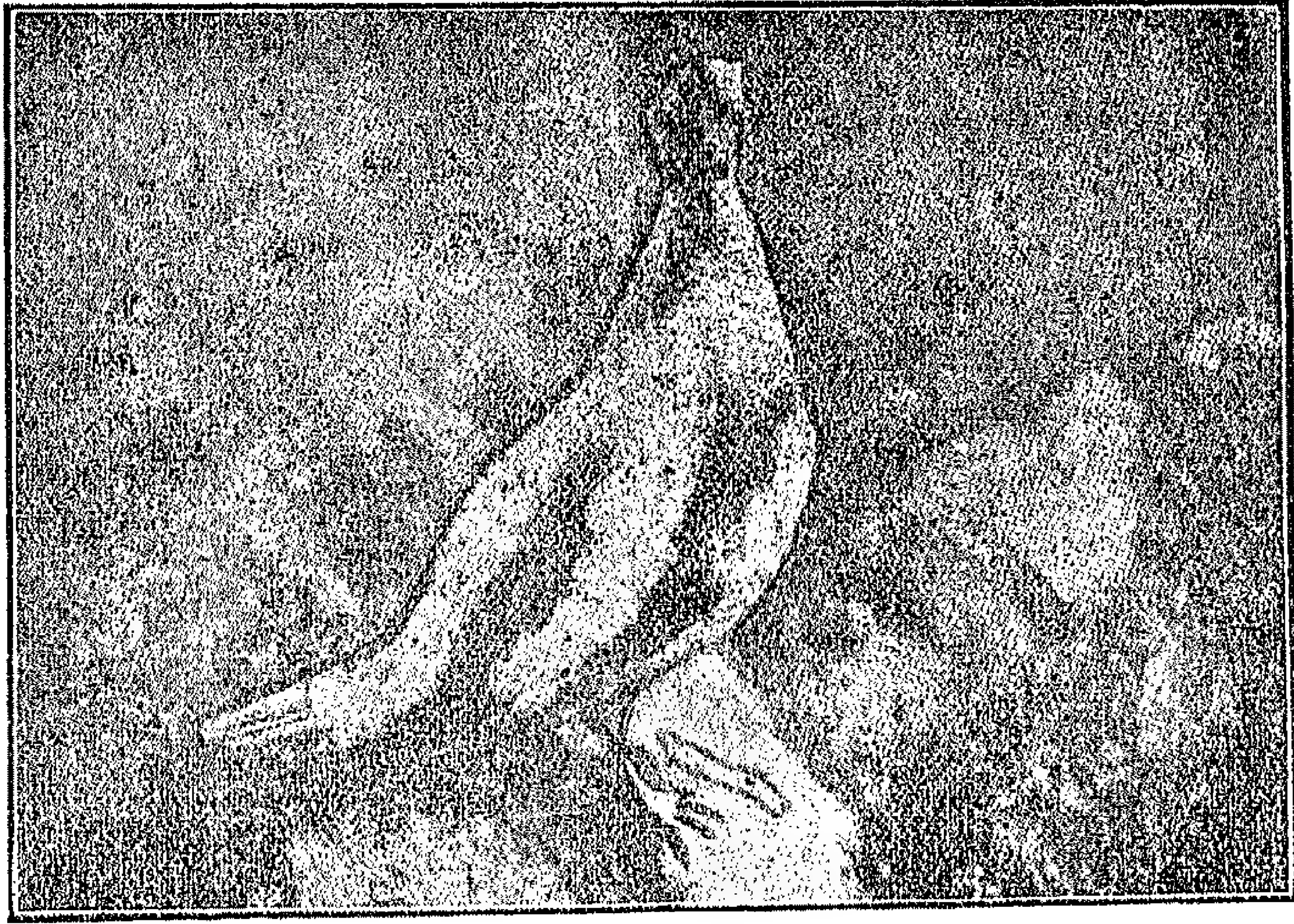
بها المفكرون ويفرح بها العلماء العاملون وهي جوهرة يقيمة في هذه الآية
 إن عناية الله بكل حيوان وكل نبات قد تجلت في هذا التفسير وظهرت أيما ظهور في (سورة البقرة)
 و (آل عمران) و (المائدة) و (الأنعام) و (هود) و (النحل) و (طه) و (النمل) و (صريم) وغيرها من سور
 القرآن ، ولقد جاء في كل سورة مما ذكرهنا وغيره مافيه حكمة وعبرة ونور وهدى وجمال وبهاء ولكن الذي
 أريد أن أبينه هنا تلك الغرائز العجيبة التي تفسر لنا قوله تعالى - قال ربنا الذي أعطي كل شيء خلقه ثم هدى -
 وتفسر قوله تعالى - والذي قدر فهدى - والحق يقال ان الانسان لا سعادة له إلا بأن يقف على جبال هذه
 العوالم ويعرف أن هنا عناية فائقة وحكمة تامة شملت أدق الحيوانات الذرية وتكفلت بسعادة كل مخلوق ،
 ولعمري متى أدرك الانسان أن هناك هذه العناية التامة والحكمة الشاملة فانه لا يشك انه مغمور بتلك الرحمة
 مشمول بتلك النعمة ويصبح ويمسى وقد رأى رحمة الرحيم العليم الحكيم في كل يابسة وخضراء وجبل وبطحاء
 وكأن صانع هذه العجائب معه أينما حل أو ارتحل ، وليس يصده عن تذكره في غدوه ورواحه إلا ذلك الحجاب
 الذي ألقى بين هذه العوالم الأرضية وبين مبدعها فاذا ارتقت النفس ونحن في هذا العالم فانها تصبح وقد أحست
 بالسعادة الأبدية قبل أن تزور الرمس ، ومن ملكت هذه الآراء فؤاده في الدنيا سعاد السعادة التامة وليس
 يزخره عنها إلا قواطع الفواجع ثم يرد اليها وهو في حبور ، فن ذا الذي لا يدهش إذ يسمع ما جاء في مجلة مصرية
 (١) أن الفأر الذي يسكن بيننا اذا أحس أن البيت الذي يسكن فيه يريد أن ينقض يفر منه حالا قبل
 سقوطه بساعات ، واذا أحس بذلك في المركب هرب قبل وقوع الكارثة فيها * روت سيدة انجليزية كانت
 تعيش في زمن الحرب في منزل قديم في (نورفلك) في انجلترا أن الجرذان كانت تقلق راحتها كل ليلة بصريها
 ففي إحدى الليالي شعرت بضجة خارقة من الجرذان وكان صوت الضجيج يتجه الى خارج المنزل فاستنجدت
 السيدة منه أن (الجرذان) تبرح المنزل ثم انقطعت الحركة وساد السكون وبعد ساعة واحدة سقطت قبلة من
 منطاد ألماني وأصاب جناحا من المنزل فدمرته ، أما الجرذان فكانت قد نجت كلها

وقد شوهدت الجرذان تبرح إحدى القرى في زمن الصيف وتقيم على ضفاف النهر المجاورة لها وتحفر هناك
 أوكارها ، ولكن قبل سقوط الأمطار بمدة قريبة تعود الى أوكارها السابقة في القرية فعند ما يراها الأهالي راجعة
 يتوقعون هطول الأمطار وفيضان النهر فهي لهم بمثابة ميزان للطقس يصدق كل الصدق في الدلالة عليه *
 ويروى عن إحدى المطاحن أن الجرذان برحتها فجأة واتجهت راجعة الى الغابة المجاورة وبعد وقت قريب
 طغى النهر على المطحنة واضطر صاحبها الى الفرار بنفسه من دون أن يستطيع أن ينقذ شيئاً منها (انظر شكل ٢٢)



(شكل ٢٢ - فار المنزل يشعر بما يهدد المنزل الذي يسكنه من الخطر فيفر منه قبل وقوع الكارثة)

- (٢) إن الجبل في الصحراء يمرغ رأسه في الأرض و يشخر شخيرا متواصلا قبل هبوب عواصف الرمال بوقت قصير فيكون شخيره منذرا باقتراب العاصفة من دون أن يظهر في الجوّ دليل ما على ذلك
- (٣) ويعرف الذين ألفوا صيد السمك (بالصنارة) أن هناك نوعا من السمك يختفي من النهر في أحد الأيام فجأة فلا يعثر له أحد على أثر و بعد اختفائه بقليل يطغى ويحدث فيضان كبير ، فاختفاؤه خير نذير للصيادين بان النهر على وشك الفيضان . ثم إن هذا السمك يمتنع عن الأكل الى أن تصل اليه مياه الفيضان فكأنه يتوقع أن تحمل اليه هذه المياه أغذية جديدة تستحق أن يصوم سلفا ويستعد لالتهامها
- (٤) ويعزى السبب في مهاجرة كثير من أنواع الطيور الى التنبؤ عن الطقس فبعضها يتبع الربيع أينما سار والبعض الآخر يتبع الشتاء . ومن المشهور عن الهنود الجر في أمريكا أنهم يتنبؤون عن الطقس بدقة عظيمة ، ولكن ثبت بعد التحقيق أنهم يستندون في تنبؤهم الى تنقلات الطيور والحيوانات . ومن المشهور عن الحيوانات التي تسكن الجبال أن لها خبرة عظيمة في تقلبات الطقس ، فالوعول والأرانب البرية وبعض أنواع الدجاج البري تنزل من أعالي الجبال الى منحدراتها قبل حلول عواصف الأمطار ويكون الجوّ عندئذ صافيا والسماء مشرقة ولكن لا يكاد ينقضي يوم أو بعض يوم حتى تتلبد السماء والجوّ بالغيوم وتسقط الأمطار . ومن المعروف عن الأرانب البرية التي تسكن الجبال انها تهجرها في بعض الأحيان وتغيب عنها بضع سنوات فلا تجد فيها أثرا لأرنب ، ويحدث في خلال ذلك أن الأمطار تبقى غزيرة ويكون فصل الشتاء قاسيا ولكن تلك الأرانب لا تلبث أن تعود فتكون عودتها دليلا على توقع طقس حسن وشتاء محتمل . ولا شك أن أنواع الطيور والحيوان التي لها غريزة التنبؤ عن المستقبل كثيرة جدا فلا نرى بنا حاجة الى الكلام عن كل نوع منها بمفرده . انتهى ملخصا من تلك المجلة المصرية (انظر شكل ٢٣) و(شكل ٢٤)



(شكل ٢٣ - صورة نوع من الأوز البري يرحل عن المنطقة التي يسكنها متوقعا اشتداد الشتاء وسوء الطقس فيه مع انه لا يوجد أى دليل ظاهر على ذلك عند رحيله)



(شكل ٢٤ - صورة انحدار الوعول من الجبال الى السهول)

هذا هو الذي أردت تلخيصه ورسم صورته في تفسير قوله تعالى - وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم - أكتبه في تفسيرها وأنا أعلم أن كثيرا من الناس يطلعون على هذا وهم لا يفكرون ولكن بيانه وتفصيله في تفسير الآية هنا يجعل له رونقا وحكمة يعقلها أولوا الأبواب

﴿ خطاب المؤلف لصانع هذا العالم ﴾

(١) اللهم إني أجدك جدا كثيرا ، أجدك على العلم وعلى الفهم
(٢) يارب هاأنا ذا أتيت الى الأرض وسكنت فيها وعشت في أمم ودول وممالك وهم يتقاتلون وأكثرهم لا يذكرون

(٣) بحثت عن الحقيقة أمد الحياة فعرفت انك خبأتها في صور المخلوقات ودفنتها فلم يطلع عليها إلا الطالبون
(٤) علمت من صنعك أن الغذاء والدواء والأوصاب والقتال والحروب والقضايا وأعمال الأمم ، كل ذلك دخان قد غشيت به عقول الأمم والأفراد فأكثرهم لا يعقلون
(٥) يتطاحنون ويتقاضون ويتقاطعون على زاد قليل وهم غافلون

(٦) وفي أثناء ذلك تظهر لطائفة من تلك الأمم جبالك الباهر وعلمك البديع وحسن صنعك الجليل فيبهرهم جبالك ويسحرهم بهجة صنعك ، فهؤلاء لأجلهم خلقت الدنيا ولاسعادهم أنزلت الدين ، هؤلاء هم الذين يقومون باسعاد أممهم علما وعملا ابتغاء وجهك ويصرفون حياتهم في فهم سمواتك وأرضك ولا يرون بك بديلا
(٧) يستخرون من الزخرف والجاه والمال والناس حولهم بها لهجون وهؤلاء لا يطلبون جزاء على عملهم إلا ما يحسون به في نفوسهم من الجلال والبهجة والنور ، قد استوى الماضي والحال والاستقبال عندهم وهم بذلك راضون ساكنون

(٨) يرون لطفك وعطفك ورحمتك ورأفتك بالجرذان إذ أنت أعلمتها أن قنبلة ستسقط عليها من مدافع الألمان ليلا فهاجت وماجت وخرجت ثم ساد السكون وبعد ذلك سقطت قنبلة الألمان ، فهذه الطائفة اذا سمعت هذا فرحت وانشرحت وعلمت أن لطفك يحيط بالعظيم والحقير والجليل والصغير والانسان والفيضان ويرون لطفك بها وقد أعلمتها بأن النار ستشتب في مخازن الجوارك التي عاشت فيها فهاجرت وتركت المكان
(٩) وأي عجب أكثر من أن الوعول والأرانب البرية تنزل من أعالي الجبال قبيل هطول الأمطار ولا

علامة في الجو وإنما هي حكمة الحكيم الرحيم أعلمتها بما سيكون

(١٠) الجهلاء من الناس لا يعبئون بهذه الرجفات إلا على سبيل الروايات ، أما الفضلاء من الناس فانهم يرون هذه العوالم فصلت تفصيلا وقد شملها كلها من سموات وأرضين تدبير محكم منظم لا يشغله العظيم عن الحقير ولا الكبير عن الصغير فهو مع الفأر في حجره ومع الطير في جوفه ومع الكوكب في مداره فكأن هذه الدنيا جسم واحد له رأس وقلب وحواس وأحشاء وأعضاء والروح لا تغفل عن الصغير ولا عن الكبير

(١١) فهؤلاء الحكماء الذين ظهرت لهم هذه المعاني وحضرت في أكثر أوقاتهم هم المصطفون الأخيار ، هؤلاء يدركون في هذه الحياة انهم في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمفكرين الذين يعقلون . وأى سعادة أكبر من الوقوف على الحقائق ، هذه هي السعادة التي تصغر في جانبها جميع السعادات ، هذه هي سعادة كلية من نالها فهو الآن في جنة العرفان ، يرى أن الرحمة والعلم والنعمة تحيط بالعالم الذي هو فيه وهو يحس بها وسواء من الناس بها لا يعلمون . إن في الأرض حجابا يحجب أكثر الناس عن هذا الجال كما قال تعالى - وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال - فالجباب مضروب على قلوب أهل هذه الكرة الأرضية ، ظهرت لهم الرحمة نقمة والسعادة شقاء ، وذلك لأنهم في عالم من العوالم المتأخرة هذا قوله تعالى - ولكن أكثر الناس لا يعلمون - بعد أن كتبت هذا حضر عندي قاضي محكمة (دكرنس) من أعمال (الدقهلية) بالوجه البحري من القطر المصري ولما اطلع على عجائب هذه الحيوانات وعلمها بما سيحصل لها قال وأنا أحدثك حديثا شاهدته بعيني رأسي ، ذلك اني كنت قاضيا في (مديرية سوهاج) من مديريات الوجه القبلي ومن عاداتهم هناك أن المدير وأعيان المديرية يحضرون اجتماعا عاما لافتتاح التربة المسماة ﴿ التربة الصوهاجية ﴾ وهذه التربة لا تفتح إلا أيام تمام النيل ، قال وقد حضر المغنون والمطباون والزامرون وما حضرت أنا معهم ليلا فرّ المدير على منزلي صباحا فلم يجدني فتوجه لي بالمحكمة وقال تعال معي لنفتح التربة اليوم ، قال فذهبت معه فوجدت أنواع الحشرات والحيات والعقارب وما أشبهها تجري جريا حيثما مسرعة لتدخل البلدة فسألت عن ذلك ف قيل لي إن هذه الحشرات والزواحف كل سنة قبيل فتح التربة بساعات نراها أخذت تهاجر من مساكنها التي استقرت فيها بهذه التربة اليابسة ، فهذه الحال نراها كل سنة انتهى

هذه هي الحادثة التي حدثني بها القاضي وهو أدرك مغزاها ولكن العامة لم يدركوا مغزاها ولم يعقلوها ولم يفكروا فيها ، فهم رأوها كما يرون شروق الشمس وغروبها ويرون الولادة والموت . إما العبرة والجمال وإما الحكمة فلا ، لهذا نرى المسلم اليوم انما ينقل هذه العجائب عن الأمم الفرنجية لأن كثيرا من الناس هناك يعقلون ما يرون ، هذا ما اتفق لي عند كتابة هذا الموضوع ، وهنا يسأل سائل فيقول « كيف أهتم هذه الحيوانات أمرا غائبا كهذا فأما الانسان فلا » ونحن نجيب عليه فنقول

(١) إن الله قدر فهدى وأعطى النعم والحكم بقدر ، أعطى الانسان دولا وممالك وحكماء وعلماء فليس من المصلحة أن يشغله بأمور قامت بها دولته التي وزعت الأعمال عليها

(٢) إن علم المستقبل لهذه الحيوانات مقدر بقدر وهو الأمر العام لعمومهم ومستقبلهم بدليل اننا نقتل الحيات ونصطاد الطيور ولا علم لها بما سنفعله معها . فهذا العلم بالمستقبل مقدر بقدر وهو النظام العام لها لا لأفراد خاصة

(٣) إن الانسان يتنبأ عند التنويم المغناطيسي كما تراه فيما تقدم في (سورة البقرة) عند آية السجدة هناك إذ ترى رجلا منوما (بفتح الواو) قد أخبر بسير مرضه ووصف الدواء لدائه ثم فاجأه عارض فمات فاستنتج العلماء أن نفوس الناس في حال ازالة الموانع الجسمية تعرف كل أحوالها المستقبلية ولكنها لا تعرف ما يصادفها من العقبات الخاوية

(٤) إن العلم بالمستقبل يصرف الانسان عن العمل له ويقعده في الكسل وذلك لا يرقيه ومارقي الناس

إلا بأن يجهلوا مستقبل الأمور ويلهموا إلهامات جزئية كإلهام أم موسى ثم هم بعد ذلك يبنون على هذا الإلهام علما وعملا . فأما إذا كان كل شيء ممهدا فلاسبيل إلى رقيهم إذن الرقي بالعمل ولاعمل إلا لمن حجت عنه الأمور المستقبلية فسارع لاسعاد نفسه المجهول عنده - وما كان الله ليطلعكم على الغيب - لتجدوا في عملكم حتى تلقوني . انتهى صباح يوم الاثنين (٨) يوليو سنة ١٩٣٩ عند طبع هذه السورة

﴿ لطيفة في قوله تعالى - وإن الدار الآخرة لهي الخيوان لو كانوا يعلمون - ﴾

هل لك أيها الذكي أن أحدثك عما خبرته بنفسى وعرفته من أحوال الناس في زماننا من حيث طول الأمل بسبب الوسواس الخناس فأحدثك حديث وزير عظيم ومدرس كبير ورجلين في بلاد الفلاحين بالشرقية

﴿ الوزير ﴾

كنت أعرف وزيرا من عظماء الأمة المصرية وكانت لى معه مجالس علمية فحدثنى يوما قائلا « هل أنت موقن يا شيخ طنطاوى بأن كلام الديانات حق وأن هناك جنة ونارا وسعادة وشقاء بعد الموت ، فقلت نعم ، فتعجب غاية العجب وقال وكيف ذلك فأخذت أذكر الحجج المعروفة فقال هو إن العلم الآن ينفي ذلك وما هذه الدنيا إلا دار مغالبة ومكابرة ومصابرة وجهاد ، فالغالب فيها هو الذى ازداد بها استمتاعا كما هو مذهب النشوء والارتقاء كما جاء فى كتاب (بخنرالأسفانى) شرحا على مذهب (داروين) وملخص المذهب أن العوامل التى نراها آخذة فى الارتقاء وأقواها يغلب أضعفها وهناك يحصل الانتخاب الطبيعى ، فالطبيعة لا تبقى إلا ما هو أكمل وتفنى ما هو أقل كالأوجال . خذ لك مثلا . نحن الآن نركب العربات فى الطرقات ولا نركب (الترام) كالعامة وإذا ركبنا فى قطار السكة الحديدية تربعا فى الدرجة الأولى بخلاف الناس جميعا وهانحن أولاء نسكن فى مساكن جيلة ونتمتع بنعم عظيمة ويضرب العسكرنا سلاما بالسلاح . هذا هو الانتخاب الطبيعى وهذا هو مذهب (داروين) وأنا به أدين . فهذا الوزير لم يوصله العلم إلى أكثر من أنه يعيش فى نعيم فى الدنيا وليس هناك عالم آخر وهو يكذب جميع الأنبياء . وأنت تعلم أيها الذكي من هذا التفسير أن نفس النعيم الدنيوى عذاب على صاحبه فن لم يروى نفسه ويتعلم القناعة فى الماء كل والمشارب الخ أحاطت به الأمراض وذل فى حياته ، ولكن هذا وأمثاله لا يعقلون أكثر مما أسمعتك فى هذا المقام »

﴿ المدرس العظيم الممتاز ﴾

لقد كان بمدرسة دارالعلوم مدرس كبير تخرج على يديه مئات من المدرسين فحدثنى أحدهم مفيدة قال ناقلنا عن أستاذه ذاك المدرس العظيم ، قال لقد كنت فى أول حياتى مجاورا بالجامع الأزهر ولم يكن لى مال وإذا جاء زمن البطالة توجهت إلى قريتنا بالصعيد فكنت إذا أردت أن أذاكر الدروس أجلس تحت شجرات بالقرب من منزلنا ، فلما أن صرت موظفا ومنّ الله علىّ بالثروة والغنى اشتريت نفس تلك الأرض التى فيها الشجرات التى كنت أجلس تحتها للذاكرة أيام الفقر ، فلما أن اشتريت هذه الأرض استأجرها مؤجرون من الفلاحين فزرعوها قطنا فتوجهت يوما لتلك الأرض وأخذت أجوب جنباتها وأجول فى عرصاتها وقد أعجبنى القطن فتذكرت أيام الفاقة إذ كنت أجلس تحت الشجرات ولا أملكها فأخذت من شدة الفرح أغنى لهذه النعمة التى نلتها . فهذا المدرس رأى أن غاية نعم الحياة أنه يملك هذه الأرض ولما أحسن بالنعمة أخذ يغنى ونسى أنه من الجامع الأزهر وأنه كبرت سنه وإن الله يقول - وإن الدار الآخرة لهي الخيوان لو كانوا يعلمون - ونسى قوله تعالى - إن الله لا يحب الفرحين - وكان خيرا له حينما رأى هذه النعمة وتذكرها أن يكثر من الاستغفار كما قال تعالى أنبيه ^{عليه السلام} - إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان توابا -

فأما الرجلان ببلاد الفلاحين بالشرقية فإن أحدهما وكان له مقام واحترام بينهم قال . ما القصد من

الحياة ، القصد منها اننى اذا كنت ألبس قفطانا لا أنزل الى ملابس الفقراء ، وأما الثانى فأنى سمعته يقول ما القصد من الحياة عندنا الجاموسة والبقرة وفيهما اللبن وعندنا الذرة فنحن والحمد لله أغنياء وانما ذكرت هذا لك أيها الذكى لأذكرك بما تعرف من الناس حواك جميع أهل الأرض لا يخرجون عن أمثال ما ذكرته الآن ولكن العلم والحكمة والدين تخرج الانسان من فكرة العامة الى مقام العلماء وآداب الحكماء واذ ذاك يعرف الانسان قوله تعالى - وان الدار الآخرة هى الحيوان لو كانوا يعلمون -
فيا ليت شعري ماهى الوزارة قصيرة الأجل وماهى الثروة والمال لاسيما لمن كبرت سنه فهى إن دامت له فرضا فان حياته وصحته لا يدومان . انتهى والحمد لله رب العالمين

﴿ خاتمة السورة ﴾

(خطاب العنكبوت للمفكرين فى الاسلام فى زماننا والذين سيقرون أمثال هذا الكتاب ومن بعدهم)
تقول العنكبوت . أيها العلماء اننى آية لكم لا للجهال . ألم تروا انكم تبنون بيوتكم بطين تحرقونه فيصير أجرا وبه تبنون القصور والدور وتلبسون ملابسكم مما تستنبتونه فى الأرض من الكتان والقطن وما تستخرجونه من الحرير الذى ينسجه الدود وتستعينون بالحديد والخشب على اكمال البناء وتشيد القصور وصنع السفن فى البحار والطيران فى الهواء . فأنتم تبنون وتلبسون وتركبون بالآلات مختلفات . أما أنا فلى مصنع واحد فى جسمى منه أبنى بيتى وأصنع طيارتى وأصطاد فريستى وأبنى قنطرتى قام مقام الخشب والحديد والطين واحرقه والقطن وغزله ونسجه وما يتبع ذلك من آلات تنسج وتغزل وأخرى لسقى الأرض ولتنقية الحشيش الخ فدنياكم كلها قد حيزت لى بأكلها وهذا المصنع الذى فى جسمى انما هو من غذائى الذى تستقذرونه . أنا التى أكلت الحشرات الفاتكات بزرعكم اللطفات لجوكم بتعاطى المواد العفنة فأنا ألتقاها وأفترسها بعد أن أدت وظيفتها لكم ولم يبق إلا ضررها . فهذه تنقلب فى جسمى فى محل مخصوص ما يشبه الحرير أو القطن أو الكتان . هذا هو المصنع الذى أعطانيه ربى قام مقام آجركم وخشبكم وحديدكم وقطنكم وتيلكم ولم أحتج الى نجار لبناء سفينتى ولا بناء لبيتى ولا مهندس لحجراته ولا آلة بخارية لسقى قطنى . بل مخزنى الذى اختصنى به الله هو الذى كفانى كل ما أحتاج اليه وهذا أيها العقلاء فى كتابكم . يقول الله - وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم - فهذه إحدى خزائنه خصنى بها وحرم سواى وهوناظر الى راحى بها . أفليست ترون أيها المفكرون فى هذا العالم انى أكفيكم فى معرفة منظم هذا الكون الذى أحسن كل شئ خلقه . أفلاترون أن هذا هو الحسن والجمال فقد أحسن الله خلقى ولكن لا يعرفنى إلا العلماء المفكرون . فان أردتم دليلا على ربى فأنا أكبر دليل بل نظامى وحده كنظام السموات والأرض وان نظرتم الى أمر المدنية والرقى فأنا مع ضعفى وان بيتى أضعف البيوت . بنيت على الشجر فى أرضكم بيوتى واتخذت سفنا فى بحاركم وأتم تجهلون وظيفتى بينكم ولا تعلمون انى حارسة لخلقكم وطرت فى الجو بطيارتى . أفلاتخجلون أيها المساهون أن أطير بالآلى المنسوجة من غزل جسمى وقد قلدى فى الفرنجة وأنتم لا تقلدون وفى آيات ربكم لانفكرون

هذا هو بعض معنى قوله تعالى - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - انتهى تفسير هذه السورة ليلة الخميس الخامس من شهر مارس سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع عشر من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم)
ويليه الجزء الخامس عشر * وأوله تفسير سورة الروم)

(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبية . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣	١١	فهم كيفية	كيفية فهم	٨٠	١٤	وامضت	وأقضت
٥	١٤	مع	مع جواز	٨١	٢٣	الاستغفار	الاستغفار وسنزيده
٧	١١	لازمة	لازمه				بياناً قريبا في الجوهرة
٩	٨	طيبا ومهندسا	نبييا وملكا				الثانية
		وإلهيا	وحكيا	٨٤	٣٥	مينا	مينا كما تقدم
١٤	٣	لينذر	لتنذر	١٠٠	١٤	ثلاث	ثلاثا
٢٠	٢١	مذبذبين	مذبذبين	١١٦	١٧	غارات	قارات
٢٢	٢	ان موسى	ان موسى لما هم	١٢٣	٢٥	ما هو ماتحته	ما هو تحت
٢٢	٤	لما هم		١٢٥	٦	الضيقة	الضيعة
٢٨	٣٢	المربعة	المكعبة	١٢٦	٤	١٢٦ ر ٤	٢٢٦ ر ٤
٢٩	٢٩	غربية	عربية	١٣٠	١٣	يرج	يرج
٣٢	١٣	بغير هذه المباحث		١٣١	٣	الطبيعة	الطبيعة
٣٢	٣٣	هـ	ها	١٣٩	٧	كرتين	كرتين
٣٤	٦	عن	من	١٣٩	٢٢	عنكبوتا	
٣٩	١٩	حاسة الذوق هي	حاسة الذوق	١٤١	١٨	التفسير	الكتاب
٣٩	١٩	ليتشاوروا معه	ليتشاوروا	١٤١	٢٠	النمل	النحل
٤٠	١٠	بصناعة يدها	بصناعة اليد	١٤٤	٧	النمل	النحل
٤٦	٢٢	البطين	الأذن	١٤٤	٧	النمل	النحل
٤٧	٩	الأعلى	الأعلىين	١٤٩	١١	فهذه القوة المرسومة	فهذه الكرة
٥١	١١	هذه	هذا			أمامنا	المرسومة المتقدمة
٥١	١٨	تغذوها	تغذوها	١٦٤	٤	صحى	ضمي
٦٦	١٥	بقوله	بتنوء	١٦٨	٢٦	الصواب	الى الصواب
٦٨	٦	في المراتين	في المراتين	١٦٨	٢٩	مختلفان	مختلفتان
٦٩	٢	ولجهل	لجهل	١٦٨	٣٠	ومن الغير متعصبين	ومن غير المتعصبين
٧٢	٢٨	ويحضوهم	ويحضونهم	١٦٩	١٤	ولو	
٧٣	٢٧	وهو ذلك	في قوله تعالى	١٧٤	٣٣	العرب	العرب
٧٤	٣٥	ولا تتجزأ	ولا تتجزأ الى	١٧٥	١٣	ياصول	ياصول
		عناصر أخرى		١٧٧	٧	المحاط	المحوط
٧٥	١١	فدمننا	فدمننا	١٧٧	٣٤	الأطفال	بالأطفال

صواب	خطأ	سطر	صحيفة	صواب	خطأ	سطر	صحيفة
وعظماهم	وعظماهم	٩	١٨٨	وهي الزبور والتوراة	وهي الزبور والتوراة	١٣	١٨٠
للكون	الكون	١٤	١٨٨	والقرآن ، والقرآن	والقرآن الخ (هذا		
بعد واحد	بعد	٣٤	١٨٨	بالنسبة للإنجيل	منقول من أصل		
تذهب	نذهب	٦	١٩٠	كالإنجيل بالنسبة	(الترجمة)		
يهطل	يهضب	٨	١٩١	للتوراة			
قبض	قيض	١١	١٩١		عليه	٩	١٨١
شاعره	شاعريه	١٥	١٩١	سوق	سواق	٢١	١٨٣
المتوحشة	المتوجشة	١٨	١٩١	مسيحيين حقا	قد نصروا مسيحيين	١٦	١٨٤
اتهم	أتهم	٣٠	١٩١	حق صراح	خقا صراحا	٥	١٨٥
أحد تلاميذه	أحدهم مفيدة	٢٣	٢٠٧				

(تمت)

فهرست

الجزء الرابع عشر

(من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم)

صحيفة

- ٢ ذكر ثلاث مقدمات لتفسير سورة القصص ﴿المقدمة الأولى﴾ نموذج في كيفية فهم قصص القرآن التريية والآداب في قصص القرآن وبيان أن الأمم الإسلامية أهملت القصص وفهمه مع أن عليه مدار ارتقاء الأمم سواء أكانت حكاية خيالية أم حقيقية . وبيان مزايا قصص القرآن على خيالات المؤلفين وبيان مثال حال المسلمين مع قصص القرآن كمثال فلاح بو يرى عنده الماس في حوائط منزله فظنه حصي ففطن له رجل انجليزى فاشترى منه ذلك المنزل بمال وفير . وهل أخفى الله عنه أهل الكهف إلا ليعين لنا أن المدار ليس على حقائق التاريخ بل على الموعظة منه ﴿المقدمة الثانية﴾ في محاورات بينى وبين فتى في الجزيرة في عشرة مواضع مثل علاقة العلم بالدين وكيف سمع سليمان النملة وهي تتكلم ومعنى - علمنا منطق الطير - وهكذا من مسألة العفريت والمحارب والقصاع الكبيرة ودابة الأرض وتسخير الريح ومحاورات بلقيس والاجابة على ذلك بأن الاسلام عود متبعيه أن يعلمهم كل شئ وأن الكلام على السنة الحيوانات مستحسن عند كل الأمم (انظر كتاب كلياته ودمنة) وان من الحيوانات حكيمة كالنحل والنمل وعاملة كالجاموس والبقر والله جعل الحكيمة معاملة للانسان ، وبعده هذه المقدمة نقول إن الهدهد والنمل وأمثالها يسمعون الجاهل فيظن المعرفة ، والعالم يعرف المقصود بالمجاز والاستعارات والكنيات ، وأقرب شئ لهذه القصص الكنيات وهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز ارادة المعنى الأصلي كما في قول الخنساء في دريد بن الصمه * معاذ الله يرضعني حبركي * الخ فالجاهل يظن الرضاع من هودا فيه والعالم يقول إن المقصد يرجع لزواجها بأبي الصبي لا ارضاعه
- ٦ بيان ما ترشد اليه قصة سليمان وهي عشرة مثل سرعة نقل الأخبار واستخدام المعادن والهندسة والاعتماد على النفس والعلم والافتداء بالله الخ
- ٧ ثم بيان ما أخذ ذلك كله وأن سليمان لم يذكر الحيوانات العاملة بل الحكيمة كالهدهد والنمل ، ثم بيان أن الأمم المعاصرة تعلم هذه الحيوانات
- ٨ بيان أن مشاورة بلقيس تعلمنا المجالس النيابية وأن الاخبار بالغيب لا يعول عليه الخ
- ٩ المقدمة الثالثة ﴿أحوال الدول في قصص فرعون وموسى ، وبيان أن تاريخ المصريين يقول لنا إن ادريس المثلث أول من خط بالقلم وقد ورث المصريون عنه علومات تكشف الآن وكانوا موحدين ثم أشركوا بتمادى الزمان ودخل الفرس بلادهم فالليونانيون فالرومان فالعرب
- ١١ بيان سقوط الدول بما أن للغلبة وقتا معيناً ثم تحل محلها الأمم الضعيفة ، ناهيك بما وقع للرومان من غلبة الأمم الوحشية عليها ، فأما في الأمم فله عشرون سببا استنتجتها من هذه الآيات عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ما عنده ، فالعشرة الأولى حسن السياسة مع الأمم الفاتحة والقوة العامة والأنفة وسياسة اللين عند الحاجة والثبات على المبدأ وأشعار النفوس بالشهامة وتربية الناشئة على مبادئ جديدة مناسبة للزمان والفرار بالأهل عند الحاجة اليه وازدواج اللين والشدة . فهذه العشرة

مستنتجة من آيات هذه السورة تراها مفصلة

١٣ فأما العشرة التي هي من الله فهي الإلهام ، إجابة الدعاء ، شدّ الازر ، النصر والنجاة من الضر ، الهداية حسن السمعة ، القربى من الله ، التمكّن من الخلافة في الأرض ، انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ، فهذه من الله في مقابلة العشرة الأولى

١٤ تقسيم السورة وهي ﴿ أربعة أقسام ﴾ القسم الأول ﴿ من أولها الى قوله - لعلمهم يتذكرون -

١٦ التفسير اللفظي لهذا القسم

١٧ ﴿ الفصل الأول ﴾ في قوله تعالى - إن فرعون علا في الأرض - الخ وملخص هذا الفصل علوه في الأرض . استضعافه خزبا من أخزاب مصر . قتل الأبناء . استبقاء النساء . انه مفسد . فهذه خمسة قابلها بنظيرها وهي (انه يمتن على المستضعفين . ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين ، ويمكن لهم في الأرض ويرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

١٧ رأى (سقراط) في السياسة وهي عنده ﴿ خمس درجات ﴾ درجة الفلاسفة فقوّاد الجيوش فالأغنياء فالحكام الديموقراطي أي حكم المجموع فالحكم الاستبدادي

١٨ البولشفية في مصر قبل (٤٠٠٠) سنة مصداقا لهذه الآية - ونريد أن ننق على الذين استضعفوا في الأرض - وبيان أن فرنسا لم تقم ثورتها إلا بعد أن تهيأت لها الأذهان في القرن الثامن عشر وهكذا دولة الروس لم يقتلوا القيصر في زماننا إلا بعد شيوع الآراء البولشفية فيها هكذا حكم الأمة المصرية قديما فالأسرة التاسعة كان فيها مفكرون فزعزعوا العقائد فلما جاءت الأسرة العاشرة هزم فرعون مصر أمام جيوش الخارجين عليه وأصبحت البلاد فوضى . وبيان ما قاله الكاتب (ابفور) للملك وهو غائب « ان الفقراء أخذوا مال الأغنياء وأصبح من كان يلبس الملابس الفاخرة لا يلبس إلا الأهدام البالية » فالأغنياء قديما في حزن والفقراء في فرح . وأبان أن المحاكم بعثوررقها وخربت وأن الأمراء والأميرات جاعوا الخ هذه هي الحادثة الأولى . أما ﴿ الحادثة الثانية ﴾ التي جاءت مصداقا لهذه الآية فهي أن الأمة الانجليزية اليوم قد انتصر فيها العمال بلاضرب والوزير اليوم عامل منهم كان فقيرا يسمى (ماكدونالد) ومعه من الوزراء عاملة كانت فقيرة تسمى (مس بوند فيلد) . الكلام على اللطائف الإلهية لانقاذ بني اسرائيل وهذه اللطائف (١٣) بتامها أنقذ بنو اسرائيل من الوحى الى أم موسى والتقاط آل فرعون له وخوف أم موسى وانه أوتى علما وحكمة وقتله القبطى وفروده ماء مدين وسقيه لابنتى شعيب وتزوج به باحداهما وارسال موسى عليه السلام وظهور المعجزات وكفر فرعون وجنوده وهلاكهم وأن موسى أوتى الكتاب فهذه (١٣) لطيفة

٢٦ بيان أن هذه الحوادث ابتدئت بفكرة خطرت لأم موسى فاتبعتها ولم تياس من رحمة الله . وبيان أن هذا الخطر يخطر كثيرا لأمم الاسلام الحاضرة الآن ليخرجوا من النذل ولكن يعرضون عنها ولكن الله معونته عامة ولا ينهاها إلا من تعرضوا لها

٢٧ ﴿ نظرة المسلمين في هذا الزمان ﴾ سينظر مساهمو هذا الزمان في القصص فيقولون « اذا نجى بنو اسرائيل بإلهام خطر لأم موسى ولم تتركه فرفع منار أمتها ؟ فكيف نترك نحن خواطرنا الشريفة للخروج من النذل ؟ أليس هذا يأسا من رحمة الله الذي ملأ العقول بالأفكار الجيلة ولا مشبط للمسلمين إلا بعض الشيوخ الجاهلين فهم كسحب حجب نور شمس الرحمة وبعض أولئك الذين يضيعون أوقاتهم في تحقيق أصل هذه القصص

٢٨ هنا لطائف مثل ان الناس يتعجبون من أم موسى والوقائع التي بها نجح بنو اسرائيل . وما هذه العجائب بجانب السحر الخلال ، في غرائب المخلوقات وبدائعها إلا كواحد بالنسبة لآلاف . ومثل ان لله في كل زمان أناسا لهم نزعات بها يرفع الضعفاء ويذل الأقوياء مثل ما فعل (ماركس الألماني) الذي قال للناس « إن نظام الحكومات فاسد » فهذه الفكرة سرت في بلاد الروس وقتلت القيصر وباثقلاب هذا النظام استقلت أمة الفرس التي كانت نهبا مقسما بين انكثرا وروسيا القديمة القيصرية . فهذه فكرة ألمانية امتدت آثارها الى بلاد الفرس وغيرها فهي كامتداد إلهام أم موسى من نجاة ابنها الى نجاة أمتها

٢٩ ذكر البلاغة التي رآها الأصمعي في كلام الفتاة عند الكعبة وقولها له « أتعد هذا بلاغة بعد قول الله تعالى - وأوحينا الى أم موسى - الخ » ولكن ما نكتبه في هذا التفسير هو المقصود لا البلاغة اللفظية التي عكف عليها الكثيرون

٣٠ بيان أن البلاغة المشهورة للمبتدئين ووراءها خزان العلم ومنها ما جاء في هذا التفسير فلاقتصر على الإيجاز والاطناب والجناس نقص وكيف تستوى البلاغة اللفظية والمعاني الكامنة في مسألة العصا وعجل السامري وأن ذلك جاء لتعليمنا أن المدار على الحقائق لا على الظواهر . إن الاسلام رحمة للشرق والغرب فانظر الألفاظ العربية في لغات أورربا مثل العود وأمير البحر والحبل والخزن ، وهكذا أخذت أوروبا الأرقام الهندية والجبر والهندسة وهكذا

٣١ جوهرية في قوله تعالى - إن فرعون علا في الأرض - أنت يا الله رفعت آباءنا العرب فبدروا بدور العلم في الأمم ثم دالت دولتهم وهاهي ذه تريد الرقي وهذا كتابك أفسره وقد جاء في زمان اطلعت فيه على سياسات الأمم قديما وحديثا ففهمنا يارب معنى قولك - فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا - ومعنى - إن الملوكة اذا دخلوا قرية - الخ وذلك موافق لقولك هنا - إن فرعون علا في الأرض - . أول هذه السورة علو وفساد وآخرها بنى قارون على قومه وفرح به وفساده في الأرض فأولها كآخرها ، إن إفساد بعض المسلمين في الأرض جاء في قوله تعالى - فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا - الخ وقد جهل كثير من الأمم الاسلامية أمر الغنائم التي أحلت لرقى الانسان فلما اتخذوها للذات أزال الله ملكهم ، ويشير لذلك خوفه ﷺ علينا من فتوح البلدان وقال انه أخوف ما يخاف علينا وقد تم ذلك فعلا وقد فهم أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلى أمثال قصة قارون هنا وفهموا قوله تعالى - لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم - فلذلك تورعوا عن الأخذ من الغنائم ولم يتورع كثير من الملوك ومن قرأ (الكوخ الهندي) و (لغز قابس) أدرك أن العلم والدين متحدان في هذه الآداب

٣٣ وهكذا ستقرأ أيها الذكي رسالتى (مرآة الفلسفة) عند قوله تعالى - فاعلم أنه لا إله إلا الله - اجمال الفلسفة وأن (أفلاطون) و (سقراط) اتجها لترك زينة الدنيا وهكذا (كنت) الألماني وهذا عجيب

٣٤ (القسم الثانى) من قوله - ولولا أن تصيبهم مصيبة - الى - فعمى أن يكون من المفلحين - ثم تفسيره اللفظى

٣٨ جوهرية في قوله تعالى - ولقد وصلنا لهم القول - وبيان أنواع التوصيل فان الحرارة والبرودة تصلان بحاسة اللمس والمذوقات بحاسة الذوق والمشمومات تصل بحاسة الشم والألوان والأضواء والأشكال بحاسة البصر والأصوات والموسيقى بحاسة السمع ولكن التوصيل بالوحى أبعد مدى من توصيل الألوان بالبصر لأن نور الكواكب آت من مدى بعيد جدا يصل لنا بطرق البصر ولكن الوحى أبعد مدى لأنه آتى الى الروح من الله تعالى لامن الكوكب فهذه هي الحكمة في ذكر التوصيل ، ولهذا المقال (نتيجتان) *

أولاهما ﴿ ان العلوم يجب أن تنوع طرقها كما نوع الله لنا التوصل بطرق مختلفة ﴾ (ثانيهما) ان جسمنا يستفيد من كل ما يحيط به وهذا هداية لنا أن نستفيد من كل حادث يحدث لنا

٤١ ﴿ القسم الثالث ﴾ من قوله - وربك يخلق ما يشاء ويختار - الى قوله تعالى - وفضل عنهم ما كانوا يفترون - ثم تفسيره اللفظي

٤٣ عجائب القرآن في هذه الآيات - وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون - وبيان أن حمد كل امرئ على مقتضى إحساسه بالنعمة كالفقير والمريض والدليل إذا أحسن بالغنى والشفاء والعز وهذه صفة عبيد سوء ألا يعرفوا النعمة إلا بضدها ، أما المصطفون الأخيار فليس يتوقف حمدهم على أيدائهم فهم يدرسون الكواكب والعوالم كلها ويفهمون الحمد في الفاتحة ، ومتى حمد المسلم في الدنيا حمد يوم القيامة وأغلب حمد الناس اليوم لفظي وبيان معنى الحمد في الفاتحة فهو على رجة موجهة للأجسام وأخرى للعقول ، وفي هذه الآيات تقديس وتوحيد وحمد

٤٤ النعم والنعم مذكرات موجبات للشكر وهذه الآية ذكر فيها أعظمها . نطأ آخر في تفسير هذه الآية ، بيان أن الشكر أعم من الحمد وأن الشكر يكون باللسان والقلب والعمل وأسس هذه الثلاثة العلم ومجامع النعم وأضدادها جمعت هنا ، النعمة موهبة والنقمة تسوق إليها ، وهذا كله جمع في الليل والنهار ، النهار نعمة والليل عديمها ، وهذا كله بالحركة ، فالحركة كان منها الليل والنهار وفيهما الخير والشر ، ونتج من ذلك كله الأضداد جبل واد بحر برّ خصب جدد وهكذا ، وفي الناس (أعمى . بصير . أصم . سميع) وهكذا وهذا قوله - ومن كل شيء خلقنا زوجين - الخ ثم بيان أن الله يغضب على كل أمة نامت عن علوم الإنسان والحيوان والسماء الخ

٤٦ هنا ﴿ أربع جواهر * الجوهرة الأولى ﴾ في قوله تعالى - وربك يخلق ما يشاء ويختار - ومما اختاره الله أنه وضع القلب مقسماً أربع تجويفات والدم متى قابل الهواء الجوي دخل في الجهة اليسرى من أعلى ثم نزل الى أسفل ثم ينتشر في البدن ثم يرجع بالكربون فيدخل في أعلى الناحية اليمنى ثم في أسفائها ثم يتجه الى الرئتين وهكذا ، ولكن هذه الدورة تكون في الجنين على غير هذا الأسلوب لأن الدم الذي يدخل اليه يكون شريانيا لا مادة خمية فيه لأن رتة أمه تقوم مقام رتته ، انظر وتعجب كيف تكون الدورة مختصرة فيه وعند الوضع يغير نظام الدورة حالا وتصير تامة فان الحاجر الذي بين الأذنين الأيمن والأذنين الأيسر لا يكون له وجود في الجنين ولكن عند الولادة يقفل هذا الحاجر حالا لئلا تتم الدورة ولولا هذا الاقفال لاتصل الدم الوريدي بالدم الشرياني وعاش الناس مرضى أمد الحياة ضعاف الأبدان

٤٨ ومما اختاره الله أنه خلق الفيل (المصوّر في صفحة ٤٨) وخلق أبا قردان ينقي الدود الذي يؤذيه فهنا اتحد ساكن الأرض وساكن الهواء على نظام الحياة ، فأما نوع الإنسان الذي اتحد في المسكن والخلق فقد عجز عن هذا الاتحاد ، ويؤخذ من هذا ﴿ درسان * الدرس الأول ﴾ دراسة أسماء الله الحسنى على هذه الصورة مثل (القدس السلام العزيز الخ) فهو مقدس عن أن يخلق داء إلا خلق له دواء وهو السلام الذي أعطى الأمان للفيل ولأبي قردان وهو الجبار حكيم على الفيل بما يؤذيه وأخضعه الخ

﴿ الدرس الثاني ﴾ خطبائي لأهل الشرق والغرب وتذكير الأمم كلها بأن أخلاقهم كأخلاق النمل فهو يأسر ويستخدم أعداءه ولم يقدرُوا أن يصنعوا ما صنعه أبو قردان والفيل في الاتحاد على المنافع

٥٠ ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ - وهو الله لا إله إلا هو - الى قوله - وإليه ترجعون - ومناسبة هذه الآية لمحاورة (طيموس الحكيم) مع (سقراط) واستعانته بالله في شروعه في معرفة مبدأ العالم ثم أثبت أن العالم حادث

وأن المادة كانت مضطربة فثبتها الله بالعقول والنفوس والعالم كله صورة حيوان واحد فهو عقل جعل في نفس جعلت في مادة وهذا الحيوان من العناصر الأربعة في نظره ، قال وقبل هذا التكوين لم يكن ليل ولا نهار ، فهما ما حصل إلا بعد تكوين الأفلاك ، والليل والنهار كانا بسبب الشمس وبهما كانت الشهور والسنون ، ثم إن الشمس والقمر والكواكب كلها فيها أرواح تديرها وهم الملائكة ، ثم أسكن الله تلك الكواكب أرواحاً جزئية وخاطبها قائلاً « أنتم من عنصر الملائكة وسأنزلكم إلى المادة واركب فيكم الشهوة فمن اتبعها نزل إلى الخضيض بحسب الشهوة التي غلبت عليه ومن استقام أرجعته إلى كوكبه وقال للملائكة أنتم دائمون فربوا هذه الأرواح الجزئية » وهنا بيان ما هو موافق للإسلام وما لا يوافق ، ثم أبان طيماوس فائدة البصروانه نار في العين يلاقى ناراً من الشمس يفيدنا معرفة السماء والعالم ، وبهذا نعرف الشهور والأعوام ويحدث فينا عشق الفلسفة ، وهنا دهش مؤلف هذا التفسير من هذا البيان العجيب في صنع الله تعالى الذي لا يفدر فيه كثير من المسلمين

٥٢ ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في قوله تعالى - قل أرأيتم - الخ ههنا حديث الحارث بن همام الذي رأى أنه مات وارتفعت روحه وجاءت في نور بهيج وكان الحق يخاطبه وأنه قال له « يا عبدى أنا أحبك » وبرهن له على ذلك بأنه شغل مدة حياته في البحث عنه والتفكير في أعماله وأنه لن يحب أحد الله إلا إذا كان الله أحبه من قبل ، وأفاده أيضاً أنه خلق العالم كله لأجله فذهل من هذه الجلة وضرب له المثل بالأب والأم وباقي الأسرة فإن كل واحد منهم يقول جميع الأسرة مخلوقون لي بدليل أن كل واحد من الأسرة جعل نافعا للجميع . فهكذا الأمم والدول والأرض وما عليها والشمس والقمر والكواكب كلها تخدم الإنسان الواحد وليس يعقل هذا إلا من درس أمثال هذا التفسير بل كل الإنسان في الأرض أشبه باليتيم لاحتياجه إلى كل العوالم فأواه الله بها . ومن أحسن من الناس بهذا الحب حقيقة فإن روحه قد ارتقت وغيرها لا تزال ناقصة وبيان أن هذا الحب يظهر عند مناظر الابداع في الطير والنبات وغيرها وبيان أن الناس بالنسبة للجمال على ﴿ قسمين ﴾ قسم يهيم به وقسم بليد لا يهيم . ثم أبان أن الأرواح الأرضية لها صلة بأرواح عالية وهذه الأرواح الأرضية لا قدرة لها على استيعاب هذا الجلال فسلط عليها المرض والحسد والنيل الخ لئلا تهلك بسبب هذا الجلال

٥٥ ﴿ الجوهرة الرابعة ﴾ - ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار - الخ وبيان أن قواطع الإنسان عن الكمال إيذاء الأعداء من الخارج ومطامع النفس من الداخل فلا بد من صبر على الأول وعن الثاني . ثم إن أمر الله بالتسبيح والتحميد لا نقوم به حقاً إلا بالعلم . فالحمد على نعمة غير معروفة حمد لفظي والعلم لا يتم إلا بعد زوال هذه القواطع . يقول المؤلف ليقف الإنسان قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ويتأمل هذا الجلال البديع والنفس لما كانت من عوالم عالية لم ترض من العلم إلا باستيعابه فهي أبداً محجدة فيه ومتى عرفت اطمأنت . وقراءة هذا التفسير كافية وبقراءته هو وأمثاله يعرف سر كون رضوان خازن الجنة ففيه معنى الرضا . وهذا الذي اتصف بما ذكر يعرف أن الموت نقمة مقدمة لنعمة . إذن هو وكل شراً مقدمات للنعم . هذه هي الرحمة العالمة . أما الرحمة العملية فإن الإنسان يرى كل طير وكل حشرة متمتعاً بنعم ربها في الهواء والشمس والإنسان هو الذي حكم عليه بالحجاب عنهما في منزله وضل بالتكاثر بالمال والولد والزينة والزخرف واللذات البدنية والاكتثار من الملابس وغيرها ولذلك الإشارة بقصة آدم في سور كثيرة . ولقد عمهم الله بنور الشمس فخرموا منه بما تقدم وحظى به كل حيوان ولقد علم الناس ذلك اليوم في ألمانيا وفرنسا فأخذوا يعلمون التلاميذ في الخلاء

٥٨ الكلام على التعليم في الهواء الطلق بحيث يتعلم التلميذ في الخلاء فإذا جاء المطر توارى التلاميذ في الخيام . وهنا صورة التلاميذ في المدرسة التي أنشئت أخيراً في فرنسا (شكل ٢) و (شكل ٣) للتلاميذ على الموائد و (شكل ٤) للتلاميذ في خيامهم في الخلاء . وهنا ﴿ خمس فصول ﴾ الفصل الأول ﴿ في منافع الشمس وانها بها يكون البخار والفحم والرياح والكهرباء وفي المستقبل سيجمع ضوءها بزجاج بلورى ثم يوزع فلانحتاج الى تلك الوسائط (انظر شكل ٥ في صحيفة ٦١) ففيه صورة استخدام الأشعة في المستقبل والفحم والرياح والأنهار والشلالات والمحركات الكهربائية

٦٢ ﴿ الفصل الثانى ﴾ في بيان علاقة الشمس والهواء ونحوهما بارتقاء الأمم وفيه (مقصدان * المقصد الأول) مايقوله (ابن خلدون) « إن ارهاف الأطفال في التعليم مضر يورث الذل كاليهود ، وهذا له علاقة بضوء الشمس والهواء لأن التلميذ المحبوس عنهما ضعيف ذليل »

٦٣ ﴿ الفصل الثالث ﴾ في أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم ، وبيان أن نمو جسم الانسان يحتاج الى (٢٥) سنة والمدة المقدرة لكل حيوان بقدر مدة نموه ثمان مرات ، فلانسان إذن (٢٠٠) سنة ولكنه يموت قبل ذلك لشهواته في المأكول والمشرب والملبس والذات

﴿ الفصل الرابع ﴾ في الكلام على الرحمة وبيان أن منافع الشمس لاحصر لها
﴿ الفصل الخامس ﴾ آرائى في التعليم عند المسلمين ، وبيان أن الكتابية التي ورثناها عن آبائنا قدرة غير مستضيئة بالشمس لا يدخلها الهواء ، وقد كان النبي ﷺ يوحى اليه وهو على ناقته ، ومن عجب أن الحج وأعماله كالسعى ورمى الجرات وبساطة الملابس هناك . كل هذه تحض على الرياضة البدنية لتمام الصحة والقوة فضلاً عن الثواب ، ولقد أخذ الناس يتعروضون للشمس ويزاولون الرياضة ، وكل هذا مشابه بعض المشابهة لأعمال ديننا

٦٤ ﴿ القسم الرابع ﴾ - إن قارون كان من قوم موسى - الى آخر السورة

٦٥ تلخيص معانى الآيات في أربعة مقاصد

٦٦ تفسير ألفاظ هذا القسم

٦٧ بيان أن خروجه على قومه في زينتته كان مشوباً بالكبرياء والغرور والعظمة وهذا من الكبرياء وان كان ظاهر هذا الخروج من المباحات

٦٨ ونظير ما فعله قارون من اظهار الزينة كل ما يفعله بعض المسلمين من الولايم والمآتم تفاخراً وتباهياً اذا أرادوا التعظيم والفخر والتكبر على الاخوان ، والكلام على الصبر وكيف يضبط المصلى فكره حتى لا يفكر إلا في الصلاة

٦٩ بيان طغيان قارون على موسى (١) عصي أمره في تعليق الخيوط التي تذكر بالسماء (٢) تدمره من جعل الحبورة لهارون (٣) عصيانه أمر الله بالزكاة (٤) تسليطه البغي على الافتراء على موسى ، لذلك خسف الله به وبداره الأرض

٧٠ ضرب مثل لخال المسرفين في ما لهم بالمسرفين في ما آكلهم إذ يتعاطى الانسان الأغذية القوية كاللحم والبيض وأمثالها فتمتلئ الأوعية فيموت من هو ضعيف القوة عن تحمل ذلك فجأة وتظهر البثور والقروح والأمراض في جسم من هو قادر على تحمل ذلك فلا يموت ، فالقوى ظاهراً هو الضعيف والضعيف ظاهراً هو القوى . هذا مثل من عنده مال ومن ليس عنده

٧٢ تفسير بقية الألفاظ من قوله - قل ربى أعلم من جاء بالهدى - الى آخر السورة

٧٣ وهنا لطائف في قوله - نخرج على قومه في زينته - وفي قوله - تلك الدار الآخرة نجعلها - الخ وفي الموازنة بين فهم الصحابة وبين فهمنا ، وذكر حكاية الربيع بن زياد ورفقا مولى عمر وترك عمر الماء كل الفاخرة اتباعا للقرآن

٧٤ الكشف الحديث في قوله تعالى - كل شيء هالك إلا وجهه - الخ وبيان النظرية القديمة وهي « إن السموات قديمة لا تتحل ولا تنفى » ثم بطلت هذه النظرية وقال لافوازيه « المادة لا تنعدم ولا تتجدد » الرأي الحديث للعلامة (جوستاف لوبون) إذ قال « إن الراديوم يخرج ضوءه فتتحلل به العناصر الأخرى وينقص وزنها » ومعنى هذا أن المادة تنعدم . إذن كل شيء هالك حتى المادة تنعدم . ظهور الوحدة في النبات والحيوان

٧٧ هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ؟ وهل العوالم صائرة الى الزوال ؟ يقول قدماء الفلاسفة « إن المادة وجودها ضعيف » مستدلين بأننا لم نعرف إلا الأوصاف كالثقل والخفة الخ ويقول علماء العصر الحاضر « إن كل ما نراه من المخلوقات الأرضية والسماوية ما هو إلا حركات في الأثير ، وتنوع هذه الحركات يظهرها لنا شمسا وقمرًا وقمرًا وقطنا وذهبا وفضة

٧٨ بيان أن الأوضاع متقلوبة ، نرى الشمس جارية حول الأرض والحقيقة هو العكس ونرى المادة موجودة والحقيقة أن لا مادة ، آراء أفلاطون يقول « إن هذه المادة لا نبات لها ولا تصح مناطا للعلم » وأرجع العلم للثلاث الأفلاطونية

٧٩ يسبح المؤلف ربه ويحمده إذ عرفه أن أهل الهند يقولون « إن أصل المادة عقل » وأن علماء اليونان يقولون « إن الكيفيات المحسوسة البالغة (٣٦) مفرقة على حواسنا فأين المادة ؟ » وهكذا أقوال علماء العصر الحاضر ونظرية (اينشتين) الألماني . كل هؤلاء يقرّون - كل شيء هالك إلا وجهه - هل العوالم صائرة للزوال ؟ أما عند العلماء . فهي زائلة الآن فلا شيء إلا الحركات . وأما عند حواسنا جميعا فان هذه المظاهر التي تتأثر بها تلك الحواس ستذهب في مستقبل الزمان . إذن كل شيء هالك الآن باعتبار وفي المستقبل باعتبار آخر

٨٠ الرأي الحديث « لاشئ يزيد على المادة ولكن كل شيء صائر الى الزوال » . ضرب مثل لفهم ما تقدم برجل أصيب بمرض عصبي فظهرت له الأشباح والناس لا يرونها فإذا شفى من مرضه أصبح كالناس لا يراها فنحن بهذه الحواس كذلك العصبي فإذا تركناها ظهرت لنا الحقائق . فالمادة بالتحقيق العلمي هالكة الآن وفي الظواهر ستهلك

٨١ ذكر سؤاليين وردا على المؤلف إذ جعل النوع الانساني أشبه بالمرض وجوابه على ذلك أن روحه من عالم النور وسقوطه في الأرض كالمريض ولهذا رمز بقصة آدم وبهذا يفسر - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك - فلا ذنب هنا إلا السجدة في المادة الطينية . أما السؤال الثاني فهو « كيف كان الكون صائرا للزوال » والجواب عليه بإيضاح كلام (جوستاف لوبون) وبيان أن سرعة النور عند انحلال الراديوم (٢٠٠.٠٠٠) كيلومتر في الثانية ولوانهم قدروا أن يحولوا جراما من الحديد الى نور حين يعدم لسان عندنا قوة (٦٠٠٠) مليون و (٨٠٠) مليون حصان بجرقطارا حديديا حول الأرض أربع مرات

٨٣ خطاب المؤلف للأمة الإسلامية . يقول لها « هل أمكننا تفسير هذه الآية لإبقرأة علوم الأمم حولنا » وهذا سرّ قوله تعالى - قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب - وهكذا جوهرتان * الجوهرة الأولى في سرّ - طسم - طاء طس إشارة للطائفة والسين إشارة لدها

واستعبادها والسين في يستضعف ويستحي والمفسدين وهذه الطوائف الضعيفة لا بد من نصرها ولذلك ترى الميم في قوله - ونريد أن نمّن - وفي - ونجعلهم أئمة - وفي - ونمكن - إذن - طسم - ملخص السورة لأن ملخصها ﴿ غرضان ﴾ الغرض الأول ﴿ ان الطوائف الضعيفة لا بد من فوزها فالطاء للطائفة والسين لنهها والميم لنصرها ﴾ الغرض الثاني ﴿ أن تحترس الأمم الإسلامية وغير الإسلامية من الغرور واستضعاف الأمم فاذا قويت أمة إسلامية فلتعلم أن الله لها بالمرصاد إذا ظلمت ، وإذا أصبحت في ذل فالله يقتص من الظالم للظالم . كل ذلك في (طسم)

﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في الكلام على الصلاة بين آخر القصص وأول العنكبوت ، لقد ختمت الأولى بأن قارون ابتلعه الأرض هو وأهـه وأهـه وأن العوالم هالكة ، لذلك ابتدئت (سورة العنكبوت) بالتحريض على الجهاد لنخلص من المادّة الطينية لنلقى الله

٨٤ نحن الآن نفتقل من سجن الى سجن فاذا خرجنا من سجن الجوع والشبق دخلنا في سجن آخر كحوز المال والترف وكالذرية التي نسي لها ، فنحن خلقنا في كبد . وقد ضرب له المثل بقصة آدم وقصة قارون . وما جيع الذنوب التي في الشرائع إلا آثار لما كن في هذه النفوس من الشهوة والغضب الخ

٨٥ بيان ما يشير الى هذا المعنى عند الأمم السابقة وأن دين المسيحيين ما هو إلا صدى صوت ديانات تقدمت كما نقله علماء الألمان من لوحة بالعراق سنة ١٩٠٣ وهكذا

﴿ تفصيل ﴾ حكمة ألقاها الله على قلوب بعض الصوفية وأن الشيخ الشعراي سأل أستاذه الخواص عن الذي يقول اني استغنى بالله عن الدنيا فقال هو جاهل لأن الاستغناء عن الوجود نعت خاص بالله

٨٧ ﴿ سورة العنكبوت ﴾ وهي ﴿ قسمان ﴾ القسم الأول ﴿ من أول السورة الى قوله تعالى - ولكن كانوا أنفسهم يظلمون -

٨٩ التفسير اللفظي وأن الجهاد يكون للشهوات ويكون للوالدين ببرهما وللاصحاب اذا كفروا فلا يطيعهم . وبيان أن أسباب النزول في هذه الآية مرتبة

٩٠ تفسير - ولقد فتنا الذين من قبلهم - الخ

﴿ جوهرة ﴾ في قوله تعالى - ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه - وأن الجهاد ﴿ نوعان ﴾ جهاد داخلي وجهاد خارجي . ومن الخارجى الذى يذكرنا بسعادة نوع الانسان وفيه صحة البدن واجتماع الأمم وترك المحيط من الثياب وشرح حال هذا الجهاد بما جاء في « الرحلة الحجازية » من أن لباس الاحرام والتعرض للشمس راجع لأحوال الانسان الأولى كتمثال (كوفرين) من قدام المصريين وكذلك التماثيل الرومانية . فالأمم القديمة كلها كانت ملابسها كلاحرام الآن وهذا هو الذى ينشده علماء أوروبا الآن إذ يعتمد القوم كل سنة الى الجبال والى شواطئ البحار فلا يسترون إلا عورتهم ويتلقون برودة الجو وحرارة الشمس لتذهب الأمراض جميعا . إذن الحج أنزل ليرجع الناس كلهم الى حال واحدة فيصيحوا أمة واحدة يتحدون فى اللبس والمدارس والتعاليم والأخلاق والاسلام دين الفطرة

٩٥ ﴿ خطابى للمسلمين ﴾ بيان أن الجهاد فى هذه الآية يشمل العبادات والأعمال المدنية والصناعات وبيان أن الله لم يدع المخلوقات بلا إلهام إذ ألهمهم أن ينقشوا ما يراولون على الأحجار ليقراء الخلف . فالحشرات ملهات والسيات أوحى الله بها وديننا فيه كنوز تظهر الآن وهذا التفسير نعمة وفى الصلاة كنوز العلم . وبيان أن المؤلف قد عوتب فى النوم على أنه لم يحضر قلبه فى الصلاة فاتعظ بهذا واستفاد فوائد فى نفس هذا التفسير

٩٦ بيان أن الجاهل لاحظ له في العبادة إلاحظاً ضئيلاً وأن حظ العابد كحظ شارب الماء وحظ العالم من العبادة كحظ عالم الكيمياء في تحليل الماء ومعرفة أسرارهِ وهذا سرٌّ - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء - الخ ومن الجهاد أيضاً الصوم ومعلوم أنه قربي ولكن أما آن للسلمين أن يدرسوا فوائده الصحية كأوروبا أولم يروا كيف استفاد زعيم الهندوس الأكبر (مهاتما غاندى) من المعيشة الفطرية والصوم أى الجوع ونبت البذخ صحة وعافية ، وقد صام (٤٠) يوماً ، وقلل الملابس ، وعرض أكثر جسمه للشمس فنال صحة يحسده عليها الناس أجمعون وهذا بعض أسرار الصيام والحج

٩٧ أولم يروا إلى أن المصابين بكثرة الزلال في الدم وبتصلب الشرايين يشفون بترك أكل اللحم والبيض الخ وهكذا ينصح الأطباء من جاوز الأربعين بترك اللحم والاكتفاء بالنبات وأنه يجب عليه أن يصوم يوماً كل أسبوع ، وبعضهم ينصح بترك الأكل (٤٠) يوماً ويشرب الماء في تلك المدة مع قطرات من ماء الليمون وهذا يجعل الانسان يتحمل الصوم (٤٠) إلى (٦٠) يوماً ، وقد صام المستر (ارفينج الانجليزى) (٥٠) يوماً فتخلص من ضعف المعدة والأعصاب ، وقد شرب أول يوم ستة أكواب من عصير البرتقال وأخذ يقلل شيئاً فشيئاً حتى اقتصر على الماء ، وبعد تمام الصيام شرب اللبن قليلاً قليلاً ، وفقد في صيامه (٤٦) رطلاً فاستعادها وزاد عليها

٩٩ ضرب مثل لحال العابدين بلا فكر في العبادة بحال قراء القرآن بلا عقل ، وبيان أن الجهاد إما بالفرية وإما بالعقل وإما بالوحى والأخير أفضلها . إن الانسان لا يفرح إلا بممنوع عنه كالياقوت والزبرجد وأسرار الوجود ، فالجاهل يجاهد لملك الأشجار الثمينة وهو يجهل جمال الوجود ، والحكيم يجاهد ليعرف سر الوجود كلاهما جاهد لممنوع عنه

١٠٠ ﴿ الفصل الأول الجهاد بالفرية ﴾ وأن من قرأ أكثر هذا الكتاب عرف أكثر غرائز الحيوان وأن للنمل دولة أكبر من أكبر دولة في الأرض تعدادها (٥٠٠) مليون نملة

﴿ الفصل الثانى الجهاد بالعقل ﴾ ومثاله ما جاء في كتاب « كايلا ودمنة » ترجمه (برزويه) الطبيب الفارسي الذي ضرب مثلاً لآخوان الصفاء بالحمامة المطوقة مع اخواتها الحمامات ومثلاً آخر بالجرذ مع الغراب والسلحفاة والظبي . فالأول تعاون الجماعات المتجانسة . والثاني تعاون الجماعات المختلفة من الانسان كما تعاون النمل وتعاون الفيل مع أبي قردان

١٠٢ ﴿ الفصل الثالث الجهاد بالوحى ﴾ كجهاد رسول الله ﷺ . كان اذا ألت به حاجة دعا الله واستغاث به كقوله ﷺ « إنك تسمع كلامي . وترى مكاني . وتعلم سرّي وعلايتي » الى أن قال « اللهم اسقنا الغيث الخ » وكقوله أيضاً « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن الخ » وهذه يقولها من أصابه غم أو دين الخ

١٠٣ وكقوله يعظ أصحابه في خطبة « أيها الناس قدّموا لأنفسكم الخ » فقد أبان فيها أن العبد يسأله ربه ليس بينهما ترجان عن ماله وعن أعماله « وكقوله « أحبوا الله من كل قلوبكم » وكنفية أن كسوف الشمس وخسوف القمر لأجل موت أحد وحياته . فهاهوذا ﷺ جاهد بالوحى فدعا الله وأرشد الناس وحذر من الدنيا في خطبة ابتدأها بقوله « أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة الخ » وأخذ يشرح مسألة

١٠٤ الغضب والرضا من أخلاق الناس ويذم الغدر ولم يقتصر على جهاد من هم عنده بل جاهد من هم في مكان صحيح . وأنه كان يريد أن يجعل الناس أمة واحدة فكتب الى (هودة) صاحب اليمامة وقال له « إن ديني سيظهر على ملكك » وأمره بالاسلام وأرسل الخطاب مع سليط فأكرم وفادته . وكتب

الى ملك عمان فدعاه ودعا أخاه الى الاسلام وأرسل الكتاب مع عمرو بن العاص . وفي هذا المقام محاورة بينهما وبين عمرو بن العاص وانتهى الأمر باسلامهما

١٠٦ وبعث العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى أمير البحرين فأسلم وأسلم أكثر أهل بلاده . وإلى ملك الحبشة النجاشي فأسلم

١٠٧ وإلى عظيم الفرس كسرى فدعاه الى الاسلام فزق الكتاب فزق الله ملكه في زمن عمر إجابة لدعائه ﷺ عليه وإلى المقوقس ملك مصر مع حاطب بن أبي بلتعة . وهناتت حجب أيها الذي من هؤلاء الصحابة الكرام وكيف يحاورون هؤلاء الملوك والأمراء ويقنعونهم في الخطاب ويحاجونهم وأكثرهم أميون

١٠٨ وإلى ملك الروم وقد أمره ﷺ بالاسلام فأطاع على قومه فأشار عليهم بالاسلام فغضبوا ثم أرضاهم بأنه كان يختبرهم . وهنا يتجلب العقلاء في الاسلام من قول حاطب بن أبي بلتعة للمقوقس « لسنا ننهارك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به »

بيان عام في أمر الجهاد وذكر أن المصلي يكرر الرحمة والتربية في الصلاة وأن هذه الرحمة بها تألفت الطيور والحمامات وتعلم الفلاسفة بها ضرب الأمثال للتألف العام وهكذا نبينا ﷺ إذ خاطب الملوك للاتحاد العام

١٠٩ زيادة إيضاح وبيان أن المهديين الى الصراط المستقيم المذكورين في الفاتحة يجب أن يكون لهم السلطان على المغضوب عليهم والضالين ولهذا قال - قل يا أهل الكتاب - الخ ثم إن هؤلاء الصحابة كانت لهم لذة روحية بها تحموا هذه المشاق وبها حرّم سيدنا عمر أموال الغنائم عليه وعلى ابنته خلف من بعدهم خلف افتتنوا بالذات بعد الغزوات وجهلوا آية - فلا تقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة - الخ وقد شرع العتق ليكون الغالب والمغلوب أمة واحدة فلما ظلم المسلمون خربت بيوتهم وانكماشوا لأنهم أذهبوا طبيعتهم في الحياة الدنيا . فانظر ما يقوله (سديو) الفرنسي في سبب انحطاط أسلافنا العرب في اسبانيا فأنهم لما طردوا الموحدين تفرقوا هم شيعة وذاق بعضهم بأس بعض فأخذهم الفرنج مملكة مملكة . وقاتل (فريند) مع محمد الجار أهل أشبيلية المسلمين خضعت لفرينند

١١١ ذكر بعض ممالك شرق الأندلس إذ حاصرها جيش الأرمليش وقصر بن هود في حاميته وسد الماء الداخل لها فسلم القوم أنفسهم للفرنجية ومات كثير منهم بالعطش وكثير بالسيف

١١٢ ذكر بهجة ابنة أحد الموسرين إذ أسرها علاج من العلوج في منزل أبيها وعلى فراشه نفسه وهكذا فتاة أخرى كانت تغني له لأنها كانت مغنية لأبيها وهكذا يفعل المسيحيون في المسلمين ما يفعل المسلمون بالمسيحيين - كل يوم هو في شأن -

١١٣ كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خلود أمم الاسلام . وبيان أن أمثال (روسو) و(فلتير) انما أيقظوا أوروبا بما قرؤه في كتب المسلمين المنهوبة من مصر والأندلس كما تقدم وأن القسيسين والرهبان كانوا ظالمين وحركة الاسلام هي التي أوقفهم عند حدهم

١١٤ بيان أن أهل فرنسا يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٦ م نالوا حقوق الانسان التي نادى بها (جان جاك روسو) ونحيت امتيازات الأشراف

١١٥ قصة نوح عليه السلام وتفسيرها) وبيان أن الطوفان في القرآن جزئي لا كلي وأن قارّة (ليموريا) كانت تتصل بآسيا وقارّة (اتلنتس) كانت وراء جبل طارق وكانت قدرا فريقيا وآسيا معا ثم غطاها الاوقيانوس فغرقت . وهناك قارّة كانت في الاوقيانوس الباسفيكي قرب سواحل أمريكا الجنوبية وأغرقها

الماء . وهناك قصة للطوفان في ﴿ سجلات جلجميس ﴾ في بابل . وهناك قصة في الصين
﴿ جغرافية العالم القديم ﴾ وبيان أن حيوانات مداغشقر مغيرة لحيوانات افريقيا مع قربها منها وحل
هذه المشكلة أن هناك قارة اختفت وهي (ليموريا) وانتقل حيوانها أيام وجودها الى مداغشقر
١١٦ وأما قارة اتلانتس وقارة الاوقيانوس الباسفيكي فان الأولى ذكرها أفلاطون والثانية عرفت بنقوش
وجدت على صخور (جزيرة يستر) وبيان قصة التوراة وأولها « رأى الرب أن شرّ الانسان قد
كثر في الأرض الخ »

١١٧ القصة البابلية والصينية والهندية ، فالبابلية فيها أن (جلجميس الجبار) زار أحد أسلافه ليسأله كيف نجا
من الموت فقصّ عليه قصص الطوفان وبناء الفلك وهي القصة السومرية بعينها ، والقصتان الهندية
والصينية تشيران الى طوفان محلى نشأ عن فيضان الأنهر كالبابلية عن فيضان دجلة والفرات وهناك
في شمالى العراق بعثة انجليزية تبحث في بلاد (اور) عن قصة الطوفان

١١٨ الأدوار والأكوار في اخوان الصفاء إذ يقولون إن البحر يصير برا وبالعكس في مدة (٣٦) ألف سنة
وهذه المدة التي حددها لادليل عليها بل هي أطول جدا . قصة ابراهيم عليه السلام وتفسيرها

١١٩ قصة لوط عليه السلام وقصة شعيب وعاد وثمود وموسى وتفسيرها اللفظي

١٢٠ الكلام على معنى - أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده - الى قوله - قل سيروا في الأرض
فانظروا - الخ وبيان أن السير ﴿ قسمان ﴾ جسمي وعقلي والثاني مرتب بعد الأول

١٢١ بيان انى كنت أشك في هذا الوجود وأنا شاب وأراه مبثرا لانظام له وانى قلت انى اذا وقفت على
الحقائق سعدت ، ولقد عرفت الحقائق بقدر طاقتى وألفت هذه الكتب كما عاهدت الله على ذلك .
و بيان السلسلة المنظمة من السكواكب ثم المواليذ فالعناصر وأن الانسان مختص بمعرفة ذلك وأن الصلاة
في أدعيتها هذه المعانى الخ

١٢٢ نظام السموات ووضع السكواكب فيها منظمة بأبعاد على مقتضى المتواليه الهندسية ونظام المواليذ ونحوها
هكذا (تراب . جص . ذهب . خضراء الهمن . كشوئي) وهكذا ثم (القرود وأدنى الانسان وأعلاه
فاللائكة والله فوق الجميع)

١٢٣ النظر في المعادن مثل الاسفيداج والاسرب والاسفندرى والفيروزج ومثل ان الألماس اذا دق بالمطرقة
على الحديد لم ينكسر والياقوت لا يعمل فيه إلا الماس والسنبادج ولكن الأسرب وهو جنس من
الرصاص غير ناضج مسلط على الألماس . إذن الياقوت سيد المعادن ويعلو عليه الألماس ويحكم الألماس
الاسرب . وبيان أن المعدن كلما كثر احتياجا اليه كان أكثر والعكس بالعكس كالنحاس
والذهب ، بيان العناصر عند علماء العصر الحاضر وانهم وجدوا أن الله قدر رتبها بحسب وزنها الذرى
بحيث يزيد العنصر عما قبله ذرتين اثنتين تقريبا في الصف الأفقى ويزيد ١٦ عمما تحته في الصف
الرأسى وقد اشتركت الصفوف الأفقية كلها في الخواص الكيميائية والصفوف الرأسية تشترك في الخواص
الطبيعية كاللون والطعم والرائحة وهذا عجب أن ترتب ترتيبا أفقيا بحسب النرات ويكون الاشتراك في
الصفوف الأفقية غير الاشتراك في الصفوف الرأسية . وهنا موازنة بين هذه الصفوف وبين صفوف
الأوراق المعروفة المنظمة عدا وأن هذه الصفوف المعدنية أدق وأعجب وبهذا نعرف بدائع الحكم الإلهية
(انظر جدول وفق خمس في صفحة ١٢٥)

- ١٢٧ بيان أن (مندلييف) الروسي الذي اخترع هذا الجدول سنة ١٨٦٩ أخبر بمعادن وعين محلها في الجدول قبل كشفها وقد تم ذلك كما أخبر، وبيان أن ترتيب العناصر كترتيب الأفلاك
- ١٢٨ الكلام على الروديوم وعلى الذهب ونظام النفوس الانسانية والملائكة وأنه اذا كانت المعادن منظمة هذا النظام فن باب أولى يكون نظام الأرواح، وأن الناس يوما ما سيبحثون عن نظام أنفسهم ومتى عرفوه رتبوا لها جداول فارتقى الانسان ارتقاء لا يعلم به الناس اليوم إذ يوضع كل امرئ في مركزه في العالم كما وضع كل معدن في صرحه في الصف
- ١٢٩ ذكر البارود والعناصر التي ركب منها عند الأمم وأن ذلك من كيفية بدء الخلق وكيف كان عند الفرنسيين والألمان والانجليز تلوين السواريج بالبياض وبالزرقه وبالخضرة وبالصفرة، وبيان الجلال في العالم والجلال في الوجوه والجلال في الموسيقى وأن ذلك كله بالنسب الهندسية وانه راجع للآية - قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق - فانه بدأ الخلق بهذا الحساب والنظام العجيب
- ١٣١ تعريف ابن المقفع للتربية وتعريف أفلاطون لها وملتون وجيمس وسبنسر وبعض علماء (بروسيا) كل هذه التعريفات ترجع للحركة الجسمية والعقلية في التربية وهما يرجعان لقوله تعالى - قل سيروا في الأرض فانظروا - أي بالحركة الجسمية والحركة العقلية فالآية شملت هذه التعريفات كلها
- ١٣٢ (اللطيفة السادسة) مقاصد الصلاة في الاسلام، وتلخيص معاني أقوال المصلي في الركوع والسجود والجلوس بين السجدين والاعتدال مثل ان المحامد عند الرفع لدراسة العالم العاوي وهي عند الركوع والسجود للبحث على علم الطبيعة وبيان أن هذا تقدم في (سورة آل عمران)
- ١٣٣ بيان أن قول المصلي في آخر الصلاة « إنك حميد مجيد » لا يتم إلا بمعرفة هذه العلوم، وبيان أن نظام الدراسة في الأمم الآن جار على مقتضى ترتيب أدعية الصلاة، فالابتدائي والثانوي نظير الثناء في الرفع والاعتدال الخ والمدارس العالية للتخصص كما ان الثناء في الركوع والسجود فيه تخصيص فهو كالمدراس العالية
- (اللطيفة السابعة) بيان أن المصريين كانت لهم أوقاف للسكواكب السبعة يكتبون عليها أسماء الملائكة ويدعون لقضاء حاجاتهم
- ١٣٤ مثال ذلك الجدول المسبع المرقوم في هذه الصفحة، ولعمري لم يكتب قداموهم تلك الأوقاف إلا ليشوقوهم لجمال الله فانحطت أخلاقهم فجعلوها لطلب الرزق كما انحطت عقول بعض المسلمين فجعلوا القرآن لأجل قضاء الحوائج وهذا هو الانتكاس
- ١٣٥ (القسم الثاني) من قوله تعالى - مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء - الى آخر السورة
- ١٣٦ التفسير اللفظي لهذا القسم
- ١٣٨ (اللطيفة الأولى) في قوله تعالى - وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت -
- ١٣٩ العنكبوت البناء وعنكبوت البساتين، وكيف كانت أعمالها منظمة مهندسة، وكيف أمسكت الشبكة الذباب، وكيف أمكن النسيج أن يقاوم الرياح الهابة، وكيف كان أبرع المهندسين يخطئ والعنكبوت لا يخطئ، وبيان دقة خيط العنكبوت وأن غلظ خيطها يساوي واحدا من ١٦ مليون مليون من شعرة الذقن (وبعبارة أخرى) ان شعرة من شعرات ذقن الانسان غلظها يساوي غلظ ١٦ مليون مليون خيط من خيوط العنكبوت
- ١٤١ وبيان أن هذا تشير له آية - لو كانوا يعلمون - وبيان أن خيط العنكبوت عند خروجه لا يفهم منه

العاقل شيئاً ولكن باجتماع الحيوط تظهر الحكمة هكذا عاوم هذه الدنيا كلها أولها حيرة وآخرها يقين
وبيان الحكمة في تسمية السور بأسماء النمل والنحل والعنكبوت وهكذا

١٤٢ العنكبوت تعيش على الذباب ، تصطاده على الأرض وفي الجو وذلك بنسجها تطير به كالطيارات المعروفة
عند الناس وقد تسبح بالنسج فوق الماء ، وبيان أن جسم العنكبوت قسبان وجسم الحشرات ثلاثة
أقسام وأن للعنكبوت (٦) أزواج من العيون ولكن الذبابة لها نحو أربعة آلاف عين كل منها مستقلة
وبيان أن كثرة الآلات لا تمنع الهلاك كما اتفق للذباب كثير العيون مع العنكبوت قليلها ، ومثل ذلك
قيصر الروس الذي قتله جنوده بعد أن ذبحوا أبناءه ، ثم إن الذباب وإن كان ينظف جونا هو نفسه
يحدث الأمراض بحمله العدوى فجعل الله العنكبوت لصيده
ذكر تعداد الحشرات وانها مائتا ألف وستزيد الى ألف ألف

١٤٤ هل يجوز رسم الحيوان في التفسير؟ وذكر الأحاديث الدالة على المنع والدالة على الجواز وأن ما رسمه
هنا خارج عنهما لأنه رسم صور شمسية رسمها الله بشمسه وأن ذلك أوضح فيما تقدم في سورة يونس

١٤٥ صورة العنكبوت واضحة (شكل ٦)

صورة أصول الأرجل والفكين ومخرج النسج (شكل ٧)

١٤٦ صورة جهاز الغزل (شكل ٨)

صورة نسج العنكبوت مع بيان حسن لها وأن ما يبلغ رطلا منه يطوق الأرض مرتين (شكل ٩)
صورة ذكر النمل الحقيقي وصورته مكبرة (شكل ١٠)

١٤٧ صورة أنثى النمل الحقيقية وصورتها مكبرة (شكل ١١)

صورة بقرة النمل المسمى أفيز (شكل ١٢)

صورة مخالب العنكبوت (شكل ١٣)

صورة اجتماع الخيط (شكل ١٤)

١٤٨ صورة عنكبوت الحديقة وبيتها (شكل ١٥)

١٤٩ صورة أكبر بيت للعنكبوت (شكل ١٦)

١٤٩ صورة عنكبوت صائدة (شكل ١٧)

صورة عنكبوت المنازل (شكل ١٨)

صورة العنكبوت المائي (شكل ١٩)

١٥٠ (لطيفة) في سؤال ورد على المؤلف « كيف كانت هذه الهندسة العجيبة في بيت هوأوهن البيوت »
وجوابه كما يقول الشاعر * له هم لا منتهى لسكبارها الخ * فإذا كان أدنى المخلوقات بديع
جدا فن باب أولى أعظمها ، ألا ترى أن جزءاً من تسعة من ماء يملأ ملعقة الشاي فيه كهرباء قوتها
(١٣٣) ألف حصان ، فإذا كان هذا كله في جزء من تسعة من الماء في تلك الملعقة فليكن هكذا
بيت العنكبوت فيه أعظم الحكم مع ضعفه

١٥١ رسم باب من حديد مصنوع بهيئة نسج العنكبوت (شكل ٢٠)

١٥٢ صورة عقرب تأكل العث والسوس (شكل ٢١) ورسمت هنا لأنها ذات ثمانية أرجل كالعنكبوت
وذكر سؤال ورد على المؤلف وأنه مغرم بهذه العاوم فلذلك أكثر منها كما أكثر الرازي من الفلسفة
وأبو حيان غلب عليه النحوي ، وكذا الواحدى والزجاج ، وكذا الثعلبي غلبت عليه الأخبار ، والفقير

يكاد يجعل القرآن كله فقها كالقرطبي ، وجواب المؤلف بأن هؤلاء أساتذتنا ، ولكن هذا زمان ظهور حقائق القرآن

١٥٣ ضرب مثل بالعنكبوت عرفنا ﴿أصرين﴾ صنع الله بخلق العالم وصنع الخلق وهي الأصنام وبيان أن

كل من وقفت عقولهم مقهورون ، بيان تسجيل المؤلف على المسلمين جهلهم بمصنوعات الله تعالى ١٥٤ بيان أن الأمم التي تقل فائدتها أشبه بالذباب والتي تنفع تكون كالعنكبوت ، وبيان ما جاء في الانقان أن معجزة نبينا ﷺ بالقرآن لأن فيها معاني تظهر في كل زمان

١٥٥ الكلام في آية - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر - وبيان أن أدعية الصلاة وأذكارها قسمان

قسم يعطى فكرة التسليم لله وذلك كزمان الليل مثل ذكر الرفع والركوع والسجود وقسم يعطى مثال الحركة والعمل وذلك كالنهار مثل طلب الهداية في الفاتحة والغفران في الجلوس بين السجدين ، إذن بين الصلاة وبين الزمان موازنة وموافقة ﴿وبعارة أخرى﴾ انها أشبه بالعالم الذي نعيش فيه

١٥٦ بيان ما قاله طيماوس الحكيم « إن أمراض البدن يتبعها مرض النفس وهذا ثلاثة أقسام ، ويقول

إن الشر تابع لسوء المزاج » وبيان ما قاله بتمام ﴿إن النظافة والعمل تقللان الجرائم والعكس بالعكس وهذه النظافة من خواص الاسلام﴾ ويقول علماء الهند ﴿إن الانسان يجب عليه أن يكون في خياله

صور جميلة لا تثير شهوة﴾ ومثل ذلك ما في كتاب الاشارات (لابن سينا) إذ يقول «عشق السمائل لا

الصور يرقى النفوس وكذا العبادة مع الفكر ثم إن الصلاة مبدأ الأصميين رياضة البدن ورياضة النفس»

وبالصلاة تقل الشرور لعدم القذارة والبطالة وتوجيه وجه المصلي للذي فطر السموات والأرض يجعله

مفكرا في تلك العوالم الجسيمة كما يقوله أهل الهند وابن سينا . إذن الصلاة مبدأ لصحة البدن وقوة

الروح . الكلام على سبب اسلام عبد الله كويلم الانجليزى وانه كان في الجزائر ورأى الوضوء والصلاة

فدهش من أن ذلك نصف استحمام ودرس الاسلام ثم أسلم

١٥٨ ﴿الصلاة اليوم في بلاد الاسلام﴾ محادثة بيني وبين الطلبة بالمدرسة الخديوية وأنا مدرس لهم إذ قلت

« اننا اليوم قد خلعنا ربة الروابط القديمة وأصبحنا نقتل أوروبا في كل شئ وتركنا الصلاة ولكننا أذلاء

لكل الأمم ، أما أجدادنا المصابون الصائمون الذين يعتبرهم صغار العقول في زماننا غير جديرين بأعظم

كمال فقد احترمتهم جميع الأمم » وجواب تلخيصي بأن التلاميذ هنا لم يتعودوا الصلاة من الصغر فهم تاركوها

الآن كما يتركها النساء ، وبيان ما كتبه كاتب انجليزى في إبان النهضة الوطنية إذ يقول ﴿إن المتعلمين

بمصر في هذا الزمان ليس عندهم مكارم أخلاق كالتى عند الفلاحين الذين ورثوا حب الله والفضائل

والأهل والأقارب عن آبائهم ودينتهم ، أما هؤلاء فقد تركوا ذلك﴾

١٦٠ ذكر ما قاله والد معلم ولّى عهد الخديوى السابق (عباس باشا حلمى الثانى) وبيان ما قاله ناظر المدرسة

الفرنسى له من تهكمه بالديانات وما أظهره له الفيلسوف البوذى يوم الأحد بالسكنيسة وقوله ﴿ها هو ذا

يصلى فما قاله يقصد به هو وغيره أن نترك دياناتنا ليأخذوا بلادنا﴾ ثم ذكر ما قاله أستاذنا الشيخ حسن

الطويل ﴿انه لما كان جنديا عاقبه على انه كان يدعو الله لأن المتدينين لبسوا بنفوعون في الجندية وذلك

بغش أوروبا لهم وقد رفته وفرح

١٦١ بيان ما قاله محمد بك عراقى المشهور والده أن أهل سيلان يحافظون على الجماعة ومن أبى قتله ، وبيان

ما قاله (هنرى) الفرنسى انه لما رأى المسلمين يصلون هاله الأمر وأدهشته الصلاة ، ومن يحافظون على الجماعة والصلاة الوهابية بنجد والحجاز وطالب الأزهر يقرأ ذلك ولكن عمل الناس على خلافه

١٦٢ ذكر ما جاء في (كتاب الإحياء) من فضائل المكتوبة من الأحاديث والآثار مثل إن الصلوات الخمس كنهر بباب أحدكم الخ ومثل من ترك الصلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد الخ

الكلام على فضيلة أتمام الأركان وعلى فضيلة الجماعة وإنما أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة

١٦٣ وههنا أقوال عثمان بن عفان وسعيد بن المسيب وأبي عبيدة بن الجراح والحسن وحاتم الأصم وابن عباس وميمون بن مهران والكلام على فضيلة السجود وأن العبد يكون أقرب إلى الله وهو ساجد

١٦٤ الفاتحة وعلوم الحكمة وبيان أن علوم الحكمة كلها قد جمعت في عشر كلمات وهي المقولات المعروفة

مثل الجوهر والكم والكيف الخ وهذه الألفاظ شملت العلوم كلها فهكذا هذه الفاتحة شملت العلوم كلها

كما تقدم في تفسيرها مثل (رب) ومثل (العالمين) التي شملت العالم العلوي والسفلي كما أن الجوهر في

المقولات يشمل جميع الأفلاك والمواليد وهكذا ، والفاتحة لها منزلة وهي أن الجاهل يتعبد بها أmaal المقولات

فلا تصلح للعبادة وتكرارها لا يفيد معنى

١٦٥ (لطيفة) في قوله تعالى - ولا تجادلوا أهل الكتاب - الخ وبيان أن الواعظ يسيطر على عقل الجاهل

والحكيم يسيطر على عقل الخواص والأمراء على أجسام الناس والأنبياء على الجميع

١٦٦ جوهرة في قوله تعالى - وكذلك أنزلنا إليك الكتاب - وفيها ﴿ ثلاثة فصول ﴾ الفصل الأول ﴿ فيما

قاله اللورد هيدلي صديقنا ، يقول « إن أهل انكلترا يحبون العدل ولكن كان يجب عليهم أن يفهموا

ما هو الاسلام » وبيان أنه في صغره درس القرآن واستنتج منه ما وافقه عليه الخواجه (كمال الدين) ودم

المتعصبين من المسيحيين

١٦٨ بيان ميل الناس إلى الاتحاد لما يرون من أن عقائد الدين المسيحي غير صالحة للعقل ، وهنا أبان

تناقض العقائد المسيحية . قال اللورد هيدلي « المسيح لم يكن مشترعا ولا واضع قوانين فكيف اتبعناه

في أوروبا ، إن شريعته توجب ألا نأخذ بالنار ولكن نحن ملزمون أن نعاقب الجاني زجرا للآخرين

وهذا هو قانون الدين الاسلامي ، نحن في أوروبا عجونا عن حفظ المرأة وحفظ النسل ونحن أعظم أمة في

في البحار وقوانيننا جيلة ولكنها لا تنفذ ونحن لا نريد التعذيب للجرمين فلو اعترفنا الاسلام لسهل حكم

مملكة نصف رعاياها من المسلمين ، لو عرفت أمتي الانجليزية أن الدين الاسلامي دين يرقى العقل لسعت

إلى اتباعه ، الاوروبيون ينظرون إلى دين الاسلام كأنه وحشية وذلك بسبب المبشرين ، الاسلام أرفع

من أن يكون له قوم مسيطرون غير الله بخلاف الدين المسيحي »

١٧٠ ثم قال أيضا ﴿ رؤساء الدين المسيحي يطلبون السلطة ولأعبادة لهم ولأتباعهم إنا نظام أيام الآحاد المحترمة

عندهم لأنها تظهر فيها الملابس الجيلة ولهؤلاء الرؤساء أجرة من الجالسين في المعبد على مقتضى الدرجات

كدور التمثيل سواء بسواء ، إن ديانات أوروبا كلها خرافات القرون الوسطى فلا هي كدين المسيح ولا

موسى الحقيقيين وإنما البارونات والوردات في انكلترا كانوا يستعملون الشجعان للارهاب الجسعي

والسكتة والاكيروس للارهاب الروحي ليحفظوا ما يملكون بأحداث الهلع والفزع في القلوب . إن

شريعة محمد أعظم من شريعة عيسى وموسى وإن عظمتا . مصداق آية - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم -

حاصل في أوروبا حقا وصدقا

١٧١ وقال ﴿ ديانة المسيح غيرها (سانت بولس) ثم ترجت تلك التعاليم بتراجم مختلفة مغيرة ولكن الاسلام

يكفي رغبات العالم ، فيه أن الله واحد قنوس ، أليس من المنجمل أن نرى العقول البشرية الراقية

تخضع لإفك الكهنوتية وتحجب عن نظر السماء ومعرفة رب الجميع القهار الذي لا يفرق في رحته بين

الأولياء والقوم العاديين الجهلاء ، إن مفتاح السماء في كل مكان وأقل المخلوقات يدير هذا المفتاح ، ولعمري ما دعا رؤساء المسيحية الى التوسط بين الناس وربهم إلا حب الفائدة كالرواتب ومعاشات القسيسين ، الدين مسؤل عن فظائع كثيرة في العالم ، وهل في العالم دين يمكن العالم الانساني من أن يجمع أمره غير الاسلام ؟ لو أن الأمة الانجليزية كانت مساهمة لكانت ادارة الاحكام أسهل وحلت الجمعيات الكثيرة الكنيسية ولم يبق هناك شقاق حزبي ولا كانت هناك ضرائب ثقيلة لتوصل الناس الى ربهم ، دين المسيح وموسى كان أسهل الأديان ولكن الخلط عقده وجعله سببا في الحروب الصليبية التي مات فيها عشرات الالوف ، لم هذا ؟ لأجل ضريح ظن الناس أن المسيح وضع فيه مدة وجيزة ، إن المتعصبين وهم القسيسون يحكمون على من لم يتبعهم بالهلاك الأبدى * ويقول (غوردون) * انه لم يجد بين المسيحيين إحسانا كالذي رآه عند المسلمين ، ليس في الدنيا ساوى كالتى يجدها من يؤمن بالحقائق لا بمجرد الأقوال *

١٧٣ وقال * الدين المسيحي شرقي وقديم في أوروبا ألفي سنة ولا جرم أن الدين الاسلامي أرقى منه أفلايسوغ أن يحل الثاني محل الأول مع انه شرقي أيضا ، واذا أنارت المسيحية العالم ألفي سنة فلم لا يحل الأسهل منها وهو الاسلام محلها إذ ليس هناك مانع ؟ دين الاسلام يؤيد التوراة والانجيل ويوسع تعاليمهما ، أليس من الجور والظلم أن يحكم قومي على الاسلام وهم لم يدرسوه بل هم لم يفهموا معنى كلمة (اسلام) وكأنهم يرون أن إنارة عقولهم ازعاج لهم ، منذ سنين كنت أقول إن الاسلام يحرم الوثنية والقرآن كلام الله وهكذا الانجيل فلم نترك أحدهما مع انا قبلنا الآخر ؟ أنا مدة حياتي شاكر لله ولكن في السنين الأخيرة زدت انشراحا وأصبحت في طمأنينة عظيمة لاحد لها وأنا سعيد جد سعيد ، ولكم كنت أقول إن تعاليم الكهنوتية لا فائدة منها ولكن أثق بأن الله هو الفاعل المختار ولكن لما قرأت القرآن اطمأنت جدا ، القرآن يعطى الساوى للمتعبين في الحياة وللجنة والخطئين أصحاب الأعمال الشيطانية فهو لاء أيضا لهم أمل في الله رب الجميع ، القرآن يعطى رجاء لسكل تائب من هؤلاء ، تعصب الكنائس الأعمى وتنافسها دمرها ولكن الاسلام لم يفعل ذلك ، منذ سنين طلب بعض الحكام العظام في الشرق أن يبحث عن دين حق فبحثوا ثم قالوا لا نترك ديننا ولواننا شكلنا لجنة لتبحث عن أرقى الأديان لم تجد غير الاسلام ، إن من أعظم النعم أن نعتنق ديننا خاليا من الكهنوتية موافقا للعقل وهو الاسلام ، في الشرق وفي الغرب رجال يعرفون أن الاسلام هو الحق ولا أدري في أى وقت سينشر الله هذه الفكرة للناس أجمعين ، ولعله يكون قريبا ، الكنائس المسيحية يناقض بعضها بعضا مناقضة عظيمة ونعلمو اللاهوت وضعوا التعاليم معقدة وجعلوها تدهش العقول ، الكنائس الثلاثة الرومية والكاثوليكية والبروتستانية كلها طردتني منذ صغرى ولا أدري ما الذى وضع في نفسى عدم الثقة بها في تلك الأيام ، كنت ولا أزال أحتقر ذلك الذى يقف على منصة الخطابة ويحكم على الملايين بالاعدام لأنهم لا يوافقونه طلبت من الله أر بعين سنة ليعرفنى الحقيقة فعلمت بعد ذلك أن هذا الدين من عمل الناس لا من عمل الله ، وأن زيارتى للشرق ملأتني احتراما واعظاما للدين المحمدى الحنيف *

١٧٤ الفصل الثانى * فيما كتبه (الكونت هنرى دى كاسترى) قال * كنت أجوب في جوف الصحارى في ولاية حوران ووراثي ثلاثون فارسا وأمامهم واحد يغني ويمدح في كاتب هذه السطور وكنت أصنى الى مديحهم الذى يدل على الانحطاط النفسى بالأراجيز المحبوبة وسنى ٢٥ سنة وكان اليوم جيلا وبينما أنا في تلك الحال الجميلة إذ سمعت المنشد يقول (سيدى الآن وقت العصر) فرأيتهم حالا نزلوا عن

الخيول واصطفوا لصلاة العصر وقالوا بلسان واحد ﴿الله أكبر﴾ فرأيت ماحولنا كأنه يقول الله أكبر وداخلني إحساس وشعور جيل جدا وخشية ورأيتني محترقا عند هؤلاء الذين يرون أن الله خاص بهم أما أنا فكأنني هناك فكرت في الاسلام إذ رأيت جلاله الفتان ﴿

١٧٥ ﴿أدهشني ظواهر الاسلام ولواني كتبته إذ ذاك لعدني الناس غير محقق ولكنني أكتب الآن بتحقيق إن الكتابين عن الاسلام ﴿فريقان﴾ المستشرقون ومستعربوا الجزائر وكلهم من الافرنج والمستشرقون أغزر علما ، وأنا وان كنت من القسم الثاني أسأل المستشرقين عفواً ، فأنا لست ممن كتبوا من غير إمعان فكر مثل السيو (لوازون) . أنا لست بهذا الكتاب متعصباً للاسلام ولكن الاسلام صار مسألة من المسائل الكبرى شغلت أذهان الباحثين حتى أسست لها مجلة علمية في باريس نجح بها المسلمون وساعدتهم المسيحيون بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيه ، فأنا أريد بهذا الكتاب أن أبين كثيراً من الخطأ في الاعتقاد بالنبي العربي ودينه وهذا الخطأ أملاه التعصب الأعرجي من بعض المسيحيين الذين يقولون عن المسلمين انهم يبغضون المسيحيين مع انهم هم يبغضون المسلمين ﴿

﴿صدق سيدنا محمد ﷺ ، محمد والأغاني المعروفة بأغاني الاشارات ، محمد والتاريخ ، أصل الاعتقاد ، الوحي بالقرآن ، ليس محمد مبتدعاً ، هل كان على الدوام صديقا ، وفاته ﴿

كان لي صديق في تلمسان وكلما بحثنا في الدين قال الله يلد عند المسيحيين ومحمد نبي المسلمين ساحر فلا دين إذن ، هل يعلم المسلمون أقاصيص الأغاني ضد الاسلام في القرون الوسطى وقد كانت سببا في الحروب الصليبية ؟ هل يعلم المسلمون أن تلك الأناشيد فيها دين الاسلام هو عبادة الأصنام وأن لهم ثلاثة آلهة وبعضهم زاد له إلهين والآلهة هم (ماهوم) و (ابلين) و (ترفاجان) و (بافوميد) و (ماهوميد) وهو محمد ، وهل يعلم المسلمون أن تلك الأناشيد تقول ان محمدا جعل نفسه إلهاً ، أفلا يدعشون أن محمدا عدو الأصنام يطلب منهم عبادة نفسه في صورة وثن ، هل يعلمون أن هؤلاء المتعصبين يقولون ﴿إن الإله (ابلين) كان في مغارة ولما انكسر جيش الاسلام سبوه وداسوه بأقدامهم وهشموه . وأما (ماهوم) فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمينه . ثم تاب المسلمون واستغفروا واصطلحوا مع آلهتهم ولذلك كسرتلك الأصنام الأمباطور (كارلوس) في سرقسطه ﴿ . كل ذلك في تلك الأشعار . وقال (ريشار) في أناشيده قوموا ونكسوا صنم ماهوميد الخ وذكر أن صورة ماهوم صنعت من أنفاس الأشجار والمعادن وهناك وصف بديع جدا لتلك الأصنام يظن من سمعها أن الوصف شاهدها عيانا وماهوم هذا كان جوفه خاليا فيرى الضوء من خلاله مرصعا بنفائس الأحجار . ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدة وقد انهزم المسلمون بعث قائدهم فطلب الإله من مكة وحوله الطبل والزمر والغناء والرقص . وقد وضعوا في جوفه عفرية فكام الخليفة . وهذا الصنم جعلوه علامة الدين الاسلامي كما ان الصليب علامة الدين المسيحي

١٧٧ وفي تلك الأناشيد أن المسلمين لما انكسروا أخذوا ينادون تلك الأصنام وهم في هرج ومرج . إن هؤلاء المنشدين لا يعتقدون صحة تلك الأناشيد وانما هؤلاء هم شعراء القرون الوسطى . فأما المؤرخون بعدهم فقد حشوا كتبهم بالأقاصيص الخرافية وان سموا أنفسهم معتدلين . ومن عجب أن البروتستانت أيضا متعصبون على الاسلام يذمونه . انظر الى كتاب (ريلان) و (دون ماتينو) صاحب سراج الكنيسة إذ يقول إن كتاب محمد هزؤ والمسلمين حير وجر وحشية وكسالى وهكذا . ويقول (بروشار) المسلمون فاسقون مفرطون في نسايتهم الخ

١٧٨ إن المسلمين لاهمة لهم إلا اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية ولم يتغير أسلوب المسيحيين إلا سنة ١٧٣٣ م إذ ألف (بريدو) المسيحي سيرة حياة محمد ذى البدع وقال إن غرض الكتاب خدمة الدين المسيحي وكان سلاحه الوحيد الشتم والذم ، وجعل (داماسين) الاسلام بدعة مسيحية ، إن مسألة صدق النبي متفق عليها بين المستشرقين تقريباً ، وهذا ذكر اسماعيل وديانته وانها تلاشت وحل محلها عبادة الأصنام ثم دخلت اليهودية والنصرانية ، وبيان أن النبي ﷺ لم يكتب ولم يقرأ ، وهنا يهجز الباحث عن معرفة المصادر التي عرفت ما جاء في القرآن من الديانات المختلفة ، على أنه لو قرأ تلك الكتب لأقر بالتثليث مع أنه موحد

١٧٩ لما وجد ﷺ الأمم العربية عابدة للأصنام وهناك قوم يعتقدون التثليث وهكذا لزم الخلوة مفكراً في السكون ولما بلغ الأربعين جاءه صوت من الحق ﴿الله أحد﴾ أما الوحى بالقرآن فهو مشكاة لم يحلها أحد من الباحثين ، إن العقل يحار كيف تصدر آيات عن رجل أمى أصغى إليها عقبة بن ربيعة وأقنعت عمر بن الخطاب وأبكت النجاشي . إن فصاحة القرآن لا يعرفها الفرنجى بالترجمة

١٨٠ إن العقل ليدعش كيف تؤثر الفصاحة هذا التأثير وكيف كان يتحدثاهم بسورة وبعشر سور مفتريات . القرآن متمم للكتب قبله فلذلك يذكر بعض ما فيها فهذه وظيفته . القرآن للإنجيل كالانجيل بالنسبة للتوراة . وهنا ذكر الآيات الدالة على أن دين الله واحد . إن النبي ﷺ في أول حياته معتقد بصحة نبوته ولا جرم أن نصره في آخر حياته يثبت هذه العقيدة . لما قهر العرب لم يظهر العظمة ولا اتخذ وزيراً اتنا مهما اجتهدنا فنحن به جاهلون . وقول (ريشار) أنه كان في آخر حياته شاكاً خطأ محض . وكيف لا يكون كذلك وهو باجاع المؤرخين الصادقين قد بقي بحاله إلى الموت فما أضلّ المنشدين من النصارى الذين قالوا إن محمداً قدماء تنهشه الخنازير وهو نشوان وليس عنده نصير ولا معين وأن المسلمين حرموا لحم الخنزير لأجل ذلك

١٨٢ وكيف يقولون ذلك وهو ﷺ لما مرض خطب خطبة قرأ فيها آية - اليوم أكملت لكم دينكم - ثم رجع إلى بيت عائشة وأمرها بتفريق ما عنده من المال للعوزين ثم قال للناس من له على حق فليأخذه وقال - نخزى الدنيا أهون من خزى الآخرة - ومات بمعاودة سم الشاة المسمومة عند اليهودية زينب في خير وصار يقول (يارب أعنى على سكرات الموت)

١٨٣ الاسلام في زمن الفتح لم يكن له من الأنصار سنة ٦٢٤ هـ في واقعة بدر إلا ثلثمائة وأربعة عشر فامضى قرن حتى اجتاز الالب وتوسط البلاد الفرنسية وأسامت الشام والحجم ومصر وبلاد الغرب من مراکش والجزائر وتونس وطرابلس بعد اضطراب شديد وانتشار الدين كانتشار السوائل . وأكبر المعاندين للدين كانوا هم العرب لشدة تمسكهم بعوائدهم . والأب (بروغلى) يقول إن أبابكر وعمر كانا أعقل من القياصرة والحكام فاربوهم وانتصروا عليهم ولما ذهبت دولة العرب بعد قليل بقي الدين معهم

١٨٤ ﴿الفصل الثالث﴾ فيما ذكره العلامة (توماس كارليل) يقول « إن من أكبر العار والسبة على المتتمدين أن يقولوا إن محمداً خداع مزور كذاب . وأنا أعجب كيف يروج الكذب بين الناس إلى هذا الحد ومن عرف علوم الكائنات دهش من هذه الأكاذيب على نبي العرب . وهل يستطيع الرجل الذى يجهل فن البناء أن يبنى بيتاً ؟ كلا . فضلاً عن أنه يدوم (١٢) قرناً ومحمد بيته مضى له (١٣) قرناً يعيش فيه مائة مليون من الأنفس فالو لم يكن هو بناء لانهارت أركانه ١ ما أكذب الذين يكذبونه وما أجهلهم وما كذبهم إلا من قبيل الأوراق المالية المزورة . هل يكون الرجل العظيم كاذباً ؟ كلا . إن الصدق أساسه أن المخلص

لا يتوقف إخلاصه على إرادته هو مبعوث من الأبدية لا يعتبر الاصطلاحات وإنما يسير إلى الحقيقة رأساً
 ١٨٥ الرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا ، بلاد العرب وعرة فيها بعض الرياض فهكذا العربي
 صامت كثيراً وإذا تكلم كان كلامه قليلاً وهو مملوء حكمة ، العربي متدين كاليهودي ولكن العربي
 ذو محمد جة

١٨٦ مات أبو النبي ﷺ عقب مولده وتوفيت أمه بعد (٦) أعوام وكفله جده ثم عمه فصحبه في التجارة
 تارة وفي الحرب أخرى ولم يقابل (بحيرا) إلا وهو صبي صغير فكيف يتعلم منه . صناعة الخط لم تكن في بلاد
 العرب إذ ذاك إلا قليلاً ، إن محمداً ﷺ غنى عن المعلم وعن الخط . هو أمين صادق صامت بشوش الوجه
 ١٨٧ وقد كذب من قال إن محمداً ﷺ يريد الشهرة والمفخرة له وهو الإخلاص كله . يحقر جاليات اليونان
 وأصنام العرب وروايات اليهود المهمة وأوثان العرب والعادات والاصطلاحات . ويحقر تيجان كسرى
 وقيصر وجميع المظاهر

١٨٨ كان يخلو بنفسه في (غار حراء) لينظر في هذا الكون فلما ظهرت له الحقيقة أخبر بها السيدة خديجة وأن
 الله واحد فنتوكل عليه ونسلم الأمر إليه فلم يصادف إلا سخرية من القوم فلم يؤمن به في ثلاثة أعوام
 إلا (١٣) رجلاً ولم ينصره من أسرته حين خطب فيهم إلا على وجع القوم يضحكون ويسخرون من
 رجلين يقومان لإصلاح العالم كله . وفي سنة (١٣) من رسالته تألبوا عليه جميعاً إذ اتفق أن يعون رجلاً
 من جميع القبائل على قتله فرحل إلى المدينة

١٨٩ وهناك لم يجد مناصاً من حربه . ومن زعم أن محمداً نشر دينه بالسيف فقد أخطأ وهل أوجد السيف
 إلا ذلك الرأي الجديد ؟ ولقد فعل (شرلمان) بقبائل السكسون مثل ذلك . إن التصراية أيام ظهور
 الإسلام تصدع الرأس لأحياة فيها إلا قليلاً

١٩٠ هذا الدين حق . جاء محمد وشيع النصارى في جدال وتخطب بالحجج العقيمة فأنازل الوجود وأزال الظلام .
 القرآن معجز أعظم اعجاز ولكن الأوروبي لا يقدر أن يدرك ذلك الاعجاز لأن الترجمة ذهبت برونق القرآن
 القرآن كتاب تشريع في كل زمان ومكان دام (١٢) قرناً . لقد كذب (براديه) وأمثاله إذ يقولون
 إن القرآن أخاديع وتزويق . كانت حياته ﷺ كلها خطوباً في مدة (٢٣) سنة التي بلغ فيها الرسالة
 ومحاربات ومحاورات ومخاصمات داخلاً وخارجاً

١٩١ كان ﷺ يكتفي من المعجزات بالكون فيذكر لهم السحاب المسخر يخرج بصيبه النبات والشجر .
 ويذكر لهم السفن التي تجري في البحر والجبال الشائحات ويقول أنها ستفنى . والله أن العلوم التي يقرؤها
 الناس في العصر الحاضر لتذهب برونق الكون أنها ميتة وهل يذوق لذة جلال هذه الدنيا إلا العابد
 ذلك هو الذي انفتحت بصيرته فعشق الوجود أما العلوم العصرية فهي وحدها ميتة في النفوس . لم يكن
 محمد ﷺ أخاً شهوات وكيف يكون أخاً شهوات من كان عفيفاً قانعاً متقشفاً في كل أطواره . خشن
 اللباس والطعام ساهر الليل عابده يحقر الملك والمال والصولجان مما يتطلع له أصاغر الرجال . عاشر
 القوم نخلب ألبابهم بلطفه . بكى على زيد مولاه برقة وعطف . أنه كان شقيقاً رحيماً . أنى أحب محمداً لأنه
 رجل لا يتصنع . كان ماضى العزم لم يكن عابثاً . أما الرجل الكاذب فهو ذلك الذي قد تضاعل شعاع
 الله المنبعث في روحه فأصبح ظاهراً لينه ولطفه كامناً لؤمه وخبثه . إن نفس المؤمن ترجع بجميع
 دول الأرض

١٩٢ صوت محمد ﷺ صوت الإنسانية كلها وليست اللجنة كلها مادية بل ذكر أن فيها السلام والامن والامن

لا وجود له في الدنيا وهكذا الصفاء وعدم الغلّ وما أجله وفي القرآن عظمة العمل الانساني وأن له أثرا كبيرا بعد الموت وهو حق . كان قابله ملتهبا يتوقد واخلاصه لانظيره . ما أشرف هذا الدين وأعظمه وقد مضى له (١٢٠٠) سنة وخمس العالم الانساني يتبعه ولم تعتصم أمة بدینها كاعتصام المسلمين بالاسلام محمد ﷺ أخرج أمة من العدم أحياءا بعد موتها ، فهل أحياءا بالكذب ؟ كلا . انه حوّل الخول الى نشاط والتفرّق الى اجتماع ولم يمض على رسالته قرن حتى أصبح للعرب رجل في الهند ورجل في الأندلس ، كل ذلك منبعه الايمان ، أفلاترى ذلك شرارة من السماء تأججت واشتعلت بين غرناطة ودلهي انتهى . الكلام على (توماس كارليل) مؤلف هذا الكتاب وانه من (اسكوتلانده) ولد سنة ١٧٩٥ وهنا ﴿ جوهرتان * الأولى ﴾ في ايضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات ﴿ الثانية ﴾ في ثناء المؤلف على الله وتبيان قول (توماس) أن محمدا ﷺ لا يكتب ولا يقرأ وقوله انه لم يتعلم وقوله « إن محمدا ﷺ كان يقول هذا الكون هو المعجزة » وأن هذه الأقوال هي عين آيات القرآن . وبيان أن هؤلاء الغربيين لم تتقيد عقولهم بقشور الاسلام فأمكنهم الوصول الى الحقائق الأصلية بخلاف صغار العلماء من المسلمين الذين غشت على عقولهم العلوم الجزئية وجهلوا السكيات ثم الكلام على شكوى اللورد هيدلي من أكاذيب القسيسين على نبينا ﷺ وأن هذا هو قوله تعالى - اتخذوا أhabارهم - الخ وهنا يحمّد مؤلف التفسير ربه أن هذا الزمن قد ظهرت فيه معاني القرآن واضحة عملا في أوروبا وانه قد نال ما كان يتامسه صغيرا من معرفة نظام العالم ومعرفة وجود خالقه ومعرفة ما تقوله أوروبا في ذلك ومعرفة ما به يرتقى المسلمون

١٩٦ ويقول مؤلف هذا التفسير أيضا انه دهش جدا من أن أوروبا التي بهرت العالم بصناعاتها وعلومها تمشي وراء هؤلاء القسيسين بلا عقل ، وكيف يحرف الكلام عن مواضعه أولئك القسيسون . وكيف عجزوا عن البراهين واكتفوا بدم سيدنا محمد ﷺ والمسلمين مثل قولهم « المحمديون جبر ونبهم يحب النساء والمسلمون مربوطون بحبال الشيطان ونبهم مرتكب الخطايا يحتاج الى من يخلصه لأنه كان دنيويا الخ ودين الاسلام يشجع على الزنا والجنة أصبحت كرخانة » وذلك بأقلام كتاب هؤلاء القسيسين في أمريكا وأوروبا

١٩٩ ثم هنا ذكر (اللورد هيدلي) أن هؤلاء لم يتعلموا مبادئ الدين المسيحي الذي يحقر الكذب فقد كان ﷺ يحتمل الاضطهاد بصبر وثبات وهو في مكة (١٣) سنة لا يخشى أعداءه وهو عفو محسن شجاع كريم . ومن العجب انه عفا عن الذين أرادوا قتله . لقد عاب هؤلاء الكاذبون المسيحيون الاسلام لأجل السلب والنهب اللذين أتت بهما القبائل المتوحشة . إذن فلتعجب المسيحية على محاكم التفتيش التي يرفضها الدين المسيحي . إن قوة أخلاق الرجل تظهر في المحن ومن لم تصادفه المحن فمن أين تظهر أخلاقه ؟ هل يمكنك أن تعلم الصبر إلا اذا أوديت فصبرت . لا فضائل إلا أثناء المحن . إن محمدا كرامة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقى . كان ﷺ شديد الغيرة على دين الله فكسر الأصنام وقاوم عبادتها مع شدة صلابه العرب وتمسكهم بعبادة آلهتهم

٢٠١ ما أشهر محمد السلاح إلا عند الحاجة القصوى - لا اكراه في الدين -

﴿ تذكرة ﴾ يقول المؤلف لا بد من الصراحة وقول الحق وخطب المسلمين والفرنجة . أما المسلمون فانه يقول لهم « هاهم أولاء كتاب أوروبا نظروا الى الاسلام من حيث جوهره ولم تنفعهم المسائل الجزئية ولا المذاهب المختلفة كالشيعة وأهل السنة ولذلك قالوا ان جوهره هي علوم الطبيعة والفلك وجميع الموجودات

إن هنرى وكارليل يقولان مايقوله الفزالى وابن رشد بخلاف أكثر المسلمين الذين تعادوا لأجل أمور جزئية كقتل الحسين رضى الله عنه الذى كان سببا فى كره جهالة الشيعة لأهل السنة والعكس وكان لذلك أثر فى السياسة العامة . إن المسلم أشبه بالمحبوس فى مكان فيه نور ضئيل بعد القرون الأولى وفلاسفة أوروبا نظروه فى ضوء الشمس وقد قابلهم قراء هذا التفسير . ولقد حبس الاوروبيون فى دين عتيق أكل الدهر عليه وشرب ودحضه عظماءهم . إذن أهل الشرق وأهل الغرب قتلهم التقاليد . هذا من جهة الدين . أما السياسة فهامهم الى الآن لم يقوموا بما يجب فيها وكتابى (أين الانسان) شاهد بذلك ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى - وكأين من دابة لاتحمل رزقها - الخ

٢٠٣ بيان أن عجائب الحيوان ذكرت فى أمثال (آل عمران) وغيرها ولنبين هنا أن سعادة الانسان موقوفة على العلم . أوليس من المدهش أن يرى الانسان الجرذان قبيل هطول الامطار بمدة قريبة تعود من أوكارها على ضفاف النهر الى أوكارها فى القرية فهى أشبه بميزان للطقس . وهكذا الفأر فى البيت قبل أن ينقض عليه بزمن يسير يفرّ حالا (انظر شكل ٢٢) والجل فى الصحراء يمرغ رأسه قبيل هبوب العواصف حيث لا علامة تدل عليه وبعض السمك قبل أن يطفى النهر لا يأكل لعله أن غذاءه سيحضر مع الفيضان القريب والطيور تعرف حال الطقس قبل تغيره كالوعول والأرانب إذ تكون السماء صافية فتتحدرون من الجبال وبعد يوم واحد يظهر السحاب والمطر . وفى (شكل ٢٣) صورة نوع الأوز الذى يرحل من المنطقة قبل اشتداد الشتاء

٢٠٥ (شكل ٢٤) صورة انحدار الوعول من أعلى الجبال . خطاب المؤلف لله يقول انه سكن الأرض وأهلها يتقاتلون ويبحث عن الحقيقة فوجد أن أكثر الناس فى شهواتهم مشغولون وهم متقاطعون وفى أثناء ذلك يظهر أناس يعرفون آثار جبالك ويسخرون من الزخرف ويعجبون من لطفك بالجرذان وعطفك على الأرانب البرية والوعول وهذه المزايا لا يعرفها الجهلاء . أما المفكرون فى أمثال هذا فلا سعادة إلا لهم بل هم فى جنة العلم والعرفان فى هذه الحياة . ولقد رأى قاضى (صوهاج) الحيات والعقارب تفرّ مسرعة قبل فتح التربة الصوهاجية بساعات وأخبره أهل البلدة أن هذه دأبها كل سنة . ولاجرم أن هذه الحشرات والزواحف لاتعلم بالمستقبل إلا ما كان لعمومها أما ما يخص أحدها فلا بدليل قتلنا للحيات وصيدنا للطيور . وقد يعلم الانسان مستقبل نفسه فى التنويم المغناطيسى وإنما حرم من هذا العلم عادة لأنه يغرى بالكسل فجهل المستقبل يحثا على العلم والعمل

٢٠٧ (لطيفة) فى قوله تعالى - وان الدار الآخرة لهى الحيوان - الخ وحكاية وزير مصرى قال للمؤلف « إن مذهب الذنوء والارتقاء به تمتعنا بالقصور والعظمة والمال أما الآخرة والجنة ونحوها فلا . وحكاية مدرس عظيم اشترى أرضا كان فى فقره يجلس تحت شجرها فلما اشتراها فى كبره فرح بها وغنى وهو مخطئ فى فرحه وهكذا رجلان فلاحان كل منهما فرح بما عنده ملابس أو أنعام او حبوب

٢٠٨ ﴿ خاتمة السورة ﴾ خطاب العنكبوت للمفكرين فى الاسلام تقول « إنكم تحرقون الطوب لتبنوا وتزرعوا لتأكلوا وتلبسوا أما أنا فساكنى وما كنى بسبب هذه الخيوط فمنها مراكبى فى البحر ومناطيدى فى الجو وشبكة صيدى فى الأشجار . فهذا مخزن من مخازن الله تعالى وقد طرت فى الجو فقلدنى أهل أوروبا أما أنتم فانكم فى آيات ربكم لاتفكرون »

صحیح مسلم

جمع

إمام الأئمة الحفاظ . وعلم المحدثين الأفذاذ

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري
الكتاب أشهر من أن يوصف . محتوي على نيف وسبعة آلاف حديث
صحيحة في غاية الثقة والاتقان

وهو الصحيح الوحيد الذي تلقته الحفظة المحدثون بالقبول وأذعنت له
العلماء الفحول وعليه مدار الصحيح في المعقول والمنقول
لذلك تهافت العلماء على شرحه ودرسه لما فيه من الفوائد الجمة . كيف
لا وهو كلام سيد الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم
وقد طبع عدة طبعات مختلفة . وبالنظر لتهافت المسلمين على اقتنائه
أصبحت نسخه أثرا بعد عين

وقد طبع أخيرا طبعة مصححة بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف
على ورق جيد وحرف جميل بأشهر المطابع المصرية مذكورا بها الأبواب
في صلب الكتاب (لأول مرة) وعليه شرح وجيز حل المشكل من ألفاظه
انتخب من شرح الإمام النووي والأبي والسنوسي وغيرهم من الشراح
المشهورة بمعرفة لجنة من العلماء برآسة العلامة المرحوم الشيخ محمد ذهني
رحمه الله . وهو في مجلدين